سلسلة الرسائل الجامعية

٣

الأمل والرجاء في القرآن الكريم

دِراسةٌ موضوعِيَّةٌ

تأليفُ الدكتور

مُنْجِد محمَّد رضوان أحمد أبوبكر

دار النوادر اللبنانية


الأمل والرجاء
في
القرآن الكريم
دراسة موضوعية

دار النوادر اللبنانية

المؤسس والمالك

نور الدين طالب

شركة ثقافية علمية تُعنى بالتراث العربي والإسلامي والدراسات الأكاديمية والجامعية المتخصصة بالعلوم الشرعية واللغوية والإنسانية تأسست في بيروت سنة 1428هـ - 2008 م.

لبنان - بيروت - كورنيش المزرعة:

ص. ب: 14/4462

009611652528

009611652529

dar.alnawader

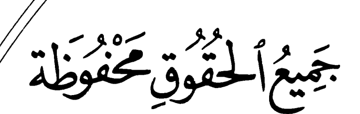
t.daralnawader.com

f.daralnawader.com

y.daralnawader.com

i.daralnawader.com

L.daralnawader.com



الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

ردمك: ٧ - ٢٣ - ٤٨٢ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ :ISBN

9789933482237

E_mail: info@daralnawader.com

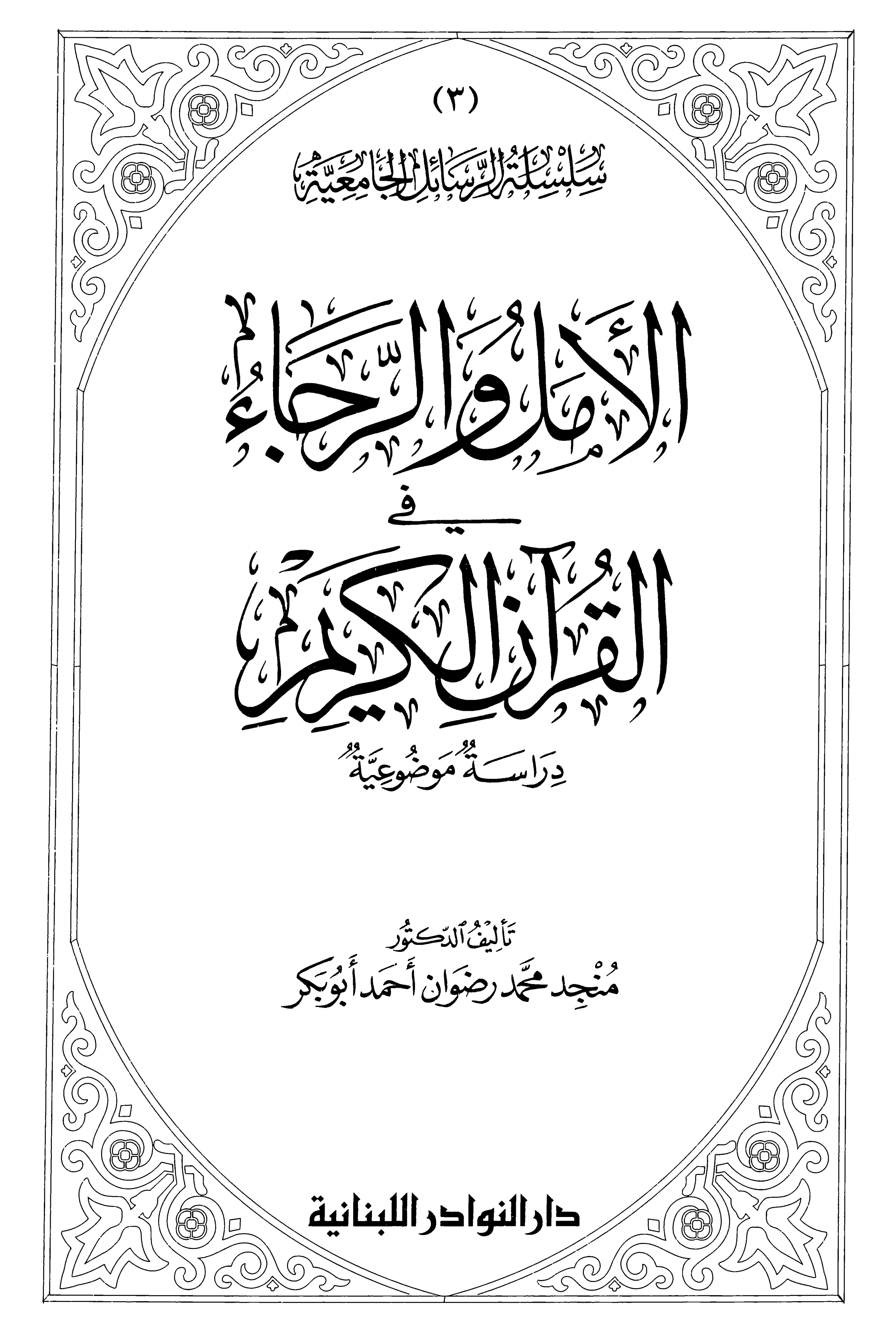
Website: www.daralnawader.com

شركات شقيقة

دار النوادر - سوريا - دمشق - الحلبوني: ص. ب: 34306 - هاتف: 2227001 - فاكس: 2227011 (0096311)

دار النوادر الكويتية - الكويت - ص. ب: 1008 - هاتف: 22453232 - فاكس: 22453323 (00965)

دار النوادر التونسية - تونس - ص. ب: 106 (أريانة) - هاتف: 70725546 - فاكس: 70725547 (00216)



(٣)

سلسلة الرسائل الجامعية

الأمل والرجاء في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

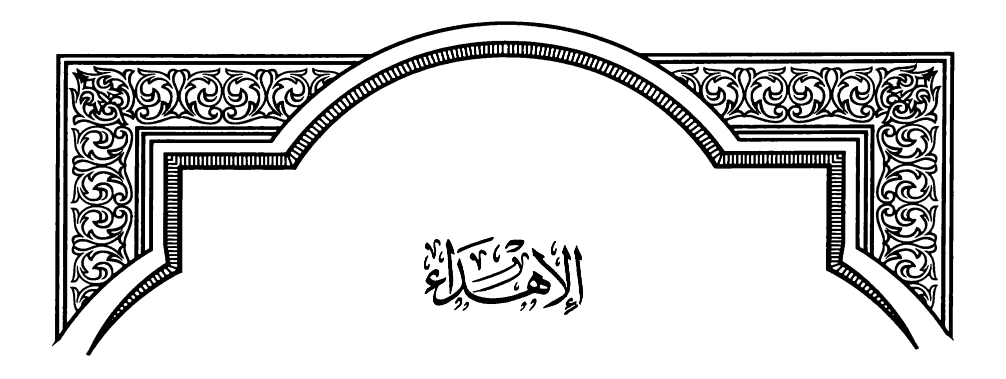
تأليف الدكتور

منجد محمد رضوان أحمد أبوبكر

دار النوادر اللبنانية



أصل هذا الكتاب أطروحة علمية تقدم بها المؤلف إلى جامعة اليرموك، الأردن، كلية أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، بإشراف أ. د. عبدالله السوالمة، وناقشها أ. د. محمد خازر المجالي، وأ. د. محمد العمري، وأ. د. محمد سرحان، ود. يحيى شطناوي، وحاز بها المؤلف درجة الدكتوراه، برتبة امتياز مع مرتبة الشرف، وذلك في ١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م



* أهدي هذه الرسالة إلى العيون التي أُغمضت قبل أن تتفتح عيوني. . .

الوالد الكريم رحمه الله تعالى

* إلى العيون التي رعتني بجفونها حتى اشتدت يداي وأدركت عيوني. . .

أمي الغالية حفظها الله تعالى

* إلى العيون التي سهرت بلا ضجر ولا كلل، تصاحب بكل حب عيوني. . .

زوجتي العزيزة حفظها الله تعالى

* إلى العيون التي هي عندي حبات العيونِ.

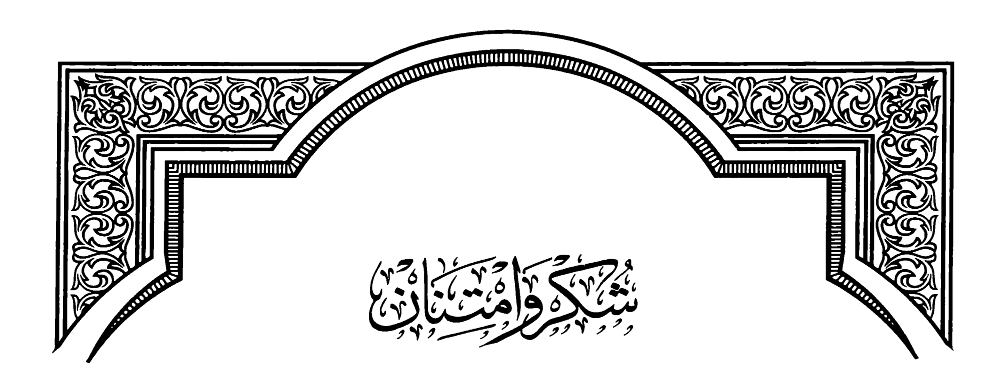
إخواني وابنتي حفظهم الله تعالى

* وأهديها إلى أساتذتي ومشايخي الذين تكرموا عليَّ بكل نصح وعطاء.
* وزملائي الذين شاركوني أيام التحصيل، وصبروا على الكدِّ والعناء.

أهديها إلى كل مسلم ينظر إلى الغد

عسى أن ينظر بعين الأمل والرجاء

❐❐❐



شكر وامتنان

أتقدم بين يدي الرسالة وقبل الشروع بالكلام بجزيل الشكر وعظيم الاحترام إلى فضيلة الأستاذ الدكتور عبدالله السوالمة حفظه الله ونفع به. . .

فقد رعاني بجميل توجيهاته، ودقيق إرشاداته، وخالص دعواته، حتى خرج العمل على صورته النهائية. فالله أسأل أن يجزيه عني وعن طلبة العلم خير الجزاء، وأن يعظم له الأجر والعطاء.

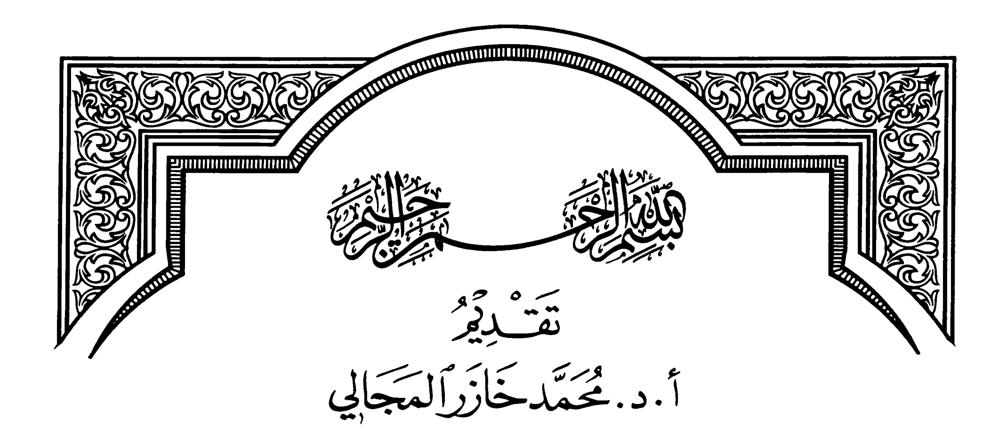
كما أتقدم بالشكر الصميم إلى فضيلة الدكتور محمد الجمل حفظه الله وأتم عليه النعم. . .

على ما بذل من جهد موصول في إعانتي على إعداد خطة الدراسة، ولما أحاطني به من التسديد والتقويم، فضلاً عن دماثة خلقه، وروعة أدبه، وجميل تواضعه.

وأتقدم بالشكر إلى الأساتذة العلماء أعضاء لجنة المناقشة، الذين سأغتبط بملاحظاتهم وتوجيهاتهم، وأرعاها حق رعايتها بما من شأنه أن يصوب العمل؛ لتخرج الرسالة على أتمِّ ما يمكن أن تكون.

وأشكر كذلك كل من أعانني على إخراج الرسالة بصورتها النهائية، سواء كان طباعة أم تدقيقًا أم توجيهًا أم نصحًا أم دعاءً، فجزى الله الجميع خير الجزاء.

❏❏❏



تقديم

أ. د. محمد خازر المجالي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على حبيبنا محمد، وآله وصحبه ومن سار على دربه إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فيشرفني ويسعدني أن أكتب هذه السطور افتتاحية لكتاب ابننا وأخينا الدكتور منجد «محمد رضوان» أحمد أبو بكر، وأصله تلك الرسالة الرائعة التي تشرفت بمناقشتها مع مجموعة من علماء الأردن ومصر في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك، والتي هي بعنوان: «الأمل والرجاء في القرآن الكريم»، ويعلم الله كم كنت فخوراً بالمادة العلمية للرسالة، ودقتها، وشمولها، وقدرة الباحث على تجلية الأمور وربطها في سياقاتها وأدلتها، كم كان الباحث واثقاً من نفسه لدرجة الحديث بطلاقة حول أية معلومة في الرسالة، استشعرت حينها أن ابننا منجد قد هضم المادة العلمية كلها، بل أبدع فيها وأخرجا في صورة مرضية طيبة، لعلها تضم إلى المكتبة القرآنية، فتضيف لبنة جميلة في هذا البنيان الرائع المكرم بتكريم القرآن له، ولا أتردد في وصف رسالة ابننا منجد على أنها من خيرة الرسائل التي ناقشتها في رحلتي العلمية الأكاديمية، وأرجو أن لا أكون مبالغاً في نظرتي، فزملائي في المناقشة شاركوني الشعور نفسه.

كيف لا أمدح الكتاب أو الرسالة وهي تمس أهم ما يشغل بال الإنسان عموماً والمسلم خصوصاً، وهو يبدأ نهاره كل يوم في أمل جديد ورجاء بأن يكون على

صراط ربه يرجو رحمته، وهو يتطلع إلى غد مشرق لأمته، أن يراها عزيزة قوية صاحبة شأن وتقدم وحضارة، وفي الوقت نفسه لا ينفك عنه الخوف من شيء ما، ينبغي أن نستشعره شئنا أم أبينا، فالمؤمن يخشى على نفسه عدم قبول أعماله، يخشى النفاق، يخشى التقصير، ولكن يبقى الأمل في نفوسنا ما دام أحدنا مع الله، ولن يضيع الله عبداً له آمن به وصدقه وسار على صراطه.

لقد طوف بنا الدكتور منجد فتطرق إلى معظم ما له علاقة بالأمل والرجاء، وجاء بالتطبيقات التي تزيدنا أملاً ورجاءً، خاصة في عصر يغلب عليه جانب التشاؤم واليأس عند شريحة كبيرة من الناس، سواء على صعيد حياتهم اليومية الاجتماعية والأسرية والاقتصادية، أو في الجانب السياسي المعقد الذي صرنا في ظله أمة مهمشة مستذلة، حتى في الجانب العلمي أصبحنا تبعاً بعد أن كنا قادة، ولكن الأمل بالله عظيم، والرجاء فيه أعظم من أنه لن يضيع هذه الأمة، ولن يتركها ما دمنا معه سبحانه، صحيح إن الأيام دول، ولكننا ندرك أن ما أصابنا ويصيبنا هو من عند أنفسنا، تماماً كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، ولا بد مع هذا الأمل وهذا الرجاء والثقة بنصر الله أو تحقيق أي مأمول من سعي وأخذ بالأسباب وتغيير في المنهج، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، ومن هنا فمن أهم معالم الأمل والرجاء في استشعار معية الله واستجلاب رضوانه وتأييده أن نغير ما بأنفسنا إلى الأصلح، وإنّ استعراضاً سريعاً للقرآن في الحديث عن هذه الأمة يعطينا الصورة الواضحة بأن هذه الأمة لا تنتصر إلا بجهد أبنائها وبناتها، بدعم من الله تعالى، ولكن لا بد من البدء، وبعده يكون التأييد من الله، وما سورة الأنفال في شأن بدر عنا ببعيدة، لتصور حال المستضعفين الذين توكلوا على الله، كيف آل أمرهم بعد سنتين من الهجرة نصراً لم يكن متوقعاً، لكنه الله، لكنها إرادته سبحانه وتأييده، لكنه الأمل والرجاء الذي

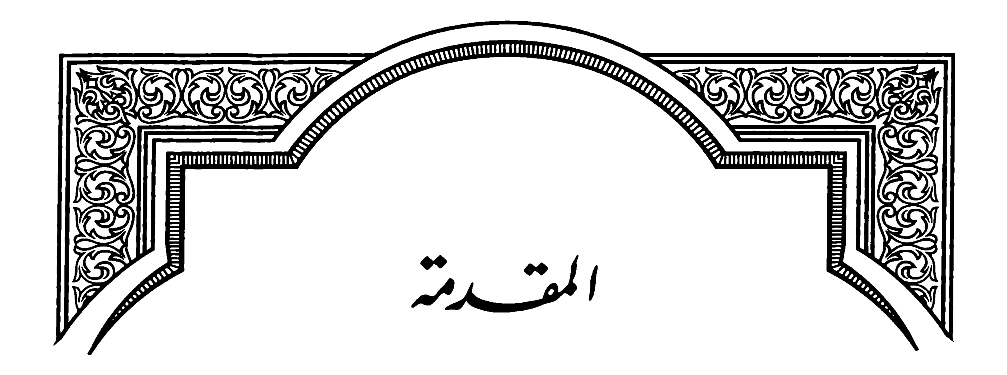
ينتابنا في شأننا ما دمنا مع الله تعالى.

إن هذا الكتاب غني بمادته، سلس في منهجه، دقيق في استدلالاته، عميق في معانيه وأهدافه، راق في أسلوبه، عذب في مباحثه، متكامل في جوانبه، مكمّل لجهود من سبقه، وبهذا أقول للدكتور منجد: قد اصطفاك الله فارساً من فرسان القرآن، لتكون أحد علماء التفسير، فاحفظ العهد مع الله، وكن عند حسن ظن أهلك ومشايخك فيك، موفياً لحق أمتك عليك، واصلاً لأهل العلم من مشايخ وطلبة علم، اجعل القرآن بستان صدرك، واعمل لرفع الأمة به وانقيادها له، لتكون وراء القرآن يقودها القرآن وهو إمامها وأمامَها إلى جنات النعيم في الآخرة، وعز الدنيا والآخرة، فأنت اليوم يا دكتور منجد من أهل العلم المطلوبين، والعلماء ورثة الأنبياء، وهم الموقعون عن رب العالمين، وهم أهل التواضع والغيرة والمسؤولية، واعلم أن الأمة بحاجة إلى أمثالك لتكون من الصالحين المصلحين، لتكون من قادتها في رفع مستواها الفكري والإيماني والإصلاحي.

أسأل الله تعالى لك مزيداً من التوفيق والفلاح، وأن يجعل عملك هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع بك الإسلام والمسلمين، آمين.

أ.د. محمد خازر المجالي

❑❑❑



المقدمة

* **التمهيد:**

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فإنَّ للقرآن الكريم آثارًا بارزةً في نفوس المؤمنين به، والتالين له، ولا شك أن من أعظم هذه الآثار ما يبعثه هذا الكتاب العزيز في النفس الإنسانية من طمأنينة ورضا، وما يلهمه من أمل ورجاء: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[الرعد: ٢٨].

فالمؤمن الحق مطمئن القلب، هادئ البال لا تستبد به النفس، ولا يستسلم لوساوس اليأس مهما اشتدت به الخطوب، أو تداعت النوازل، بل يتعامل مع صروف الدهر وتقلباته بنفس مطمئنة؛ لأنه يعلم أن هذا الكون لا يقع فيه شيء إلا بقدر من الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[القمر: ٤٩]، ولأنه يعلم أن الخير من تحت قدر الله وفي باطنه، وإن لم يظهر له في أول الشأن، فليست كل نعم الله ظاهرة، بل منها الباطن الذي لا يتجلى إلا بعد حين: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾[لقمان: ٢٠].

ولأنه يعلم أن حكم الله نافذ، وأمره كائن، وقد تواترت الآيات في تحقيق هذا المعنى وبيانه: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ

لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وكان من دعاء نبينا ﷺ: «اللهم إنِّي عبدك وابن عبدك وابن أمتك ماض فِيَّ حكمك عدل فِيَّ قضاؤك»[1]. وقضاء الله على عباده يجري وفق سنن لا تتخلف في نظام هذا الكون، ومَنْ أَحْسَن فقه هذه السنن، ورعاها حق رعايتها، تفتحت أمامه آفاق الرجاء والأمل الفسيح، ومن هذه السنن سنة التداول كما أرشدنا تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، فأحوال البشر في هذه الحياة لا تستقر على حال واحد، بل صعود وهبوط، وفقر وغنى، وعافية ومرض، ونصر وهزيمة، وحياة وموت.

والقرآن الكريم حينما يقرر هذه الحقيقة لا يذكرها مجردة، وإنما يعرف لها الأدلة، ويضرب لها الأمثال حتى تكون يقيناً عند الموحدين لا يتطرق إليها شك، أو يمازجها ريب، فكم من مكروب نجَّاه الله، وكم من مريض شفاه الله، وكم من ضال هداه الله، وكم من عائل أغناه الله، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾[الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤]، وقال: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾[الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[الصافات: ١١٤ ـ ١١٦]، وقال تعالى عن نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند، مسند عبدالله بن مسعود ﷺ: (٨/ ٦٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (١/ ٣٨٣).

قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾[القمر: ١٠ ـ ١٣].

وما يقال في حق الأنبياء الأفراد في هذا الباب، ينطبق على الأمم والجماعات، وقد قص علينا القرآن الكريم أخبار الأولين، وذكر لنا أحوال الأمم السابقة، وكيف استضعفها الطواغيت وساموها سوء العذاب، واستعبدوا شعوبها أيّما استعباد، ولكن ببركة الرسل والرسالات، وما طبع الله الكون عليه من قوانين وسنن تتفاعل مع مَنْ أحسن فهمها، أذن الله لهذه الأمم أن تنهض من كبوتها وضعفها، وما هي إلا سنوات حتى استيقظت وقوي سلطانها، واستبحر عمرانها، ومن هذه الأمم بني إسرائيل، فلقد استضعفهم فرعون وقتل أبناءهم واستحيا نساءهم، ثم ما لبثوا أن أحاطهم الله بمنته، وأدركهم بعنايته ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف: ١٣٧].

إنَّ القرآن الكريم يقصُ علينا هذه القصص؛ حتى نعتبر بسردها، ومن أعظم هذه العبر الثقة بالله تعالى، والبراءة إليه من اليأس والقنوط، تمامًا كما فهم سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[الحجر: ٥٦]، وكذلك سبطه يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧].

وإذا كان هذا اليأس مذمومًا في كل موقف؛ لأنه ينافي الدين ويعطل نظام الحياة، فإن أسوأ ما في هذا اليأس أن يتحول من حالة فردية تنحصر في آحاد الناس، إلى حالة جماعية تصاب بها الأمة، فتنهار قواها وينفرط عقدها، وواقع المسلمين اليوم يشهد أن الأمة تمر بمرحلة صعبة جدًا، دبَّ فيها اليأس واستحكم، حتى انقطع رجاء كثير من المصلحين في الإصلاح، واستسلمت الأمة في غالبها حكامًا

ومحكومين، ودعاة ومدعوين لهذا الحال النكد، ولعل هذه الحالة الشعورية الحرجة أشد فتكًا، وأكبر مصيبة من الانهزام في ميدان المعركة أمام علوج الكفر وصناديده، فلقد تكررت في التاريخ حالات النـصر والهزيمة لهذه الأمة في ساحات القتال، وأثبتت التجـارب الإنسانية أن الهزيمة في ميدان المعركة على مرارتها أهون على الأمم من أن تنهزم في تصوراتها ومقومات وجودها وبقائها، وأهون عليها من أن تستسلم للمنعطفات، وأنْ تظنَّ أنَّ هذه هي نهاية المطاف وقاصمة الظهر، ولذلك جاءت آيات القرآن الكريم تنهى الجماعة المسلمة عن الوهن والشعور بالضعف حتى في أشد أوقات التراجع والانكسار، وغزوة أحد خير شاهد ومثال على أن تحرير الأفراد والأمم من اليأس هو البداية الصحيحة للتغيير، والخطوة الأولى في طريق النصر، والجماعة التي تتربى على الثقة بالغيب وتنظر إلى المستقبل بتفاؤل واستبشار، قادرة بتوفيق من الله أن تحـول مجرى التاريخ، فتجـعل من الهـزيمة نصرًا، ومن الضعف قوّة، ومن الشتات اجتماعًا، وهذا ما قذفه رسول الله ﷺ في نفس أصحابه من اللحظات الأولى في طريق الدعوة: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه»[1]. وما أحوج الأمة في هذه المراحل إلى مثـل هذا التعـزيز، وبثِّ الأمـل في جوانحها لتؤمن بإمكان التغيير، واقتراب النصر، وإشراق المستقبل لهذه الأمة وهذا الدين: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الروم: ٤ ـ ٥].

لكل هذه المعاني السابقة جاءت هذه الدراسة؛ محاولة للإسهام في بيان جانب

---

(١) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ)، سنن أبي داوود، باب في الراكب يكره على الكفر: (٢/ ٢٤٣)، وصححـه الألباني في صحيح وضعيف أبـي داوود: (٦/ ١٤٩).

من جوانب عظمة القرآن الكريم، ودوره الفاعل في صناعة الحياة والإنسان، والتأسيس للخير، وإصلاح الفساد، وبناء الكون، جاءت هذه الدراسة على نمط الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم؛ لبيان دوره في انتشال الجنس البشري من كل صور الضعف والخور، عبر بوابة الأمل والرجاء الحميدين.

وبالمرور بالكثير من آيات الكتاب الحكيم تجد إشراقات الأمل الراشد وصناعة الرجاء الحميد، وبالمقابل التحذير من ضدهما، وتجد سمات كل نوع ومقوماته وبواعثه، وكذلك العلاقة الظاهرة مع سنن الكون والدين، وتطالع أيضًا أمثلة متكاثرة على كلٍ تؤكده التأكيد الذي لا يقبل النقض أو الخلاف، ولعلنا سنصل إلى نتيجةٍ أنها تشكل نظرية الأمل والرجاء في القرآن الكريم، وكل هذا سيبان حين نستعرض الدراسة التالية إن شاء الله تعالى.

ولابد من الإشارة إلى بعض الملاحظات المنهجية التي التزمتها في الدراسة، وهي كما يأتي:

- أني قد سلكت المنهجية القائمة على الاستقراء والاستقصاء، ثم التحليل والمقارنة، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، متجنبًا من النصوص ما يمكن أن يكون محلاً للخلاف وتقليب النظر من حيث إشارتها للموضوع، أو ما دلالتها عليه مشكلة وفيها كلفة، غير زاعم أني أحطت بالموضوع؛ فإني لا أزال في مرحلة التعلم والطلب، سائلاً الله التوفيق والسداد، وراجيًا من أساتذتي التوجيه والإرشاد.

- الأمثلة المسوقة في تقاسيم الدراسة، يصلح الكثير منها في أكثر من موضع، غير أنَّ القرآن الكريم غني بالأمثلة، مما أغنى الباحث عن التكرار في مواطن الاستشهاد المختلفة، مع الإشارة إلى أن هذه القاعدة قد تخلَّفت في مواضع قليلة للضرورة.

- قمت بالتوسع في سرد الأمثلة والنماذج والتعليق عليها بما رأيته يخدم

البحث العلمي؛ لأنَّ البحث بكرٌ ولابد من رفده بكل ما من شأنه أن يثبت أهميته، كما أنه لا يخلو شاهدٌ أو أنموذج من إشارات جديدة ومفيدة، بالإضافة للتوسع في الجانب الفكري التطبيقي، بما تمليه ضرورات البحث والموضوع، كما أنها كانت توصية ملحة من أساتذتي في قسم التفسير في الجامعة؛ حتى تخرج الدراسة على نحو يحقق فائدة للباحث أولاً، ثم لكل المعتنين بالدراسات القرآنية المعاصرة.

- بالنسبة إلى الآيات الكريمة، فقد خُرجت في متن الدراسة، بأن تُذكر السورة التي وردت فيها الآيات المسوقة، إما متبوعةً برقم الآية، أو أن تشير له الآيات كما هو في المصحف المطبوع، معتمدًا نسخة المدينة المنورة.

- أما الأحاديث الشريفة، فقد خُرجت في هوامش الصفحات، فإن كان الحديث من مرويات الشيخين أو أحدهما، اكتُفي بذكره، وإن كان في غير ذلك من كتب السنة أُحيل إلى أشهر الكتب التي خرجته - على طريقة أهل الحديث - مع الإشارة إلى درجة الحديث، وحكم العلماء عليه.

- كذلك تم التعريف بالأعلام التي رأيت الحاجة إلى التعريف بها، أما ما لا يحتاج إلى ذلك، فلم أعرض له، لأن تعريف المعرف مما ليس له فائدة كبيرة، فيحسن تركه.

- بالنسبة للمراجع والمصادر التي نقلت عنها في الدراسة، فقد ذكرتها في الهامش، معرفًا بكل كتاب ومؤلفه عند أول مرة يرد فيها، بالإضافة لذكر الجزء والصفحة، ثم اكتفيت في تكرارات ذكره التالية باسم المؤلف ثم اسم الكتاب مختصرًا، مع الإشارة للجزء والصفحة، معتمدًا في كثير من الأحيان على ترتيب الموسوعة الشاملة، مع التوثق من دقة المعلومة من ذات المراجع والمصادر.

- وضعت في آخر الدراسة فهرس المراجع والمصادر بحسب ترتيب الحروف، وتلاه فهرس الموضوعات، ولم أفرد فهارس للآيات والأحاديث الواردة في الدراسة

لكثرتـها، وتخففًا؛ لكي لا يدرج في الدراسة العشرات من الصفحات الإضافية، لفائدة حسيرة.

هذا، وقد قسمت موضوعات دراستي إلى أربعة فصول، تلي المقدمة، أما المقدمة فقد احتوت ـ بعد هذا التمهيد ـ على عنوانين:

الأول: متعلق بأهداف الدراسة.

الثاني: أشرت فيه إلى الدراسات السابقة، مقارناً بينها وبين دراستي.

أما الفصول فمقسمة إلى مباحث، وهي كذلك ـ غالبًا ـ مقسمة إلى مطالب، ويتفرع عنها شيءٌ من الفروع، ويتفرع عن الفروع نقاط متعددة، وأذكر هنا الفصول والمباحث والمطالب، تاركًا للقارئ الكريم الاطلاع على ما يلي هذه التقاسيم في صفحات الدراسة، وهي كما يأتي:

* **الفصل الأول ـ الأمل والرجـاء في اللغـة العربيـة وفي السياق القرآني وبعض المصطلحات ذات العلاقة، وفيه:**

- **التمهيد.**
- **المبحث الأول**: الأمل والرجاء في اللسان العربي.
- **المبحث الثاني**: الأمل والرجاء في السياق القرآني.
- **المبحث الثالث**: أهم الكلـمات ذوات الصلة بمفهوم الأمل والرجاء في القرآن الكريم ومنها:

أولاً: (الأمنية).

ثانيًا: (الود).

ثالثًا: (الطمع).

رابعًا: (الإرادة).

خامسًا: (الرغبة).

* **الفصل الثاني ـ أنواع الأمل والرجاء وبيان المقومات، دراسة قرآنية وفيه:**

ـ التمهيد.

ـ المبحث الأول: الأمل والرجاء المحمودان ومقوماتهما، وفيه ستة مقومات.

ـ المبحث الثاني: الأمل والرجاء المذمومان ومقوماتهما.

وينقسمان لثلاثة أقسام:

أولاً ـ الاتكالي، وله أربعة مقومات.

ثانيًا ـ الاندفاعي، وله ثلاثة مقومات.

ثالثًا ـ العبثي، وله مقومان.

* **الفصل الثالث ـ بواعث الأمل والرجاء في القرآن الكريم وارتباطهما بالسنن الكونية والتشريعية، دراسة لبعض السنن، وفيه:**

ـ التمهيد.

ـ المبحث الأول: بواعث الأمل والرجاء في القرآن الكريم، وفيه ستة بواعث.

ـ المبحث الثاني: ارتباط الأمل والرجاء بالسنن الكونية والتشريعية، دراسة لخمس سنن.

* **الفصل الرابع: آثار الأمل والرجاء في حياة الإنسان وبعض التطبيقات العملية في القرآن الكريم، وفيه:**

ـ التمهيد.

ـ المبحث الأول: أثار الأمل والرجاء في حياة الإنسان، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار المحمودة، وفيه خمسة آثار.

المطلب الثاني: الآثار المذمومة، وفيه خمسة آثار.

- **المبحث الثاني**: الأمل والرجاء، دراسة تطبيقية، وفيه:

- التمهيد.

المطلب الأول: القسم المحمود، وفيه أربعة نماذج.

المطلب الثاني: القسم المذموم، فيه أربعة نماذج.

ثم ختمت هذه الفصول والمباحث بالخاتمة، التي نبه الباحث فيها إلى أهم نتائج بحثه.

هذا، وأسأل الله الكريم، رب العرش الكريم، أن يوردني على جنابه العظيم وقد نفعني ما كتبتُ، واحتَسَبَه لي في صالح الأعمال، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، والله أسأل أن يتولاني وأساتذتي ومشايخي، ومن لهم فضل عليَّ، وسائر أمة محمد ﷺ وهو بمنه وكرمه يتولى الصالحين.

منجد محمد رضوان أحمد أبو بكر

كلية أصول الدين ـ جامعة اليرموك في إربد/ الأردن

٢٠١٠ ـ ٢٠١١م





١ ـ تقديم رؤية قرآنية واضحة لمفهوم الأمل والرجاء من خلال الدراسة الموضوعية، وليس مجرد دراسة مصطلحية، وبيان المساحة الكبيرة لهما في كتاب الله تعالى، وكذلك الأهمية الإيمانية، والتربوية، والدعوية، والاجتماعية، والتي واكبت حركة التاريخ، وظهرت في حياة الأنبياء والأمم، في شتى الأعصار والأمصار.

٢ ـ ترسيخ عقيدة الأمل بالله تعالى، والرجاء وحسن الظن به، في منظومة الشخصية الإسلامية، وطرد القنوط واليأس من حياة المسلمين.

٣ ـ تنوير العقل المسلم ـ وفي هذه الظروف بالذات ـ باستحقاقات خلافته في الأرض، وقيامه بواجباته نحو دينه العظيم، وذلك من خلال تصحيح مفهوم الأمل والرجاء في حياته.

٤ ـ بيان المقومات اللازمة للأمل والرجاء، والتي بها يمكن أن نفرق بين المحمود والمذموم منهما.

٥ ـ تحذير المسلم من الأمل والرجاء المذمومين، والاتكالية المقيتة، وبيان بواعث المحمود منهما وكذلك المذموم، وتوضيح السنن الكونية والشرعية ذات الصلة بهما.

٦ ـ بيان الأثر العظيم للأمل والرجاء في حياة المسلم، فضلاً عن الإنسان في مطلقه، مع التمثيل من وقائع القرآن الكريم وقصصه وأخباره.

٧ ـ إثراء التفسير الموضوعي، ورفده بمزيد من الدراسات الهادفة، التي تعزز مكانته وترسخ أسسه.

* * *

*** الدراسات السابقة:**

بعد البحث المعمق والنظر في كل ما يشير إلى الدراسات والأبحاث السابقة ـ مما استطعت الوقوف عليه ـ وما يكشف عما كُتب فيه، والرجوع إلى أساتذتي في جامعة اليرموك وخارجها، وجدت أن موضوع بحثي لا يزال بكرًا، فلم أجد بحثًا، أو رسالة علمية، تتعلق بالموضوع بصورة مباشرة، بل ولا توجد أي دراسة قرآنية لموضوع الأمل والرجاء، وهذا مما يجعل لهذه الدراسة أهمية أكبر، كما أن الذي وجدته من دراسات لمسألة الأمل والرجاء، كان يفتقر للتأصيل القرآني والمنهجي، فلقد كانت الدراسات تطبيقية، فبعضها حديثية، وبعضها فكرية، وبعضها فلسفية، وسأعرض فيما يلي أهم الدراسات مرتبة بحسب صلتها بموضوعي، وهي كما يلي:

١ ـ بحث بعنوان: (اليأس والأمل وأثرهما في بعث الحياة الإسلامية):

وهو للدكتور فايز عبد الفتاح أحمد أبو عمير، أستاذ الحديث المشارك في جامعة جرش/ الأردن، والبحث يقع في تسع عشرة صفحة، بالتوصيات والخاتمة والمراجع. وفكرة البحث قائمة على سؤالين: الأول: هل هناك أملٌ؟ والثاني: ما العمل؟.

وبدأ بالإجابة عن السؤال الأول بثلاث نقاط: الأولى: تحريم اليأس والإحباط في القرآن الكريم والسنة المطهرة، واستشهد بعدد من الآيات والأحاديث. الثانية: أن القرآن الكريم والسنة المطهرة يُذَكِّران بانتصارات الأمم الضعيفة، وضرب مثالاً انتصار بني إسرائيل على فرعون، وتمكين الله لهم بعد الذل والهوان الذي أذاقهم

إياه. الثالثة: أن نصوص القرآن والسنة تؤكدان أن النصر لهذا الدين، واستشهد بنصوص منهما، وبأقوال وكتابات عدد من المفكرين.

أما في إجابته عن التساؤل الثاني فبدأ حديثه بذكر شرطين لعودة الأمة لسالف مجدها، أما الأول: وجوب العمل لاستئناف الحياة الإسلامية. والثاني: وجود مشروع النهضة الإسلامية الحديثة.

ثم بيَّن أن العمل الذي يقصد لا بد له من ثلاث مواصفات: الأولى: أن يكون جماعيًا. والثانية: أن يكون على منهج النبي ﷺ في تأسيس دولته. والثالثة: أن يكون فيه تجديد وابتكار. ويلاحظ على البحث الاعتماد على الحديث الشريف غالبًا، كما أن الدراسة تعلقت بمسألة النصر والتمكين للأمة فقط، ولم تستغرق الأمل بكل ما يتعلق به من مسائل وتفصيلات.

إننا إذا شئنا تصنيف هذا البحث فهو من الدراسات الحديثية الفكرية؛ ذلك أن المساحة التي خصصها الباحث للأحاديث الشريفة تبلغ أربعة أضعاف مساحة النصوص القرآنية ـ وهذا ما ينسجم مع تخصص الباحث ـ بالإضافة لكثرة النقول عن بعض المفكرين والدعاة، كما أن الآيات الكريمة التي ذكرها لم تستوف حقها من التحليل والدراسة، ويُعذر الباحث في هذا لطبيعة بحثه.

أما الإضافة عليه في بحثي، فهي التأصيل للأمل والرجاء من القرآن الكريم، وبيان أنواعه والتطبيقات عليه من القصص القرآني، وعلاقته بالسنن الكونية، وأهمية الأمل في صناعة النفس الإنسانية المستقرة، والحديث عن بواعث الأمل في المجتمع المسلم، ثم أقسام الأمل وآثاره، والمرجع الأول لدراستي هو القرآن الكريم، وهذا بحسب غاية الدراسة، لذا فالبعد كبيرٌ بين الدراستين، والأولى لا تمنع من الثانية، بل لعلها مقدمةٌ وتوطئةٌ لدراستي، وتثبت أهميتها وأنها أهلٌ للبحث والدراسة.

٢ ـ رسالة علمية بعنوان: (التفاؤل والتشاؤم في القرآن الكريم):

وهي رسالةٌ لنسيمة بنت قاري عبد القادر، في كلية التربية قسم علم النفس في جامعة أم القرى بمكة المكرمة في العام (١٤٢٥هـ)، وموضوع البحث هو التفاؤل والتشاؤم وأثرهما على التحصيل العلمي والنفسي والاجتماعي لدى الطالبات، وليس للدراسة صلة بالدراسات القرآنية إلا في عنوان واحد، وهو: (التفاؤل والتشاؤم في الدين الإسلامي)، وذكرت فيه الباحثة خمس آياتٍ فقط تحت عنوان: (التوكل على الله تعالى)، وكانت في معرض تعداد طرق معالجة التشاؤم والتطير، بالإضافة إلى ذكرها لعدد من الأحاديث الشريفة.

العجيب في الأمر أن الباحثة وسمت دراستها بأنها قرآنية، وأنها محددة في إطاره، وهذا ما يدل عليه عنوان رسالتها، غير أن واقع الأمر يؤكد غير هذا تمامًا، لذا لن أطيل النَّفَسَ في استعراضها لسعة البعد بين دراستها ودراستي، إلا من جهة العنوان فقط، ولقد آثرت الإشارة إليها؛ لأن عنوانها يوهم الصلة القوية بموضوع بحثي.

وهاتان الدراستان هما فقط ما يمكن أن يدخل في إطار الدراسات السابقة، غير أني مع مزيد البحث وجدت عددًا من المؤلفات لها صلة بموضوع دراستي، ولو من جانب، وبصورة من الصور، فآثرت أن أكتبها من باب الأمانة العلمية؛ وليظهر الفرق بينها وبين بحثي؛ ولبيان الجديد الذي لأجله كانت دراستي، ولئلا يظن أن دراستي تكرار لجهود السالفين، وبذا يظهر قدر الحاجة لها، وجعلتها تحت عنوان:

(الملحق بالدراسات السابقة) ورتبتها بحسب قربها من موضوعي، وهي على النحو التالي:

* **الملحق بالدراسات السابقة:**

٣ ـ كتاب (الإيمان والحياة) ليوسف القرضاوي:

وهو كتابٌ من ثلاثمائة وثمانين صفحة، نشرته مكتبة (وهبة) في مصر عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف، جعله المؤلف في مقدمة وأربعة أبواب على النحو التالي: الأول: الإيمان الذي نريد. الثاني: أثر الإيمان في حياة الفرد. الثالث: الإيمان في حياة المجتمع. الرابع: بين العلم والإيمان. والذي يهمنا هو الباب الثاني حيث جعل الأمل من آثار الإيمان، وجاء هذا المطلب (الأمل) في عشر صفحاتٍ، تحدث في أوله عن أهمية الأمل في تحقيق السكينة والسعادة، ثم تلازم اليأس والكفر، ثم بيَّن أن الإيمان يلد الأمل، وختم بضرورة الأمل للحياة.

لقد كان الكلام موجزًا ولا يفي بمتطلبات البحث، ولا يغطي المسألة، وتحدث عن جانبٍ واحدٍ من الأمل، وهو المحمود، ولم يذكر السلبي، ولم يتحدث عن بواعث الأمل في النفس، ولم يكن هناك نماذجُ تطبيقية، ولم يتطرق للسنن الكونية وصلتها بالأمل.

وأهم ما يظهر الفرق بين دراستي وهذا المطلب أنه لم يُعنَ بالدراسة القرآنية، بل كان في مجمله فكريًا، ولم يقم بدراسة النصوص القرآنية وتحليلها، ولم يكن مستوعبًا لها، إلا النزر اليسير منها، والدراسة الموضوعية غير هذا تمامًا، وهو ما الباحث بصدده.

أقول: بحث العلاّمة القرضاوي يؤكد أهمية الكتابة في مثل هذا الموضوع، ولعل دراسته مفتاحٌ للدراسات من بعده، وأسأل الله أن يوفقني لأكون السابق لدراسة الأمل في القرآن الكريم بصورةٍ تستغرق الموضوع على نحوٍ يشفي ويكفي.

٤ ـ كتاب (تحليلٌ فلسفيٌ لمشكلة الأمل) لحسن حمّاد، أستاذ الفلسفة في جامعة الزقازيق/ قسم الآداب:

كتابٌ نشر عام ستة وتسعين وتسعمائة وألف، يقع في مائةٍ وأربع صفحات، تحدث فيه المؤلف عن الأمل من الجانب الفلسفي، وبدأ بالأسطورة اليونانية (هدية باندورا)، وبيّن أن الحياة تستحيل بغير الأمل، ثم بين أن الأمل يكون على مستوياتٍ في الإنسان؛ فأقله الأمل الغريزي: وهو الذي يشكل لدى الإنسان الدافعية للحياة، وهذا المستوى يقع في اللاشعور عند الإنسان.

أما المستوى الثاني: فهو الذي يرتبط باصطناع الأهداف في الحياة، والتي تتناسب مع الواقع والإمكانات المتاحة، وهذا النوع من الأمل يكون بحسب هموم البشر، ورغباتهم وطموحاتهم، ويبدأ من الرغبة بامتلاك الأشياء، وينتهي عند الحصول على السعادة.

أما المستوى الثالث: فهو يتجاوز الواقع، ويعلو على المصالح الذاتية ويقصد نفع الإنسانية كلها.

ثم تحدث في الفصل الثاني عن الانتظار وعلاقته بالأمل، وأنه قسمان: انتظار قائمٌ على أسس منطقية وهو الإيجابي، وانتظارٌ سلبيٌ ليس له رصيد من المنطق والحكمة.

ثم تحدث في الفصل الثالث عن الأمل والفن والفلسفة والأيديولوجيا، وبيّن أن الأمل وسيلة خلاص الإنسانية من كل ما فيها من إشكالات.

ورجع في الفصل الرابع تحت عنوان: (ضلال العقل) إلى الحديث عن الأساطير اليونانية وخرج من خلالها إلى أن الأمل هو أساس الحياة وأن إنجازات الغد هي آمال وأحلام اليوم، وأنه لا يجوز الحجر على العقول ومنع الأحلام

والآمال. وكان كثير النقل عن المفكرين الغربيين مثل (فرويد) و(هربرت ماركيوز) و(ألفريد أدلر) و(إريك فروم) و(بيساريف) وغيرهم، وكان له وقفة طويلة مع كتاب (مشروع الأمل) (لروجيه جارودي).

إن عنوان الكتاب يظهر البعد بينه وبين أطروحتي، فإن بحثه دراسة فلسفية فكرية، مرتكزة على الكتابات الغربية وآراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين، ولا تمت للدراسات الإسلامية بصلة فضلاً عن الدراسات القرآنية، إلا أن هذا لا يمنع من وجود اتفاقات بين محتويات الكتاب والنظرة القرآنية للأمل، ولعل دراستي ستكون تأصيلاً قرآنيًا لبعض تلك الأفكار، وخلو المكتبة الإسلامية من دراسة قرآنية لمثل هذا الموضوع هو من أهم الدوافع لدراستي، والله المستعان.

٥ ـ كتاب (مشروع الأمل) لروجيه جارودي:

كتاب يقع في مائة وست وثلاثين صفحة، طبع عام سبعة وسبعين وتسعمائة وألف، ويريد منه المؤلف أن تتجاوز الأمة حدود الظلام الراهن إلى عالم أفضل، يريد من خلاله قلب الواقع، ويقول: إنه لا يمكن أن نعتمد على أي شكل من أشكال الحتمية التاريخية، وهي التي تجعل التاريخ خارج الفاعلية البشرية ويصفها.

(باللاهوتية المُعَلمَنة)؛ أي: لاهوتية في ثياب عَلمانية، يقول: إنَّ الإيمان بحرية الإنسان وبقدرته على صناعة المستقبل، هو المقدمة الضرورية لتصور أيِّ سيناريو لمشروع الأمل، ويؤكد على ضرورة الإيمان بحريتنا، وبشرف تحمل مسؤولية مصيرنا، وانتقد (جارودي) النظام الرأسمالي والاشتراكي، وأكد على عدم صلاحيتهما للبقاء والخلود، وبيَّن ما فيهما من سلبيات تتعارض مع مشروع الأمل بأبعاده الفردية والجماعية.

وتقوم فكرة الكتاب على أن الإنسان هو صانع المستقبل، لذا لم يخرج من

كتابه بنتائج محددة؛ ليترك المجال لكل إنسان أن يصنع مستقبله بنفسه. يريد (جارودي) خلق إنسان متعدد الأبعاد، بدلاً من الإنسان ذي البعد الواحد، الذي استسلم لواقع الحياة، والذي تحول إلى آلة، لا همَّ له سوى الإنتاج والاستهلاك.

هو أيضًا كتاب فكري صرف، ويعبر عن الرأي الإسلامي في كثير من الأحيان لكن بطريقته الخاصة، فهو تطبيق لمفهوم الأمل في واقع الناس، ودراستي نظرية وتطبيقية، وفيها تأصيل للأمل، ولبيان الأسبقية القرآنية، وعلويته كذلك على كل المناهج الأخرى.

٦ ـ كتاب (المبشرات بانتصار الإسلام) ليوسف القرضاوي:

كتاب نشر في عام ستة وتسعين وتسعمائة وألف، ويقع في مائتي صفحة من القطع الصغير، وهو عبارة عن محاضرة ألقاها الدكتور (يوسف القرضاوي) في عمان/ الأردن، قبل نشر الكتاب بثلاثة أعوام، تحدث فيه عن مبشرات انتصار الأمة الإسلامية من القرآن الكريم، وسرد جملة من الآيات مع شرح موجز لها، مع ذكره لبعض قَصَصِ الأنبياء وكيف أن الله رد عنهم كيد الذين كفروا، ثم تحدث عن المبشرات من السنة الشريفة، وذكر الأحاديث التي تشير إلى انتشار الإسلام وفتح روميا، وبلوغ الدين للمشرق والمغرب، وعودة الخلافة، والانتصار على اليهود، ونزول المسيح وظهور المهدي، وغيرها، ثم تحدث عن مبشرات من التاريخ وبدأ بحروب الردة، والحروب الصليبية، وحروب التتار.

ثم تحدث عن مبشرات من الواقع، كالصحوة الإسلامية، واستمرار حركة التجديد، وبيَّن القوى التي تملكها الأمة الإسلامية، وتحدث كذلك عن سُنَّةِ التداول، وسنة التغيير، ودلالتهما على أن المستقبل للإسلام.

ثم ختم ببيان بعض الأحاديث التي أساء الناس فهمها مثل: «بدأ الإسلام

غريبًا وسيعود غريبًا»[١] وحديث: «خير أمتي قرني»[٢].

يوجد تقاطع بين بحثي وهذا الكتاب، غير أن هذا الكتاب يعتبر تطبيقًا للنظرية التي أريد أن أرسي قواعدها من خلال بحثي (الأمل والرجاء) وما يتعلق به من أمور ذكرتها في تعليقي على الدراسات السابقة، ثم إن الكتاب لم يكن متخصصًا بالدراسات القرآنية، بل كانت المساحة الأضيق في البحث هي تلكم التي جعلها الأستاذ للدراسة القرآنية، وأسهب في الدراسة الحديثية والفكرية.

أما دراستي فستتركز على الدراسة القرآنية؛ لإثبات أن الأمل وجميع ما يتعلق به من محددات، وسمات، وواجبات، ومحذورات، ورد في كتاب الله تعالى، وأما مسألة النصر والتمكين للإسلام، فستكون مطلبًا في بحثي؛ لتكون مثالاً على علاقة الأمل بالسنن الكونية والشرعية. فلا تعارض بين بحثي ودراسة الأستاذ القرضاوي حفظه الله تعالى.

٧ ـ كتاب (المستقبل لهذا الدين) لسيد قطب:

كتاب فكري تمامًا، قليل الرجوع للنص القرآني، أو الاستشهاد به، بدأ حديثه عن خصائص هذا الدين، وكيف أنها مصدر القلق لخصومه؛ لأنها تحمل في طياتها أسباب البقاء والهيمنة والقيادة، وأن البشرية مهما حاولت أن تصنع تشريعًا بشريًا وتجارب إنسانية، ستظل تدور في حلقة مفرغة، حلقة التصور البشري والتجربة البشرية، والخبرة البشرية المشوبة بالجهل، والنقص، والضعف، والهوى. ثم تحدث

---

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، الجامع المسند الصحيح، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا: (١/ ٣٥٠).

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح، باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ: (٣/ ٤٨١).

عن الدين بشكل عام، والارتباط الوثيق بين النظام الاجتماعي والتصور الاعتقادي في كل أمة من الأمم، وبين الدين والحياة عند هؤلاء القوم، وهو ما عبر عنه (قطب) بعنوان طويل هو (الفِصام النكد) وأخذ يضرب أمثلة من الأمم السابقة اليونانية والفارسية والهندية وغيرهم.

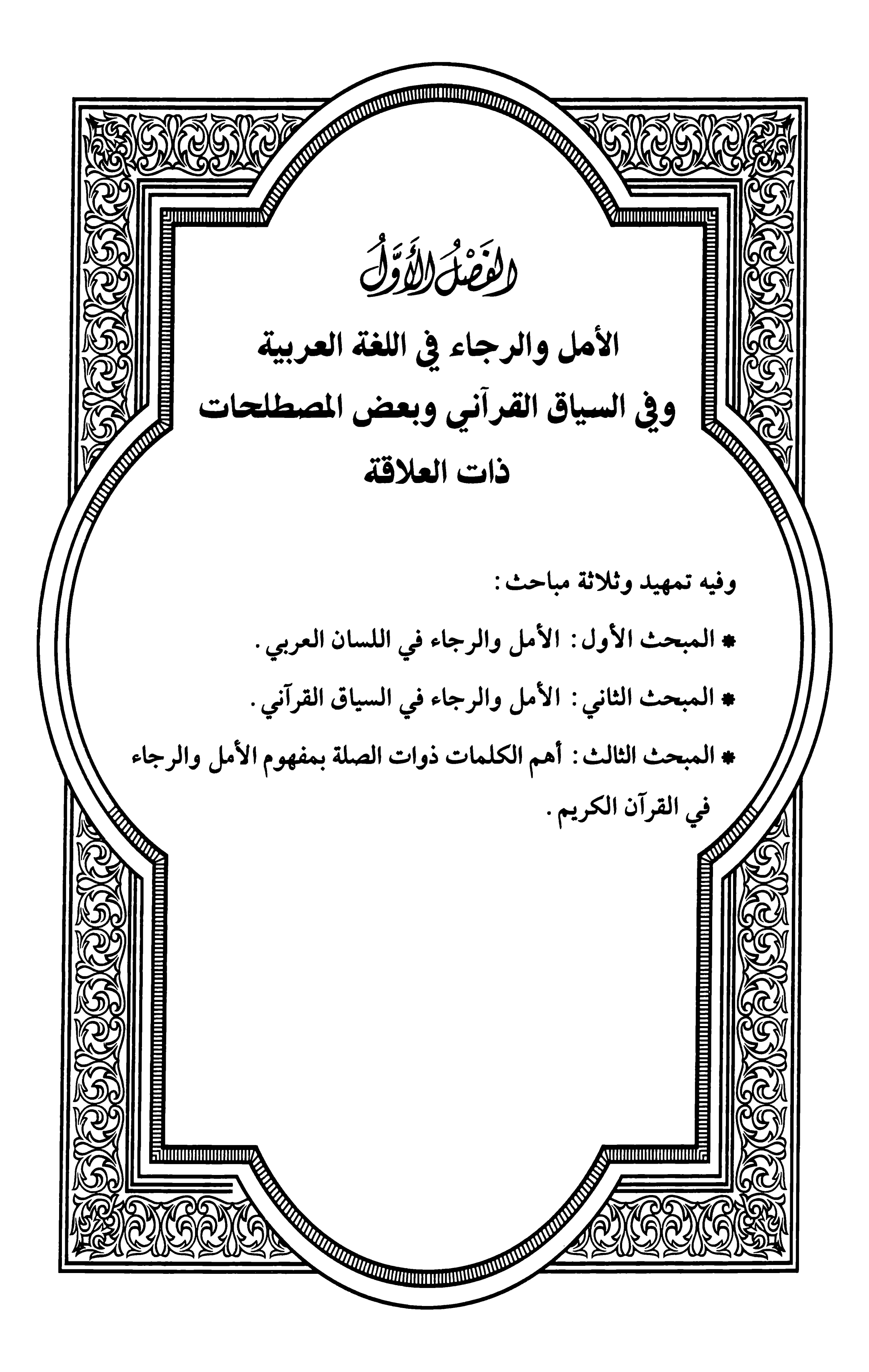
واستشهد تحت عنوان (صيحات الخطر) بما كتبه الدكتور (أليكسس كارل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) على زوال الحضارة المادية، والخطر الواقع على الجنس البشري من جراء الاعتداء على القوانين الطبيعية، وكذلك استشهد بما كتبه الدكتور (المستر دالاس) الذي يرى أنه لا مخرج سوى الرجوع للدين، والتخلص من الأعباء التي تعاني منها البشرية، والذي يؤكد على أن الدين ليس مجرد خادم للإنسان يستخدمه كيف شاء، ووقتما شاء، بل الدين هو السيد المهيمن المطاع، وعلى الإنسان أن يخضع له في كل شأنه. وبعد هذا الاستعراض يظهر أن هذا الكتاب وإن كان يحمل في طياته الأمل لهذه الأمة إلا أنه في غاية البعد عن دراستي.

إن كتاب الأستاذ (سيد قطب) ـ رحمه الله تعالى ـ يعتبر تطبيقًا لفكرة الأمل، أما دراستي فهي التأصيل لها، كما أن كتابه اقتصر على الجانب الفكري فقط، حيث بيَّن أن الإسلام بخصائصه هو الدين الوحيد القادر على قيادة العالم، وأن المناهج الوضعية عاجزة عن القيام بالمهمة، أما أطروحتي فهي في إطار الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم، لذا ستعتمد على الاستقصاء والتحليل والمقارنة، حيث سأحصي مرات ورود كلمة الأمل في القرآن الكريم وكذلك الرجاء، وما يدل على قريب من معناهما، بالإضافة للسياقات القرآنية التي تدل على معناهما صراحة أو إشارة لأستخرج من بعد سماتَ الأمل، وخصائصه، وأنواعه، وفوائده، وبواعثه، على أنها لن تخلو

من الجانب الفكري كذلك، وعليه فالفرق بعيد بين الدراستين، لكن مما يجب أن نقرره من هذه الدراسة أهمية موضوع الأمل والرجاء وضرورة البحث فيه.

والله المستعان وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى

❐ ❐ ❐

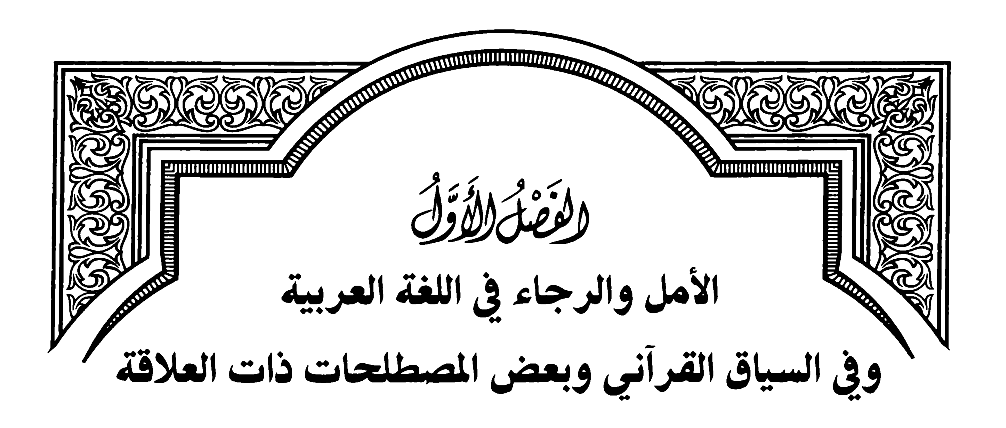


الفَصْلُ الأَوَّلُ

الأمل والرجاء في اللغة العربية وفي السياق القرآني وبعض المصطلحات ذات العلاقة

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث :

* المبحث الأول : الأمل والرجاء في اللسان العربي .
* المبحث الثاني : الأمل والرجاء في السياق القرآني .
* المبحث الثالث : أهم الكلمات ذوات الصلة بمفهوم الأمل والرجاء في القرآن الكريم .



الفصل الأول

الأمل والرجاء في اللغة العربية وفي السياق القرآني وبعض المصطلحات ذات العلاقة

التمهيد

لقد تنزل القرآن الكريم باللغة العربية، فكان رفعةً لقدرها، وتعظيمًا لشأنها، فليست اللغة في نفسها مُعجزةً، وليس لها عظمة ذاتية تتفوق بها على غيرها من اللغات[1]، وإنما بلغَتْ الذي بلغَتْ يوم شرَّفها الله تعالى فاختارها وعاءً لكلامه الكريم، ولم تكن اللغةُ التي ينطق بها العرب لِتسعَ القرآن الكريم لو ظلَّت بحدود خصائصها وطبيعتها قبل تَنَزُّله؛ لأن لغة العرب على قدر إمكاناتهم، أما القرآنُ العظيم فصورةٌ لعظمة الله تعالى، ومن صفاته المُعظمةِ الأزليةِ، فيوم تنزل القرآن أضاف للغة العربية عظمةً انعكاسًا لعظمته الذاتية، ولو قدَّر الله أنْ ينزل القرآن بلغة أُخرى لانتقلت العظمة للغة النازل بها، وانسحب بساط العظمة من تحت العربية، وعليه فاللغة هي التي شَرُفَتْ بالقرآن، وارتفع قدرها، وهو الذي أعطاها خصائص إضافيةً لم تكن تملكها، فمثلاً كانت العربية إما شعرًا أو نثرًا، وعلى هذين النوعين اقتصر كلام أبلغ البلغاء، فنزل القرآن على صورة جديدة، لم يكن العرب الأقحاح يعرفونها بل وخارج محيط إدراك اللغةِ نفسِها، فلم تكن لتَستَوعِبَها، كما أن القرآن

---

(١) ولئن كانت العرب تفخر بمعلقاتها وميراثها الأدبي فإن لغيرهم ما يفخرون به فالسومريون يعتزون بملحمة جلجامش لشين نيقي، واليونان يقدسون الإلياذة والأوديسة لهوميروس، والرومان يحتفون بالإنياذة لفيرجيل وعند الهنود المهابهراتا، والشاهنامة أعرق الملاحم عند الفرس، وكل حزب بما لديهم فرحون.

أضاف مبتكراتٍ في التركيب، ودلالة الألفاظ، فأخرج اللغة عن حدود قدرتها الطبيعية حتى صارت معجزةً.

إنَّ العصا التي كانت في يد موسى ـ عليه السلام ـ كسائر الخشب، ليس لها خصائص تميزها، سوى أنها للاتكاء والهشِّ، حتى كانت تجليات أقدار الله التي جعلتها حيةً تسعى، فصارت معجزة الكليم ـ عليه السلام ـ. كذلك العربية في أصلها لغة من اللغات المحكية، لا تتفوق على غيرها إلا ربما بقدر، لكنه ـ يقيناً ـ لا يبلغ بها حدَّ استيعاب كلام الله تعالى، حتى نزل القرآن فمنحها العظمةَ والإعجاز بحدود صلتها به فقط، أما عند عزلها عن كلام الله تعالى ترجع لغة من اللغات، كما أنَّ أنبياء الله تعالى بغير الوحي والاصطفاء بشر من البشر، وإلا فلو قلنا إنَّ اللغة العربية لها خصائص ذاتية عظيمة، وهي التي كانت السبب في اختيار الله لها لتكون وعاءً لكتابه، وبغير هذه الخصائص لا تظهر معجزة القرآن، إذًا فإننا نُفقد القرآن قيمته الإعجازية، وعندها يكون الفضل للغة على القرآن وللعصا على موسى وليس العكس.

إنني إذ أبدأ بهذا التمهيد فلأنَّ الفصل الأول يُعنى بالمباحث اللغوية، فأردتُ أنْ أُبيِّن أنني عندما أرجع للعربية في بيان المعاني القرآنية فإنه ليس لأنَّ اللغة هي الأصل والقرآن متفرع عنها، بل لأن حدود مدركات البشر لا تملك فهم كلام الله تعالى ـ بقدر ـ إلا من خلال هذه اللغة، وإن كانت دائرة عظمة القرآن أوسع منها بكثير، وكما أنَّنا لا نملك تصور الله جلَّ في علاه؛ لأنه لا تدركه الأبصار ولا الأفهام، فإننا نلجأ لمعرفته عن طريق التفكر في خلقه، ونجعل من مُكَوَناتِه سبيلاً موصلاً لمعرفة بعض الحقائق عن صفاته وأسمائه، فكذلك اللغة العربية سبيلاً لإدراك بعض أسرار وأنوار القرآن الكريم، ولا يمكن أن تستوعبها، وصدق الله العظيم: ﴿قُل لَّوْ كَانَ

ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

سندرس في هذا الفصل الأمل والرجاء في اللسان العربي، ثم في السياق القرآني؛ لنستظهر دلالة اللفظين بصورة دقيقة، مع التأكيد على عدم الترادف بين اللفظين، غير أنني سأُعبر كثيرًا بأحدهما قاصدًا الآخر معه، فالقاسم المشترك بينهما كبيرٌ جدًا كما سيظهر لاحقًا، ثم سنعرض لبعض الألفاظ ذات الدلالة القريبة منهما، ومن مفهومهما، مستلهمين المعاني من اللغة العربية والسياق القرآني.

* * *



المبحث الأوَّل

الأمل والرجاء في اللسان العربي

أولاً - الأمل في اللسان العربي:

قال ابن فارس: الهمزة والميم واللام: أصلان، الأول: التثبتُ والانتظارُ والثاني الحبلُ من الرملِ

فأما الأول: فقال الخليل: الأمل: الرجاء فنقول أمَّلته أو أمله تأميلاً، وهذا فيه بعض الانتظار.

وقال أيضًا: التأمل التثبت في النظر. قال المرار:

تأمــل مــا تقــولُ وكنــت قِــدْمًا قطاميـــًا تأملـــه قلـــيل[1]

والأصل الثاني: قال الخليل: الأَمِيل: حبل من الرمل معتزل معظم الرمل والجمع أُمُلٌ[2]. اهـ. وأضاف صاحب (اللسان) على ما سبق: أن الأمل هو الرجاء وجمعه آمال، ويقال ما أطول إِمْلَتَه، وإنه لطويل الإمْلة، أي التأميل. والأميل: فعيل حبل من الرمل معتزل عن معظمه على تقدير ميل، والأميل هو ما ارتفع من الرمل[3]. اهـ. وقال الزبيدي: الأمل عند ابن جني الرجاء، وفرَّق بينهما فقهاء اللغة، قال المناوي: الأمل توقع حصول الشيء، وأكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله،

---

(١) القطامي: الصقر وهو مكتف بنظرة واحدة.

(٢) ابن فارس، أبو الحسين أحمد (ت٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة: (١/ ١٤٣).

(٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت٧١١هـ)، لسان العرب مادة (أمل): (٢/ ٧٥).

فمن عزم على سفر إلى بلد بعيد يقول: أَمَّلتُ ولا يقول طمعت إلا إن اقترب منها، فإن الطمع ليس إلا في القريب، والرجاء بين الأمل والطمع[١]. اهـ.

وقال الفيروزأبادي: الأَمَلَة: أعوان الرجل[٢]. اهـ.

وذكر الصاحب بن عباد: أنَّ الثامن من الخيل في الحلبة يدعى المُؤَمَّل[٣]. وخالفه ابن الجواليقي فقال: المؤمل هو السابع في الحلبة، فالأول المجلي، والثاني المصلي، ثم المسلي، ثم العاطف، ثم المرتاح، ثم الحظي، ثم المؤمل. وهذه السبعة لها حظوظ، والتي لا حظوظ لها: اللطيم، ثم الوغد، ثم السكيت. ونظمها مسلمة بن عبد المطلب في قصيدة بيَّن فيها هذه الأسماء[٤]. اهـ.

وبعد هذا الاستعراض للمعجمات العربية، وكتب اللغة، نخلص إلى أن مادة (أمل) تدل على جملة من المعاني، لا تخلو من وشـائج وروابط، ترجع بها إلى الأصل الذي تدل عليه المادة، ومنها ما ذكره الزبيدي، فقال: ما ذهب إليه الراغب أن الأمل: هو ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة. وقال آخر: هو تعلق القلب بمحصول محبوب مستقبلاً.

وعبَّر غيرهما بقوله: الأمل يقال لما في القلب مما يُنَال من الخير، ويكون فيما يُسْتبعد حصوله[٥]. اهـ.

---

(١) الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس: (١/ ٣٧٦).

(٢) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، القاموس المحيط (٣٠/ ٥٢).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن الجواليقي، أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن (ت٥٤٠هـ)، شرح أدب الكتاب: (ص٣٢١).

(٥) الزبيدي، تاج العروس: (١/ ٣٧٦).

وسنجد عند تعقب المعاني التي تخرج إليها المشتقات من مادة (أمل)، أنها تدور في ذات الفلك، ولا تبعد كثيرًا. ولقد وجدنا أنها تخرج إلى خمسة معاني:

أولها: الرجاء. وهو المعنى الأكثر تبادرًا لها، وعليه اتفاق غالب أصحاب هذا الفن، وإن كان بين اللفظين اختلاف يسير كما بيَّنه الزبيدي والعسكري، إلا أنَّ وجوه التوافق أكثر.

ثانيها: التثبت والانتظار. فالمتثبت في أموره والصبور أوشك أن يبلغ ما يأمله، والرجاء والأمل فيهما معنى الانتظار كما سلف.

ثالثها: المتنحي من الرمل والمرتفع. وفي هذه الالتفاتة تنقير وإبداع من صاحب اللسان، فالأميل: المرتفع من الرمل، والأمل في غالبه طلب للرفعة والترجي لبلوغ حال أحسن.

رابعها: الأَمَلَة وهم أعوان الرجل. والأصحاب والإخوان عون ومدد، وبهم يشد العضد، ويتيسر بلوغ المأمول من الأمور.

خامسها: المؤمَّل، وهو الثامن من الخيل وقيل السابع. وعلى كل فقد سُمي به لبقاء بقية من أمل عند صاحبه بالظفر، حيث إنه لا يزال في دائرة الخيل المرشحة للفوز في الحلبة، ومن ذوات الحظوظ، أما مَنْ بعده فهم مَنْ فقدوا حظوظهم، وبارت آمالهم، وخاب رجاؤهم، لذلك بيَّن صاحب (الفروق) نكتة لطيفة في هذا السياق فقال: إنَّ الذي ينقطع عما أَمَّل هو الخائب، فالخيبة لا تكون إلا بعد الأمل[1]. اهـ.

---

(١) أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل (ت٣٩٥هـ)، معجم الفروق اللغوية: (١/ ٤٣٥).

وبذا فكل المعاني تخرج من مشكاة واحدة، والمدلول البعيد لها جميعًا، قريب جدًا من مادة: الهمزة والميم واللام.

ويمكن أن أخرج بخلاصة من كل ما سبق وهي أنَّ (الأمل): هو استقرار الثقة في النفس بأنها ستبلغ محبوباتها ورجاءاتها، مما يمكن بلوغه شرعًا وعقلاً، مع الاستعداد الصادق للأخذ بالأسباب، والصبر عليها، وتنبع الثقة من اعتقاد المؤمل الأهلية والكفاءة في نفسه، ويكون في الخير والشر.

ثانيًا ـ الرجاء في اللسان العربي:

قال ابن فارس: (رجي): الراء والجيم والحرف المعتل، أصلان متباينان، يدل أحدهما على الأمل، والآخر على ناحية الشيء. فالأول: الرجاء هو الأمل، يقال: رجوت الأمر أرجوه رجاءً. ثم يتسع في ذلك فربما عبّر عن الخوف بالرجاء، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣]؛ أي: لا تخافون به عظمةً، وناس يقولون: ما أرجو؛ أي: ما أبالي، وفسروا الآية على هذا وذكروا قول القائل[١]:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها ... وخالفَها في بيت نُوبٍ عوامل[٢]

ويقال للفرس إذا دنا نتَاجها: قد أرْجَت ترجي إرجاءً.

وأما الآخر: فالرجا، مقصور: الناحية من البئر، وكل ناحية رجا، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[الحاقة: ١٧] والتثنية: الرَّجَوان، وأما المهموز فإنه يدل على

---

(١) وهو أبو ذؤيب الهذلي وكان شاعرًا مسلمًا في عهد النبي ﷺ واسمه خويلد بن خالد توفي في خلافة عثمان ﷺ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: (٢/ ٢٦).

(٢) عوامل: ذكر ابن منظور أنها (عواسل): (١٤/ ٣٠٩).

التأخير: يقال: أرجأت الشيء أخرته، قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾[الأحزاب: ٥١] ومنه سميت المرجئة[1]. اهـ.

وخالفه ابن منظور في أصل الرجاء حيث قال: وهمزته منقلبة عن واو بدليل ظهورها في رجاوة[2]. اهـ. وسبق ابن منظور لهذا القول الزمخشري والصاحب بن عباد ولحقهم الزبيدي، وهو الحق والأولى بالصواب.

قال ابن منظور: الرجاء: الأمل نقيض اليأس ممدود، ورجاه يرجوه رجوًا ورجاءً ورجاوة ومرجاة ورجاة وفي الحديث: «إلا رجاة أن أكون من أهلها». اهـ. وذكر ابن منظور هذا الحديث ليستشهد به على جواز قولك: فعلت كذا رجاة الخير، بالتاء المربوطة، ووافقه الزبيدي في (تاجه)، وخالفهما الزمخشري في (أساسه)[3]، والخليل في (العين)[4]، فقال الزمخشري: ومن قال رجاة أن يكون كذا فقد أخطأ، إنما هو رجاء. اهـ. وعند النظر في نص الحديث الشريف، وتتبع كل رواياته نجد أن الحديث في صحيح مسلم، من رواية أنس بن مالك ﷺ، في باب ثبوت الجنة للشهيد، والنص ليس كما نقله ابن منظور بالتاء (رجاة)، بل بالهمزة والتاء من بعدها (رجاءة)[5]، وفي سائر المصادر[6] بالهمزة فقط (رجاء)، وهذا الحديث هو المستند

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٢/ ٤١١).

(٢) ابن منظور، اللسان: مادة رجو.

(٣) الزمخشري، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد (ت٥٣٨هـ)، أساس البلاغة: (١/ ١٦١).

(٤) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم (ت١٧٠هـ)، العين: (١/ ٤٩٠).

(٥) التاء للنقل من الوصفية للاسمية ويمكن أنها للتأنيث، النحو الوافي لعباس حسن: (٣/ ١٨٦).

(٦) سنن النسائي: (٤/ ٣٨٥)، ومسند أحمد بن حنبل في مسند أنس بن مالك ﷺ، والمستدرك =

الوحيد لابن منظور فيما ذهب إليه، لذلك يقدم قول الزمخشري ومن معه على قوله.

ومن المعاني التي تخرج إليها مادة (رجو) كما في (المحيط في اللغة) المبالاة والخوف، فقال الصاحب بن عباد: الرجوة: المبالاة، وما أرجو: ما أبالي، ورجوت: خفت[١]. اهـ. وهو بـذا يوافق ابن فارس كما مرَّ سابقًا: بأن الرجاء يعني الخوف دون تقييده بالجحد.

ونجد الزمخشري يقول في (الأساس): قد يستعمل الرجاء بمعنى الخوف مجازًا، يقال: لاقيت هولاً ما رجوته، فالرجو: المبالاة، وما أرجو: ما أبالي[٢]. اهـ.

قال الجعدي[٣]:

لا ترجـي حـين تلاقـي الذائـدا ... أسـبعة لاقـت معًـا أم واحـدا

غير أنَّ الزبيدي وابن منظور لهم رأيٌ آخر في هذه القضية، وسأدع ابن منظور يجليها، فها هو يقول: إنَّ الرجاء يكون في معنى الخوف إذا كان في سياق الجحد، تقول: ما رجوتك؛ أي: ما خفتك، ولا تقول: رجوتك بمعنى خفتك، قال تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾[الجاثية: ١٤] أي: لا يخافون أيـام الله. وكـذلك: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح: ١٣].

فلا يجوز رجوتك وأنت تريد خِفتك، ولا خِفتك وأنت تريد رجوتُك، قال

= للحاكم باب: ذكر مناقب عمير بن الحمام وسنن البيهقي: (٩/ ٤٠٣) وغيرها.

(١) الصاحب، إسماعيل بن عباد، (ت٣٨٥هـ)، المحيط في اللغة: (٢/ ١٢٦).

(٢) الزمخشري، أساس البلاغة: (١/ ١٦٢).

(٣) النابغة الجعدي: حبان بن قيس أبو ليلى الشاعر، عاش في الجاهلية والإسلام، أسلم وحسن إسلامه، ويُقال عاش مائتي سنة، معجم الشعراء للمرزباني: (١/ ٦١٠).

تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾[الفرقان: ٢١] أي: لا يخشون لقاءنا[١]. اهـ.

وعند النظر في الاستعمال القرآني للرجاء في معنى الخوف، نجد أنه يكون دائمًا في سياق النفي والجَحدِ، وأنَّ ما استدل به الزمخشريُّ وفريقُه من الأمثلة، كان جميعه في سياق النفي، سواء كان ذلك من القرآن الكريم، أم الشعر العربي، أم حتى من الأمثال والجُمل من غير المنظوم، وبذا فالحق قول ابن منظور ومن معه[٢].

ومن المعاني التي تدل عليها مادة (رجو): (التأخير، ويقال: أرجى الأمر. أخَّره، ويقال أرجأت وأرجيت: إذا أخَّرت، يهمز ولا يهمز)[٣].

واللفتة الجديدة لابن منظور، أنه بيَّن أنه يكون مهموزًا، أو غير مهموز، وهذا ما لم يتنبه له ابن فارس، ثم استدل صاحب (اللسان) على ذلك بالقراءات القرآنية، فبين أنَّ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١٠٦] قُرِئ بالهمزة: «مرجؤون لأمر الله»[٤]، وقوله: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ قرئ: «أرجئه»[٥]، ومنه سميت الفرقة التي يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، مرجئة؛ لاعتقادهم أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصي، والنسب فيه مُرْجِئِيٌّ، والأرجوان: الأحمر[٦]. اهـ.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (١٤/ ٣٠٩).

(٢) ومنهم الزبيدي كما ذكرت وابن سيده في المحكم والمحيط الأعظم: (٣/ ٣٣٥).

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (٤/ ٣٠٩).

(٤) قرأ مرجون بالهمزة ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو بكر، النشر في القراءات العشر: (١/ ٤٠٦).

(٥) أرجه قرأها بالهمزة عمرو وابن ذكوان وابن خلف، العنوان في القراءات السبع، ابن خلف المقرئ: (١/ ١٥).

(٦) ابن منظور، لسان العرب: (٤/ ٣١٠).

والرجاء عند الراغب الأصفهاني هو: ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة[١]. اهـ. ونلاحظ أنها نفس عبارته في تعريف الأمل. وقال الزبيدي: قال الحرَّالي: هو ترقب الانتفاع بما تقدم له سببٌ ما، وقال شيخنا[٢]: هو الطمع في ممكن الحصول، بخلاف التمني؛ فإنه يكون في المستحيل والممكن[٣]. اهـ.

«والرجاء لا يكون إلا مع الشك، ومن تيقن النفع لم يكن راجيًا له، والرجاء يكون عند توفر دواعيه وأسبابه، لذا فإن الرجاء غير مذموم»[٤].

والرجاءُ بين الأملِ والطمع، فإن الراجي قد يخافُ أنْ لا يصل إلى مأموله.

ولو أننا نظرنا في ما تدل عليه مادة (رجو)، لوجدنا أنها جميعًا تقرب من هذه المعاني، وليست غريبة عنها، وسأعرضها فيما يأتي:

الأول: الأمل، فإن الكلام فيه قد تقدم عند الحديث عن مادة (أمل).

الثاني: عند الجحد، ويدل على الخوف وعدم الاكتراث، قال الزمخشري: ويستعمل في معنى الخوف لأن الراجي يخاف أن لا يدرك ما يترجاه، وقال أيضًا: نقول فناؤه فسيح الأرجاء؛ أي: مقصد لأهل الرجاء[٥]. اهـ.

وهذا هو عين ما تدل عليه مادة (رجو).

الثالث: تقول العرب أرجت الدابة: إذا دنا نتَاجها وقرب مولدها وإنجابها

---

(١) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب (ت٥٠٢هـ)، المعجم: (١٩٦).

(٢) إذا قال الزبيدي شيخنا فيقصد الإمام اللغوي أبي عبدالله محمد بن الطيب بن محمد الفارسي قال عنه في مقدمته: وهو عمدتي في هذا الفن: (١٠/ ٣).

(٣) الزبيدي، تاج العروس: (٣/ ٨٧).

(٤) العسكري، الفرق اللغوية: (١/ ١٥٧).

(٥) الزمخشري، أساس البلاغة: (١/ ١٦٢).

وبذا يكون صاحبها يتوقع الخير والوفرة.

الرابع: ناحية كل شيء. وقال صاحب اللسان: (رجا): خصه بعضهم بناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها، والبئر: محل يرجى فيه الماء والخير، وجمعها أرجاء. اهـ.

قال الزمخشري: نقول فناؤه فسيح الأرجاء؛ أي: مقصد لأهل الرجاء. اهـ.

الخامس: الإرجاء وهو التأخير، ويكون لاستبطاء الشر واستعجال الخير، ومنه سميت المرجئة، الذين أبطلوا قيمة العمل، وقَصَروا الإيمان على القول، وظنُّوا أن هذا يؤخر عنهم مقت ربهم، ويبعده. وهذا هو الرجاء.

السادس: الأرجوان: وهو اللون الأحمر، وكانت العرب تتغنى به؛ لما ترجو فيه من الخير، وتأنس له.

وكما أسلفنا في حديثنا عن مادة (أمل)، فكذلك مادة (رجو)، تجد أنَّ كلَّ ما اشتق منها يرجع في دلالته إليها، وهذا من بديع لغة القرآن الكريم، ولعل هذا ما قصده ابن فارس يوم قال: الراء والجيم والحرف المعتل أصلان متباينان؛ أي: متقاربان. فإنَّ (البَيْنَ) في كلام العرب جاء على وجهين: يكون البَيْن: الفرقة، ويكون: الوصل، وهو من الأضداد، وشاهد البين الوصل، قال قيس بن ذريح[1]:

لعمرك لولا البَيْن لا يقطع الهوى ... ولولا الهوى ما حسن للبَيْن آلف[2]

وقرئ قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا تَزْعُمُونَ﴾[الأنعام: ٩٤]

---

(١) شاعر محسن، كان يشبب بأم معمر، لبنى بنت الحباب ثم تزوج بها. وقيل: كان أخا للحسين ﷺ من الرضاعة، سير أعلام النبلاء للذهبي: (٦/ ٤٠).

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، المحاسن والأضداد: (١/ ١١٧).

بضم (نون) «بَيْنُكُمْ» بمعنى الوصل[١].

وبمعنى الفرقة أنشد ثعلب:

فهاج جوًى في القلب ضمنه الهوى بينونة ينأى بها من يوادع

وفي الحديث في صفته ﷺ: «ليس بالطويل البائن»[٢]، «أي: المفرط طولاً الذي يعد من قدِّ الرجال الطوال»[٣]. ولا أظن أن مثل هذا الاتصال في المعاني يغيب عن ابن فارس ـ رحمه الله تعالى ـ.

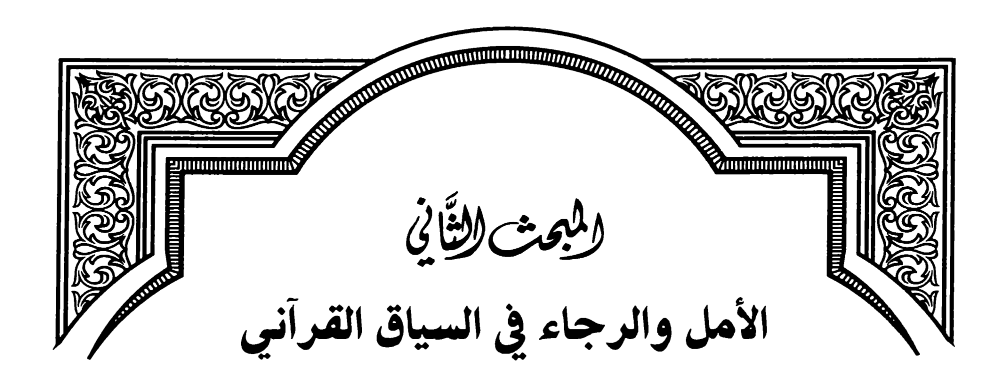
وبَعْدُ: فالمعنى المختار (للرجاء): هو تردد النفس بين الثقة والشك في بلوغها محبوباتها وآمالها، مما يمكن بلوغه شرعًا وعقلاً، مع الاستعداد الصادق للأخذ بالأسباب، والصبر عليها، وتكون الثقةُ لسبب خارجي، فيمَنْ ترجوه، والشك لسبب ذاتي، ويكون الرجاء في الخير دون الشر.

* * *

(١) قرأها بالضم ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة، تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري: (١/ ٣٦٠).

(٢) البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح المختصر، باب صفة النبي ﷺ من حديث أنس بن مالك: (٣/ ٣٨٣).

(٣) ابن منظور، لسان العرب، باب: (بين).



المبحث الثاني

الأمل والرجاء في السياق القرآني

أولاً ـ الأمل:

وردت مادة (أمل) في القرآن الكريم مرتين، في سورة الحجر مرة، في قوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر: ٣].

والثانية في سورة الكهف، في قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[الكهف: ٤٦].

وفي هذا المبحث سندرس السياقين دراسة مستوعبة ـ بما يفتح الله من أنوار حكمته ويشاء ـ، لنستنتج معاني وإيماءاتِ وظلالَ هذه المادة وأسرارَ الاستخدام القرآني لها، بعد أن ندرس السورتين بإيجاز؛ لأني وجدت أن الأمل هو المحور لكلتيهما، وأنَّ موضوعات السورتين تدندنان حوله، وهذا ما سيظهر أثناء التحليل إن شاء الله تعالى.

إنَّ القرآن الكريم كما وصفه الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[هود: ١].

«ولو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد لفظة أحسن منها، لم يوجد»[1].

هذا الإعجاز في الكلمة القرآنية هو ما سنراه جليًا في بحثنا حول مادة (الأمل)، ومواطن ورودها، وعلة هذا الانتقاء، وجملة المعاني التي يمكن أن تستلهم من

---

(١) ابن عطية، القاضي أبو محمد عبد الحق الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، مقدمة تفسيره الموسوم بتفسير المحرر الوجيز: (١/ ٤).

إثباتها في ثغورها التي أحسنت سدادها، ولا يمكن أن تسد بغيرها. وليس هذا في قطعة من القرآن الكريم، أو في بعضه، بل إنك واجد هذه العظمة في كل آياته، وفي كلماته، وكذلك الحروف.

* **سورة الحجر:**

ولنبدأ بسورة الحجر، حيث وردت كلمة (الأمل) في مطلعها، في قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر: ١ ـ ٣].

وعند التعرف على السورة نجد أنها مكيةٌ بلا خلافٍ، وعددُ آياتها تسع وتسعون باتفاق العادِّين، وكان الأمر بالجهر بالدعوة في تضاعيفها، في قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر: ٩٤]، ومعلومٌ أن الجهر بالدعوة كان في الربع الأول من العهد المكي، وهذا يرشدنا إلى زمن نزول السورة، يقول الشوكاني:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر: ٩٤]؛ أي: اجهر بالأمر، وما زال ﷺ مُستخفيًا حتى نزلت هذه الآية[١]. اهـ.

ويضيف الشنقيطي: وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه ﷺ بتبليغ ما أُمر به علنًا، في غير خفاءٍ ولا مواربةٍ[٢]. اهـ.

ويؤكد ابن عاشور زمن نزول السورة بقوله: ومن العجب اختلافهم في وقت نزول هذه السورة وهي مشتملة على آية: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر: ٩٤]، وقد نزلت عند خروج النبي ﷺ من دار الأرقم، في آخر السنة الرابعة من بعثته[٣]. اهـ.

---

(١) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠هـ)، فتح القدير: (٢/ ٢٤٥).

(٢) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار (ت١٩١٣م)، أضواء البيان: (٣/ ١٣٧).

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر (ت١٩٧٣م)، التحرير والتنوير: (١٣/ ٦).

وإنْ تعجب فاعجب من تعلق الأمل في أول السـورة وبالصدع بالدعوة في آخرها، الأمل الذي تريد تصويبَ مسارِه، وتسديدَ أهدافِه، وتقويمَ المتعرجِ منه في أفهامِ الناس، وما في هذا من دلالات تشير بأصبع اليقين لارتباط آمال الأمة ـ عندما تكون رشيدةً حميدةً ـ بدعوتها للدين الحنيف، وإظهاره على الأشهاد، وأن قضية الأمل في حياة الأمة الإسلامية جزءُ عقيدتِها، وصنوُ إيمانِها، ومُرْتَكزُ خَيريَّتِها، ودافع الصدع بكلمة التوحيد، وبالمرور بأهم الموضوعات بينهما، يتأكد لنا ما ذهبنا إليه، ويظهر محور السورة جليًا، وقضيتها المركزية التي شاءت معالجتها.

يمكن تقسيم السورة الكريمة إلى أربعة أقسام متعاضدة، متدرجة، استغرقت السورة من خلالها زمنًا متطاولاً في ترسيم ملامح الأمل في حياة الأمة، والذي يمكن أن ينهض بها لكل خيرٍ ورفعةٍ، ويكرس حقيقة الغاية التي لأجلها كان بعث هذه الأمة الخاتمة، فهي الأمة المُستخلَفةُ في الأرض، وفي عنقها ما أبتِ السماواتُ والأرضُ والجبالُ حمله من أمانة الدين، وتحكيم الشرع، وتخليص البشرية من رِبقةِ الاستعباد لكل الطواغيت، على تعدد صورهم.

أربعةُ مقاطع متعاضدة متـدرجة، بدأت في أولها بوصفِ حال البشرية قبل البعثة، وفي السـنين[1] الأولى من عمرها، وبيَّنَتْ صورةَ الآمال التي تعلقت بها، وكيف أنَّ الأكلَ والشربَ والشهواتِ ـ هذه جميعًا ـ هي أكبر همِّها ومبلغ علمِها، مع أن الله أراد لهم أن يكونوا أعظم من ذلك، وفتح لهم أبواب السماء ليجوبوا آفاقها، فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ ساء ما يعملون، وأكد في المقطع الثاني على الانقسام بين الخلائق في كل تصوراتها ـ فضلاً عن آمالها ـ وكيف بدأ، وضرب في الثالث نماذج حية لكل فريق، ليخرج بالدروس والعبر للأمة، مُشخصةً برسولها الكريم ﷺ كما في المقطع

(١) سميتها سنين ولم أقل أعوام لشدتها وقسوتها على رسول الله ﷺ ومن آمن معه.

الرابع، وبيَّن النتائج والثمار.

في المقطع الأول والذي يمتد من مطلع السورة، وحتى الآية السادسة والعشرين، أخذت السورة تتحدث عن آمال أهل الباطل، الذين ألهَتْهُمُ الدنيا ولذائذُها من أكل وشرب وشهوات، ثم هم يأملون ويطلبون رفيع المنازل وسامقها، فضلاً عن النجاء من العذاب: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ۝٥ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾[الحجر: ١ ـ ٨]، وما حالهم إلا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[محمد: ١٢].

وما هذا النعي عليهم إلا إعلانٌ عن طريق بلوغ الغايات، وتحقيق المآرب والآمال. بل إن السورة فتحت أبواب السماء ليعرج فيها أصحاب الهمم والعزائم، عسى يستدلوا على عظمة الخالق؛ فيؤمنوا به، فتخبت له قلوبهم، وينتظموا مع الكون المسبح العابد لله تعالى، المتعلقة حبال آماله بألطاف قدره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾[الحجر: ١٤]، غير أن أثقالَ الدنيا وقيودَها غشاوةٌ على عيون الكسالى تُسكِّرها؛ ليتذرعوا كإخوانهم البَطَّالين في كل زمان بالسحر، والحسد، والشيطان، كما أخبرت السورة عنهم في قوله تعالى: ﴿لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[محمد: ١٥].

أما الصفوة من الجادِّين فيصَّعَّدون في بروج السماء متبصرين، في زمرة الناظرين بجدية وصدق ووضوح، لا يتسللون، ولا يستَرِقون ما ليس لهم بحق في طمعٍ واحتيال، بل ينتفعون بما سخر الله لهم في الكون من سلطان؛ للنفوذ من أقطار

السماوات والأرض ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ٢٠].

ليميز الله السابقين من المتأخرين، والكسالى من الفائزين، فيختم هذا المقطع بتقرير المفاضلة، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ۝٢٤ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[الحجر: ٢٤ ـ ٢٥][1].

أما المقطع الثاني من السورة فيبدأ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[الحجر: ٢٦ ـ ٢٧]، ويتحدث عن صراع السيادة في الدنيا، وسباق تحقيق الأحلام والآمال، بين الشيطان الرجيم من جهة، وآدم ـ عليه السلام ـ من أخرى، فالشيطانُ تعلقت آمالُه بالإفساد، وتضرع إلى الله تعالى ليمد في أجله ليحققَ مبتغاه، وآدم ـ عليه السلام ـ وذريته في مواجهةٍ مع الشيطان، والنفس، فالارتكاس في سخط الله إن هم ضعفوا واستكانوا، أو أن يكونوا من المخلَصين، الذين تكفل الله بحفظهم، وجعل وصولهم إليه حقًا عليه؛ ليستقروا من بعد في جنانٍ وعيونٍ، بسلامٍ آمنين، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ

---

(١) أسباب النزول تعين على فهم هذا المعنى، حيث وردت في سباق الصحابة على الصف الأول عندما حرضهم النبي ﷺ فازدحموا عليه، فكانت دور بني عذرة قاصية عن المسجد فقالوا: نبيع دورنا ونشتري دورًا قريبة من المسجد، فأنزل الله تعالى هذه الآية، أسباب النزول للواحدي: ص١٩٣.

مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[الحجر: ٣٩ ـ ٤٢]، ثم تقرر الآيات في ختام المقطع أن طريقَ النجاة، وتحقيقَ الآمال، هو العبوديةُ لله تعالى، وأن هؤلاء الفريق من المؤمنين ما نزلوا ساحة مغفرة الله ورحمته، إلا يوم حملت نفوسهم مشقة اتقاء شهواتها، وكانت في السابلة لطريق العبودية، أما عذاب الله فمتيقنٌ لمن تنكّب السبيل والسلوك: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

أما المقطع الثالث من السورة الكريمة، فلا يزال حول المحور الرئيس، متفرعًا عن المقطع الثاني، حيث أخذ يبين حلقات جديدة في مسلسل الصراع بين ذرية آدم ـ عليه السلام ـ والشيطان، ويضرب لذلك الأمثلة من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأقوامِهم، وكيف أنها تباينت آمالهم واختلفت.

فإبراهيم ـ عليه السلام ـ وإن كبرت سنه، وشاخت زوجه، ناهيك عن عقمها، فهو واثق بربه وأمله لا ينتكس، بل يعلن أنه لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، ويذهب في أمله وحلمه أبعد؛ ليسع لوطًا ـ عليه السلام ـ، وسؤال النجاة له ولقومه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[الحجر: ٥١ ـ ٥٩].

أما قوم لوط ـ عليه السلام ـ فيأملون بلوغ المنكر، وحالهم كالذين بدأت بهم السورة، من الذين تعلقت قلوبهم بالأكل والشرب والشهوات، وأقذع الفواحش، حتى أنهم لانطماس بصيرتهم، وتَسكيرِ قلوبِهم قَبْلَ عيونِهم، جاؤوا يستبشرون بما

حقُهم فيه أن يُفتضحوا، ويستشعروا الخزيَ والعارَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[الحجر: ٦١ ـ ٧٤]. جاء أهل المدينة يستبشرون؛ من اعتمال الآمال الفاسدة في قلوبهم، الآمال التي تعمل بأصحابها أسوأ من المسكرات، فيعمهون، وتقودهم إلى المصرع الوخيم، وسوء الختام.

وبعد عرض الصورتين المتقابلتين: صورة إبراهيم وصورة قوم لوط ـ عليهما السلام ـ، بيّن أنه لن يصحو من حلمه الفاسد، وأمله الذميم، إلا المُتوسمُ البصير، والمتفرسُ اللبيب، مَنْ يُحسن صناعة الآمال، ويتوسم صائبَها، ويأخذ بأسباب بلوغها، ولئن كان؛ فلن يتركه الله تائهًا، فشواخصُ الهداية بسبيلٍ مقيمٍ لمن أراد الانتفاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر: ٧٥ ـ ٧٧].

أما المقطع الرابع والأخير في السورة، فوقفةٌ مع سيد المرسلين ﷺ والأمةِ من بعده؛ لتهذيب آماله، وتنقية أحلامه؛ فلا تتعلق إلا بالعظائم، مستمدة من السبع المثاني والقرآن العظيم، متعالية على دنيا الناس وعوالقها الهابطة، مستشعرًا الرسالة وثقلها، متمسكًا بالكتاب كله، فلا يجعل القرآن عضينَ مقسمةً كأهل الكتاب، بل يصدع به كله، وبالحق الذي جاء به؛ ليبلغَ ما يؤمِّل في الدنيا والآخرة، وعين الله

تحوطُه، وستَكفِيه أعداءَه، وحفظُ النبي ﷺ حفظٌ للدين؛ إذ الإسلام مُشخصٌ في ذاته الطاهرة ﷺ، وأيَّ أمل يُبعث في عروق الأمة أعظم لها من تكفل الرب جلّ في علاه بحفظ نبيها، وقد أعلن من قبل في أول السورة أن كتاب الدين أيضًا في العناية الربانية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، ليسير نبي هذا الزمان في الأمة الخاتمة حتى يبلغ بها، ومعها حق اليقين: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٨٧ - ٩٩].

هذه هي (سورة الحجر)، ولو صح أن تنعت بغير اسمها[1] لكانت (سورة الأمل)، ففيها حفظ الدين وأهله، في صورة حفظ القرآن الكريم، ونبيه الكريم ﷺ

---

(١) يسميها شيوخ الكتاتيب في تونس بسورة «ربما» لأن كلمة «ربما» لم تقع في القرآن كله إلا في أول هذه السورة، نقلاً عن ابن عاشور في تفسيره: (١٢/ ٣).

كما مرّ آنفًا، وما بين الحفظين تعليمٌ للأمة، كيف ينبغي أن يكون شعورها بالأمل، وأخذها بأسبابه، وبُعْدُها عن ذميمه؛ لتنال نفعه وبركته، وكان إيراد لفظة الأمل في مطلع السورة إشارةً إلى محورها الرئيس، وموضوعها الأساس، ولا جرم أن المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر، إن أريد شرط الفصاحة؛ لأن لكل لفظ دلالة خاصة به، لن يستوعب دائرة معانيه لفظ آخر بذات القدر، وإن جمعَ الكثيرَ منها في بعض الأحيان. وفي غوص في ذات الآية: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾[الحجر: ٣]، نجد أن (النظم القرآني يدل على معاني جملة بانتزاع ما يلائمها من الألفاظ، بحيث لا تند لفظة، ولا تتخلف كلمة، ثم يستعمل أمسها رحمًا في المعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناءً، وأكثرها غناءً، وأصفاها رونقًا وماءً)(١)، حيث بدأت الآية بكلمة: ﴿ ذَرْهُمْ ﴾، والأمر بتركهم مستعملٌ في عدم الرجاء في صلاحهم، وتيئيس النبي ﷺ من ارعوائهم، ولذلك عبَّر في الآية السابقة بقوله: ﴿ رُّبَمَا ﴾ للتقليل، فإن استفاقتهم لودادة الخير نادرة جدًا؛ لما لآمالهم من استقرار في قلوبهم، حالت بينهم وبين الإفاقة، والسعي الصادق للحق في زمن الإمكان، قال ابن عاشور: والتقليل من إمكان الإفاقة يقتضي الاستمرار على غلوائهم، وهو أكثر حالهم، وهو الإعراض عما يدعوهم إليه الإسلام من الكمال النفسي، فبإعراضهم عنه رضوا لأنفسهم بحياة الأنعام، وهي الاقتصار على اللذات الجسدية(٢). اهـ.

والأمر في قوله ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ لا يتناقض مع كون النبي ﷺ مأمورًا بالدوام على

---

(١) الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر (ت١٩٣٧م)، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: (ص٢٢٦) بتصرف.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٣/ ٧).

دعائهم، وعدم تركهم، إذ الأمر فيه إشارة تُدركُ بدقيق النظر؛ فهو مستعمل في لازمه، وهو قلة جدوى الحرص على إصلاحهم. ولم يُعدَّ فعلُ الأمر (ذرّ) إلى دعوتهم، مع أنها المقصودة بالترك، وعُدِّيَ بالضمير الدال عليهم، وعلى ذواتهم: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾؛ ليؤكد مسألة اليأس من إيمانهم، ومن اتباعهم للدعوة الجديدة.

وقوله: ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾؛ أي: أن يأكلوا أكلاً مقصوده اللذة فقط؛ ولذلك قدم الأكل، وما أجمل إشارة القشيري: قيمة كل امرئ حسب همته، فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية، لا يحاسب، وعلى العقل لا يطالب؛ فالتكليف يتبعه التشريف، وغدًا سوف يعلمون[1]. اهـ. والأكل يستغرق المطعومات وغيرها كما في قوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾[البقرة: ١٨٨]، إذ الأكل حقيقة إدخال الطعام إلى المعدة من الفم، وقد يستعار للأخذ بقصد الانتفاع دون إرجاع.

قال ابن منظور: والتمتع: مِنْ متع ماتع، وهو من كل شيء البالغ في الجودة، كما في اللسان: هو الغاية في بابه، والمتاع: كل شيء ينتفع به ويُتَبَلَّغُ به ويُتَزَود به والفناء يأتي عليه في الدنيا[2]. اهـ.

«وَيُلههمُ الأملُ»، عبر بالإلهاء؛ لأن الأمل إذا استبد بصاحبه شغل جوارحه، وجوانحه، وملأ عليه حياته، حتى يَحُول بينه وبين كل ما يجب عليه مما فيه سعادته ونجاة الدارين.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[التكاثر: ١] يجيد ابن القيم رحمه الله في (الفوائد) فيقول: ألهاكم أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه

---

(١) القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن عبد الملك (ت٤٦٥هـ)، لطائف الإشارات: (٤/ ٦٦).

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (١١/ ٢٢١).

بما يعمل، وقلبه غير لاه به، فاللهو ذهول وإعراض[1]. اهـ.

وكذلك آمال أهل الباطل، استبدت بقلوبهم وعقولهم وجوارحهم، والأمل كما أسلفنا: تعلق القلب بحصول محبوب مستقبلاً. وجَعْلُ الأكلِ والشربِ والشهوات منتهـى آمالهم، يبلغ الغاية في التوبيخ، والتنديد بهم، والنعي عليهم، والتصريحُ بمادة (أمل)؛ إشعار بأن الأمل الذي يتعلق به قلب الإنسان لا بد وأن يكون أسمى من المأكل والمشرب، ودليل ذلك أنه نعى عليهم سفاهة آمالهم. والأمل هو الدافع لحركة الحياة والإنسان، فلما تعلقت آمالهم بشهوات أجسادهم، تحركت جوارحهم لتلبية رغـباتهم، ولو أن آمالهم تعلقت بما ينبغـي أن تتعلق به من رجـاء الآخرة، ورضوان الله، لما جاء يومُ مَنْدَمِهم ووُدِّهم لو كانوا مسلمين، وهذا ما سيعلمونه يوم لا ينفع العلم ولا يفيد: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر: ٣].

وذِكرُ الأمل في هذا السياق، وطبيعة الآمال في ذلك الزمان؛ لإرادة القرآن في هذه السورة إحداث الإصلاح في فهم البشرية لمفهوم الأمل، ولبيان أهميته في حياة الشعوب، وكأنه يقول يـجب على الأمة أن تعيش، بل هي لن تعيش، إن لم تكن صاحبة أمل، على أنه يجب أن يكون على غير صورة آمال هؤلاء القوم.

* **سورة الكهف:**

ووردت كذلك مادة (أمل) منصوبةً على التمييز في سورة الكهف، في قوله تـعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦]، ولا بد من تعريفٍ بالسورة؛ حتى تكتمل الصورة، كما أسلفنا في سورة الحجر، فسورة (الكهف) مكية، وأسباب النزول لا تترك سبيلاً إلى الشك

(١) ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الشيخ أبي بكر قيم الجوزية (٧٥٢هـ)، الفوائد: (ص٣٧).

في هذه القضية، وإن قيل إن بعض آياتها مدنية، كما قيل في الآية الثامنة والعشرين: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾[الكهف: ٢٨] فهي أقوال لا يلتفت إليها.

سُمِّيت السورة بهذا الاسم، ولا يعرف لها اسم آخر، ففي صحيح البخاري من حديث البراء بن عازب قال: «كان رجل يقرأ سورة الكهف، وإلى جانبه حصان مربوط بِشَطَنَيْنِ، فَتَغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو، وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: تلك السكينة تنزلت بالقرآن»[١]. وروى مسلم كذلك عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف...» وفي رواية لمسلم أيضًا: «من آخر الكهف، عصم من فتنة الدجال»[٢]، وتأمَّل كم فيها إذًا للناس من أمل.

وفي ترتيب النزول كانت بعد الغاشية، وقبل النحل، وهي السورة الثامنة والستون وقيل السبعون[٣] كما في رواية ابن عباس رضي الله عنهما.

ولا شك أنها كانت في آخر العهد المكي، بعد سنة الحزن والإسراء والمعراج، وقبل الهجرة بفترة ليست بالطويلة، وكأنها تهيئة لمرحلة جديدة، والذي يؤكد هذه القضية اتفاقُ روايات الترتيب على تأخر نزولها في مكة، وهذا الأمر له إشارات مهمة، سنأتي عليها في عرضنا للسورة لاحقًا إن شاء الله تعالى.

يقول سيد قطب: القصصُ هو العنصر الغالب في هذه السورة، ففي أولها

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، باب: فضل سورة الكهف: (٣/ ١١٠).

(٢) النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ)، المسند الصحيح، باب: فضل سورة الكهف وآية الكرسي: (٤/ ٢٣٨).

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، الإتقان في علوم القرآن: (١٠/ ٣١).

تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم ـ عليه السلام ـ وإبليس، وفي وسطها تجيء قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذي القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها، وفي جوار القصص بعض مشاهد القيامة، وبعض مشاهد الحياة التي تصور فكرةً أو معنًى، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير[1]. اهـ.

أما المحور الموضوعي للسورة، والذي ترتبط به موضوعاتها وقصصها، فهو الأمل الراشد، وحول هذا المعنى سنجد جميع سياقات السورة، وإن اختلفت طرق عرضها، وصوره، وجوانب تناولها. وهذا ما سنعرض له في تناولنا لمقاطع السورة، حيث مرَّت السورةُ بخمسةِ مقاطعَ متتابعاتٍ؛ لتناسب طبيعة المرحلة التي كانت تمرُّ فيها الدعوة، وطبيعة التحولات المرتقبة والمتوقعة.

تبدأ السورة في مقطعها الأول بحمد الله على نعمة الكتاب القويم بلا اعوجاج، البشير والنذير: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[الكهف: ١ ـ ٣]، وأنَّ الدنيا ليست محلاً للبقاء، وأنَّ ما عليها من زينة إنما هو للامتحان والابتلاء، وأنَّها وما عليها إلى زوالٍ وفناءٍ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧]، فدنيا هكذا حالُها ـ وحالها غير خافٍ على ذي عينين ـ لا بد وألاَّ تكون محلاً للأمل والرجاء. أدركَ الفتيةُ أصحاب

(١) قطب، سيد قطب بن إبراهيم (ت١٩٧٦م)، في ظلال القرآن الكريم: (٥/ ٢١٣).

الكهف[1] هذا؛ فركلوا الدنيا، وآثروا الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، فقال فيهم العليم الخبير مزكيًا: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[الكهف: ١٣ ـ ١٥] والتجؤوا إلى كهف مظلم في صورته، رحمةٍ ونورٍ في حقيقته، بل إنَّ قسوة صخوره استحالت مرتفقًا لينًا لهم، فناموا في هناء وسكينة، تحوطهم معية الله، فتقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال، والشمس تزاور عنهم أحياناً وتقرضهم أخرى، بقدرٍ معلوم لإتمام الرحمة والمعية، حتى من نضارتهم وحسنهم يحسبهم غير المدقق أيقاظًا: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[الكهف: ١٦ ـ ١٨].

وما يؤكد بُعْدَ آمال هؤلاء الفتية لما يتجاوز حدود الدنيا وزخارفها، إلى رضوان الله والجنة، أنهم وهم يرجون الطعام، سألوا حلاله وأزكاه ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا ﴾[الكهف: ١٩].

أيضًا «تقديم القرآن لاحتمال الرجم على احتمال الإعادة في دين قومهم ﴿ إِنَّهُمْ

---

(١) سيأتي الحديث مفصلاً عن أصحاب الكهف في الفصل الأخير، لأن مقصد الحديث هنا وصف السورة عامةً.

إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف: ٢٠] لأن الظاهر من حالهم هو القوة والثبات على الإيمان بالله الواحد، وهذا الثبات مظنة أن ينتهي بهم إلى الرجم، فهو الاحتمال الأرجح»[١].

ثم يأتي التوجيه الرباني لأمة التوحيد الخاتمة، مشخصة بنبيها الكريم ﷺ بجعل الآمال والأحلام، فضلاً عن الأقوال والأعمال، منوطة بالتوفيق الرباني، والمشيئة الربانية: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾[الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]. عسى أن يهتدوا دائمًا لما فيه السداد، كما كان شأن الفتية أصحاب الكهف، الذين وجدوا رحمة الله وفضله لهم ملتحدًا.

إنَّ ما اعتمل في نفوس الفتية من أمل، هو مصدر الأمن والسكينة لديهم، وكذلك هو لكل مؤمنٍ، وهو الشعاع الذي إنْ غمرَ جوانحَ الإنسان في دياجير الحياة، أضاء له الظلمات، وأنار له المعالم، وهداه السبيل، ذلك هو الأمل الذي به تنمو شجرة الحياة، ويرتفع صرح العمران، ويذوق المرء طعم السعادة، ويحسُّ ببهجة الحياة.

وحقًا كان إيمانُ هؤلاء الفتية محركًا لآمالهم، وآمالُهم باعثًا لثورتهم على العبودية لحاكمهم، وإن آلت بهم الثورة إلى كهف مظلم، حيث لا ماء ولا طعام، إلا ما يسقيهم إياه ويُطعمهم أملُهم ورجاؤهم، بما ادخر لهم ربُهم، وأنعم به من طعام وشراب، وهذا ذاته الذي ثَبَّتَ النبي ﷺ في غاره، فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة: ٤٠] وهو الذي ثبت موسى ـ عليه السلام ـ يوم كان فرعون خلفه والبحر

---

(١) الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي (ت١٢٧٠هـ)، روح المعاني: (٧/ ٣٢٣).

من أمامه، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢].

وسيظهر محور السورة في مقطعها الثاني، في جَرْسٍ أقوى، وصوت أعلى، عند حوار المؤمن مع صاحب الجنتين. ويبدأ المقطع الثاني من الآية الثامنة والعشرين، حيث كان الأمر بلزوم أهل الطاعة، وصبر النفس على صحبتهم، وأن لا يهفوَ القلبُ إلى الدنيا وأهلها، وزينة الحياة ومُتَعِها، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[الكهف: ٢٨ ـ ٣١] أمره أن يصبر نفسه مع أصحاب الآمال العظام، التي ليس دون وجه الله لها من غاية، أما الدنيويون، وطلاب متعها، فستستحيل عليهم الدنيا ومتعها يوم القيامة نارًا يحيط بهم سرادقها، وفراشهم الوثير الناعم في الدنيا، وسائدَ من صخر ونار، وساءت مرتفقًا.

ولا تزال الآيات في صوت مرتفع، وجَرْسٍ قوي، تحث على الرقي في الآمال، والتعلق بالعظائم، وصاحب الجنتين أنموذج لمن ارتكس في حمأة الآمال الهابطة العابرة، والمحدودة بحدود الكم والكيف والزمان والمكان، وهو لقصر نظره يظن أنه الأكثر مالاً والأعز نفرًا: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف: ٣٢ ـ ٣٤]. ويظن أن ماله وثماره لن يأكلها الزمان، ولن تأتي عليه الأيام، وأنَّ المُدَّخر له عند الله أعظم: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[الكهف: ٣٥ ـ ٣٦].

وصاحبه لا يزال يحاوره بضرورة التعلق بالله تعالى؛ فهو الفاعل المدبر، وتصريف الكون بيده، يرزق من يشاء، ويحرم من يشاء: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾[الكهف: ٣٧ ـ ٣٩]، وصَخَبُ الحوار يزداد، وحِدَّتُه تشتد عند تهديده بزوال النعمة وغورانها، حتى لا يستطيع لها طلبًا، فقال منذرًا: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[الكهف: ٤٠ ـ ٤٤]، لكنه الأمل ـ أي: الذميم ـ الذي إن أحاط القلب بأذرعه؛ فإن فرصَ النجاة من براثنه قليلةٌ ضئيلةٌ، هذا الأمل وإن كان هابطًا دنيويًا، إلا أنه يفعل بصاحبه ذات الفعل الذي يفعله الأمل الراشد، أمل الأنبياء والصديقين، ولكلٍ قبلةٌ هو موليها، ومؤشر الأمل هو الذي يرسم جهة البوصلة.

وظل صاحب الجنتين أسيرًا لآماله الهابطة، حتى أحيط بثمره؛ فأخذ يقرع سنَّ الندم لفقد ماله، والدنيا، والمعين، والنصير، ولفقده ما عند الله من خير الثواب، وخير العاقبة.

ثم ليأتي ختام هذا المقطع الصاخب القوي بتقرير الحقيقة، والثمرة من المقطعين السابقين، ومن السورة جميعًا ـ وما المقاطع اللاحقة إلا جَهْدٌ ضافٍ لتقرير ذات الحقيقة ـ الحقيقة التي لا يحب سماعها الدنيويون، ولا تطيب إلا لأصحاب الهمم والعزائم الراقية، الذين وإن كانت أجسادهم تدب على الأرض، إلا أن أرواحهم لا تبرح العلياء، الحقيقة التي بدأت بها السورةُ، وفَهِمَها الفتيةُ أصحابُ

الكهف، حقيقة الدنيا وزيفها، وأن الآمال لا يجب أن تتعلق إلا بثواب الله ورضوانه، وأنها يجب أن تكون عظيمة سامقة، وأن الله ما أنزل لنا كتابه، ولا أرسل لنا رسوله، إلا ليرتقي بنا إلى علياء العبودية له، وليرفع سقف آمالنا الهابطة؛ فتتجاوز هذه الدنيا الهابطة، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يحب لكم معالي الأمور ويكره سفسافها»[1]، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦].

أما المقطع الثالث فيمتد عبر ثلاث عشرة آية؛ ليعقب على الحقيقة التي جاءت السورة لتقررها من خلال عرض لبعض مشاهد يوم القيامة، الذي لا ينفع فيه إلا الباقيات الصالحات، التي ختم بها المقطع الماضي ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۝٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف: ٥٢ ـ ٥٤]، أما المجرمون فسيدركون عظيم علم الله وإحاطته، وأنه لا يظلم أحدًا، وقبله يعرض لقصة آدم ـ عليه السلام ـ مع إبليس، ويحذر من الإقتداء بالشيطان وعمله؛ لأنه كما كل الطواغيت سيتبرؤون من عُبَّادهم وأتباعهم، ولن يستجيبوا لهم أبدًا، وكأنه في هذا المعنى ينبه لضرورة الحذر من مثل أخلاقِ صاحب الجنتين وآمالِه، فعاقبتهما وخيمة، وضرورة السير خلف المرسلين المُبَشِّرين بالجنة لأصحاب الآمال الخيرة، ذوي الأعمال الصالحة، والمنذِرين من العاقبة السوء، والمصرع الوخيم، للدنيويين الهابطين في تصوراتهم، وعقائدهم، وآمالهم، فأرشد قائلاً: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت٣٦٠هـ). المعجم الأوسط، باب مَنْ اسمه ابراهيم: (٧/ ١١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٤/ ١٦٣).

بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾[الكهف: ٥٦ ـ ٥٨].

لينتقل إلى المقطع الرابع وأعظم نماذج وقصص السورة، حيث يمتد من الآية الستين وحتى الآية الثانية والثمانين، وفي كلها بطلُ التضحيات الجسام، والآمال العظام، هو كليم الله موسى ـ عليه السلام ـ، حيث بدأت هذه القصة من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠][1]، لتبدأ معها مسيرة البحث عن العلم، وطلبُ الاستزادة من الكليم ـ عليه السلام ـ وإن كان المسير سيستغرق حقبًا من الزمان، والحقبة من الدهر: مدة طويلة مجهولة، وقيل: (هي عام واحد، وقيل ثمانون عامًا)[2]، وعلى أيِّ حال، هو تعبير عن التصميم والإرادة الجادة، ولا يقصد منه مدة على وجه التحديد، وحقًا يلاقي النبيُّ النصبَ والمشقة، ويجاوز المكان، ويرجع إليه في حرص وإقبال، ولا يتسلل اليأس إلى قلبه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾[الكهف: ٦٢ ـ ٦٤]،

---

(١) أخرج البخاري من حديث أُبَيِّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسُئل أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فقال له: بلى عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: أي رب ومن لي به، قال: تأخذ حوتًا في مكتل، حيثما فَقَدْتَ الحوتَ فهو ثَمَّ. . .».

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٢١).

ثم تبدأ قصة كليم الله ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح، قصة الاتباع، والأدب في الاتباع طلبًا للعلم، وأملاً في الخير، مع الاستعداد الصادق في إظهار الصبر وعدم العصيان: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾[الكهف: ٦٦]، ولتبدأ من بعد قصةُ السفينة، والغلام، والجدار، وفقدان الصبر عند رؤيته ما لا ينسجم ـ في الظاهر ـ مع ما تخَلَّق عليه، وفي كلٍ يعتذر عليه السلام في أدب وتواضع، ويسأل العفو ممن شاء الله له أن يعلمه بعض ما غاب عنه من العلم؛ ليكون درسًا عظيمًا لكل مؤمنٍ يُعلِمُه أنْ ليس لطموح المؤمن نهاية، ولا لآماله غاية دون بلوغ المعالي، والخيرية في كل شيء، وإنْ تَطَلَّبَ الأمر الاستعانة بمن هو أقل قدرًا.

أما المقطع الخامس والأخير من سورة الكهف التي نزلت في آخر العهد المكي، فإنه يمتد من الآية الثالثة والثمانين وحتى خاتمتها، ويتحدث عن ذي القرنين: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ۝٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٣ ـ ٨٥]، وكأنها النتيجة الطبيعية لمن سار على طريق الإيمان، حيث سيبدأ كما بدأ أصحاب الكهف، يبدأ قليلاً ضعيفًا طريدًا، يبدأ غريبًا[١]، فإذا تجرد من الدنيا لله ﷻ صادقًا كصاحب ذي الجنتين، وكان في حرز الإيمان قُبالةَ الشيطان وكيدِهِ، ولم يتخذ شركاء يعبدهم من دون الله تعالى، وسار خلف المرسلين المبشرين المنذرين، واقتفى أثر موسى ـ عليه السلام ـ في طلب الحق، والتضحية من أجله في أدب، وتواضع، وغَيرَة على الدين، وحرمات الله تعالى، فإنَّ مصيرَه كذي القرنين في التمكين والسيادة في الدنيا، وما كان صدفة أن يمكث النبيُّ ﷺ في هجرته في ذلك الغار المظلم الموحش، في معية الله وصاحبُه،

(١) إشارة إلى الحديث الشريف «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء»، مسلم، الصحيح الجامع: (١/ ٣٥٠).

ليستحيل الغار نورًا وأنسًا، ومنطلقًا لدولة النور، التي ستبلغ المشارق والمغارب يومًا ما، وقد بلغت ذلك بعزٍّ أعزَّ الله فيه الحق وأهله، وذلٍّ أذل الله فيه الباطل وأهله.

تختم الآيات بقصة ذي القرنين، الأنموذج لصاحب الآمـال العُلْوِية، وقد تدرجت سـورة الكهف بهذه الآمال؛ فأصحاب الكهف يأملون النجـاة من سطوة الحاكم الظالم، ثم صاحب ذي الجنتين يسعى لما هو أبعد من نجاة النفس في الدنيا والآخرة، يسعى لطلب بعض الدنيا ممن يملكها بتأدبٍ ويقين، يطلب ما يطلب نكاية بصاحبه، وتعليمًا له لأحوال أصحاب الأدب مع الله تعالى، لترتقي السورة بأنموذج موسى ـ عليه السلام ـ الذي أراد العلم الموصل إلى الله تعالى، فكان في أمله أرقى من سابقيه.

لنصل إلى قمة الآمال في سورة الكهف... لنصل إلى إرادة تعبيد الكون لله تعالى، تعبيد المشرق والمغرب، وتحكيم الشرع العظيم في الأرض، بل لعظيم آماله صار مِشْعَلاً يَقبِسُ منه الناسُ الأملَ، وعدمَ اليأس، والتعلقَ بالله تعالى والثقةَ به، مع ما يلزم من اتِّباع الأسباب، حتى تأملوا فيه النجاة لأنفسهم، فسألوه أنْ يخلِّصَهم من عدوهم، ولا نَزال حتى الساعة نعيش ببركة هذا الرجل الصالح ـ بعد فضل الله تعالى ـ إذ حصر الله على يده قومًا ليس لأحد من خلق الله بهم طاقة، حتى عيسى ـ عليه السلام ـ سيفرُّ بالمؤمنين خوفًا من ملاقاتهم إلى الطور.

يُعَدُّ ذو القرنين الأنموذج الأرقى في آماله، والأخذ بأسبابها، بل وما يتجاوز هذا، حيث كان له دورٌ بائنٌ في بث روح الأمل في الكسالى الذين لا يفقهون القول فضلاً عن العمل، فَقَبلَ أنْ يُنقِذَهم من عدوهم أنقذهم من أنفسهم، ومن الإحباط المستولي عليها واليأس القابع فيها، فلما سألوه أنْ يبنيَ لهم سدًا على الأرض، هَدَمَ السدَّ الذي في تصوراتهم من العجز والضعف قبل ذلك، ولما أفلح في هدمه، بنى

السدَّ في الأرض، وبأيديهم، فَهُمُ الذين أعانوه بالقوة، وجمعوا له زُبرَ الحديد، وهم الذين نفخوا فيه حتى صار نارًا، وهم الذين جاؤوا بالقطر وأفرغوه حتى تمَّ السدُّ. . . إنَّ الذي تغير ليس قوتهم العضلية، ولا إمكاناتهم المادية، ولا الطبيعة الجغرافية للمنطقة، ولم يتغير عدوُّهم بطروء ضعفٍ عليه، أو ضغطٍ خارجي، إنَّ الذي تغيَّر هو نفوسهم، حيث استبدلوا يأسهم بأملٍ، وخوفَهم من عدوهم برجاء الخلاص منه.

ثم تختم السورة بالنموذجين المتقابلين، نموذج الشيطان ومن لفَّ لفه من أصحاب الآمال الخائبة، الذين تعلقت آمالهم بالدنيِّ الفاني، وهم يحسبون أنهم على خير أو يحسنون صنعا، ونموذج المتقين، الذين يأملون ويرجون لقاء ربهم؛ فسلكوا أحسن السبيل، وأخلصوا في السلوك، فما خابوا.

وهكذا أنتهي من استعراض السورة، وقد ظهر كيف أنها تتمحور حول الأمل الراشد، الذي يرتكز على الأخذ بأسبابه من العمل الصالح، وحسن التصور، والثقة، واليقين، مع التضحية، والبذل.

إنَّ آية الأمل في سورة (الكهف) جاءت بعد ضرب مثال يكشف حقيقة الدنيا، فشبَّهها بالنبات الذي يغري صاحبه في خضرته، حتى إذا ما تعلقت نفسه به استحال هشيمًا ضعيفًا مصفرًّا تعبث به الريح، لتقرر من بعد أنَّ هذه الدنيا وكل ما يتعلق بها، ويشد إليها، لا يَعْدو كونه زينة، ووَصْفُهُ للمال والبنين بأنهم زينة ليس تزهيدًا بالزينة في ذاتها؛ لأن الزينة في دين الله ليست حرامًا، «وقد أنكر القرآن بأسلوب قوي تحريم زينة الحياة، تجد ذلك في نبرة هذا الأسلوب الظاهر، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢] وزينةُ الله زينةٌ مضافة إليه سبحانه، فهي الزينة التي أصلها الطهر والنقاء، والقرآن يخاطب البشرية كلها، ويأمرها بأن تأخذ زينتها، فيقول: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ

كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[الأعراف: ٣١] فارتياد المساجد من مظانِّ الزينة، والعندية ترفع قيمة هذه الزينة، فهي عند المساجد، وبيوت الله، ولطلب مرضاته، وابتغاء وجهه»[(١)]. أما إذا كانت الزينة مرتبطةً بالحياة، ولأجلها فهي المذمومة، ويظهر هذا في وصفها بـ «الدُنيا»، فإذا كانت الحياة جميعًا مذمومةً، فكيف بزينتها، فالذمُّ لاحِقٌ بالزينة من باب الأولى، ولذلك جاء من أوصاف العمل الصالح ـ وهي كثيرة ـ بوصف الباقيات؛ للتعريض بالزينة وذمِّها على طريقة المقابلة، فهي زائلة مثل الحياة الدنيا، أما الباقيات من الأعمال الصالحة الموافقة لما جاء به الشرع، فهي التي من حقها أن توصف بالخيرية، وفي هذا تعريض آخر بالزينة، ومما يرفع قدر هذه الخيرية العندية «عِندَ رَبِّكَ»، وفي قوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ تعريض ثالث بالمال والبنين؛ «لأن الآمِلَ فيهما إنما يأمل حصول أمر مشكوكٍ في حصوله ومقصورٍ على مدته، أما الآمِلُ لثواب الأعمال الصالحة فهو يأمل حصول أمرٍ موعودٍ به من صادق الوعد»[(٢)] وتقديم المال على البنين في الذكر؛ لأنه أسبق خُطورًا لأذهان الناس، فيرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ، وقد يُكتفى من الأولاد بالنزر، وليس كذلك المال إذ النفس لا تشبع منه، إلا من رحم الله.

ثانيًا ـ الرجاء:

الجذر (رجو) جذر غني في القرآن الكريم؛ فعدد الكلمات المختلفة منه في القرآن الكريم أربع عشرة كلمة، وهي على النحو التالي مع عدد مرات ورودها، ومواطن ورودها في القرآن الكريم:

---

(١) محمد، محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب: (ص٢٤٩) بتصرف.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٥/ ٧٨).

١ ـ أرجائها: (١) الحاقة (١٧).

٢ ـ أرجه: (٢) الأعراف (١١١)، الشعراء (٣٦).

٣ ـ تَرجُون: (١) نوح (١٣).

٤ ـ تَرجُوها: (١) الإسراء (٢٨).

٥ ـ تُرجِي: (١) الأحزاب (٥١).

٦ ـ مَرجُوًا: (١) هود (٦٢).

٧ ـ يَرجُو: (٤) الأحزاب (٢١)، الممتحنة (٦)، الكهف (١١٠)، العنكبوت (٥).

٨ ـ يَرجُونَ: (١١) يونس (٧/ ١١/ ١٥)، الفرقان (٢١/ ٤٠)، البقرة (٢١٨)، الجاثية (١٤)، فاطر (٢٩)، النساء (١٠٤)، النور (٦٠)، النبأ (٢٧).

٩ ـ مُرجَونَ: (١) التوبة (١٠٦).

١٠ ـ وارجُوا: (١) العنكبوت (٣٦).

١١ ـ ويرجُو: (١) الزمر (٩).

١٢ ـ تَرجُو: (١) القصص (٨٦).

١٣ ـ وترجونَ: (١) النساء (١٠٤).

١٤ ـ ويرجونَ: (١) الإسراء (٥٧).

عدد الكلمات الكلي لهذه المادة هو ثماني وعشرون كلمة، وسنعرض لدلالة (رجو) في السياق القرآني، بحيث سنأخذ بعض الأمثلة من التي لا تدل دلالة ظاهرة على معنى الأمل، وسنترك الظاهر منها حتى لا يطول المقام.

* أرجائها:

أما صيغة «أرجائها» فهي من سورة (الحاقة) في سياق الحديث عن يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦ ـ ١٧]، قوله:

«أَرْجَائِهَا» قال الطبري: يعني حافات السماء وأطرافها ما لم يَهِ منها ولم يتشتت[١]. اهـ.، ويقول الزمخشري: الأرجاء: الجوانب جمع رجا مقصورًا، والمعنى: أن السماء إذا انشقت عدلت الملائكة عن مواضع الشق إلى جوانب السماء، ونقول: فناؤه فسيح الأرجاء لأنه مقصد لأهل الرجاء[٢]. اهـ.

ومعنى الرجاء: طلب ما فيه نجاة ومسرة، وهذا ظاهر في استخدام القرآن لكلمة أرجائها؛ لأن الملائكة لا يتركون مساكنهم ويفرون إلى أكناف السماء وحافَّاتِها، إلا أملاً بالنجاة، ونيل مسرة السلامة، وكانت عبارة الألوسي محفوفةً بالتوفيق في هذا السياق حيث قال: «وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا»؛ أي: على ما لم ينشق منها، ولعل ذلك الالتجاء منهم للأطراف مما داخلهم من ملاحظة عظمة الله ﷻ[٣]. اهـ.

ومعنى الأمل بالنجاة ظاهر في استعمال كلمة ﴿أَرْجَائِهَا﴾ مع دلالتها على الحواف والأكناف، فهي حواف ليست مقصودة إلا لظن حصول النجاة عند الالتجاء إليها.

---

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد (ت٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٢٨/ ٥٨١).

(٢) الزمخشري، الكشاف: (٤/ ١٣٤).

(٣) الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن: العظيم والسبع المثاني: (١١/ ٢١٨).

* أرجه:

أما كلمة «أَرْجِهْ» في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، فهي بمعنى التأخير والحبس لموسى وهارون ـ عليهما السلام ـ طمعًا في حضور السحرة؛ ليغالبوهما فيما ظنوا أنه سحر؛ فينكشف أمرهما.

قال أبو السعود: والمعنى: أَخِّرْهما وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما، وتُدَبِّر شأنهما[1]. اهـ. وقال ابن عطية: أشار الملأ على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون، ويَدعَ النظر في أمرهما ويجمعَ السحرة من كل مكان؛ حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بينة[2]. اهـ. بل ولعل في ثنايا «أَرْجِهْ» الدلالة على الأمل في الغلبة المحالفة لموسى عليه السلام وأخيه، والإشارة إلى قوة موقفهما، (ففي مشورتهم على فرعون بإرجائه ونهيهم له عن قتله ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم خافوا إن قتلوه أن يُفتن الناس بما شاهدوه منه، وأمّلوا إنْ جاء السَّحَرةُ أنْ يغلبوه.

الثاني: أنهم شاهدوا من فعله ما بهر عقولهم، فخافوا الهلاك من قتله.

الثالث: أن الله صرفهم عن ذلك تثبيتًا لدينه وتأييدًا لرسوله)[3].

فلا يمكن أن تأتي بكلمة تدل على التأخير، وتدل على معنى إضافيٍّ من طلب الفوز والظفر، وتحقيق الأمل سوى: «أرجه»، وما قيل في آية الأعراف يقال في آية الشعراء.

---

(١) العمادي، أبو السعود محمد بن محمد الحنفي (ت٩٨٢هـ)، إرشاد العقل السليم: (٣/ ١٣٢).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٤/ ٤٥٣).

(٣) الماوردي، أبو الحسن محمد بن محمد حبيب البصري (ت٤٥٠هـ)، النكت والعيون: (٣/ ٢١٦).

* تُرْجِي:

أما كلمة: «تُرْجِي» في قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾[الأحزاب: ٥١]، فجاءت في معنى «ترك المضاجعة»[١] وتأخيرها، وما كان هذا الإرجاءُ إلا ليكون من بعده الإيواء والمضاجعة لمن يحبها من زوجاته ﷺ، لذلك قالت عائشة ﵂ عند نزول هذه الآية: «يا رسول الله! ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»[٢].

إذًا فالحديث عن علاقة النبي ﷺ بزوجاته، حيث كانت إباحة من الله تعالى لرسوله الكريم في أن يترك القسمة، والتسوية بين أزواجه، حتى إنه ليؤخر من شاء منهن عن وقت نوبتها، ويطأ من يشاء من غير نوبتها، ويكون الاختيار في ذلك إليه يفعل ما يشاء، وهذا الأمر من خصائصه ﷺ.

وهذا التخيير توسعة على رسول الله؛ ليتحقق له المزيد من السعادة والهناء، ويبلغ ما يأمل من محبوباته.

«ومقابلة الإرجاء بالإيواء تقتضي أن الإرجاء مراد منه ضد الإيواء، وهو تأخير الاستمتاع إلى وقت مستقبل يريده، والإيواء ضده. وبذا يسقط احتمال كون الطلاق من معاني الإرجاء، ويتعين أن الإرجاء منصرف إلى القَسم، فيباح للنبي ﷺ أن يسقط حق بعض نسائه في المبيت معهن، فصار حق المبيت حقًا له لا لهن، بخلاف بقية المسلمين»[٣].

وهذه الرحمة والتوسعة ما كانت لتدرك إلا من خلال قوله تعالى: ﴿تُرْجِي﴾.

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٣/ ١٥٤).

(٢) البخاري، الصحيح الجامع، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد: (٨/ ٧٨).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٢٢/ ٨٩).

ومن أسرار التعبير بكلمة: ﴿تُرْجِي﴾ أيضًا إدخال السرور على زوجات النبي ﷺ، وإحياء الأمل في قلوبهن؛ لأنهن يعلمن أن مشيئة النبي في ذلك بأمر من الله «فالتي ضمها رسول الله تفرح بحبه ولقائه، والتي أُخرت تفرح لأن رسول الله أبقى عليها، وسيعود إليها ويضمها إليه ويقربها، فالأمر ليس طلاقًا، إنما إرجاءً وتأخيرًا فحسب»[1]، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾[الأحزاب: ٥١] وكيف لأي منهنَّ ألاَّ تحزن إذا طلَّقها رسول الله ﷺ وكيف لهن أن تقر أعينهن إلاَّ بمعية رسول الله ﷺ.

وبعد هذا الاستعراض تظهر دلالة «تُرْجي» على التأخير، لكنه تأخير فيه تحقيق السعادة، وبلوغ الآمال لرسول الله ﷺ وكذلك لأزواجه الكريمات أمهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ـ، وليس لفظٌ في قاموس العرب يدل على التأخير ويحمل معه هذه المعاني سوى «تُرْجي».

*** مُرجَوْن:**

أما كلمة ﴿مُرْجَوْنَ﴾ فجاءت في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ١٠٦]، وهذه الآية خبرٌ معطوفٌ على الخبر عن أصناف الناس في المدينة المنورة بإزاء غزوة العسرة، فمنهم السابقون ومنهم المنافقون ومنهم الذين خلطوا أعمالهم صالحها بالسيِّء، ومنهم من بقي من المخلفين لم يَتُبِ الله عليه، وكان أمرهم موقوفًا إلى أن يقضي الله بما يشاء، وهؤلاء نفر ثلاثة[2] قد تخلفوا عن غزوة تبوك، «ولم تصرح الآية بقبول توبتهم، ولم تَسِمْهم باليأس من غفرانه، فوقفوا على قدم الخجل، متميلين بين الرهبة، والرغبة، مترددين

---

(١) محمد متولي الشعراوي، التفسير: (١٠/ ٤١٠).

(٢) هم: كعب بن مالك، هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع ﷺ.

بين الخوف والرجاء»[١]، فإذا تذكروا تقصيرهم تملكهم الخوف والفزع، وإذا تذكروا رحمة الله عظم الرجاء والأمل بمغفرته وعفوه في نفوسهم، كما قال بعضهم[٢]:

ويشبعني من الآمال وعد ... ومن علمي بتقصيري وعيد

والحكمة من إيهام أمرهِم إثارةُ الهمِّ والخوف في قلوبهم؛ لتصح توبتهم؛ لأن التوبة عندما تجيء بعد ندم شديد، وتأديب نفسي، تكون مرجُوَّة القبول منه سبحانه.

وليحرك في نفوسهم دواعي التوبة الصادقة؛ قدَّمَ خيار التعذيب على المغفرة والعفو، مع الإشارة إلى أن باب التوبة مفتوح، وهذه الإشارة في طيات كلمة ﴿مُرْجَوْنَ﴾، ومنها جاءت فرقة المرجئة؛ لأنهم أخَّروا المعصية عن الاعتبار في استحقاق العذاب، حيث قالوا: لا عذاب مع الإيمان، فلم يبق للمعصية عندهم أثر.

أما الثلاثة الذين تخلفوا، فبقي الأمل مشتعلاً في نفوسهم بأن مغفرة الله حاصلة، فَثَبَتُوا على توبتهم بالرغم من هجران النبي ﷺ وأصحابه لهم، وقسوة إبعادهم عن أقرب الناس منهم، حتى زوجاتهم، لخمسين يومًا، إلى أن نزل ما أشارت إليه كلمة ﴿مُرْجَوْنَ﴾ من رجاء التوبة والأمل بالمغفرة، في قوله تعالى:

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة: ١١٧] ومن جميل التعبير أنه أسند الإرجاء لأمر الله لا لأعمالهم؛ إذ لاستحقوا أشد العذاب، فمن رحمة الله تعالى أنه يعامل عباده بما هو أهله، وليس بما هم أهله.

---

(١) القشيري، لطائف الإشارات: (٣/ ١٦٣).

(٢) نفس المصدر السابق، ولم ينسبه لأحد، ولم أجده منسوبًا لمعين.

* مَرجُوًا:

وأما كلمة ﴿مَرْجُوًّا﴾ فلقد جاءت في سورة (هود) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[هود: ٦٢]، يقول الزمخشري: أي: كانت تلوح منك مخايل الخير، وأمارات الرشد، فكنا نرجوك لننتفع بك، وتكون مشاورًا في الأمور، مُسْتَرْشدًا في التدابير، فلمَّا نطقت بهذا القول، انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خير فيك(١). اهـ. وقال الشعراوي: والمرجوّ هو الإنسان المؤمَّل فيه الخير ذكاءً، وطموحًا، وأمانة، وأية خصلة من الخصال التي تبشر بأن له مستقبلاً حسناً، ولكن ما إن دعاهم صالح ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله سبحانه وتعالى، أعلنوا أنه ـ بتلك الدعوة ـ إنما يفسد رجاؤهم فيه وما كانوا يأملون(٢). اهـ.

وهذه نماذج لمادة (رجو) في القرآن الكريم، وسائرُ ما اشتق منها أكثرُ وضوحًا وجلاءً في دلالته على الأمل، وانتظار الخير والمسرة. وسندرس الكثير من الآيات بالتفصيل في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى.

ومن خلال استعراضنا لمادتي (أمل) و(رجا) في اللغة العربية والسياق القرآني، يظهر لنا كم أنَّ قدر الاتفاق بينهما كبير، كما بيَّن اللغويون والمفسرون، ولأنَّ اللغة العربية لا ترادف فيها فإنَّ بين المادتين فروقًا دقيقة، قد تظهر أحياناً بحسب السياق، ومقاصد الكلام، وقد يغيب بعضها أحياناً، إذا كان الكلام في سياق العموم، كما عبَّر أصحاب المعجمات في بيان معنى الأمل أنه الرجاء، وكذلك قالوا في الرجاء هو الأمل.

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٢/ ١٠١).

(٢) محمد الشعراوي، التفسير: (١٠/ ٤١٠).

وتتلخص الفروق فيما يأتي:

أولاً: الأمل رجاء يستمر ويكون لما هو بعيد[١]، أما الرجاء قد لا يستمر ويكون في القريب والبعيد.

ثانيًا: الأمل يكون في الأمور القلبية والمعنوية غالبًا، والرجاء فيهما وكذلك في الماديات.

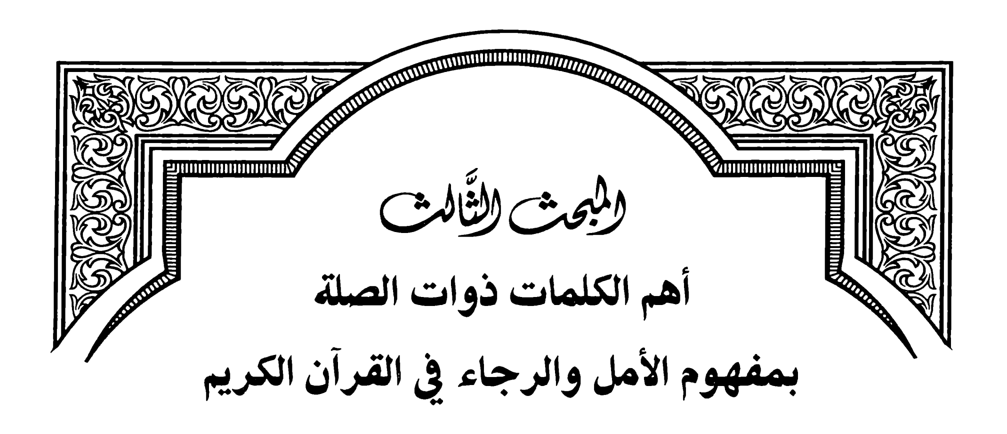
ثالثًا: الأمل يوصف بمدح أو ذم بحسب المأمول، أما الرجاء فمحمود.

رابعًا: الأمل ضده الخيبة، والرجاء ضده اليأس، واليأس يكون قبل الرجاء وبعده، أما الخيبة فلا تكون إلا بعد الأمل[٢].

* * *

(١) العسكري، الفروق اللغوية: (ص٤٣٣).

(٢) المرجع السابق.



المبحث الثالث

أهم الكلمات ذوات الصلة بمفهوم الأمل والرجاء في القرآن الكريم

أولاً ـ (كلمة الأمنية): مِنْ مَنِيَ «والتمني: تشهي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون»[1]، «والتمني: تقدير شيء في النفس، وتصويره فيها، وذلك يكون عن تخمين وظن، ويكون عن رَوِيَّة وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك، فأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له، وكذلك الكذب»[2].

قال الفيروز: والأمنية: طلب الشيء وحبه[3]. اهـ، وقال الزبيدي: هي القصد[4]. اهـ.

قال ابن فارس: الميم والنون والحرف المعتل، أصل واحد صحيح، يدل على التقدير، ونفاذ القضاء به، وماء الإنسان مَنِيٌّ؛ أي يُقَدَّر منه خِلْقَتُه. والمَنِيَّة: الموت؛ لأنها مقدرة على كلٍ، وتمني الإنسان: أملٌ يقدره. وقولنا تمنَّى الكتاب: قرأه، قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[الحج: ٥٢]؛ أي: إذا قرأ. وهو ذلك المعنى لأن القراءة تقدير ووضع كل آية موضعها[5]. اهـ. قال الراغب:

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (١٥/ ٢٩٢).

(٢) الراغب، معجم مفردات القرآن: (ص٤٩٦).

(٣) الفيروزأبادي، القاموس المحيط: (٣/ ٤٧٧).

(٤) الزبيدي، تاج العروس: (١٤/ ٣١٢).

(٥) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٧/ ٢٣١).

في قوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾؛ أي: تلاوته، فقد تقدم أن التمني كما يكون عن تخمين وظن، فقد يكون عن رَوِيَّة وبناءٍ على أصل، ولما كان النبي ﷺ كثيرًا ما يبادر إلى ما نزل به الروح الأمين على قلبه حتى قيل له: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾[طه: ١١٤] و﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[القيامة: ١٦]، سمى تلاوته على ذلك تمنيًا[1]. اهـ. ولو سلَّمنا بأنَ القراءة من المعاني التي تخرج إليها ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ في الآية الكريمة؛ فيكون المعنى بهذا الاعتبار: أنَّ النبي والرسول إذا قرأ على الناس ما أنزل إليه ليهتدوا به، ألقى الشيطان في أمنيته؛ أي: في قراءته، أي وسوس لهم في نفوسهم ما يناقض تلاوته ويُنَافِيها، فالإلقاء للناس ليُكذِّبوا ويعرضوا عن التدبر، وليس في تلاوة النبي؛ فيُشكلُ عليه النازل، كما في رواية الغرانيق. والأَوْلى بالصواب أن نفهم التمني على المعنى الظاهر المتبادر ـ القريب من الرجاء والأمل ـ وهو إرادة الهدى والصلاح للناس، وإلقاء الشيطان يدل على إلقاء الضلال والفساد، والتقدير: أدخل الشيطان في نفوس الأقوام ضلالات تفسد ما قاله الأنبياء من الإرشاد. فإلقاء الشيطان في أمنيّة النبي والرسول إلقاءُ ما يعاكسها، كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾[الأعراف: ٢٧]، أو يصح أن النبي إذا تمنَّى هداية قومه وصلاحهم، فإنَّ الشيطان يلقي في نفسه خواطر اليأس من هداهم، عسى يقصر في دعوته، ويضجر منهم، وهي خواطر سرعان ما تتبدد على صخرة العصمة الربانية، ليثبت النبي والرسول على ما كلفه الله تعالى به من واجب التبليغ.

عدد الكلمات المختلفة من مادة (مَنِيَ) خمس عشرة كلمة، وعدد الكلمات الكلي لهذا الجذر إحدى وعشرون كلمة، وسنعرض لبعض هذه النماذج لنستظهر مقدار صلة مادة (مَنِيَ) بموضوع دراستنا (الأمل والرجاء).

---

(١) الراغب، معجم مفردات القرآن: (ص٤٩٦).

ـ وأولها ورودًا في القرآن ما جاء في سورة (البقرة) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨]، الآية مسوقة لبيان قبائح جهلة اليهود، إثر بيان شنائع الطوائف السالفة، وهذا ما يدل عليه سباق النظم وسياقه، والأميُّ: من لا يقرأ ولا يكتب، والكتاب هو التوراة و«الأمانيّ» جمع أمنيَّة وهو ما يقدره الإنسان في نفسه، وتطلق على الكذب.

قال الألوسي: الأماني: الأكاذيب التي أخذوها من شياطينهم ومنها أمانيهم أن الله يعفو عنهم، ويرحمهم، وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا، وأن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودة، وغيرها[1]. اهـ.

«والاستثناء منقطع، فما يتمنونه ليس من جنس علم الكتاب؛ أي: لا يعلمون الكتاب، لكن يتمنون أماني حسبما مَنَّتْهم أحبارهم من الأماني الفارغة، المستندة إلى الكتاب على زعم رؤسائهم»[2].

ـ وكذلك جاءت ﴿فَتَمَنَّوُا﴾ و﴿يَتَمَنَّوْهُ﴾ في سياق واحد من سورة البقرة، حكاية عن بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٩٤ ـ ٩٥]، حيث يكشف الله زيفهم، وكذبهم في طلب الآخرة، وحب بلوغ الجنة، «فمن أيقن أنه من أهل الجنَّة اشتاق إليها تخلصًا من الدار ذات الشوائب، لكنهم لن يتمنوه ما عاشوا؛ لقبيح ما أسلفوا من الكفر والجحد والتحريف»[3].

---

(١) الألوسي، روح المعاني: (١/ ٢١٠).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ١١٥).

(٣) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (١/ ٦٣).

قال رشيد رضا: والتمني: هو ارتياح النفس، وتشوفها إلى الشيء توده، وتحب المصير إليه، فإن كنتم صادقين في التشوف للآخرة، وصحت دعواكم وصدق قولكم: إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وإنكم شعب الله المختار، ولن تمسكم النار إلا أيامًا معدودة، فتَمَنَّوُا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم، لا منازع لكم فيه ولا مزاحم، وإنْ لم تتمنوا الموت فما أنتم بصادقين؛ إذ لا يعقل أنْ يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها[1]. اهـ.

ـ ومثال آخر على مادة (مَنِيَ) في القرآن الكريم كلمة ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ و﴿أَمَانِيِّ﴾ حيث جاءتا في سياق واحد من سورة النساء: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾[النساء: ١٢٣] الخطاب موجه للمسلمين «لَمَّا تفاخروا وأهل الكتاب، فقال المسلمون: نحن أهدى منكم سبيلاً. وقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم سبيلاً. فقال الله لهم: ليس الأمر بأمانيكم يا معشر المسلمين التي تمنيكم إياها أنفسكم، أو يوسوس بها الشيطان، وليس بأماني أهل الكتاب، الذين قالوا اغترارًا بالله وبحلمه عليهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠] و﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، فإن الله يجازي كل عامل منكم جزاء عمله، من يعمل منكم سوءًا ومن غيركم، يُجْزَ به، ولا يجد له من دون الله وليًا ولا نصيرًا، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة، ولا يظلمون نقيرا، فأفلح اللهُ حجة المسلمين على مَنْ ناوأهم مِنْ أهل الأديان»[2].

---

(١) رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين البغدادي الأصل (ت١٩٣٥م)، المنار: (١/ ٣٢٢).

(٢) الطبري، جامع البيان: (٣/ ٢٦).

فالأمانيُّ في الآية: ما يريد المرء بلوغه بغير أخذ أسبابه، مما يستحيل بلوغه، وبذا فالأمانيُّ مذمومةٌ في كتاب الله ﷻ، ودليلُ ذمِّها أنها من أعظم أسلحة الشيطان، كما ورد في ذات السياق من نفس السورة أنَّ الشيطان توعد بالإضلال، والإيقاع في شَرَكِ الأماني، وأنها لا تعدو كونها وعودٌ وأكاذيب، لا تغني عنهم شيئًا، قال الله تعالى: ﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾[النساء: ١١٨ ـ ١٢٢].

ـ وجاءت الأماني في معرض المدح في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحج: ٥٢]، ولقد سبق الحديث في بيانها، لكن لا بأس أن نزيد البيان بياناً، مما: قاله أهل العلم والفضل، فقوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي: هيأ في نفسه ما يهواه: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»(١).

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته عن الركون إليه، وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ «أي: يثبت آياته الداعية إلى

---

(١) مسلم بن الحجاج، الصحيح الجامع، باب: استحباب الاستغفار والاستكثار منه: (٣/ ٢١٦)، والنسائي، السنن الكبرى: (٦/ ١١٦).

الاستغراق في شؤون الحق»[١]. فالأمنية هي حديث نفس الأنبياء لحرصهم على إيمان أقوامهم، والأمنية: هي طلب الشيء العسير حصوله، وإنما يتمنى الرسل والأنبياء أن يكون قومهم كلهم صالحين مهتدين، وسمِّي هذا الطلب أمنية؛ لاستحالة وقوعه فلقد بيَّن القرآن حالَ البشر وصدَّ غالبهم عن الحق، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[يوسف: ١٠٣].

هذه أمثلة لبعض ما اشتق من مادة (مَنِيَ)، وجميعها في ذات الفلك، ولعل الصلة بينها وبين الأمل والرجاء ظاهرة، غير أن الأماني لما يستحيل حدوثه في غالب الشأن، ويكثر أن تكون من الشيطان، وفي باطل الأمور، كما أنها طلب ما لم يؤخذ بأسباب بلوغه، أو لا يملك أن يأخذ بالأسباب؛ لأنها من المُحالات، قال صاحب (الفروق): التمني: معنى في النفس يقع عند فوت فعل كان للتمني في وقوعه نفع، أو في زواله ضرر، مُسْتَقْبَلاً كان ذلك الفعل أو ماضيًا، ويجوز أن يتعلق التمني بما لا يصح تعلق الإرادة به أصلاً، وهو أن يتمنى الإنسان أن الله لم يخلقه، وأنه لم يفعل ما فعل أمس[٢]. اهـ. ولا يصح أن يأمل ذلك أو يرجوه ومتى قال الإنسان: ليت الأمر كذا فهو عند أهل اللسان متمنٍّ ولا يصح أن يُقال: مؤمِّلٌ ولا راجٍ.

ثانيًا ـ كلمة (الود): مِنْ وَدِدَ، قال الزبيدي في (التاج): الودُّ والوداد: الحب والصداقة، ثم استعير للتمني وقال ابن سيده: الود: الحب يكون في جميع مداخل الخير وهو من الأمنية، وفي قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾[البقرة: ٩٦]؛ أي: يتمنى[٣]. اهـ.

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٤/ ٤٧٤).

(٢) العسكري، الفروق في اللغة: (ص٢٠٠)، بتصرف يسير حيث كان يفرق بين التمني والإرادة، فجيَّرته للتفريق بين التمني والأمل والرجاء مستعينًا بعد الله تعالى باللغة والمعجمات.

(٣) الزبيدي، تاج العروس: (٩/ ٢٧٨).

وقال صاحب (معجم المفردات): الود: محبة الشيء وتمني كونه، ومنها في القرآن الكريم ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[آل عمران: ٦٩] وقوله: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[الانفال: ٧][(١)]. اهـ.

قال ابن فارس: (ودَّ) الواو والدال: كلمة تدل على محبة، وَدِدْتُه: أحببته، ووَدِدْت أنّ ذاك كان، إذا تمنيته. وأودُّ: تدل على المحبة والتمني، وفي المحبة: الوُدُّ، وفي التمني: الوَدَادة[(٢)]. اهـ. قال ابن منظور: الوُدُّ: الأمنية، قال الشاعر:

وددت ودادة لـــو أن حظـــي   مـــن الخـــلان أن لا يـــصرموني

أي: تمنيت. ووَدِدْت الرجل أوَدُّه ودًّا: إذا أحببته، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[الشورى: ٢٣] أي: المحبة، ومن أسماء الله الحسنى: الودود؛ أي: المحب لعباده، والله تعالى مودود؛ أي: محبوب في قلوب أوليائه[(٣)]. اهـ.

قال الراغب: الودود يتضمن ما دخل في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ﴾[المائدة: ٥٤].

عدد الكلمات المختلفة من الجذر (وَدِدَ) في القرآن الكريم تسع عشرة، وعدد الكلمات الكلِّيّ لهذا الجذر بتكراراتها تسع وعشرون كلمة، وسنعرض لبعض الأمثلة من القرآن الكريم؛ لنستظهر صلة هذه المادة ببحثنا.

ـ وأول مرة وردت مادة (وَدِدَ) في القرآن الكريم في سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ٩٦] (والآية

---

(١) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن الكريم: (ص٥٥٣).

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٦/ ٥٥).

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (١٦/ ٢٣١).

حكاية عن اليهود، ووصف حبهم للحياة الدنيا في كل أحوالها، وفي أيـِّها، وأن حبهم تجاوز حب الناس جميعًا حتى المشركين منهم، والوجدان عقلي جارٍ مجرى العلم، خلا أنه مختص بما يقع بعد التجربة)[١].

والود: هو الحب وفيه معنى التمني، قال صاحب (المنار): أي: يتمنى لو يعمر ألف سنة أو أكثر؛ لأن لفظ الأَلْفِ عند العرب منتهى أسماء العددِ، فيعبر به عن المبالغة في الكثرة[٢]. اهـ. وقال القرطبي: أصل (يودُّ) يَوْدَد، وأدغمت لئلا يجمع بين حرفين من جنس واحد متحركين. ومعنى يودّ: يتمنى[٣]. اهـ.

ـ وكذلك جاءت كلمة ﴿يُوَآدُّونَ﴾ في سورة المجادلة، في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[المجادلة: ٢٢]، قال الخازن: أخبر الله تعالى أن إيمان المؤمنين يَفْسُد بموادة الكافرين، وأن من كان مؤمنًا لا يوالي من كفر، لأنَّ من أحب أحدًا امتنع أنْ يحبَّ عدوَّه. فإن قلت: قد أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالفتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحظورة؟ قلت: المودة المحظورة هي مناصحتهم، وإرادة الخير لهم دينًا، ودنيا، مع كفرهم، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه[٤]. اهـ.

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ٩٨).

(٢) محمد رشيد رضا، المنار: (١/ ٣٢٣).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١/ ٢٧٤).

(٤) الخازن، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي (ت٧٤١هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن: (٦/ ٦٨).

وكم حالفه التوفيق رحمه الله بهذا المعنى الدقيق حيث إنَّ للوُدِّ معنًى يتجاوز مجرد الحب، لينضاف له إرادة الخير لهم ورجاؤه.

ـ واسم الله (الوَدُود)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البرج: ١٣ ـ ١٤]، قال الزمخشري: الوَدُودُ: الفاعل بأهل طاعته ما يفعله الودود من إعطائهم ما أرادوا[١]. اهـ. وقال البقاعي في (دُرَرِه): أي: الذي يفعل بمن أراد فعل المحب الكثير المحبة، فيجيبه إلى ما شاء، ويلقي على صاحب الذنب الذي محاه عنه وُدًّا؛ أي: محبة كبيرة واسعة، ويجعل له في قلوب الخلق رحمة. قال الإمام أبو حسن الحَرَّالي: الوُدُّ: خُلُوٌّ عن إرادة المكروه، فإذا حصل إرادة الخير وإيثاره، كان حبًا، ومن لم يرد سواه فقد ودَّ، ومن أراد خيرًا فقد أحب، والود أول التخلص من داء أثر الدنيا، بما يتولد لطلابها من الإزدحام عليها من الغل، والشحناء، فمن ودَّ لا يقاطع، ومن أحب واصل وآثر، والودود: هو المبرأ من جميع جهات مداخل الشرور ظاهرة وباطنة[٢]. اهـ. ولذلك عبَّر عن العلاقة الزوجية بقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فالمودة تتجاوز إرادة الخير، إلى الخلوِّ عن إرادة الشر مطلقًا، فهي مرتبةٌ تفوق الحبَّ؛ فليس كل من يريد الخير لأحدٍ يمتنع أن يريد له الشر في زمن من الأزمان.

ـ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، قال صاحب (البحر المحيط): آنس الله المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم ﴿وُدّٗا﴾ وهو ما يظهر عليهم من كرامته، لأن محبة الله للعبد إنما هي

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٤/ ٤١٥).

(٢) البقاعي، أبو الحسن إبراهيم بن عمر الرباط (ت٨٨٥هـ)، نظم الدرر: (٩/ ٣٨٦).

ما يظهر عليه من نعمه[١]. اهـ. وقال الرَّازي: أي: يهب لهم ما يحبون، والود والمحبة سواء[٢]. اهـ. وكذلك يجعل محبة بينهم وبين عباده الصالحين، ويجعل لهم أوِدَّاءَ من الملائكة كذلك، وهذا أيضًا ممَّا يتمناه المؤمنون أهلُ الجنة. وكان أول صنم عُبِدَ من دون الله هو (ودٌّ) كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح: ٢٣]، وذلك لودِّهم له، وظنهم أنه مجلبة لما يَوَدُّون ويرجون من محبوباتهم وأمانيهم، ونجاةٌ لهم من كل شر ومكروه.

ويعد هذا التطواف مع بعض الأمثلة من مادة (وَدِدَ) نجد صلتها الكبيرة بالأمل والرجاء، فالوُدُّ أكثر ما يكون لطلب الخير وإرادته، ويكون كذلك في الشر، غير أنه إذا جاء في معرض الشر؛ فلأن الْوَادَّ لسوء فهمه يعتقد أنَّ الخير في وُدِّه، كما قال تعالى العظيم: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[الأنفال: ٧]. والودُّ في الممكنات، بخلاف الأماني، وهو بذا قريب من الرجاء والأمل أكثر، والود يكون للشيء من غير بذل أسبابه، وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[مريم: ٩٦]، قال أبو السعود: أي: سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تعرض منهم لأسبابها سوى الإيمان والعمل الصالح[٣]. اهـ.

ثالثًا ـ كلمة (طمع): قال ابن فارس: فالطاء والميم والعين، أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدل على رجاء في القلب قويٍّ للشيء، يقال: طَمِعَ في الشيء طَمَعًا وطَمَاعة وطَمَاعية. ولَطَمُعْتَ يا زيد، عند التعجب، ويقال: امرأة مِطماعٌ، للتي

---

(١) أبو حيان، علي بن محمد بن العباس التوحيدي (ت٤٠٠هـ)، البحر المحيط: (٧/ ١٥١).

(٢) الفخر الرازي، أبو عبدالله محمد بن عمر (ت٦٠٦هـ). التفسير الكبير: (٧/ ٤١١).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل: (٤/ ٣٣٤).

تُطمِعُ ولا تُمَكِّن[١]. اهـ. وأضاف الزبيدي: ويقال عن رزق الجنود: أطماع، أخذ الجنود أطماعهم؛ أي: أرزاقهم، والمطمعة: ما طَمِعْتَ من أجله، يقال: إنَّ قول الخاضعةِ من المرأةِ لَمطْمَعَةٌ في الفساد؛ أي: مما يُطمع ذا الريبة، قال النابغة الذبياني:

واليأس مما فات يُعقِبُ راحة ولربَّ مطمَعَةٍ تعود ذباحًا

وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ: الطمع فقرٌ واليأس غنًى[٢]. اهـ.

قال الراغب: الطمع: نزوع النفس إلى الشيء شهوة له، ولما كان أكثره من جهة الهوى قيل: الطمع طبعٌ، والطبع يدنس الإهاب[٣]. اهـ.

عدد الكلمات المختلفة من الجذر (طمع) في القرآن الكريم تسع، وعدد الكلمات الكلي لهذا الجذر بتكراراتها هو اثنتا عشرة كلمة، وسنعرض لبعض الأمثلة من القرآن الكريم؛ لنستظهر صلة هذه المادة بموضوع بحثنا.

ـ كان أول ورود لمادة (طمع) في القرآن الكريم في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٧٥]، قال الطبري: أي: أفترجون يا معشر المؤمنين بمحمد ﷺ والمصدقين ما جاء من عند الله، أن يؤمن لكم يهود بني إسرائيل؟[٤]. اهـ.

وقال في (نظم الدرر): ولمَّا بيَّن سبحانه أنَّ قلوبهم صارت من كثرة المعاصي، وتوالي التجرؤ على بارئها محجوبة بالرين، كثيفة الطبع، بحيث إنها أشد قسوة من

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٣/ ٣٣٢).

(٢) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (٢١/ ٤٥٩).

(٣) الراغب، معجم مفردات القرآن: (ص٣١٦).

(٤) الطبري، جامع البيان: (١/ ٢٤٤).

الحجارة، تسبب ذلك في بعدهم عن الإيمان، فالتفت إلى المؤمنين؛ يؤيسهم من فلاحهم؛ تسلية للنبي ﷺ عما كان يشتد حرصه عليه من طلب إيمانهم، في معرض التنكيت عليهم، والتبكيت لهم، منكرًا للطمع في إيمانهم بعد ما قرر من كفرانهم فقال:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ والطمعُ: تعلق البال بالشيء من غير تقدم سبب له[١]. اهـ. قال أبو السعود: «أفتطمعون» تلوينٌ للخطاب، وصرف له عن اليهود إثر ما عُدت من سيئاتهم، ونعيت عليهم جناياتهم إلى النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين، والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده، والمعنى: أَبَعْدَ أنْ علمتم تفاصيل شؤونهم المؤيسة عنهم، تطمعون أنْ يؤمنوا، فإنهم متماثلون في شدة الشكيمة والأخلاق الذميمة، ولا يتأتى من أخلاقهم إلا مثل ما أتى من أسلافهم[٢]. اهـ.

قال في (التحرير والتنوير): الطمعُ: ترقبُ حصولِ شيء محبوب، وهو يرادف الرجاء، وهو ضد اليأس[٣]. اهـ. وقال صاحب (البحر المحيط): الطمع: تعلق النفس بإدراك مطلوب تعلقًا قويًا، وهو أشد من الرجاء، لأنه لا يحدث إلا عن قوةِ رغبةٍ، وشدةِ إرادة، وإذا اشتد صار طمعًا، وإذا ضعف صار رغبةً ورجاءً[٤]. اهـ.

والحق خلاف ما ذهب إليه ابن عاشور؛ إذ ليس بين الطمع والرجاء ترادف؛ كما أشار أبو حيان وهذا ما سنزيده بياناً في آخر هذا المطلب.

- أيضًا الجذر (طمع) وردَ في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ

(١) البقاعي، نظم الدرر: (١/ ١٢٨).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ١٤٨).

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١/ ٢١٠).

(٤) أبو حيان، البحر المحيط: (١/ ٧٥).

﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[الأحزاب: ٣٢]، فالحديث عن زوجات النبي ﷺ وعن فضلهن ـ رضي الله عنهن ـ وأفضليتهن على سائر النساء؛ لِمَا خصهنَّ الله بالقرب من رسوله الكريم ﷺ وتنزل القرآن الكريم في بيوتهنَّ، غير أن هذه الأفضلية رهينة بدوامهنَّ على التقوى، وجعلِهنَّ بينهنَّ وبين غضب الله ورسوله وقاية. وقوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾؛ أي: إذا تكلمت بحضور أجنبي بأن يكون الكلام لينًا رخمًا، «والخضوعُ: التطامنُ، والتواضع، واللين والدعوة إلى السوء «فيطمع» في الخيانة الذي في قلبه ريبة، وفساد، ومرض، والتعبير بالطمع؛ للدلالة على أن أمنيته لا سبب لها في الحقيقة، لأن اللين في كلام النساء خُلُقٌ لهن لا تَكَلُّفَ فيه، فأريد من نساء النبي ﷺ التكلف للإتيان بضدِّه»(١).

ـ وبمثل هذا المعنى جاءت كلمة ﴿يَطْمَعُونَ﴾ في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[الأعراف: ٤٦]؛ أي: رغبتهم شديدة، ورجاؤهم عظيم في دخول الجنة، مع تقصيرهم وعدم بذلهم لأسباب الدخول، فالطمع: تمني ما ليس له سبب، ويظهر خلو الطمع من بذل الأسباب في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾[الرعد: ١٢]، قال البغوي: خوفًا من الصَّاعقة وطمعًا في نفع المطر، وقيل: الخوف للمسافر يخاف منه الأذى والمشقة، والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة(٢). اهـ. ومعلوم أنَّ البرق وما ينتج عنه من غيث وإنبات، ليس شيء من أسبابه في مُكنة البشر، وإلا لقال: «خوفًا وأملاً» أو «خوفًا ورجاءً».

وانظر إلى صاحب (الفروق) في بيانه لِمَا بين الطمع والرجاء من فروق لم يتفطن لها

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٦/ ٤٢٤).

(٢) البغوي، أبو محمد الحسن بن مسعود (ت٥١٠هـ)، معالم التنزيل: (٤/ ٣٠٣).

ابن عاشور ـ رحمه الله ـ، يقول: الفرق بين الرجاء والطمع أنَّ الرجاء هو الظن بوقوع الخير، الذي يعتري صاحبه الشك فيه، إلا أنَّ ظنه فيه أغلب، وليس هو من قبيل العلم، والرجاء الأمل في الخير، ولا يكون إلا عن سبب يدعو إليه من كرم المرجوِّ، أو ما به إليه، والرجاء يتعدى بنفسه نقول: رجوت زيدًا[١]. اهـ.

والطـمع ما يكون من غير سبب يدعو إليه، فإذا طـمعْتَ في الشيء فكأنك حدثت نفسك به، من غير أن يكون هناك سبب يدعو إليه، ولهذا ذُمَّ الطمعُ ولم يذمَّ الرجاء، والطمع لا يتعدى إلى المفعول إلا بحرف فنقول: طمعت فيه.

رابعًا ـ كلمة (الإرادة): قال ابن فارس: (رود) الراء والواو والدال، معظم بابه يدل على مجيء وذهاب وانطلاق من جهة واحدة. تقول: راودته على أن يفعل كذا، إذا أردته على فعله، والرَّود: فعل الرائد. يقال بعثنا رائدًا يرود الكلأ؛ أي: ينظر ويطلب[٢]. اهـ.

قال الزبيدي: الرود الطلب، وهو كذلك الذهاب والمجيء[٣]. اهـ. ويفهم أنه ذهاب ومجيء لطلب حاجة ونفع، لذلك أضاف فقال: الإرادةُ: المشيئةُ وأراد الشيء: شاءه.

أما صاحب (اللسان) فيقول: الرود: مصـدر، فعل الرائد: والرائد: الذي يرسل في التماس النُجعة وطـلب الكلأ، وفي حديث علي بن أبي طالب ﷺ في صفة الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «يدخلون روَّادًا ويخرجون أدلة»؛ أي: يدخلون

---

(١) العسكري، معجم الفروق اللغوية: (ص٤٣٣).

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٢/ ٣٧٩).

(٣) الزبيدي، تاج العروس: (٨/ ١٢٣).

طالبين للعلم ملتمسين للحلم من عنده ويخرجون أدلة هداة للناس[١]. اهـ.

وقال الراغب: الإرادة: قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجُعِلَ اسمًا لنزوع النفس إلى الشــيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل، ثم يستعمل مرة في المبدأ وهو نزوع النفس إلى الشيء، وتارة في المنتهى وهو الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أو لا يفعل، فإذا استعمل في الله فإنه يراد به المنتهى دون المبدأ فإنه يتعالى عن معنى النزوع، فقولنا أراد الله؛ أي: قضى وحكم، وتأتي بمعنى الأمر كقولك: أريد منك كذا.

والإرادة قد تكون بحسب القوة التسخيرية والحسيَّة لذلك تستعمل في الجماد ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾[الكهف: ٧٧] كما تكون بحسب القوة الاختيارية[٢]. اهـ.

عدد الكلمات المختلفة من هذا الجذر أربع وأربعون كلمة، والعدد الكلي لهذه الكلمات بتكراراتها هو ثمانٍ وأربعون ومائة.

ـ أول مرة وردت في القرآن الكريم في سورة (البقرة)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[البقرة: ٢٦]، لما شكك المنافقون واليهود بصدق القرآن، بحجة أنَّ ضربَ الأمثال بالذباب، والعنكبوت، والبعوض، أمرٌ غير متوقع أن يصدر عن الله، جاءت هذه الآية وفقًا لهذا الكذب، وبياناً لحكمة الله في ضرب الأمثال، وتحذيرًا لغير المؤمنين من عاقبة الاستدراج، وتطميناً للمؤمنين أنْ ستزيدَهم إيماناً.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (٣/ ١٨٧).

(٢) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن: (ص٢١٢).

فالمؤمن يعلم أن هذا هو الصدق والحق من الله، وهذا العلم من نور اتصاله بالله، أما الكافر فمحجوب عن الله، وعن أنوار حكمته، ومقطوع الصلة بسنة الله وتدبيره، فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[البقرة: ٢٦] قال أبو السعود: والإرادة: نزوع النفس وميلها إلى الفعل بحيث يحملها إليه، أو القوة التي هي مبدؤه، والأول مع الفعل، والثاني قبله، وكلاهما مما لا يتصور في حق الله تعالى، وقد اختلفوا في إرادته ﷻ، فقيل: إرادته تعالى لأفعاله كونُه غيرَ ساهٍ ولا مُكره، ولأفعال غيرِه أمرُه بها، وقيل: هي علمه باشتمال الأمر على النظام الأكمل[1]. اهـ.

فإرادة الله تعالى هنا حكمه وقضاؤه ـ جلَّ في علاه ـ وحكم الله وقضاؤه له ما بعده، فيصير كأنه بمعنى الطلب؛ لِلاَزِمِه من افتراق الناس وتمايزهم إلى مؤمن وكافر.

ـ وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[الإسراء: ١٨ ـ ١٩] «المعنى: من كان يريد الدنيا العاجلة، ولا يعتقد غيرها، ولا يؤمن بآخرة؛ فهو يفرغ أمله ومعتقده للدنيا، فإن الله يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء هذا المريد، ثم يجعل الله جهنم لجميع مريدي العاجلة على جهة الكفر، من أعطاه منها ما يشاء ومن حرمه. ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ من أراد الآخرة إرادة يقينٍ بها، وإيمانٍ بها، وبالله، ورسالاته، مع اشتراط أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله، على حكم الشرع وطرقه، فأولئك يشكر الله سعيهم وشكره أن يثيب ويغفر»[2]. فمعنى الإرادة هنا:

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ٩٤).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز (٤/ ٢٢٨).

الطلب وتعلق القلب ببلوغ إحدى الخاتمتين، بحسب ما أشرب كل قلب من حب الدنيا أو الآخرة.

ـ وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[يوسف: ٢٣]، «والمراودة على صيغة المفاعلة، المستعملة في التكرير، وهي مشتقة من رَادَ يَرُودُ، إذا ذهب وجاء، شَبَّهَ حال المحاول أحدًا على فعل شيء مُكررًا ذلك، بحال من يذهب ويجيء في المعاودة إلى الشيء المذهوب عنه، فأطلق راود بمعنى حاول»[1]. قال الزمخشري: خادعته عن نفسه؛ أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التمحل لمواقعته إياها[2]. اهـ.

فالإرادة: طلب حثيث للشيء، مع بذل شيء من أسبابه، حيث أنَّ «راد» تقتضي الذهاب والمجيء بقصد الطلب، والذهاب والمجيء سبب لبلوغ المراد. وعلى كلٍ فالإرادة قد تكون لغير المحبوب، لا كما في الرجاء والأمل، فقد يريد الإنسان شرب الدواء؛ ليشفى، لكنه لن يرجوه ولن يأمله، والإرادة تتفق مع الرجاء والأمل في كونها قبل الشيء، وتكون كذلك للمستقبل، والإرادة تكون للغاية، وتكون للأسباب الموصلة لها، والرجاء والأمل يكونان للغاية، والإرادة تكون لما يتراخى وقته، وما لا يتراخى، وبذا توافق الرجاء وتبعد عن الأمل، والإرادة يكون فيها القصد محددٌ ومعلوم ومعروف، أما الرجاء والأمل، فالعموم فيهما والإبهام أكثر.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٢/ ٦٥).

(٢) الزمخشري، الكشاف: (٣/ ١٦).

خامسًا ـ كلمة (الرغبة): قال ابن فارس: الراء والغين والباء أصلان: أحدهما طلب لشيء، والآخر سعة في شيء. فالأول الرغبةُ في الشيء: الإرادةُ له: رغبت في الشيء، فإذا لم تُرِدْه قلت: رغبت عنه[١]. اهـ.

قال الفيروزأبادي: رغب فيه: أراده، والرُغْبَة بالضم: الابتهال أو الضراعة والمسألة، والرُغب: كثرة الأكل وشدة النَّهم[٢]. اهـ. قال صاحب (اللسان): الرغبة: السؤال والطمع، ويقال: إنه لوَهُوبٌ لكل رغيبة؛ أي: لكل مرغوب فيه، والمَراغِب: الأطماع[٣]. اهـ. وفي (المعجم الوسيط): رغب: حرص على الشيء وطمع فيه وابتهل وضرع وطلب، ورغب رغبًا ورغابة: اتسع وعظم، ويقال: أرغب الله قدرك؛ أي: أوسعه[٤]. اهـ.

عدد الكلمات المختلفة في القرآن الكريم من الجذر (رغب) سبع وعدد الكلمات الكلي مع المكرر ثمانٍ.

ـ وأول مرات ورودها في سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾[النساء: ١٢٧]، الآية حكاية عن اليتيمة تكون عند الرجل ولها ميراث، ومال، أو حقوق أخرى تتعلق بها، فَيمنعُها وليُّها من الزواج؛ لئلا يذهب مالها إلى غيره، فيتزوجها، أو إن كانت

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٢/ ٣٤٢).

(٢) الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ). القاموس المحيط: (٢/ ١١٠).

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (٦/ ٢١٥).

(٤) المعجم الوسيط لمجموعة من المؤلفين: (١/ ٣٥٦).

دميمة حبسها حتى تموت؛ ليرثها. وكذلك يفعلون مع الأيتام من الذكور لا يُورثونهم مُتذَرِعين بأنَّ المال يجب أن لا يكون إلا لمن يحمي الذمار ويحمل السلاح.

والرغبة في الآية: حب نكاحهن وطلبه وإرادته؛ لجمالهن ومالهن، أو الرغبة عن نكاحهن لدمامتهن.

ـ ويظهر معنى الرغبة كذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[الشرح: ٧ـ٨]، قال صاحب (الظِّلال): العبادة والتجرد والتطلع والتوجه[١]. اهـ. فالرغبة فيها معنى التطلع والتأمل لما عند الله مما يُحُبُّ ويُرْغَبُ به، بعد الخلاص من ضيق الدنيا وعسرها، قال الثعالبي: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ أُمرٌ بالتوكل على الله ﷻ، وصرف وجوه الرغبات إليه لا إلى سواه[٢]. اهـ. فالرغبة لا ينبغي أن تكون إلا إلى الله وحده، والضراعة إليه في سؤال النجاة من النار، والرهبة منها، وطلب الجنة والرغبة فيها.

ـ وكذلك في قوله تعالى لأهل المدينة في نهيهم عن الرغبة بأنفسهم عن نفسه ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾[التوبة: ١٢٠]، «أي: لا يصح أن يصرفوا نفوسهم عن نفسه الكريمة، ولا يصونوها عمَّا لم يصن عنه نفسه، بل يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب»[٣]. فالمراد برغبتهم عن نفسه: محبتهم أنفسهم، وحرصهم على سلامتها، ورجاؤهم نجاتها، دون الحرص

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٦/ ٤٧٠).

(٢) الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت٧٨٦هـ)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: (٤/ ٢٦٥).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٢٢٢).

على سلامة نفسه ﷺ.

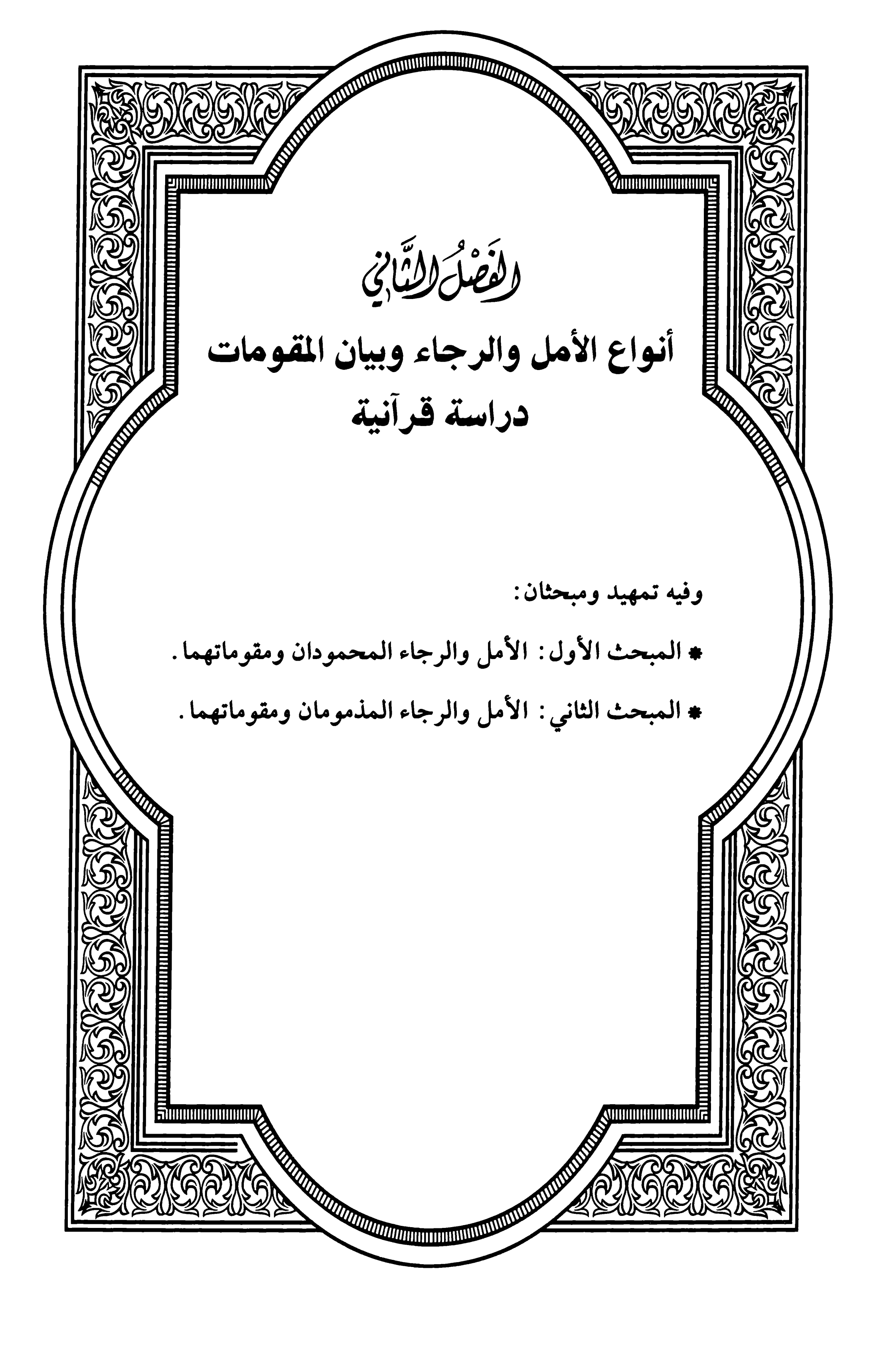
ومما تجدر الإشارة إليه أن الرغبة تتحدد بحسب الحرف الذي تتعدى به، بمعنى أن الرغبة ميل القلب إلى شيء فإنْ عُدِّيَت بحرف المجاوزة (عن) فالمعنى أن القلب يميل إلى الابتعاد عن العمل ومجاوزته، كما في الآية السابقة، وإن عديت بالظرفية (في) فيكون المعنى أن الميل القلبي يتجه إلى ممارسة الشيء ومعالجته، ومثلها حرف الجر (الباء)، غير أن حرف (في) فيه معنى التغلغل وشدة الرغبة، وإذا عديت بحرف (إلى) فالمعنى أن الرغبة بالأسباب المؤدية للغاية المرغوبة، كما أنها تستمر حتى انتهاء الغاية، ولا تتوقف دونها، كما في قوله: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ٨].

وبعد هذا التطواف مع مادة (رَغِبَ) فإن الرغبة أمرٌ ليس خافيًا، إذ فيها مسألة وطلب، أما الأمل والرجاء فقد يخفيان، كما أن الرغبة قد تكون لما للمرغوب فيه من صفات الحُسْن، والجمال الذاتي، وإن كان الراغب ما بذل الأسباب، كما في الأمل والرجاء، ويظهر هذا في قوله: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾[الأنبياء: ٩٠]، وإذا كانت الإرادة تقتضي الحركة والذهاب والمجيء، فإن الرغبة لا تتجاوز القلب وسؤال اللسان، ولا توصف الرغبة بذم أو مدح إلا بحسب المرغوب فيه، وهي تَقْرُبُ بهذا من الأمل، وتبتعد عن الرجاء؛ إذ الرجاء محمود.

تم الفصل الأول

والحمد لله رب العالمين

❒ ❒ ❒

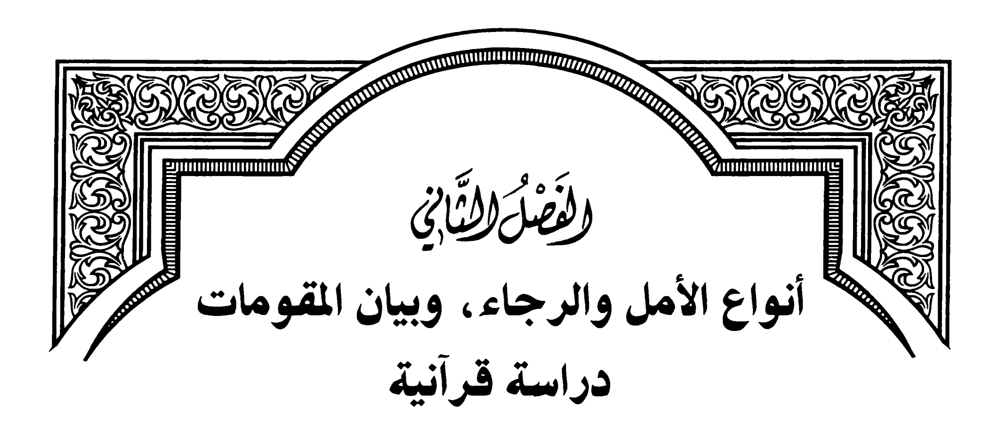


الفَصْلُ الثَّانِي

أنواع الأمل والرجاء وبيان المقومات دراسة قرآنية

وفيه تمهيد ومبحثان:

* المبحث الأول: الأمل والرجاء المحمودان ومقوماتهما.
* المبحث الثاني: الأمل والرجاء المذمومان ومقوماتهما.



الفَصْلُ الثَّاني

أنواع الأمل والرجاء، وبيان المقومات
دراسة قرآنية

التمهيد

بعد الدراسة السابقة للأمل والرجاء، وما يقرُبُ منهما في الدلالة من المصطلحات المستخدمة في القرآن الكريم، تبيَّن أنَّه يمكن أن نقسم هذا المفهوم بعمومه إلى قسمين: فمنه المحمود، ومنه المذموم، ولقد وردت بعض هذه المصطلحات في دائرة المحمود، وبعضها الآخر في المذموم، فَمِنَ المحمود الرجاء، ومن المذموم الطمع والأماني، أما الأمل فيتردد بينهما وكذلك الرغبة والإرادة والوُدُّ، فهذه بحسب المرغوب والمُراد والمَودود.

والمعنى: أنك إذا ما وجدت في القرآن الكريم مشتقة من مادة (رجو) فإنَّ ذهنك سينصرف في غالب الأمر إلى أمر محمود، تحبه النفس السَّوِيَّة وتأمله، ويقرُّه الشرع ويدعو إليه، ويقبله العرف ويثني عليه، أما إذا طالعت مادتي الطمع والأماني؛ فإن أمرًا مذمومًا سيرد في السياق ـ غالبًا ـ لا يقرُّه الشرع، والأعراف لا ترتضيه، وتمجُّه النفوس القويمة ولا تشتهيه. وليس كذلك الأمل والوُدُّ والإرادة والرغبة، فإنَّ هذه المصطلحات لا توصف بذمٍّ أو مدحٍ ذاتيٍّ، إنما بحسب ما سيقت لتدل على تعلق النفس به، وهُفُوِّها إليه، وحرصها عليه، فلئن كان مما يقره الشرع الحنيف فالمحمود، وإلا فالمذموم ثمَّ.

وإذا كانت السياقات القرآنية تتحسس نوازع الخير في الإنسان، وتحرص على

تنمية دوافع الحق لديه، وتحيي فيه كل ما ضَمُر وذَوَى من أركان خلافته، وركائز سلطته، التي منحه إياها خالقه، تلك التي ضمُرت وذَوَتْ؛ لكثرة ما ساد الباطل في الدنيا، وتحكم الظلم، واسْتَعْبَد الإنسانُ الإنسانَ، بل وقتل الإنسانَ، ودِيست كرامةُ المرأة، ووُئدت طفلةً، وحُرمت الميراث كبيرةً، وكانت من جملة المتاع الذي يورث لمن يحمل السلاح، ويحمي الذمار، واقعٌ كان يتسلط فيه القوي على الضعيف، ويستعبده، حتى بلغ الحدُّ أن رضي العبيد بعبوديتهم[1]، وركنوا إلى ذلهم وفقدوا كل فاعلية، ومقدرة على التأثير، وأصيبوا بالسلبية، والتخلف، وموت الآمال.

هذا الموضوعُ كان جديرًا بالاهتمام، وعبَّر عنه القرآن الكريم في مَثَلِ الرجلين الذي ضربه الله تعالى، فقال في محكم التنزيل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[النحل: ٧٦].

يقول جودت سعيد: فإذا فهمنا معنى الفعالية، واللافعالية، فبإمكاننا أن نفهم أن الكلمة التي وردت في هذه الآية وهي كلمة (الكَلُّ) هي الكلمة القرآنية المقابلة لمصطلح اللافعالية والسلبية، بل كلمة القرآن أدل على هذا المعنى حيث إن كلمة (الكَلُّ) لا تدل على اللافعالية فحسب، بل تدل على أنه عِبْءٌ على من يتولاه، سواء كان فردًا أو مجتمعًا. كما وأن كلمة (العدل) في القرآن الكريم تقابل مصطلح الفعالية بشكل أدق؛ لأن الفعالية لا تشترط دائمًا أن تكون فيما ينفع، بل قد يكون المرء فعالاً فيما يضر. أما كلمة العدل ففعاليته في الحق دائمًا، كما أن أمره بالعدل ذاتي

(١) ارجع إلى كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي وستجد تفصيلاً واسعًا جدًا لواقع الإنسانية قبل الإسلام وبعده.

الانبعاث، وليس مدفوعًا إليه[١]. اهـ.

أما ذلك الذي فقد فعاليته وأمله في الحياة، وأركان خلافته، ودوافع وجوده، انتكس إلى الحد أنك أينما توجهه لا يأت بخير، بل ولا يستطيع أن يعبر عن الخير حتى في أبسط صوره؛ لأنه أبكم، كل هذا الارتكاس في الحالة الإنسانية، وأكثر منه إذا استمرت العبودية لغير الله تعالى، عبودية الإنسان للإنسان، وللدرهم والدينار، والشهوات واللذات، وللنفس والذات، عندها تتشاكس المعبودات، ويصيرُ العابد المُشرك مُقسَّم العقل بين آلهة كثيرة، في حيرةٍ وشكٍ من رضا بعضهم عنه وغضب بعض، وفي تَرَدُّدِ عبادته إنْ أرضى بها أحد آلهته لعله يُغضب بها ضده، قال تعالى في وصف هذه الحالة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٢٩]، ومن كانت هذه حاله، فهو الضائع التائه، الذي لا يدري على أيهم يعتمد، (المملوك الذي اشترك فيه مالكون، لا يخلون من أن يكون بينهم اختلاف وتنازع، فهم يتعاورنه في مهن شتى، ويتدافعونه في حوائجهم، فهو حيران في إرضائهم، تعبان في أداء حقوقهم، لا يستقل لحظة، ولا يتمكن من استراحة. ويقابل تمثيل حال المسلم الموحد يقوم بما كلفه ربه، عارفًا بمرضاته، مؤملاً رضاه وجزاءه، مستقر البال، بحال العبد المملوك الخالص لمالك واحد، قد عرف مراد مولاه وعلم ما أوجبه عليه، فهمُّه واحدٌ، وقلبه مجتمع)[٢]، حقًا إنهما لا يستويان... فالذي يخضع لسيد واحد فينعم براحة الاستقامة، والمعرفة واليقين، وتجمُّعِ الطاقة، ووحدةِ الاتجاه، ووضوحِ الطريق، هو من يملكُ أن يرجعَ

---

(١) جودت سعيد، الإنسان كلاً وعدلاً: (ص٥)، وعبر بالمقابلة وهي ضد ما يريد؛ إذ المقابلة تعني: المعاكسة، وكان الأصل أن يعبر بالمشابهة أو المطابقة.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٢٤/ ١١٥).

بالحالة الإنسانية إلى الأصل الذي خلقها ربها عليه، وإلى المقاصد القرآنية التي أراد أن يحركها في هذا الإنسان، إلى الآمال العُلْوِيَّة، والرجاء الراشد المحمود، الذي يشكل منطلق التغيير وبداية الإصلاح، وفتيل الإنقاذ للبشرية جميعًا.

أمَّا الذي يخضع لسادة متشاكسين، مُعَذَّب مُقلقل، لا يستقر على حال، ولا يُرضي واحدًا منهم فضلاً عن كلهم جميعًا، بل هو لا يستطيع أن يصل لإرضاء ذاته وتبليغها مأمنها.

أراد القرآن أن يصل بالإنسان إلى أعلى المراقي في سيادة الدنيا، فقرر قاعدة في آيات عديدة، إن أخذ بها فلن يكون كَلاً، بل هو العدلُ المتحرر من كل المعبودات سوى الله تعالى، إنْ أخذ بها فهو المستقر الهانئ السيد للكون والمُنعَم فيه، مَن آماله ورجاءاته أقرب إليه من شِسْعِ نعله، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

إذًا أراد القرآن تحريك دواعي الأمل الراشد والرجاء المحمود في نفس الإنسان؛ ليتحرر من العبودية لكل شيء إلا خالقه، وليستكمل أركان خلافته في الأرض، ومرتكزات سيادته، لئلا يتوه في لجج الآمال والأحلام السلبية.

لذا فها هو يُبين في سياقاته المقومات لهذا الأمل الراشد، وتلك الرجاءات الحمـيدة، وبالمقابل يحذر من ضدها، ويُبينُها، وهذا ما سأدرسه في هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

* * *



المبحث الأول

الأمل والرجاء المحمودان، ومقوماتهما

* **تمهيد:**

إنَّ قضية الأمل من حيث وجودها في تكوين الإنسان تعد من بدهيات العقل الواعي، وهذا ما أكده الحبيب ﷺ فيما أثبته البخاري في كتاب الرقاق، باب الأمل وطوله، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خط النبي ﷺ خطًا مربعًا، وخط خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارجٌ: أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإنْ أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[1].

والأمل ملازم لهذا التكوين لا يفارقه ما دام في عمر المؤمِّل بقية باقية، قال ابن حجر: الأمل: رجاءٌ ما، تحبه النفس مِنْ طول عمر وزيادة غنًى، ولا ينفك الإنسان من أمل[2]. اهـ. وليس حديث النبي ﷺ حُكمًا على الأمل بالذمِّ، إنما هو وصف لحال الإنسان، كُلِّ الإنسان ومكانةِ الأمل لديه، حتى إنه لَيَتجاوز حدود أجله. وحديث موسى ـ عليه السلام ـ وصكه لملك الموت معلوم مشهور[3]، وما فعل موسى ـ عليه السلام ـ الذي فعل إلا رجاءة أن يُزاد في عمره أمدًا جديدًا،

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: في الأمل وطوله: (٣/ ٤١).

(٢) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري: (١١/ ٢٨٣).

(٣) البخاري، الصحيح، باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة: (٧/ ١١٠).

فكان له ما سَتَرتْ يدُه من مَتْنِ الثور، بـل حتى تجاوزت آماله حدود الدنيا ومربع الأجل، فسأل الله متأملاً وراجيًا أن يُقَرِّب قبره من الأرض المقدسة رميةً بحجر.

ليس هذا بالعجيب من موسى ـ عليه السلام ـ فهو ابن أبيه آدم ـ عليه السلام ـ، الذي جاءه ملك الموت فنسي من طول أمله أنه أعطى ولده داوود ـ عليه السلام ـ أربعين سنة من عمره، فَوَدَّ أنه لو ما أعطاه حينها[1]، إذًا قضية الأمل جزء التكوين الإنساني، ولولاه لما استمرت حركة الحياة، وعليه فبعض الأمل غير مذموم.

وكما أن الله فطر كل جنس على الميل للجنس الآخر، فإنه فطره على طول الأمل، وكما أن الميل للجنس الآخر في أصله غير مذموم، إذا كان في حدود ما أمر الدين والشرع، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]، فكذلك الأمل في أصله غير مذموم، إلا إذا ذهب بالإنسان إلى حيث لا دينَ ولا شرع.

فإذا كان الأمل محتومًا على الإنسان، وخارج دائرة خَيَاره، فإنَّ مسؤوليته تقع في أن يجعله في المحمودات والخير، كما في الميل إلى الجنس الآخر، لا أن يقتله في نفسه، حيث لن يملك.

والخطاب في سورة (الكهف) يؤكد أنَّ الأمل أمرٌ لازم في الإنـسان، حين يوجهه إلى ترك الفانيات والسَّراب، والاشتغال بالباقيات الصالحات منها، والتي تستحق أن تُوسَم بأعلى درجات الخيرية في سلَّم الآمال، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]،

(١) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ)، سنن الترمذي، باب: سورة الأعراف: (١٠/ ٣٤١)، حَسَّنَه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح للتبريزي: (١/ ٢٦).

ومساحة الفجوة بين الآمال المحمودة العُلْوِيَّة، والهابطة الغَرُورة ـ التي تخدع كالسراب للظمآن في يوم هَجِير فليس تغني إلا ما تلقي من أُنس ومتعة عابرة سرعان ما تتحطم على صخرة الحقيقة ـ مساحة عريضة جدًا، تظهر يوم يفوز الجادُّون ويخسر البطَّالون: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥] وسنتحدث في هذا المبحث عن مقومات الأمل والرجاء المحمودين إن شاء الله تعالى، **وأولُ ما يتأسس عليه هذان المحمودان:**

أولاً ـ العلم:

لا بد وأنَّ العلم هو محور الارتكاز، والأساس المتين لكل أمل راشد، ورجاء صالح، قد يتحرك في نفسية أيِّ أمة حرةٍ، أو شعبٍ من الشعوب حيٍّ.

هذا العلم الذي بدأ من قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾، لتستمر حلقات من الأمر به، والحث عليه، في طول القرآن وعرضه، وعَبْرَ كلِّ أعوام تنزُّلِه، وفي معظم مساحات خطابه، وما كانت مقاليدُ الحكم أن تكون لآدم ـ عليه السلام ـ ولا مراسمُ الاستخلاف أن تتم له إلا يوم أن تعلم ما لم تُعلَّم الملائكةُ الكرام، وكانت بداية الانطلاقة لقصة الإنسان، وآماله بتنظيف الكون من مظاهر الفساد، وسفك الدماء، ورجاءاته بتعبيد الكون كله لله، لينتظم في سلك المُسبحات لخالقها، المُلازمة لعتبات القداسة الربانية بانكسار وخضوع.

فالعلم أحد أهمِّ مناطات الاستخلاف الرئيسة، والاستخلاف فتحٌ لكل أبواب الأمل والرجاء أمام هذا المخلوق الضعيف من بين سائر مخلوقات الله تعالى، وما كان هذا الاستهلال في قصة آدم ـ عليه السلام ـ بالعلم وقيمته إلا درسًا بالغًا لذريته من بعده، فضلاً عن أمة محمد ﷺ.

إنَّ ما نجده في الحالة الإسلامية اليوم من ضعف، واستخذاء، سَلَبَها مقاليد

الحكم والسيادة، ليس إلا ممَّا حلَّ بها من نسيانٍ لتلك الكلمات، وإضاعة لمضامينها، وخَلْطٍ بين الأسماء ومسمياتها، وهذا ما عناه النبي ﷺ يوم قال لابن لبيد الأنصاري وقد ذكر شيئًا ـ لم يذكره ابن لبيد ـ قال: «هذا أوان ذهاب العلم. قال قلنا: يا رسول الله! يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ويُقرئُه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة. قال: ثكلتك أمك يا ابن أم لبيد! إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا ينتفعون مما فيها بشيء»(١).

فإذا كان ما حذَّر منه رسول الله ﷺ، فثمّ الكَلُّ من الناس الذي لا يرقى لمنازل العاملين ذوي الآمال الراشدة، وحتى لو كان صاحب أملٍ فإنَّه على غير نور ولا بصيرة، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[المائدة: ٦٨]، فآمالكم ليست بشيء، وأعمالكم ليست بشيء، وأقوالكم ليست بشيء؛ لأنها ما صدرت من مشكاة العلم والنور.

هذا العلم الذي إذا غادر الأنبياءَ فإن مخالفتهم للأولى كائنة، كما الشأن مع نبي الله نوح ـ عليه السلام ـ يوم تأمل من الله النجاة لابنه ظنًا أنه من أهله، حتى إذا واجهه ربه بالحقيقة الفاصلة، كما قال: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[هود: ٤٦]، والسؤال هو الطلب لما يتمناه ويرجوه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو ما تضمنه قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾[هود: ٤٥]، بعد ما علم نوح من صدور الوعد من ربه بإنجاء أهله: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾[هود: ٤٠]، لكنه

---

(١) ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ)، السنن، باب ذهاب القرآن والعلم: (٣/ ٥٨)، وأحمد بن حنبل، المسند: (١٧/ ٣٤٢). واللفظ لأحمد.

لما تبيَّن له الحق، وبلغَ العلمَ الحق، وأقام ما أُنزل إليه من ربه الحق: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[هود: ٤٧]، وما شأن موسى ـ عليه السلام ـ في طلبه الرؤيا عن هذا ببعيد.

ورد لفظ (العلم) ومشتقاته في القرآن الكريم في سبعين وثمانمائة آية، ولهذه الكثرة دلالاتها، والعلم الذي دعا الإسلام إلى تحصيله هو العلم على إطلاقه دون تقييد بالعلم الشرعي، ولولا هذه العلوم لما استطاع ذو القرنين تبليغَ مَنْ لا يستطيعون قولاً آمالهم بالنجاة من يأجوج ومأجوج، حيث بنى لهم الجدار بتجميع مواد متعددة كالحديد، والنحاس، والرصاص، وغيرها ليكون السد متينًا منيعًا. ولولا هذا العلم لما استطاع يوسف ـ عليه السلام ـ أن يحتفظ بالقمح سبع سنوات، فجعل القمح في سنبله لئلا يتلف ويفسد، وبذا بلَغَ بالمصريين ما يأملون ويرجون من النجاة من الجدب والقحط، بل لولا العلم لما تمكن يوسف ـ عليه السلام ـ من نيل سيادة مصر؛ لينال من بعد ما يأمل من إنقاذ مصر من جائحة الجوع والجدب، وقبلها بلية الكفر والشرك، وعبادة غير الله تعالى، كما أخبرنا ربنا عنه: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[يوسف: ٥٥].

للعلم الأثر الأبرز، والصلة الوثقى بتوجهات الناس، وتكييف محبوباتهم، وصناعة آمالهم؛ فلقد كانوا أمة واحدة متفقة يوم كانوا خُلْوًا من أسباب التفرق والاختلاف، ثم ما لبثت أسبابه أن ظهرت، فبعث الله لهم أنبياءهم يبشرونهم برحمة الله إن رجعوا إلى ما كانوا عليه من أصل الفطرة، وينذرونَهم مزالقَ التَّغيير، ومُضِلاَّت الهوى.

ومن لوازم الرسالاتِ الكتبُ السماوية؛ علاجًا لأي خلاف وشقاق، إذ الحكمة الربانية لا تغيب عنها غائبة في السماوات ولا في الأرض. ولما جاءهم ـ أي

الناس ـ العلمُ على صورة البيّنات من الله تعالى زاد الخلاف بينهم في فهمها، والتعاطي معها، حيث تشكلت الاتجاهات، والآمال والرجاءات، لدى مجموع المخاطبين كلٌّ بحسب علمه، ولكلٍّ قبلة هو موليها، وصدق الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[الإسراء: ٨٤].

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]، قال الرَّازي: عُلم أنه تعالى لما بيَّن في هذه الآية المتقدمة، أنَّ سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حُب الدنيا، بيَّن في هذه الآية أنَّ هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان، بل كان حاصلاً في الأزمنة المتقادمة؛ لأنَّ الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق، ثم اختلفوا، وما كان اختلافهم إلا بسبب البغي والتحاسد، والتنازع في طلب الدنيا، فهذا الكلام في ترتيب النظم[1]. اهـ.

ولأنَّ خصيصة العقل والعلم أول ميزات الإنسان على سائر الجمادات، فإن الاختيار وحرية الإرادة هي الثمرة لهذه الخصيصة، وما الاختيار وحرية الإرادة إلا التجسيد الواقعي لما اعتمل في نفس الإنسان، واستقر في عقله من آمال ورجاءات، نتيجة لمعطيات العلم الذي انتهى إليه، ولا يزال سعيُ الإنسان حثيثًا ليبلغ آمالَه عبر اختياراته بحسب ما وُهب من عقل مفكر، وعلم مستقر. وعلى هذا فإنك واجدٌ البشر في اختلاف ليس بعده وِفَاقٌ، وصدق الله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود: ١١٨].

وما ابني آدم إلا الأنموذج الصارخ في تعدد الآمال، وتباين الاتجاهات،

---

(١) الرازي، التفسير الكبير: (٣/ ٢٤٥).

واختلاف الأمزجة، وسواء كانت القضية المتنازع عليها هي الزواج أم غيرها؛ فإنها داخلة في دائرة المحبوبات والآمال، التي إن اعتملت في نفس الإنسان سعى لبلوغها وإنْ كان دونَ ذلك قتلُ الأخ.

كان الناس أمة واحدة فما الذي جرى لهم ليختلفوا هذا الاختلاف العظيم؟ كانوا أمة واحدة يوم كان العالم واسعًا وكان خيرُ العالم يتسع للموجودين جميعًا، وكانت الملكية مشاعةً للجميع، فمَنْ يُرِدْ أن يبني بيتًا يبنه حيث يشاء، ومن شاء ثمرة يأخذها مِنْ أيِّ شجرة شاء، ومن أيِّ بستان كان.

«كان الناس أسرة واحدة فلم توجد الأطماع ولم يوجد حب الاستئثار بالمنافع مما يجعلهم يختلفون، فأساس الاختلاف الطمع، والأمل في متاع الدنيا، تقبَّل آدم - عليه السلام - هذا المنهج وعلَّمه لأولاده، وتقبَّلُوه جميعًا إلا أحد ابنيه الذي تمرَّد على المنهج، وجرى خلف محبوباته وآماله وأحلامه، ونشأ حب الاستئثار من ضيق المُستأثر به، بحسب عِلْم الإنسان وفهمه، ومن هنا نشأت الخلافات»[1].

إنَّ قطيعًا من الأغنام، أو سِرْبًا من الطيور، أو أيَّ فصيل من هذه العجماوات يمكن أن نجري دراسة واعية عليه من خلال عينة منه أو ثنتين؛ لأنهم ليسوا مختلفين، فتركيبهم واحد، وحدود إدراكهم واحدة، وآمالهم واحدة من أول الزمان وحتى آخره، أما إذا درست مجموع الإنسان من خلال عينة واحدة، فإنك لن تفهم من الإنسان إلا تلك العينة التي درستها، ولو قُدِّر أن تكون هذه الدراسة في زمنين مختلفين فإن النتائج ستتخالف، وإن كانت الدراسة لذات الإنسان، لاختلاف المدركات، والمفهومات، والمعلومات، بحسب كل زمان، مما يرتب عليها اختلافًا في الاختيارات، لاختلاف الآمال والأحلام، فإنه من المحتوم به أنَّ آمال الرِّيفيِّ

(١) محمد متولي الشعراوي، التفسير: (١/ ٢١٦) بتصرف يسير.

في أوائل القرن العشرين في جنوب الصعيد المصري تختلف تمامًا عن آمال أحفاده في نهايات ذات القرن، في نفس المكان، وصدق الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[هود: ١١٨]، ازداد هذا الاختلاف في الأمة الواحدة، الأمة الأولى، لما جاءت البينات من الله تعالى ـ وكان حقُّهم الاتفاق ـ وصدق الله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[البقرة: ٢٥٣]، فاختلفت طرائق التعاطي معها لاختلاف الأطماع والأماني والآمال، فمبتغٍ للدنيا، ومبتغ للآخرة، ومنهم الباغي الظالم والمقسط العادل، وكل فريق يختلف أفرادُه في أسلوب بلوغه مبتغاه، وما يظنه أحدهم حقًا، في عين الآخر هو الباطل، وما تعتقده طائفة النجاة، لغيرها أصل الهلاك.

تعد هذه الآية الكريمة أصلاً في المسألة، ولو لم أستدل بسواها على صلة الآمال بالعلم لئن كانت لكافية شافية، لكن انظر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[هود: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[يونس: ١٩]، فالخلاف نشأ لتعدد الأهواء والأطماع، وما استفحل الخلاف إلا كما قال الله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[البينة: ٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾[البقرة: ٢١٣]، وإذا كان هناك اختلاف في الآيات البينات، وفهمها، وما يرجو المرء منها، فإنَّ فريقًا من أهل الإيمان هداهم الله لخير الآمال، على ضوء الحق والعلم، الحق الذي جاءت به الآيات البينات ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]، وهكذا هو القرآن الكريم يوم تَنزَّل، تنزل ليكون روحًا تسري في جوانح البشرية جميعًا، وإذا

كان روحًا في الجسد فهو حياته، وللحياة ما لها من أبعاد وطموح وأحلام، ولكنها على طريقة القرآن الكريم، ووفق منهجه وشرعته، لذلك بعد أن كان القرآن روحًا للأمة، فهو كذلك نور لأبصارها؛ حتى تنظر الطريق، وتحدد الغايات والآمال على بصيرة ورشاد، وجاء من بعدُ رسولُ الله؛ ليكون العاضد والمساند في الهداية والتسديد لهذه الأمة؛ لِتُحسِنَ صناعة أحلامها ورسم آمالها، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢]، هذه الروح هي التي سرت في أجساد سحرة فرعون يوم رأوا عظيم معجزات موسى ـ عليه السلام ـ، وقد كانوا ألد أعدائه، وكان معبودهم فرعون، وبه يحلفون، ومنه الأجر يبغون، حتى قالوا ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[الشعراء: ٤١ ـ ٤٢]. كانت آمالهم بائرة، ورجاءاتهم دنيّة؛ لأنَّ حدود علمهم كانت كذلك، لكن لما جاءتهم البينات من ربهم حدث الاختلاف في حياتهم، وفي فهمهم، وفي آمالهم وأحلامهم، ويوم خالفهم فرعون بغيًا، خالفوه بالحق ورغبة بالحق، فهداهم الله بإذنه إلى صراط مستقيم، حتى صار لسان حالهم: «لَنْ نُؤْثِرَكَ» يا فرعون وكل ما وعدتنا به من زخارف هذه الدنيا ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ﴾[طه: ٧٢]، نعم سرت فيهم هذه الروح؛ فتغيرت آمالهم وأحلامهم؛ لِما أَلْقَتْ في بصائرهم من أنوار الهداية؛ فأبصروا ما يستحق أن يكون محلاً للآمال والرجاءات، فقالوا: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾[طه: ٧٣ ـ ٧٦] إنها الأنوار التي يدرس الدارسون لإدراكها، ويجتهد العابدون

لعرفانها، إنها المواجيد التي لا تسطر في كتاب، ولن تكون درجةٌ علمية أو شهادةٌ جامعية سبيلاً إليها، هذه الكلمات التي نطق بها هؤلاء السحرة، هي الانعكاس الحقيقي للروح التي سرت في أجسادهم، روح كلمات الله تعالى وما فيها من علوم وأسرار، أنارت بصائرهم وعيونهم، فجعلت آمالهم فوق حدود الدنيا وزخارفها، بل حتى لِبُعدِها واعتمالها في نفوسهم؛ هان عليهم تصليبُ فرعون وتقطيعُه أوصالهم.

إنَّ حقيقة الأمر الذي جرى لسحرة فرعون ليس الإدراك المفاجئ لقلة فرعون وضعفه، وما يترتب على ذلك من هوان عطيته أنّى كانت، وعجز عقابه مهما كان، فليس هذا إلا ثمرة لحقيقة الأمر، إن الذي جرى هو انكشاف حجب الغيب عنهم، وسريان روح الحق فيهم، فأدركوا بعض مظاهر عظمة الله، فعَظُمَت في عيونهم عطيته، وعَظُم كذلك عقابه، فاندهشت قلوبهم، وأرواحهم بالرغبة في عطيته، والرهبة من عقوبته، كانوا في الحضرة الربانية، وليس لمثل فرعون مكان في مثل هذا المشهد المهيب؛ فهو أقل وأدنى من أن يُذكر إذ ذاك، فانشغلوا عن فرعون وعطيتِه وعقوبتِه، حتى ما عاد في قلوبهم رهبةٌ منه ولا رغبةٌ إليه، وصدق فيهم قول الله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨]، والخشية: لا تكون إلا من إدراك قوة من تخشاه، قال صاحب الفروق: الخشية: حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق وهيبته، وخوف الحجب عنه، وهذه حالة لا تحصل إلا لمن اطلع على حال الكبرياء وذاق لذة القرب[1]. اهـ.

إنَّ أمر السحرة والحالة هذه لَيَدْفَع إلى تساؤل حول شأن المسلمين في هذه الأزمنة المتأخرة، تساؤل ملح يتردد في النفس، ويأبى إلا أن يُسَطَّر في صفحات

---

(١) أبو هلال العسكري، الفروق: (ص٢١٢).

(الأمل والرجاء): إذا كانت مؤسسة الظلام، وصناعة الكفر لدى فرعون هي التي قادت حركة التغيير وصناعة النور، وانقلبت على الظلم والطغيان، وتحول سِحْرُهم نارًا تكوي فرعون، بعد أن كان في يده نارًا يكوي بها خصومه، أقول: أليس في أمة محمد، الأمة الخاتمة نفرٌ سرت فيهم روح كلمات الله؛ فأحالت ظلام بصائرهم نورًا، وعتمة قلوبهم إشراقًا؟ أليس في أمة محمد ﷺ من ذاق لذة الوصال، وانكشفت له حجب الغيب فأبصر عظمة القدرة الربانية، وسطوة يدها، وجبروت فعلها، فتضاءلت في عينيه سلطة الظلام وقادة الظلام في هذه الأيام؟.

وإذا كان السؤال يتردد ويلح؛ فإن الجواب حاضرٌ ويلحُّ أن يسطرَ كذلك، فإنه مما لا شك فيه أن معجزة القرآن فوق معجزة موسى ـ عليه السلام ـ ومن المقطوع به أن موسى ـ عليه السلام ـ في الرتبة دون محمد ﷺ ولا ريب أنَّ أمة محمد ﷺ عند الله خير من أمة موسى ـ عليه السلام ـ وعددها أكثر، وبركتها أعم، وعمرها أطول، ويوم سحب القرآن بساط الخيرية من تحت بني إسرائيل، أنعم به على أمة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠]، وقال النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[١]، ولقد عَنْوَنَ البخاريُّ لنفس الباب: باب لا تزال طائفة من أمتي... وأدرج في آخره قوله (وهم أهل العلم)[٢]؛ أي: هم الطائفة الباقية

(١) مسلم بن الحجاج، الصحيح الجامع، كتاب: الإمارة، باب: لا تزال طائفة...: (٣/ ٤٧٢).

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: لا تزال طائفة من أمتي: (٣/ ٣٨٥).

التي ستحيي رميم الأمل في نفوس الأمة، إنْ شاء الله تعالى.

وما غربة الدين وأهله في هذا الزمن إلاَّ بشير خير لذوي البصائر، لكننا نحتاج إلى علم الكتاب على التحقيق، وأن نخرج من دائرة الأماني، فإن الأميّة ليست أمية القراءة والكتابة فحسب، بل أمية الأفكار، وأمية الإيمان الصادق، أمية العمل والمبادرة، وإن كانت الطائفة تحسن القراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[البقرة: ٧٨]؛ أي: أحلام مجردة عن حقيقة الإيمان والعلم والعمل، فلن تغني شيئًا، وهذا ما يصدق حديث ابن لبيد الآنف الذكر.

إنَّ حقائق الكتاب العظيم القرآن الكريم مما يقرُّ بها خصومه، حتى قال القرآن: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[سبأ: ٦]، وجمهور المفسرين[١] على أن الذين أوتوا العلم هم من أصحاب محمد ﷺ ومن شايعهم ممن آمن من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام، وكعب وأضرابهما رضي الله عنهما، ولعل الأمرَ أوسعُ من هذا، وتقييد مطلق القرآن بفهم المفسرين أمرٌ ليس له ضرورة، حيث ليس ملزم به، فمن أوتي العلم سيدرك صدق الذي جاء به محمد ﷺ وإن أظهر الكفر والإنكار، فإن دخيلة نفسه وضمائمها تُحدثُ بغير ما يُحدثُ به لسانه، والشأن ظاهر في كفار قريش وجحودهم، وما قول الوليد بن المغيرة في مدح القرآن ووصفه إلا شاهد على هذا[٢].

إن حقائق القرآن متاحة لكل مُريد، ولكل من يفتح قلبه لتلك الروح السارية فيه، والأنوار الكامنة في كلماته، وإن الأمر وشيك إن شاء الله، وما حال الذين

(١) منهم الطبري والزمخشري وأبو السعود والشوكاني وغيرهم.

(٢) انظر سيرة ابن هشام: (١/ ٢٧٠)، ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري الحميري (ت٢١٣هـ).

آتاهم الله العلم من قوم قارون إلا أنموذج آخر على كون الآمال الراشدة، والرجاءات المحمودة، ثمرة ناضجة للعلم واليقين، فيوم أراد الدنيويون مِثلَ ما أوتي قارون، وزعموا أن حظَّه عظيمٌ، تَصَدَّر أهل العلم ـ والصدارة تنبغي لهم ـ وبيَّنوا كيف يجب أن تكـون الآمال؟ وبماذا يحسن أن تتعلق؟ وأن قارون وما أوتي من المال العظيم لا يجاوز بعضًا صغيرًا من جناح البعوضة الصغير، الذي ما كانت الدنيا يومًا لتساويه، ولا هي بالقريب. إنَّ الذي صنع آمال هؤلاء القـوم هو العلم، والذي رفعـهم هو العلـم، ورجـاءاتهم ما تعـلقت بثواب الله إلا يوم اكتنزت صُدُورُهم بعـض العلم وأقاموا ما أُنزل إليهم من ربهم.

وانظر إلى النَّبيَّيْنِ المَلِكين داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ، فإنهما ما نالا ملكهما، وتفضيلهما على كثير من العباد المؤمنين إلا بالعلم الذي أوتياه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[النمل: ١٥]، (يخبر الله تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيَّيْه داود وسليمان ـ عليهما من الله السلام ـ من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين)[١]، والتعبير بـ «فَضَّلَنَا» فيه إشارة لبلوغ المراد والمأمول، مما تتعلق به قلوب عباد الله المؤمنين، وما كان هذا لهما ـ عليهما السلام ـ إلا بالعلم المخصوصَيْن به. وانظر كيف عطف على العلم بمنـطق الطير الإتياءَ من كـل شيء، ثم وصفَه بأنه الفضل المُبين، ولئنْ كان سليمان ـ عليه السلام ـ ورث أباه؛ فإنه فاقه ببعض العلم كمنطق الطير، ففاقه فيما بلغ وأوتي، ويوم خرَّ داوود ـ عليه السلام ـ راكعًا مستغفرًا وأناب، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾[الأنبياء: ٧٩].

---

(١) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم: (٤/ ١١٥).

ولقد تضاءلت دنيا مَلِكَة اليمن في عين نبي الله سليمان يوم أرسلت إليه بهديتها، أرسلتها لأن الدنيا فيما تفهمُ هي أكبرُ الهمِّ، ومبلغُ العلم، ومنتهى الأمل، وحسبت سليمان ـ عليه السلام ـ مثلها غير أنه ردَّ هديتها؛ لأن ما آتاه الله من علم جعل غير الدنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، ومنتهى أمله ورجاءه، وأنَّ هكذا عطية ليست مما يكون سببًا لفرح ذوي العلم والبصائر.

ولا أدل على ارتباط الآمال الراشدة بالعلم من قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[التكاثر: ١ ـ ٤]، وعبَّر بالإلهاء؛ لأن فيه معنى زائدًا على الشُّغل، إذ اللهو متضمن له، ويُضاف تعلق القلب بمحل اللهو، أما الشغل فقد ينصرف القلب لغيره، كما أشرنا لشيء من هذا سابقًا، والشاهد أن الإدراك الحق لكون الدنيا ليست محلاً للشغل والأمل، وأن راجيها مغبون، وإن حازها بحذافيرها سيكون عند حدوث العلم، إشارة إلى أنه من كانت الدنيا سقف آماله فهو الجاهل، ومن كان التكاثر رجاءه فهو الموهوم، وما أمله ورجاؤه إلا ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[النور: ٣٩].

ثانيًا ـ الاتصال بالله تعالى وحسن الظن به:

وهو الأصل الثاني الذي لا غناء عنه لتصل الأمة في آمالها ورجاءاتها إلى الرشد والسداد، والحقُّ أنَّ أمةً فقدت صلتها بمصدر قوتها لا شك مهزومة منكسرة، ليس فقط في ميدان المعركة والقتال، بل في تصوراتها وفكرها، ولا أظن مخالفًا سيزعم غير هذه الحقيقة.

إنَّ آمال الأمة وأحلامها لها أعظم الارتباط بمقدار قوتها، وسلطتها، والضعيف الهزيل أدنى من أن يفكر أبعد من رأس أنفه، فضلاً عن أنْ يحلم ويتأمل، وانظر

للفرق البعيد بين أمل ذي القرنين في تعبيد المشرق والمغرب لله، وأولئك القوم الذين لا يكادون يحسنون قولاً، وعلة ما بين الفريقين من اختلاف ظاهرة بائنة، كما أسلفنا في الفصل الأول، وسنزيد الأمر بيانا فيما سيلحق إن شاء الله.

وانظر للذين وصف الله حالهم، وهروبهم من أرضهم، وديارهم، مع كونهم ألوفًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، فإنهم لعظيم ضعفهم وجبنهم هربوا من ديارهم، ولا يتجاوز أمل واحدهم النجاة برأسه، مرّوا بحالة من الذل والضعف لم تغنِ عنهم شيئًا، بل لقد ماتوا ألف مرة قبل أن يقول لهم الله موتوا، وفوق هذا سطَّر التاريخ ذلهم، وضعفهم، وسارت فضيحتهم عبر الزمان، وبلغت أقصى حدود المكان، ثُمَّ لمْ تُكتب لهم النجاة بفعلهم، بل بأمر الله الذي أماتهم ثم أحياهم، وكذلك الأمم الضعيفة الهزيلة في كل وقت، تظن أنها بجبنها وضعفها تفرُّ من الموت، وما علمت أنها في الموت ستقع... ليس مرة واحدة بل مرارًا، هذه حال من انقطعت حباله عن ربه، وساء ظنه بخالقه، هذه حال من فقد مقومات القوة وعناصر العزة، «والآية للتحريض على الجهاد، والتذكير بأن الحذر لا يؤخر الأجل، وأنَّ الجبان قد يلقى حتفه في مظنة النجاة، وقد اختُلف في مراد من هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم؟ والأظهر أنهم قومٌ خرجوا خائفين من أعدائهم فتركوا ديارهم جبنًا، وقرينة ذلك عندي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ فإنه جملة حال وهي محل التعجيب، وإنما تكون كثرة العدد محلاً للتعجيب إذا كان المقصود الخوف من العدو، فإن شأن القوم الكثيرين أنْ لا يتركوا ديارهم خوفًا وهلعًا، والعرب تقول للجيش إذا بلغ الألوف: لا يغلب من قلة»[1]،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٢/ ٣٩٤).

هذه حال الضعيف الذي ليس له صلة بالله، أما محمد ﷺ في غار ثور فإنه يستشعر حقيقة القوة بالله تعالى، ويبصر دولة الإسلام من وراء ذلك الكهف البعيد المظلم، وهو يقول: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]، ويوم قال أصحاب موسى إنَّا لمدركون، في وقت غابت ثقتهم بربهم، وانقطعت حبالهم عن عتبات اليقين بخالقهم، قال موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦٢].

إن حقيقة الإدراك بأنَّ الله هو الفاعل الحقيقي في هذا الكون، وأنَّه المتصرف فيه بمشيئته، يلقي في القلب من الطمأنينة ما يجعل الواحد في حدود آماله أبعد من حيز الدنيا الضيقة الحسيرة، حتى لكأنه في الجنة يرتع فيها، وهذا الذي جعل النبي ﷺ في هجرته والحالة من الضعف مما لا يخفى على أحدٍ يَعِدُ سراقة بن مالك بسواري كسرى ابن هرمز[1].

إنَّ نظرة في الكون وحركة أفلاكه، وانتظام أملاكه، ودوران الشمس، ومنازل القمر والأرض، وما فيها من آياتٍ في بحرها، وجوها، ويبسها، وهذا الإنسان ودقيق خلقته، كل هذه جميعًا وغيرها لتكشف عن عظيم قدرة الله تعالى وأننا عباد له بالاضطرار، فنبض القلب بيده، وإفراز الغدد لعصاراتها وأنزيماتها بأمره. . . وغيرها الكثير، وإنه لَمِمَّا يوقع الإنسان في أعظم الحيرة أن تتنازع قواه الداخلية والخارجية، أن يكون عبدًا لله بالاضطرار، متمردًا عليه بالاختيار، عندها يكون الضنك والشقاء، ولن يتأتى للإنسان شيء من الاستقرار الحقيقي إلا إذا انسجمت اختياراته مع اضطراراته، ولا بد أن يكون الاختيار بعيدًا عن الإكراه، لذلك يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾[البقرة: ٢٥٦]، قال جودت سعيد:

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: قوله ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾[التوبة: ٤٠]: (٢/ ٢٣١)، من غير ذكر سواري كسرى، وزاده البيهقي في روايته، السنن الكبرى: (٦/ ٣٥٨).

فكل ما يكون بالإكراه فهو الغي، أما الرشد فلا يكون بالإكراه، والطاغوت صورة من صور الإكراه، أما خلفاء النبي ﷺ الأربعة فكانوا خلفاء راشدين؛ لأنهم وصلوا سدة الحكم بلا إكراه[1]. اهـ.

إننا مع قدر الله وسلطته في الدنيا كنملة على متن فيل عظيم ـ ولقدر الله المثل الأعلى ـ، النملةُ على ظهره تتجه إلى الغرب، والفيل العظيم يتجه إلى الشرق، فما قيمة سيرها في ضد جهة سيره؟ وهل نصيبها منه شيء آخر سوى الكد والتعب، إذ الخير لها أن تسير باختيارها في جهة سيرها الاضطرارية؛ لتنعم من بعد بثمرة سيرها الذي يُضاف ـ ولو على صورة المجاز ـ لسير الفيل العظيم.

إنَّ اختيارنا للسير في دائرة قدر الله، ورضاءنا به، يضفي علينا مزيدًا من الاستقرار والهناء، والقوة والعزة، ويمنحنا الشعور باللجوء إلى الركن الشديد، الذي لا يُغلبُ المستجيرُ به، ولا ينهزم المتعلق بحباله، ومن كانت هذه حاله مع خالقه جاز له أن يتأملَ الخير ويرجوه، فهو العدل الذي أينما تَوَجَه عاد على نفسه وأمته بالخير والبركة، ولو مرَّ بمراحل من الضعف، وقعد عن العمل وصناعة الحياة، وانحسرت آماله فترة من الزمن، فإنه معذور معفوٌ عنه، قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[النساء: ٩٨ ـ ٩٩]، واستطاعةُ الحيلة: وُجدانُ أسباب النجاة وسبيلها، والمقصود الهجرة من مكة إلى المدينة، حيث عجز البعض عنها كعياش ابن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وفي البخاري، باب تفسير سورة النساء: أن النبي ﷺ كان يدعو في صلاة العشاء: «اللهم نج عيَّاش بن أبي ربيعة اللهم نج سلمة بن هشام اللهم نج الوليد بن الوليد اللهم نج المستضعفين من المؤمنين».

---

(١) جودت سعيد، العبودية المختارة: (ص٩).

إنَّ أنموذج الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى ـ عليه السلام ـ يوم سألوا نبيًا لهم ملكًا يقودهم للقتال في سبيل الله، يعتبر صورة للآمال الراشدة، وكأنهم أخذوا درسًا من الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، حيث جاءت قصتهم عقبها مباشرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٦]، وهذه التجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى بعد ما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدي ربهم، وتعاليم نبيهم. . . ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة، واستيقظت في قلوبهم العقيدة، فاتصلت حبالهم بالله، وحَسُنَ ظنهم به واشتاقوا إلى القتال في سبيل الله، فقالوا: ﴿لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾، بالرغم من كل العقبات التي اعتورت تجربتهم، والذل السابق، والمهانة العريضة، والفساد الكبير الذي حلَّ بهم، ثم تخلي نفر كثير منهم عن الصف في مراحل الاختبارات المتتالية، فإنَّ الله نصرهم يوم رأى صدق طائفة منهم وثباتها، بل جعل فيهم النبي الملك داوود ومن بعده النبي الملك سليمان ـ عليهما السلام ـ، عزٌّ وتمكينٌ وملكٌ ونبوةٌ هذه كلها ثمرةٌ للإرادة الصادقة، والاتصال بالله تعالى، وحسن الظن به.

هذه الحفنة من المنتصرين الذين بلغوا ما كانت تأمل الجماعة الأولى، والملأ من قومهم، لمَّا قويت حبال صلتهم بربهم، وثقتهم به، فاستطاعوا تجاوز كل العقبات: عقبة الرضا بِمَلِكٍ لا يُعرف له حسب عريق، ولا نسب شريف ـ فيما يفهمون ـ، وليس من أرباب المال والسلطان، وعقبة النهر والشرب منه، وامتحان

الوقوف أمام جيش جالوت العرمرم وما يلقي في النفس من رهبة وهلع، حتى لكأنهم يساقون إلى الموت وهم ينظرون. . . ثقتهم بربهم هي عامل الحسم في نجاحهم في هذه الاختبارات العسرة في ذلك الزمن، فبلغوا الذي بلغوا بتلك الثقة، وذلك اليقين، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١]، وكذلك أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ كانت عدته في كل شيء ثقته بربه، فهو خالقه، وبفضله بلغ الهداية، وهو يطعمه ويسقيه، وإذا مرض يشفيه، والذي سيُميتُه ومن بعدها يحييه، وعليه اعتماده في غفران خطيئته يوم الدين، فخلَّد القرآن هذه الثقة واليقين ونقل مناشَدَتَه قومَه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾[الشعراء: ٧٥ ـ ٨٢]، وما كانت نبرة اليقين هذه لتظهر لولا الثقة المطلقة بقدرة الله تعالى، حتى إنَّها لَتتجاوزُ ثقته بالدراهم التي في جيبه، وثقته ببلوغ الليل إن هو أصبح، وإدراك الصباح إن أمسى، لعلمه أن النهار والليل آيتان لله، وبأمره تعملان، وحتى لو كُتب له عمر يوم جديد فقد لا يدرك فيه نهارًا جديدًا إلا بأمر الله، وإنْ أدركه، فإدراك الظلام الذي بعده ليس مؤكدًا، وإن طال عمره؛ لأن المتصرف في هذا الكون هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[القصص: ٧١ ـ ٧٣]، ولئنْ كتب الله لكل الخلائق أن تدرك نهارًا وليلاً فلعله أن يحرم من ذلك الدرك، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٨].

ولقد جاء يومُه الذي فيه حُرِمَ ـ عليه السلام ـ.

لذلك كان الأمر بالتوكل على الله تعالى في القرآن الكريم كثيرًا جدًا؛ فهو صانع الأسباب ومُسببها، ومُنشئ الأشياء وخالقها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد: ١٦]، حيث وردت مادة التوكل في القرآن الكريم سبعين مرة[1].

فها هو القرآن يأمر النبي فيقول: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩]، ويقول تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[النمل: ٧٩]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الأنفال: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل: ٨ ـ ٩]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾[الإسراء: ٢]، قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: فأمر أن يُتخذ وكيلاً، ونهى أن يُتخذ من دونه وكيلاً؛ لأنَّ المخلوق لا يستقل بجميع حاجات

---

(١) محمد زكي خضر، معجم كلمات القرآن الكريم: (٢/ ٢٧٥).

العبد، والوكالة الجائزة أن يوكل الإنسان في فعل يقدر عليه، فيحصل للموكِّل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله، وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئًا إلا بمشيئة الله ﷻ وقدرته، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله، بل يعتمد على الله في تيسير ما وكّله فيه، فلو كان الذي يحصل للمتوكل على الله يحصل وإن توكل على غيره، أو يحصل بلا توكل لكان اتخاذ بعض المخلوقين أنفع من اتخاذ الخالق وكيلاً، وهذا من أقبح لوازم هذا القول الفاسد[1]. اهـ. ولقد فسدت عقائد البعض فاتصلت حبالهم بغير الله، فإنَّ الله َثمَّ أسوياءَ البشر يعلمون أنهم ما يدعون من شيء؛ لأن معبوداتهم أوهن وأضعف من عون نفسها، فضلاً عن عونهم، وما تعلقهم بمثل هكذا معبودات إلا كمن يتعلق ببيت العنكبوت، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٤١]، وهذا عين ما أبصره نبي الله إلياس ـ عليه السلام ـ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[الصافات: ١٢٤ ـ ١٢٦]، وكانت ثقة هود ـ عليه السلام ـ بربه من النماذج التي سطرها القرآن الكريم. . . أنموذج عجيب فيوم قالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾[هود: ٥٤]، رد عليهم بثقة ويقين مُشهدًا السماوات والأرض على إيمانه وبراءته منهم: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٤ ـ ٥٦]، قال صاحب (الظلال): وإنَّ الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قومًا غلاظًا شدادًا حمقى، يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلاً فيهذي، ويروا في الدعوة

---

(١) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت٧٢٨هـ)، رسالة في تحقيق التوكل: (ص٨٩) تحقيق: محمد رشاد رفيق سالم.

إلى الله الواحد هذياناً من أثر المس! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة، فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم، ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي، لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم، ولا يدعهم يتريثون، فيفثأ غضبهم.

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد، ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب... إنه الإيمان والثقة والاطمئنان... الإيمان بالله والثقة بوعده والاطمئنان إلى نصره، الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وَعدُ الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يشك فيها لحظة؛ لأنها ملء يديه وملء قلبه الذي بين جنبيه، وليست وعدًا للمستقبل في ضمير الغيب، إنما هي حاضر واقع تتملاه العين والقلب)[1]. وعندها ـ عند تحقق القلب من هذا الاتصال بالله ـ فقط قال ـ عليه السلام ـ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: ٥٥ ـ ٥٦]، وهكذا حال المسلمين في كل زمان ومكان لا يستعينون إلا بالله، ولا يتوكلون إلا عليه، شعارهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، يعلمون أن النافع والضار، والمعطي والمانع، والمفرق والجامع، هو الله تعالى لا رب سواه، يقولون صباح مساء: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٤]، ويقولون: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[الأنعام: ١٦٤]، يقولون للمتمردين الجاحدين: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[الزمر: ٦٤ ـ ٦٦]،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٤/ ٢٤٠).

ليخلصوا للنتيجة النهائية التي لا محيد عنها، بإيمان، وعلم، وثقة، ويقين، ولسان حالهم ومقالهم: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الزمر: ١١ ـ ١٥]، كيف لا يُحسن هؤلاء ظنهم بربهم ويصلوا حبالهم به، وقد علموا أنَّ أقوامًا هلكوا لسوء ظنهم بخالقهم، قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٣]، كيف لا وقد قال الصادق المصدوق: يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني...»[١].

إذا تحققت الأمة من هذا الاتصال بالله، وحسن الظن به، عندها يحق لها أن تتأمل وترجو الخير، والسعادة والبركة والسيادة، وهذا ما لا يريده عدو هذه الأمة، والذي نطق به كبير المبشرين (صموئيل زويمر) وهو يخاطب حشدًا من المبشرين: إن مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام، ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، بالتالي لا صلة له بالأخلاق، وبذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طلائع الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية[٢]. اهـ.

إنَّ التحدي الذي تواجهه أمة محمد ﷺ في هذه الأيام عظيم جدًا، ودائرة الخيارات التي تحيط بها واسعة كبيرة، وهذا مما يزيد المهمة صعوبة، وما أكثر الهالكين المتساقطين على الطريق، وقليل من الناس النُّجاة.

إنَّ الشمس والقمر والسماء والأرض في سورة (الشمس) جاءت معارف؛ لأنها

(١) البخاري، الصحيح، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[آل عمران: ٢٨]: (٣/ ٤٠٩).

(٢) محمد عوض الهزايمة، حاضر العالم الإسلامي وقضاياه السياسية المعاصرة: (ص٢٧).

جميعًا تسير في اتجاه واحد، وليس لأي منها قدرة على تغيير مسارها، أو اختيار غيره، فهن مخلوقات مضطرة في الظاهر والباطن، أما نفس الإنسان فجاءت نكرة، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[الشمس: ٧ ـ ٨]، ليشير القرآن بخفي اللمحة إلى أن الإنسان يملك توجيه دفة حياته، فإما يزكيها وإما يدسيها... إما يزكيها بصلتها بربها، وحسن ظنها به وامتثالها لأمره فيصل إلى محبوباته، ويحقق آماله ويفلح وينجح، وإما يدسيها بقطعها عن ربها، ووقوعها في نهيه فيخيب ويخسر، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩ ـ ١٠].

ثالثًا ـ الأخذ بالأسباب:

إنَّ القرآن الكريم عند حديثه عن القوانين الكونية كَثُرَ أن يعنون للمخاطبين بالإنسانية بنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما في مطلع سورة (البقرة) حيث كان أول نداء بالإنسانية عند حديثه عن قانون التسخير للكون وموجوداته لخير الإنسان ومصالحه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١ ـ ٢٢]، وعند حديثه عن خلق الإنسان، وقانون الإيجاد، خاطبه بالإنسانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١]، وتحدث عن مراحل الخلق كذلك، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ

زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾[الحج: ٥]، ويوم تحدث عن قانون النهاية للعالم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾[الحج: ١]، وتحدث عن قانون الموت والوفاة: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[يونس: ١٠٤]، ويوم تكلم عن قانون المسؤولية الفردية، خاطب بالإنسانية ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾ [يونس: ١٠٨]، وفي حديثه عن قانون المساواة قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[الحجرات: ١٣]، ثم أعلن قانون الفقر البشري، والاستغناء الرباني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾[فاطر: ١٥].

وفي كل هذا نجد القرآن الكريم يشير إلى أنَّ نواميس الدنيا، وحقائق الكون، تعمل مع مجموع البشر على حد سواء، ويظهر أثرها بالقدر الذي يتمكن فيه واحدُهم من فهمها وتفعيلها، واستخراج كوامنها، فهذه السنن لا تعترف بجنسية، ولا تحابي على أساس الدين، صماء عمياء كالآلة المعدنية أو العربة البخارية؛ فمن يفهم قوانين تشغيلها يمكنه أن ينتفع بها وينتقل من جهة إلى أخرى في زمن أقصر من غيره ممن لم يُحسن تدوير مُحركِها، وإلا كيف طاوعت الحجارةُ هامان فبنى صرحًا لفرعون كي يبلغ أسباب السماوات ليطلع إلى إله موسى ـ عليه السلام ـ؟. ولماذا لم يشاكس السيف ذلك الطاغية الذي قطع رأس نبي الله يحي ـ عليه السلام ـ؟ وأين خوارق العادات من جيش المسلمين يوم أحد لتقلب هزيمتهم نصرًا؟ وكيف لذلك المِغْفَر لو أنَّ حركتَه طوع أمرِه أنْ يؤذي خير الخلق ﷺ ويشج وجهه الشريف؟ إنها قوانين الله تعالى...

قوانين الكون التي ترسخ مبدأ العدالة بين جمهور الناس... تؤكد استواء

البشـر في عين الصانع الحكيم من جهة تعاطيها معهم، واستجابتها لانفعالاتهم، وما كانت ظاهرة المعجـزات الحسية[1] لأنبيـاء الله ـ عليهم السـلام ـ إلا لمرحلة معينة، وفي زمن معين، لظروف خاصة، ثم ما لبثت أن انقطعت لتعود الحياة ـ في جملتها ـ إلى قانون الأسباب والمسبَبَات، لترجع البشرية إلى حلبة السباق الكونية في بلوغ الآمال والرجاءات، عبر قوانين الله في أرضه، وهاهو القرآن الكريم ينطق بها عند حديثه عن ذي القرنين، ويبين أنه ما بلغ الذي بلغ إلا يوم اتبع الأسباب، وفهم النـواميس، واحترم القوانين التي تنتظم الكون بحذافيره: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٣ ـ ٨٩]، وأخذ القرآن عقب كل إنجاز لذي القرنين يؤكد أنه أعمل الأسباب، ليبلغ المسبَبَات التي آتاه الله إياها كما هي لسائر جنسه من بني البشر ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٤]، غير أنه سبقهم بالاعتبار بها ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٥]، ولعظيم قصته وأثرها وفوائدها عبَّر عنها ربنا بقوله ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، لأنَّ فيها ذكرًا وعظة لكل عاقل لبيب، وليؤكد على أهمية الأسباب

---

(١) معجـزة القرآن الكريم هي الباقية الوحيدة وهي ليست من جنس المعجزات التي أقصد؛ لأن الإعجاز في القرآن الكريم كان على نحو متفرد خالف كل المعجزات قبله فلا يدرك إعجاز القرآن إلا العلماء العارفون، وليس كذلك انشقاق القمر، وإحياء الموتى، وعصى موسى وغيرها من المعجزات... ثم إن معجزة القرآن لا تخالف النواميس والقوانين في ظاهرها فهي كلام من جنس حروفنا التي نعرف، وليست كنبع الماء من أصابع النبي وخروج الناقة من الصخر...

بيَّن أنَّ ما مِنْ مصيبة تصيب إلا لتقصير في احترام الناموس الرباني: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وكان يومُ أحد درسًا للمسلمين عظيمًا في احترام الناموس (فلقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه حملة رايته وأصحاب عقيدته، ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم، وباستيفاء مقتضياته في تنظيمهم وسلوكهم، وباستكمال العدة التي في طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم، فهذه سنة الله، وسنة الله لا تحابي أحدًا... فأمَّا حين يقصرون في أحد هذه الأمور فإنَّ عليهم أنْ يتقبلوا نتيجة التقصير؛ فإن كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم، وإبطال الناموس، فإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بنظرتهم كلها مع الناموس)[1].

إنَّ قانون السببية يتجلى في كتاب الله تعالى في قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[محمد: ٧]، والمعنى: إنْ تأخذوا بأسباب نصرة دين الله يوفقكم الله في مساعيكم وينصركم، ونُصرة الله تأييده وتثبيته، وسياق الآيات يكشف صورة نصر المؤمنين للهِ وما هي حقيقته، فمن جهةٍ هو إيمان بالله وما نزَّل على محمد ﷺ وتصديق بالحق الذي كذَّب به الكافرون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾[محمد: ١-٣]، وهذا من جهة القلب وضمائمه، أما الجوارح وأسبابها: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: (١/ ٤١٩).

بِبَعْضٍۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ٤]، وأعظم دليل على احترام القرآن للسنن والأسباب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ٤]، فإنَّ الله قادر على هزيمة عدوِّه، ولو شاء «لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك من خسف أو رجفة أو صيحة أو غرق أو موت جارف»[1]، ولكنه أراد اختبار عباده المؤمنين، وأسبابهم في قتال عدوهم، وما أوزار الحرب إلا آلاتها وعدتها وأسلحتها، فإن أخذوا بأسباب النصر، نصرهم الله في إطار القوانين الأرضية، من غير خوارق للعادات، وخروج على النواميس، وهذه القاعدة القرآنية، والسنة القتالية ليست وليدة المجتمع المدني والدولة بعد قوتها، بل لقد نطقت بها آية السيف بعد الهجرة، وقبل بناء الدولة واستقرارها، ولم يكن ثمة قتال بعد، لكنه ناموس الله الماضي في كونه من غير محاباة أو مجاملة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]، ثم جاءت غزوة بدر الكبرى، وجاء الأمر للمؤمنين بالإعداد في أقصى صوره، وأعلى إمكاناته، وأبعد طاقاته، إعداد القوة بكل أشكالها ـ وما كان تنكيرها إلا إشارة لكثرة أشكالها ـ وإعداد رباط الخيل وغيرها؛ لإرهاب أعداء الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠]، فإذا تحقق المؤمنون من أسباب النصر، تحقق وعيد الله للكافرين بأنَّهم لن يسبقوا، وأنهم غير معجزين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُواۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾[الأنفال: ٥٩]، وهذا التهديد والوعيد لن يتحقق بخوارق العادات، أو بالخسف والزلازل، والغرق والإماتة، بل بأيدي المؤمنين التي أعدت عدتها، واتخذت أسباب نصرها.

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٤/ ٣١٦).

إنَّ ما تعانيه الأمة الإسلامية في زماننا من ضعف وتشرذم، إنما لتقصيرها في فهم سنن الله في كونه، أما اليابان[1] فلقد خرجت من حربها المُدمِرة مع الولايات المتحدة مكبلةً بمعاهدات دولية تُحرم عليها اقتناء الأسلحة الفتاكة، وقد فقدت جزءًا كبيرًا من ثرواتها، ومظاهر مدنيتها، بل رجعت إلى الخلف سنوات طويلة، غير أنها وفي أقل من أربعين سنة من الجُهد والعمل صارت تنافس الدول الخمس الكبار، ولعلها سبقت بعضها في حين لا يزال العالم العربي الإسلامي يُنعتُ بالدول النامية، والعالم الثالث، وليست اليابان أنموذجًا متفردًا، فألمانيا أختها في فهم السنن والتعاطي معها، والكثير من الدول في المضمار، والكل يتسابقون، ولا تزال الأمة العربية الإسلامية تعتذر عن تقاعسها بحجة أن الإمكانات ضعيفة، وأن المفيد غير موجود، والموجود غير مفيد، وتنتظر تغير الأحوال وتهيىء فرصة، وزمنًا أفضل، وظروفًا أحسن، والمعنى أنَّ الموجود في أيدينا من إمكانات غير مفيد لبلوغ الغاية والدخول في مضمار السباق العالمي، وأنَّ المفيد الذي به يتم لنا ذلك الانضمام لا يزال غير موجود، وما حالها إلا كمزارعٍ بَيْنَ النهرِ وأرضه كف تراب، وتأخر المطر من السماء، فخشي على زرعه الجفاف والموت، فتوضأ في النهر وصلى لله الاستسقاء، واستثقل ضربةً بفأسه تديح الماء على زرعه، وهذه حالة الضعيف المنهزم الذي لا تتجاوز آماله رأس أنفه، أو هي أقرب، وكأن السماء تمطر ذهبًا أو فضة، أو تنزل فرصًا للتغيير على أطباق جاهزة، لا ينقصها سوى من يمسك بزمام اغتنامها.

إنَّ الإيمان بالحتميات، والقضاء والقدر، والتعلل بهما على نحوِ ما تنهج أمة الإسلام في هذا الزمن، هو رأس أسباب ضعفها، «إنَّ كل قانون يفرض على

---

(١) للاستزادة حول التجربة اليابانية نرجع لكتاب أوراق في التجربة اليابانية لشاكر النابلسي، وكتاب الرحلة اليابانية لمحمد علي باشا، ترجمة علي أحمد كنعان وغيرها الكثير.

العقل نوعًا من الحتمية تقيد تصرفه في حدود القانون، فالجاذبية قانون طالما قيد العقل بحتمية التنقل برًا أو بحرًا ولم يتخلص الإنسان من هذه الحتمية بإلغاء القانون، ولكن بالتصرف مع شروطه الأبدية بوسائل جديدة، تجعله يعبر القارات والفضاء كما يفعل اليوم، فإذا أفادتنا هذه التجربة شيئًا إنما تفيدنا بأن القانون في الطبيعة لا يَنْصُبُ أمام الإنسان الدائب استحالة مطلقة، وإنما يواجهه بنوع من التحدي يفرض عليه اجتهادًا جديدًا للتخلص من سببية ضيقة النطاق»[1]، وكذلك الحتميات التاريخية، فإن من يؤمن بالحتميات التاريخية ويعتقد أنَّ الأحداث تسير طبقًا لمرحلية ثابتة، لن يغيرها جهد بشر، ولا تخطيط إنسان؛ لأنها تسير على وفق مراد القضاء والقدر، وكيف لبشر أن يغير مجريات القضاء والقدر، بل لعل العبث مع أحداث التاريخ والمستقبل قد يدخل ـ عند بعض أصحاب الإيمان بهذه الحتميات ـ في دائرة الكفر، والجحود بنواميس الكون، وإرادات الخالق العظيم، ولمثل هذا المعنى نجد الكثير من المسلمين ينتظرون مخلص آخر الزمان، وقد ضربوا كفًا بكفٍ، أو لعلهم انشغلوا بالدعاء؛ عسى أن يخرج المخلص في زمن أقرب، مستدلين بأنَّ لليهود إفسادين في الأرض ونحن في زمن الثاني، والخلاص منهم جزء من أحداث الساعة، وليس لبشر أن يتدخل في شؤون الغيب، أو أن يجر زمن الساعة إلى الأمام، وهذا من فساد الفهم وسوء الإدراك، فلقد بيَّن القرآن انحراف هذا الفهم في نفس سياق سورة (الإسراء)، يوم نطقت السورة بقاعدة زوال الفساد من الأرض، وأنها من سنن الكون ونواميسه لو يعقلها المسلمون؛ وهي أنَّ الله سيعود على كل مفسد بعبادٍ له، وإنْ بلغ إفساده المرة الثالثة أو الرابعة أو الألف: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[الإسراء: ٨]، فإنَّ الركون إلى الحتمية التاريخية في زوال الكيان الصهيوني

---

(١) مقدمة كتاب حتى يغيروا ما بأنفسهم لجودت سعيد، والتي كتبها مالك بن نبي: (ص٣).

من أرض الإسراء والمعراج انحرافٌ في الفهم، وبُعْدٌ عن الحق، وتعليل للتقصير، وسوء فهم للسنن الماضية في سماء الله وأرضه.

إنَّ مردَّ ما سبق من سوء الفهم، وعدم الإدراك، هو ما اعتمل في نفوس أصحابه من يأس محبط، وقنوط مقعد يهوي بصاحبه إلى ما هو أرذل وأخس، على قدر تمكنه من نفس الإنسان، وسيطرته على عقله، وهذا ما أخذ القرآن الكريم زمنًا طويلاً في بيانه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٥]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[النحل: ١١٨]، وغيرها من الآيات.

إنَّ السفر عبر الأجواء بواسطة المركبات المجنحة الهائلة، واقع كان منذ زمن ليس بالغابر أبعد من كونه حلم، غير أن الإنسان يوم آمن بقدرته، وطواعية الأسباب، ومرونة السنن، والنواميس ـ وإن كان ملحدًا ـ بلغ إلى أن حلق في الفضاء عبر كتلة معدنية يبلغ وزنها مئات الأطنان، وسأنقل كلامًا نفيسًا (لجودت سعيد) في هذا الإطار وإن كان طويلاً فإني لم أجد بدًا من نقله جملة لنفاسته، يقول: إن من أعجب المفارقات أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع، دون أن يخطر ببالنا أن ذلك لن يتم إلا إذا حدث التغيير قبل بما في الأنفس، ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسنا، ولا نشعر أن كثيرًا مما فيها هو الذي يعطي حق البقاء لهذا الواقع الذي نريد أن يزول، نحن نشعر بثقل وطأته علينا، ولكن لا نشعر بمقدار ما يساهم ما في أنفسنا لدوامه واستمراره، وهذا ما يريد القرآن الكريم أن يعلمه للبشر في تفسير ما يحل بهم حين يلح في إظهار أنَّ مرد المشكلة إلى ما بالنفس، وليس من الظلم الذي يحيق بالإنسان من الخارج، بل من الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه، وهذا هو لب التاريخ وسنة الاجتماع، الذي يقرره القرآن وبإغفاله تظلم الحياة وتنشأ الفلسفات الخانعة أو المتسلطة المارقة.

ومن أكبر الظلم الذي ينزل الإنسان بنفسه، أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع (الآفاق والأنفس)، فَيهملُ نفسه، ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق، والأنفس على أساس السنن المودعة فيهما، وبناءً على هذا يمكن أن نقول: إنَّ العقل يمكن أن يتخذ أحد موقفين إزاء المشاكل؛ إما أن يفرض فيها أنها تخضع لقوانين وبالتالي يمكن أن تخضع المشكلة للسيطرة عليها وتسخيرها، وإما أن يفرض فيها أنها لا تخضع لقوانين أو لا يمكن كشف قوانينها وبين هذين الموقفين مواقف متعددة يتفاوت فيها القرب من أحدهما والبعد عن الآخر. إن لكل من الفرضيتين نتائج عملية، تظهر في مواقف البشر وسلوكهم بصور متفاوتة على حسب الخضوع لأحد الموقفين، وعجز المسلمين أن يعيشوا وفق العقيدة الإسلامية مشكلة لا يحتاج إثباتها إلى بذل جهد كبير.

ولكن بعد التسليم بأنها مشكلة، يبقى أن يظهر أي الموقفين يتخذ المسلمون بإزائها؟ هل يتخذون الموقف الأول بأن يفرضوا وجود قوانين تخضع لها المشكلة، وبكشفها يمكن السيطرة عليها وتسخيرها. أم يعتقدون أن المشكلة لا تخضع لقوانين يمكن أن يكشفها الإنسان، وبالتالي لا جدوى من جهد الإنسان للبحث عن هذه القوانين، لأن القوانين التي تخضع لها المشكلة حسب اعتقاد البعض تعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب[1]. اهـ.

إنَّ طريق الحل في مثل هكذا حالٍ محرجٍ يتلخص في كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، ومن هذه النقطة تبدأ رحلة الإنسان في تغيير الواقع، وإصلاح الكون عبر سننه، والأخذ بالأسباب، ليصل إلى المسبَبَات من غير انتظار لخوارق ومعجزات، أو أن يتَّكل على الحتميات والقوانين دون

---

(١) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم: (ص٨، ٩).

تفهمها، وإحسان التعامل معها.

وإذا نجح الإنسان في مثل هذا الاختبار وهو تغيير ما بالنفس، وإدراك حقيقة المشكلة، والقوانين التي تتعلق بها، فهو المستحق للخلافة في الأرض، القادر على بلوغ آماله، وتحقيق أحلامه، ورجاءاته، وإدراكُ آدم ـ عليه السلام ـ لخطيئته، واستعداده لتحمل مسؤولية تصرفه، وعدم وقوعه في شرك التبرير كإبليس، والتعذر بالواقع والظروف، وقسوة الأحوال، ومكر الأعداء، كان مبشرًا بقدرته على الخروج من حالة إحباط الذنب، وعقدة النقص، لإصلاح حاله ورأب صدعه، فنطق قائلاً وزوجُه مَعَه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣]، فغفر الله له، وأنزله الأرض ليعمرها وفق أسباب وقوانين ونواميس، إن أخذ بها، واهتدى بهديها، وأحسن التعامل، معها فلا خوف عليه ولن يحزن أبدًا: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨]، سنن الله في كونه، وقوانين الأسباب فيه هي المرشد الهادي للإنسان، التي إن سار في رصيف نورها فإنه سيسير مطمئنًا بلا خوف؛ لأنه يسير إلى مستقبلٍ هو وضع خطته، ولن يحزن على أمر فائت؛ لأنه هو الذي حَبَكَ فصوله في ظل معية نواميس الله وقوانينه.

ولذات المعنى كتب الله لموسى ـ عليه السلام ـ في الألواح من كل شيء موعظة، وتفصيلاً لكل شيء، ثم أمره أن يأخذها بقوة، ويأمر قومه كذلك بأخذها بقوة، لبلوغ الهداية والرشاد، في سياسة شؤون الدنيا، ومعرفة قوانينها؛ لئلا يقعوا في الغواية والتيه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[الأعراف: ١٤٤ ـ ١٤٥]،

وقال الله ليحيى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾[مريم: ١٢]، لتكون ثمرةُ وعاقبةُ الأخذ به، والاهتداء بما فيه من سنن ونواميس: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾[مريم: ١٢]، وأي أمل ورجاء أبعد من حكم الدنيا وسيادتها، ثم فردوس الجنة وأعلى مراتبها.

هذه الآمال والرجاءات ما كانت لتصير واقعًا إلا يوم احتُرمت الأسباب، يقول ابن تيمية: والذي عليه السلف والأئمة والفقهاء والجمهور وكثير من أهل الكلام، إثبات الأسباب، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، مع دلالة العقل والحس[1]. اهـ. ولذلك بَشَّر الله نبيه بالنصر يوم بدر بأمرين: بنصره له، ويتجمع أصحابه من حوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٤]، على رفع الموصول، عطفًا على الجلالة[2]؛ أي: يكفيك الله والمؤمنون، قال ابن عادل: فإنْ قالوا من كان الله ناصره امتنع أن يزداد ماله، أو ينقص، بسبب نصرة غير الله، وأيضًا إسناد الحكم إلى المجموع يوهم أن الواحد من ذلك المجموع لا يكفي في حصول ذلك المهم، تعالى الله عنه. ويُجاب أنَّ الكُلَّ من الله، إلا أن من أنواع النصرة ما يحصل بناءً على الأسباب المألوفة المعتادة، ومنها ما يحصل لا بناءً على الأسباب المألوفة المعتادة؛ فلهذا الفرق اعتبر نصر المؤمنين[3]. اهـ.

---

(١) ابن تيمية، رسالة في تحقيق التوكل: (ص٨٨) تحقيق: محمد رشاد رفيق سالم/ مصر.

(٢) وقال بعض أهل العلم هو مجرور على المحل عطفًا على الكاف في «حسبك» لكن السياق والسباق واللحاق يؤكدان الدور الميداني والحقيقي لأصحاب رسول الله، وما كان هذا الدور إلا بأمر الله وفضله، فأصحاب النبي صورة الأسباب التي شاءها الله لتحقيق مراده، ومراد الله غير متوقف على نصرتهم لرسول الله، فأمره بين الكاف والنون لكن ليعلم خلقه سننه في كونه ونواميسه بضرورة الأخذ بالأسباب.

(٣) ابن عادل، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي (ت٨٨٠هـ)، تفسير اللباب من علوم الكتاب: (٥/ ١٩٢).

ومن عجب أن ينكروا القول بأن المؤمنين من أسباب نصرة النبي ﷺ وربنا القائل في ذات السياق: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٢]، ولعل القائلين بهذا لا يشربون إذا عطشوا، خشية أن يُظن أنهم اعتمدوا على الماء لإرواء ظمئهم؛ لأن الماء أقل من أن يكون صاحب فعل الإرواء.

وما أظنهم سيجيبون إلا بأن الله هو الفاعل الحقيقي للإرواء، غير أنَّ حكمته اقتضت أن يرتبط فعل الإرواء بشرب الماء، فهو الذي جعل خصيصة ذهاب الظمأ متعلقة بشرب الماء، وأنَّ هذه الخصيصة ليست ذاتية في الماء، وبفعل نفسها، بل بأمر الله الفاعل المتصرف، الذي يربط الأسباب بالمسبَبَات، عندها سنقول لهم أحسنتم وأجملتم، وكذلك النصر في المعركة، فإنَّ الله جعل من أسبابه التجمع والمحبة، وأنْ يكون الجيش على قلب رجل واحد، صادقين مؤمنين محتسبين، وكان أمر الله تعالى للنبي ﷺ بالاستعانة بأصحابه على سبيل الأخذ بالأسباب، وليس التوكل والاعتماد عليهم، وكذلك المسلم يأخذ بالأسباب كأنه لا يعتقد سواها، ويعتمد على الله ويثق به كأنه لا توجد أسباب، ولا أدل على ذلك من قول الله في الآية السابقة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وكان الله قادرًا أن يبرئ نبيه أيوب ـ عليه السلام ـ من غير اغتسال لكنه قال له: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾[ص: ٤٢]، وكذلك مريم أمرها الله ﷻ أن تهز النخلة لتأكل، ولو شاء أن يرزقها بغير هزة لفعل، لكن ليعلمها والبشر جميعًا أن كل شيء له سبب... وما ضَرْبُ موسى ـ عليه السلام ـ البحر بعصاه في حقيقة الأمر من أسباب انفلاقه، لكن ليعلم موسى ـ عليه السلام ـ وبنو إسرائيل أنه لا بد من بذل جهد ولو كان يسيرًا ليصل المرء إلى مراده، ويحقق آماله ورجاءاته، ولهذا

قال النبي ﷺ: «تداووا عباد الله فما خلق الله من داء إلا وخلق له دواء»[(١)]. فيجب أخذ الدواء؛ لأنه سبب الشفاء، لكن مع اعتقاد أن الله هو الذي أنزله، وهو الذي منحه هذه الخصائص، فالاعتماد والتوكل على الله تعالى، وليس لهذا الدواء قدرة ذاتية على تحصيل الشفاء، كما أن العصا ليس من شؤونها أن تفلق البحر، وتحقق النجاة لبني إسرائيل، فإن قيل فلق البحر بالعصا معجزة لنبي الله موسى ـ عليه السلام ـ ولا يقاس عليها أخذ الأسباب لتصل إلى المسببَات، أقول نعم هي كذلك لكن المعجزات جاءت لتؤدي دورًا جزئيًا مع أنبياء الله تعالى، وغالب شأنهم ارتباط الأسباب بمسبَّبَاتها، وهي القاعدة الأعم والغالبة، وإذا كانت معجزة داود ـ عليه السلام ـ أن يلين الحديد له فلماذا ترهقه الأقدار بضرورة تشكيلها وبذل العناء في هذه الصناعة؟ ولماذا لم تتنزل الدروع والأسلحة جاهزة من السماء؟ ولماذا أخذ نوح ـ عليه السلام ـ سنوات طويلة في بناء السفينة ولم تصنعها معجزة ربانية؟ كل هذا لنعلم أن المعجزات حالة طارئة، لسبب طارئ، في ظروف خاصة، ولوقت محدد ولجزئية محددة من سلسلة الأحداث التي يمر بها النبي في أمته، والغاية منها أن تكون دليلاً على صدق النبي، وليست هي وسيلة النبي في بلوغ آماله ورجاءاته، وفرق بين الأمرين، فإن القرآن الكريم كان دليلاً على صدق دعوة النبي ﷺ غير أن القرآن لم يتحرك بين الناس داعية، ولم يقابل الوفود ولم يتعرض للقوافل، ولم يقصد منتديات القوم، ولم يهاجر إلى الحبشة، ولم يُطرد من الطائف، ولم تكسر ثناياه يوم أحد ـ ولله ولكتابه المثل الأعلى ـ. كل ذلك كان لرسول الله ﷺ مع أن الله قادر أن يتم لنبيه معجزته بخلق الهداية في قلوب البشر دون بذل للجهد، وتقحم

---

(١) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر (ت٣٠٣هـ)، السنن الكبرى: (٤/ ٣٦٩)، مسند أحمد، مسند أسامة بن شريك: (١٥/ ٤٠٩) واللفظ له.

للعناء، وتجشم للصعاب، ومن غير إنزال للقرآن أصلاً، لكن كان الذي كان ليؤكد حقيقة الأخذ بالأسباب، واحترام الناموس، وإعمال القانون على كل البشر، وعلى حد سواء، لتتحقق الآمال والرجاءات، ولتكون الأحلام والأمنيات.

رابعًا ـ الواقعية والتعلق بالممكنات:

إنَّ الإسلام العظيم ممثلاً بالقرآن الكريم، والسنة المطهرة، يتعامل مع الإنسان بصورة تتناسب مع واقعه، وواقع هؤلاء البشر كما هم بحقيقتهم الموجودة، مع هذا الإنسان ذي التركيب الخاص، والنوازع الخاصة، الإنسان بجزئه النفسي، والمادي، وبما وُهب من عقل وروح وجسد، وبما له من الرغائب والضرورات والآمال والرجاءات، الإنسان الذي تعتريه كل المشاعر التي خلقها الله تعالى، بحسب الحالة والظرف الذي يمر به.

وهو يعترف بالطبيعة المستقرة في نفس الإنسان من الميل إلى الشهوات وحبها، بل إن حبها لديه بالرغم من إيمانه برذالتها وفنائها شيءٌ مُزينٌ له، زينتها نفسه ورغباته وآماله ورجاءاته: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[آل عمران: ١٤]، ثلاثة جسور متينة، الحب والشهوة والزينة، تربط هذه الطبيعة البشرية بآمالها ورغباتها، جسر الشهوات يعبر منه الإنسان إليها، وجسر المحبة، وجسر الزينة، وكل جسر يسلم لأخيه؛ ليقع الإنسان من بعد في حبائل النفس[1]، هي شهوات محببة للإنسان، وحبها شيء زين لا غضاضة فيه في عينيه، والتنافس مع بني جنسه على أشده في نيلها وبلوغها،

---

(١) أكثر من أبدع في تفسير الآية الرافعي رحمه الله تعالى وعنده وجدت أصل الفكرة التي طرحتها بلغتي، التفسير أساسياته واتجاهاته، فضل عباس (٤٦٥).

فما أن تشاهد عينيه زينتها وجمالها، حتى يستقر في قلبه حبها لتعمد من بعد جوارحه إلى تشهيها، والسعي إليها بخطًى عَجْلى حثيثة، والقرآن إذ يقرر هذه الحقيقة، فإنه لا يتناقض مع نفسه بسؤال الإنسان الانخلاع منها، من طبيعته الناسوتية المجبولة على استزيان حب الشهوات، بل يطلب إلى الإنسان الاقتصاد فيها، وتوظيفها لعمارة الأرض، وفق شرع الله ودينه، فهاهو يراعي الضعف البشري، والنفس الإنسانية فيقرر حقيقة التكليف في دائرة الاستطاعة قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾[البقرة: ٢٨٦]، والسنة تعضد القرآن في مراعاة الضعف البشري، فتجد الخطاب النبوي يتعامل معه بواقعية صادقة: «وإذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وإذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»[1].

وتظهر واقعية القرآن يوم كان يعدُّ الجيل الأول من الصحابة لأول معركة مع الكفر، حيث جعل في قبالة كل صحابي صابر مؤمن عشرة من الكفار، ممن لا إيمان لهم ولا صبر، ممن لا يدافعون عن قضية عادلة، من الذين يركضون خلف الدرهم والدينار، والتوسع في الأرض والرزق والسلطان واسترقاق العباد، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[الأنفال: ٦٥]، قال أبو السعود: سَيُغلَبون لأنهم قومُ جَهلةٌ بالله تعالى وباليوم الآخر، لا يقاتلون احتسابًا وامتثالاً بأمر الله تعالى، وإعلاءً لكلمته، وابتغاءً لرضوانه كما يفعله المؤمنون، وإنما يقاتلون للحمية الجاهليةِ، واتّباعِ خطواتِ الشيطانِ، وإثارةِ ثائرةِ البغي والعُدوانِ فلا يستحقون إلا القهرَ والخِذلانَ[2]. اهـ.

---

(١) مسلم بن الحجاج، الصحيح: (٤/ ٤٢) رقم الحديث ٢٣٨٠.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ١٢٩).

وصدق الله العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٧٦]، والقرآن حال تقريره هكذا حقيقة، يؤكد أهمية الإيمان، وسامق منزلته، وضرورته في أرض القتال، الإيمانُ يعني الصلة بالله القوي، الإيمانُ يعني المبدأ والفكرة والتمسك بهما، والثبات عليهما، يعني أنك تدافع عن قضية عادلة؛ لأنها تستمد عدالتها من الله العدل الذي تؤمن به، وفي سبيله تقاتل، عندها، وعندها فقط، يكون المؤمن بعشرة من أولياء الطاغوت، حالةٌ إيمانية لم يبلغها إلاّ ثلة من الجيل الأول، وقمةٌ إيمانية لم يتربع على عرشها إلا القليل من الناس، والثبات عليها ليس باليسير، ولئنْ تَأَتّى لأحد الناس بلوغها يومًا فإنها من العسير أن تتاح لسائر الناس، ولعله إنْ بلغها حينًا أن يُحرَمَها أحياناً؛ لأنها تحتاج من المجاهدة ما لا يستطيعه إلا أفذاذ الناس وأكابرهم. أدرك القرآن هذه الحقيقة[1]، فاستجاب بواقعية لنداء نفسه ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، وتعامل مع الإنسان المؤمن في ذلك الصف المؤمن بواقعية فخفف عنه ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[الأنفال: ٦٦]، فجعل قُبالة كل اثنين من علوج الكفر مؤمنًا واحدًا صابرًا صادقًا محتسبًا، وما كان هذا الدور القرآني التربوي الواقعي إلا تربية للجنس البشري، وتبصرة للإنسان ليضطلع بمسؤولياته بواقعية واتزان، مراعيًا في ذلك حدود طاقاته، والمتاح من الإمكانات، في ظل نواميس الكون وسننه.

إنَّ القرآن الكريم يعلم أنَّ بحر الآمال البشرية بعيد الشطآن، وأنَّها تعظم

---

(١) التعبير بـ أدرك لا يقصد منه غياب الإدراك في السابق، بل هي حكمة الشارع في التدرج بالأحكام.

وتوغل أكثر كلما كبرت سنُّ الإنسان، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: الحرص والأمل»(١).

فأراد القرآن الكريم تربيته على الواقعية في آماله، والتعلق بالممكنات منها، بعيدًا عن الشطط والغلو في رجاءاته، لذلك نجد القرآن الكريم حين قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم: ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل، يُعقب على طلبِهم بضرورة مراجعةِ أنفسهم ومدى صدقهم في سؤالهم، وهل واقعهم يسمح لهم بهكذا أمرٍ في ظل ظروفهم، ومعطيات زمانهم؟ فاختبر النبيُّ حماستهم واندفاعهم وصدقهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾[البقرة: ٢٤٦]، فأجابوا بما يؤكد رغبتهم وحرصهم، و«بأنه ما من غرض لهم في ترك القتال وقد عرض لهم ما يوجبه ويحث عليه من الإخراج من الأوطان والإفراد عن الأولاد»(٢)، وأي واقع أكثر دفعًا للقتال من واقعهم، لكن الاختبارات التي مرت ببني إسرائيل أثبتت عدم عرفانهم بدخائل نفوسهم، وأن سؤال النبي كان لشكه بصدقهم، ومعرفته بواقع تربيتهم، وضمائم نفوسهم، وجبنهم وخوفهم، كالسؤال في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[الإنسان: ١]، فالسؤال للتقرير والإثبات، وفيه إرادة التذكير بمواطن ضعفهم، ليعمدوا إلى إعداد أنفسهم ليوم القتال الحق، ولساعة القتال الأمثل، وتساقُطُهم في الاختبارات أثبتَ ما اعتقده النبيُّ من خلال قراءته الصحيحة لواقع بني إسرائيل. وذات الأمر هو الذي جعل القرآن الكريم يؤخرُ الإذن

---

(١) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب: كراهية الحرص على الدنيا: (٢/ ٣٥٩)، مسند أحمد ابن حنبل، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه: (١٢/ ٢٤٥) واللفظ له.

(٢) البيضاوي، القاضي ناصر الدين الشيرازي (ت٧٩١هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: (١/ ٢٧٨).

بالقتال لأصحاب النبي ﷺ في مكة المكرمة وإن كانوا يتحرقون شوقًا له، والنيل من عدوهم وقاهرهم، إلا أن القرآن كان أكثر واقعية، وأراد تربية الأمة على هذه الواقعية، وطلب الممكنات، وما يلزم في الزمان الذي يلزم، وكان كلما أوقد أدعياء الفتن نارًا للحرب يطفؤها؛ حتى يعد الأمة الإعداد اللازم، فكفَّ أيدي المؤمنين عن الكافرين، والكافرين عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[المائدة: ٦٤]، حتى ما إن هاجر النبي ﷺ حتى كان أوان الإذن بالقتال، فنزل قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾[الحج: ٣٩]، قال البغوي: كان مشركو أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ فلا يزالون محزونين من بين مضروب ومشجوج، ويَشْكُون ذلك إلى رسول الله ﷺ فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ هذه الآية وهي أول آية أذن الله فيها بالقتال[1]. اهـ.

بل إن القرآن الكريم الذي أخذ يُفاتش بني إسرائيل في صدقهم، وواقعيتهم على لسان نبيه: ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ﴾[البقرة: ٢٤٦]، والذي لم يأذن بالقتال في مكة هو نفسه ـ أي: القرآن الكريم ـ نراه في المدينة بعد تشكل الدولة، وتهيؤ الظروف، الذي يَذْكُر مبررات القتال لأمة محمد ﷺ ويوضح صلاحية الواقع لمقارعة العدو، وأنه لا بد من وضع حد لغطرستهم: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ۝١٢ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ

---

(١) تفسير البغوي: (٥/ ٣٨٨).

لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٢ ـ ١٣]، وهكذا يمضي القرآن في تربية الأمة على الواقعية في آمالها، وطلب الممكنات الشرعية، والعقلية، في حدود الظروف المحيطة، والأسباب المتاحة.

ومراعاة الواقعية هذه تنسحب على جميع الخلق كائنًا من كان المُتأمل والراجي، ويوم سأل موسى ـ عليه السلام وهو الكليم العظيم ـ رؤية الله، أجابه القرآن: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[الأعراف: ١٤٣]، لأنها من غير الممكنات الشرعية فالله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٠٣].

وهكذا آمال الأمة في كل زمان ومكان، يجب أن تنطلق من الواقع، وأن تتعلق بالممكنات؛ لئلا تكون ضربًا من العبث وتضييع الأوقات والطاقات، والأمة التي تدرك واقعها مظنة أن تحقق غاياتها، وأن تبلغ مراداتها وآمالها؛ لأن إدراكها لذلك الواقع سيحول دون طلب المحالات، فتعمل في دائرة الإمكانات، وهذا النبي ﷺ يُعَلِّم أصحابه هذا المعنى، فيوم جاءه خباب بن الأرت مع نفر من الصحابة، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقالوا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

وبذا يبشر النبي بالخير العميم لهذه الأمة، لكنه على جسر من المشقة والتعب، ودونه المهج والأرواح، وهذه هي الواقعية التي نريدها في زماننا اليوم في صراعنا

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر: (٣/ ٢٦٣).

مع أعداء الإسلام، والأمة، والتاريخ، والأرض، لا أن نتعلق بأحلام النصر، ونحن ساهون لاهون، في ذيل القوافل.

كان بإمكان النبي ﷺ أنْ يبلغ سدة الحكم وسيادة مكة دون هذا الجهد، ولقد عرضت قريش عليه ذلك على لسان أبي الوليد وذلك حين أسلم حمزة ﷺ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد! أسمع»، قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذه الأمور مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا)[1]. وفي كل ذلك كلمة النبي ﷺ واحدة لا تتغير وثبات النبي ﷺ واحد لا يتغير؛ لأنه يعلم أن الحقائق الكبرى كالفجر في انبلاجه من بين ركام الصخر، وقسوة الجبال، ووعرها، يشق له طريقًا صعبًا في أوله، ويريد له صبرًا، وجهدًا، ثم ما يلبث أن يسكن كبد السماء شامخًا مشرعًا، وكذلك الدعوات.

قال سيد قطب: إن المبادئ والأفكار في ذاتها ـ بلا عقيدة دافعة ـ مجرد كلمات خاوية أو على الأكثر معان ميتة، والذي يمنحها الحياة هو حرارة الإيمان المشعة من قلب إنسان، لن يؤمن الآخرون بمبدأ أو فكرة تنبت في ذهن بارد، لا من

(١) ابن هشام، السيرة: (١/ ٢٩٢).

قلب مشع. لا حياة لفكرة لم تتقمص روح إنسان، ولم تصبح كائنًا حيًا دب على وجه الأرض في صورة بشر، كذلك لا وجود لشخص لا تغمر قلبه فكرة يؤمن بها في حرارة وإخلاص[1]. اهـ.

آمن النبي ﷺ بهذا وبضرورة أن يبذل الروح من أجل الفكرة، وإلا سيبقى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت وهو يخشى كل شيء، حتى ما هو دون الذئب على نفسه وغنمه.

آمن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كذلك بالفكرة، فاستعذب العذاب في سبيلها، واستخف بالتنكيل والنار من أجلها، ولو لم يفعل لبقيت أفكاره هناك حيث لا ماء ولا شمس؛ لتموت في أرضها؛ لأنها أصلاً ما عرفت طعم الحياة، كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ ينطلق في دعوته من واقعه، ويحاول الإفادة منه ليبلغ الأمنيات، بل لقد أدهشَ قومه غير مرة وهو يوقفهم على حقيقة الواقع الذي طالما أرادوا تغطيته، وإغلاق عيونهم دونه، فحطم أصنامهم ليصعقهم بضعفها، وعجزها، وصمتها، حتى لقد علموا أنه يسخر منهم يوم قال كما حدثنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣]، تكذيبهم بالحق، وإنكارهم للواقع، حَوَّلَهم إلى أصنام بشرية تعبد أصنامًا حجرية، وكلاهم ـ إذ الشأن هذا ـ في الجمود والضعف سواء، كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ واقعيًا جدًا يوم جعل مقياس النفع والضر، وجلب الخير ودرء الشر هو طريق معرفة الخالق العظيم: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[الشعراء: ٦٩ ـ ٧٣]، فأراد لقومه بهذا إدراكَ واقعهم؛ ليحققوا آمالهم بجلب المنافع، ودرء المضار

---

(١) سيد قطب، أفراح الروح: (ص١٤).

عبر بوابتها الواقعية، وأراد الله أن نتعلم هذه الواقعية، والصدق مع الذات كذلك، فأمر نبيه ﷺ أن يتلو علينا أخبار أبيه إبراهيم - عليه السلام - التي توصل إلى الإله الحق، والدعوة الحق، عبر بوابة الجهد والبذل، يغلفها الصبر والاحتساب، وتوصل كذلك إلى الآمال والرجاءات، على قدر إدراك الأمة لواقعها وتعاملها معه بما يناسبه، ويحقق الكفاية في كل خطوة منه، دون قفز أو استعجال، وحرق للمراحل، يُفقدها مذاقها وحلاوتها، ولكنها طبيعة البشر التي وصفها النبي ﷺ بواقعية «ولكنكم تستعجلون» والتي استغرق القرآن الكريم زمنًا طويلاً في محاولة تغييرها، وعلى قدر نجاة الإنسان منها يبلغ ما يريد ويأمل.

خامسًا - عدم الاستعجال:

إن آخر المبحث السابق يسلمنا لأول هذا المبحث، وهو النهي عن الاستعجال؛ إذ طُبع الإنسانُ على هذا الخُلق، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾[الإسراء: ١١]، وقال تعالى: ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الأنبياء: ٣٧]، وانظر كيف (جعل الإنسان لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه خلق من العجلة، تنزيلاً لما طبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه من الأركان، إيذاناً بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه)[1].

قال الرازي: فإذا قيل: كون الإنسان مخلوقًا من العجل يناسب كونه معذورًا فيه، فلماذا رتب على هذه المقدمة قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ قلنا لأن العائق كلما كان أشد كانت القدرة على مخالفته أكمل، فكأنه سبحانه نبه بهذا على أن ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها[2]. اهـ.

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٥/ ١٢٨).

(٢) الرازي، التفسير الكبير: (٩/ ٢١٥).

فالعجلة في طبعه وتكوينه، وهو يمد ببصره دائمًا إلى ما وراء اللحظة الحاضرة، يريد ليتناوله بيده، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر له، ويريد أن يستحضر ما يأمل ويرجو، ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه. تحسس القرآن هذا الطبع البشري فأراد تربية الأمة على ضده... على التأني وعدم الاستعجال فسلك طريق القدوة لأجل هذه الغاية؛ فتأنَّى في تنزُّله ليتحقق الناس من خيره، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[الإسراء: ١٠٦]، وتنزَّل على مكث ليتمكن الناس من الاستجابة لما فيه من أمر ونهي، في زمان يكفيهم لتلاوته وفهمه والقدرة على تطبيقه؛ ليكون القرآن من بعد قادرًا على أن يفعل فعله في هذه الأمة ويظهر أثره وعظمته.

إنَّ التحول بهؤلاء الأعراب، وأهل البادية، من واقعهم الصعب والمتأخر، إلى أن يصيروا جزءًا من صناعة الحياة وصياغة التاريخ، بل الرقم المؤثر الصعب في واقع الإنسان، والكون والحياة والأحياء، يحتاج إلى وقت كافٍ وزمن ممتد، والاستعجال سيعود بنتائج ليست محمودة، وبجيل غير ناضجٍ، ولا معد إعداداً يؤهله لتحمل مسؤولية خلافة الأرض وعمارتها، بل لن يكون مؤهلاً لما هو أقل من ذلك بكثير، كترك محقرات الذنوب فضلاً عن كبائرها.

يقول الفخر الرازي: لو نزل الكتاب جملة واحدة، لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق، فكان يثقل عليهم ذلك، أما لو نزل مفرقًا منجمًا، لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل[١]. اهـ.

وكانت عائشة ﵂ ذات نظر ثاقب في فهم حكمة الشارع، ومقصد القرآن في

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير (٧/ ٤١٣).

تنزله على مكث، حيث تقول: إنما نزل أول ما نزل منه ـ أي القرآن ـ سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا[١]. اهـ.

ولم يكن عدم الاستعجال في إرادة القرآن حمل الناس على ترك المحرمات فقط، بل وفعل الواجبات وهذا حبر الأمة يؤكد هذا المعنى فيقول: بعث النبي ﷺ بشهادة أن لا إله إلا الله، فلما صدقوه فيها زادهم الصلاة، فلما صدقوه فيها زادهم الزكاة، فلما صدقوه فيها زادهم الصيام، فلما صدقوه فيها زادهم الحج، ثم أكمل لهم دينهم[٢]. اهـ.

وبهذا المنهج استطاع القرآن تحقيق غاياته من تنزُّله، ثم استطاع أن يربي في الناس هذا المعنى من الأناة، والتروي، وعدم الاستعجال، في تحقيق المآرب والآمال.

وكما نزل القرآن على مكث، فقد كانت تلاوة النبي ﷺ لكتاب ربه وللمنهج الحق على مكث، وفي زمن ممتد، في أناة وصبر، وجهد متطاول، وعرق وتعب، وحكمة وعطف ولين، بكل هذه وغيرها استطاع أن يتحول بالأمة الخاتمة من أميّتها إلى سياسة الكون وسِدانة الخير فيه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، وإنك لترى صورة النبي ﷺ في هذه الأمة الأمية وهو يتحسس أحوالها،

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب: فضل القرآن، باب: تأليف القرآن: (٤/ ١٩١٠).

(٢) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن: (١٦/ ٢٦٤).

ويطبب جراحها، ويتمم فيها مكارمها، كأنه يتحدث إلى هذا، وينصح هذا، ويعظ هذا، ويمسك بيد مسكين هناك، ويحنو على أرملة وأيتامها في جانب الحي فيجبر كسرهم، «والظرفية ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ تعني الملازمة؛ أي: رسولاً لا يفارقهم، فليس مارًا بهم كما يمر المرسل بمقالة أو بمالكةٍ يبلغها إلى القوم ويغادرهم»[1]. وعبَّر بالأميَّة؛ لأنها مظنة البعد عن العلم ومجافاته، ومن هكذا حالة لا بد له من صبرٍ طويلٍ لتطويعه للحق والعلم، فضلاً عن طلبهما والعمل بهما، والعيش من أجلهما، ويظهر هذا الصبر الطويل في الأفعال المضارعة فيها.

(يتلو، يزكيهم، يعلمهم)، فهي تشخص حالة الرسول ﷺ وترسم واقعه للقارئ، كأنه يشاهد ويسمع ويحس، صبر طويل، وجهد طويل، استطاع أن ينقل الأمة من أميتها وضلالها المبين إلى سِدانة الخير، والإصلاح، لقد كانت الأمية وكان الجهل يضربان أطنابهما في هذه الأمة، حتى لقد كانت يهود تعيب على العرب هذه الأمية، وتنتقصهم بها، وتستحل ظلمهم، والعلو عليهم بلا نكير منهم ولا معتبة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾[آل عمران: ٧٥]، إذًا فلقد كانت الأمية هي الحالة السائدة، وتغيير واقع كهذا لا بد له من جهد وصبر، لتزكوا الأمة وتتربى على الكتاب والحكمة، وبذا يبلغ النبي ﷺ بالأمة وتبلغ هي معه ما يصبو له، وتصبو إليه.

التأني مفتاح الشعور بسعادة الصلة بالله، وما كان النبي ﷺ ليدرك لذة الصلاة، وحلاوة الاتصال بالله لو كانت صلاته على عجل، لذلك قال له ربه مربيًا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[طه: ١٣٢]، ولما تذوق حلاوة الصلاة، وعرف طيبها وطيب الوقف بين يدي ربه، صار إذا حزبَه

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٢٨/ ١١٠).

أمرٌ أو اشتدت به ضائقة، قال: «أرحنا بها يا بلال»[١]، حتى لقد صارت قرة عينه في الصلاة ﷺ، وهي الحالة الإيمانية التي يتأملها الصالحون، ويرجوها المقربون، الحالة التي يتميز بها النبيون ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، عسى يكونوا مثلهم فيحشروا معهم.

وإنَّك لتجد التأمل والتأني من المؤمنين حالَ تعاملهم مع خطاب الله لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر: ١٨]، والمراد: يتبعون القول الحسن من تلك الأقوال، «فاسم التفضيل هنا ليس مستعملاً في بابه؛ أي: في تفاوت الموصوف به في الفضل على غيره، بل هو للدلالة على قوة الوصف، كما في قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ﴾[يوسف: ٣٣]، حيث أثنى الله عليهم بأنهم أهل نقد، يميزون بين الهدى والضلال والحكمة والأوهام، نُظَّار في الأدلة الحقيقية، نقاد للأدلة السفسطائية، وفي الموصول إيماء إلى أنَّ اتباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله لهم»[٢]. قال الرَّازي: يستفاد من الآية وجوب النظر والاستدلال، وذلك لأنه تعالى بيَّن أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة، فإنه يختار منها ما هو الأحسن والأصوب، ومن المعلوم أن تمييز الأحسن والأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع، لأن السماع صار قدرًا مشتركًا بين الكل؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾[الزمر: ١٨]، يدل على أنَّ السماع قدر مشترك فيه، فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع، وإنما يتأتى بحجة العقل، وبناء الأمر على النظر والاستدلال[٣]. اهـ.

---

(١) أبو داود السجستاني، السنن، باب: في صلاة العتمة: (٧/ ١٦٥)، صححه الألباني، صحيح وضعيف سنن أبي داوود رقم الحديث (٤٩٨٥).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٢/ ٢٣١).

(٣) الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: (١٣/ ٢٤٥).

إذًا هي الأناة والتصبر والتحليل، والنظر وترك الاستعجال تُبلِّغُ خيرَ الأقوال والأعمال والأحوال، وتُبلغ الآمال والرجاءات.

وها هو القرآن الكريم يخاطبُ النبي ﷺ بالصبر وعدم الاستعجال بالعذاب لقومه بعد ما كان منهم من إيذاء له، ولأصحابه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[الأحقاف: ٣٥]، فإن ما يأمل ويرجو من هلاكهم آتٍ لا محالة، وعاقبة صبره حميدة له ولأصحابه، بل إن لذة الصبر على البلاء لله ﷻ ستجعل مدة لبث أعدائه في إيذائه كأنها ساعة من نهار، مرت كالبارق اللماح، وهم كذلك يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا وقت حلول العذاب بهم، قال الطاهر: وعبر بساعة من نهار؛ لأن ساعة النهار تبدو للناس قصيرة؛ لما لهم في النهار من شواغل بخلاف ساعة الليل تطول؛ إذ لا يجد الساهر شيئًا يشغله، والتنكير للتقليل[1]. اهـ.

ثم قوله «بَلاغٌ» إشارة إلى الغاية التي بعث محمد ﷺ لأجلها، وقد أدى الذي عليه فيها، ففيها تسلية لحبيب الله بأن ما وعظ به قومه بلغ الكفاية في الوعظ، وأن ما تأمله من الدعوة قد ناله بصبره وعدم استعجاله.

إن العجلة تُذهب البركةَ وكلَّ خير، ولو أن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ صبر أكثر، وما صرح بوعده للعبد الصالح: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾[الكهف: ٧٦]، وصبر على العجائب لتعلمنا جميعًا من الخير ما هو أعظم وأكثر، حتى لقد تمنى نبيُّنا أن لو صبر أخوه موسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فقال: «يرحم الله موسى لوَدِدْنا أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما...»[2].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٢٦/ ١٠).

(٢) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب: فضائل الخضر عليه السلام: (٦/ ٨٩).

وما قاد داود ـ عليه السلام ـ إلى الحكم بظلم أحد الأخوين إلا العجلة وعدم التريث، ثم ما لبث أن فطن للاختبار، وأنها إنما كانت فتنة، فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب، ثم جاءه الأمر من بعد: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]؛ أي: احكم بالعدل والسوية، بتأن وإعمال نظر، ولا تتعجل فتكون الندامة.

وإن القرآن ليقرر على لسان الشيطان أن سببَ الوقوع في شرك إبليس وحبائله، وخسارة الآخرة، والجنة، وكل ما كان يأمله الإنسان من الخير، هو التعجل وترك التأني: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، والشاهد: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾، بمجرد أن دعاهم إلى الباطل بادروا دون إعمال فكر أو نظر، فانساقوا إلى شهوات أنفسهم خلف مكر الشيطان، ولو كان منهم قليل تدبر لما صاروا إلى هذه الحال، لكنها العجلة ومَغبَّتُها، والشهوات وعاقبتها، والنفس ومكرها. وما آل يونس ـ عليه السلام ـ إلى بطن الحوت إلا يوم تعجل في الحكم على قومه، فغادرهم مسافرًا في البحر حتى كان له الذي كان، وما من قوم آمنوا جميعًا من بين أقوامِ كلِ أنبياء الله إلا قوم يونس ـ عليه السلام ـ حتى من بُعث فيهم محمد ﷺ فمنهم كافر ومؤمن: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، حتى صار يونس ـ عليه السلام ـ أنموذجًا في القرآن الكريم أُمر النبي ﷺ أن يتجنب تقليده في عجلته، وأن يصبر لحكم ربه، وأن يصبر على إيذاء قومه، فعاقبة الصبر حميدة، وبه تبلغ النفس آمالها ورجاءاتها،

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[القلم: ٤٨].

ولقد فهم علماء الأصول هذه المنهجية القرآنية في طلب التأني وعدم الاستعجال، حتى صاغوها لنا على صورة قاعدة فقهية: (من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه)، وهذه عبارة الحنفية، وعبر غيرهم بقوله: من استعجل ما أخره الشرع يُجازَ برده. وقال بعض الشافعية: المعارضة بنقيض المقصود[١].

وخلاصة الأمر أن من يتعجل في طلب شيءٍ ما مِنْ غير انتظارٍ وتمهل فإن عاقبته أنْ يُحرم مما تعجل به، كالقاتل لمورثه يحرم من الميراث، والغال من الغنائم قبل القسمة العادلة من أمير الجيش يحرم مما غله، قال رسول الله ﷺ: «إذا وجدتم الرجل قد غل فاحرقوا متاعه واضربوه»[٢].

وخلاصة جميع ما سبق، أن الاستعجال مما كرهه الشرع، وفَضَّل عليه الأناة والتمهل، ولعل أحوال الأمة تحتاج من الدعاة إلى فقه هذه القضية، وأن يبلوروها في واقع الناس بإعادة التربية، وبناء النشء والجيل؛ كي يكون قادرًا على مواجهة التحديات التي تعصف به، ولئلا يُزبب قبل أن يُحصرم؛ فيطول عمر ذل الأمة لزمن أبعد.

إنَّ التدرج في التربية هو منهج الإسلام، ويسبقُ الضربَ على الصلاة ثلاثةُ أعوام من الأمر والوعظ والتذكير، مع القدوة العملية من المربي، كما أرشد الصادق المصدوق في الحديث الذي أخرجه أبو داود، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة: «مروا

---

(١) محمد صدقي البورنو الغزي، الوجيز في إيضاح قواعد الفقة الكلية: (١/ ١٨٨).

(٢) أبو داود، السنن، باب: في عقوبة الغال: (٧/ ٣٤١)، والترمذي في الحدود برقم (١٤٦١)، وقال حديث غريب والحاكم في المستدرك: (٢/ ١٣٨)، وقال صحيح الإسناد، وضعَّفه الألباني في المشكاة (٣٦٣٣).

أولادكم بالـصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر. . .»، ولا شك أن مرحلة الأمر بالصلاة تالية لمرحلة قبلها من التوجيه والتحبيب والإرشاد، وإلا كيف يُأمرُ الـصغيرُ بما لم يُعلَّم أو يُدرِك؟ لذا لعلها تستغرق مدةً تعادل مدة الأمر؛ لأننا علمنا أطفالاً في سن الرابعة يحفظون الكثير من القرآن الكريم، وأهلاً للخطاب والتعليم، وعلى هذا فإن التدرج في تعليم الصلاة لشخص واحد يستغرق خمسة أو ستة أعوام. . . شخص واحد يبذل معه الإسلام هذه الأعوام لتعليمه الصلاة، وليس الأمر مقصورًا على أفراد الناس في بواكير الدعوة الإسلامية زمن رسول الله ﷺ بل هو حكم عام وماضٍ إلى يوم القيامة مع كل فرد أهلٍ للخطاب من أمة الختام، والشأن في الصلاة ينسحب على كل القضايا، حتى تحرير البلاد وحكم الأرض، ولكلٍ من قضايا الأمة الزمن اللازم الذي يكفي لنُشدانِها وبلوغها، والتحقق من لوازمها، وكل هذا يملك تحديده أعيانُ الدعوة الإسلامية وقادتُها في كل مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، بما يحقق معنى النضج والجاهزية في أفراد ذلك الزمن وتلك الحِقبة.

سادسًا ـ الجمع بين طلب الدنيا وطلب الآخرة:

لقد كثـر النداء في القرآن الكريم بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وعند إمعان النظر نجد أنه جمع في نداءاته مع التوجيه لعمل الآخرة وطلبها، الحرصَ على شؤون الدنيا وإقامة مصـالحها، فيما يحقق سعادة الدنيا والآخرة، فكما أنه ينادي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم: ٦]، فهو كذلك يهـتف بنداء الإيمان؛ ليوصل الإنسانية إلى سعادة الدنيا، والأمن والاستقرار فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[البقرة: ١٧٨]

حتى يستقر المقام إلى النهاية العادلة الحميدة، وكأن البقاء في الدنيا هو الغاية الأسمى، والهدف الأعظم، حتى يقول مؤكدًا ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٩].

وكما كانت النداءات كذلك تستصرخ لتحريك دواعي العبادة، والطاعة، والإيمان بالله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الجمعة: ٩] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٣٦]، فها هي أيضًا تحرص على مقومات الحياة الدنيا وتسديد حركتها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء: ٢٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[البقرة: ١٧٢]، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[المائدة: ١]، بل لعله يرتقي في درجة الأمر، ويعبر بما هو أكثر صراحة على ضرورة عمارة الأرض على النحو الأفضل، فيقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ١٨٠]، وصية يصلح بها أحوال الأحياء من بعده في هذه الحياة بالرغم من خطورة مطلعه، وصعوبة حالته، فإن للدنيا والأحياء فيها حقوقًا

بالرغم من تلك الصعوبات، بل لقد كُتب القتال أيضًا دفاعًا عن إصلاح الحياة واستقرارها، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦]، وكما سمَّى الشهادة في سبيل الله إحدى الحسنيين، وجعلها طرفًا، فكذلك النصر والسيادة في الدنيا، هي الطرف الآخر منهما، فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[التوبة: ٥٢]، ليصل في النهاية إلى مفهوم العبادة الشامل والكامل، الذي يستغرق كل تصرفات الإنسان كما عبر عنها ابن تيمية في رسالته المعروفة باسم (العبودية) فقال: العبادة هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة[١]. اهـ. «وهكذا نجد العبادة أفقًا رحبًا ودائرة واسعة، فهي تشمل الفرائض والأركان الشعائرية، وتشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد، وتشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها»[٢].

ولذلك انظر الخطاب الرباني الواضح كيف يوسع دائرة العبادة لتستغرق المعاملات، وحسن العلاقات مع الآخرين، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾[النساء: ٣٦]، وهذا نبي الله

---

(١) ابن تيمية، العبودية: (ص٣).

(٢) يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام: (ص٤١).

صالح ـ عليه السلام ـ يجعل عمارة الأرض قسيمة العبادة، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[هود: ١٦١]، وكذلك شعيب ـ عليه السلام ـ يجعل المعاملات التجارية جزء من العبادة، قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ٨٥]، وما كانت الحِرَفُ التي أتقنها الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إلا إشارة إلى ضرورة عمارة الأرض، وتحقيق مفهوم الاستخلاف فيها، وبعد السبر لحقائق التشريع الإسلامي في أصوله وفروعه، انتهى علماؤنا إلى تقسيمها إلى عبادات ومعاملات لتتسع الدائرة فتنتظم الحياة كلها، وكذا الآخرة؛ لتبدأ من أدب قضاء الحاجة، والأكل والشرب، إلى بناء الدولة وسياسة الحكم، وسياسة المال وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب، مع ما يجب من التبتل والخضوع لله في محاريب السجود، وظمأ الهواجر وحج البيت، وبذل الصدقات والزكوات، وأداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من شؤون الآخرة وعمارتها.

وللدلالة على الخير العظيم الذي تشغله الدنيا في الفكر الإسلامي، يقول النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة، قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[1]، ومن أعظم ما يدل على أهمية الحرص على العمارة في الدنيا

---

(١) الترمذي، السنن، كتاب: صفة القيامة والرقائق: (٩/ ٤٩) وصححه الألباني رقمه (٢٥٠٩).

قول الصادق المصدوق: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»[١]، وعن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق»[٢]، ولعل حديثًا جامعًا يختصر الكثير مما يمكن أن يتطرق إليه في مثل هذه القضية، وهو ما رواه أبو ذر ﷺ، قال: «سألت رسول الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: الإيمان بالله. قلت: يا نبي الله! مع الإيمان عمل؟ قال: أن ترضخ[٣] مما خولك الله. قلت: يا نبي الله! فإن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ؟ قال: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. قلت: فإن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. قال: فليعن الأخرق[٤]. قلت: يا رسول الله! أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال: فليعن مظلومًا. قلت: يا نبي الله! أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مظلومًا. قال: ما تريد أن تترك لصاحبك من خير؟ ليمسك أذاه عن الناس. قلت: يا رسول الله، أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة؟ قال: ما من مؤمن يطلب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده تدخله الجنة»[٥]، وغيرها الكثير مما ليس هذا محل سرده مما يدل على المكانة التي تشغلها عمارة الأرض في الفكر القرآني والسنة المطهرة.

---

(١) محمد بن اسماعيل البخاري في الأدب المفرد برقم (٤٧٩)، وأحمد بن حنبل، مسند أنس بن مالك: (١٣/ ٥٩)، وصححه الألباني في السلسلة: (١/ ٣٨).

(٢) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب: النهي عن البصاق في المسجد: (٣/ ١٦٩).

(٣) ترضخ؛ أي: تعطي وتقسم للفقراء مما ملكك الله.

(٤) الأخرق: الجاهل الذي لا يعرف صنعة، فيعينه على تعلم حرفة.

(٥) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى السجستاني (ت٤٥٨هـ). شعب الإيمان، باب: ماذا ينجي العبد من النار يوم القيامة: (٧/ ٣٣٠)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٦/ ٣٦٩).

ولو أنَّ معترضًا زعم التعارض بين طلب الدنيا وعمارتها، ونصوص ظاهرة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧] نجيب بأن هذا خارج محل كلامنا، وليس داخلاً في دائرة حديثنا، وهذا ما سيظهر عند تحرير المسألة وجلائها، وننطلق من قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]. إنَّ الغاية التي خلقنا الله ﷻ لأجلها تتلخص في كلمة العبودية، وأعني ما عناه القرآن الكريم من العبودية في مفهومها العام المتسع الرحب، كما أسلفنا ذلك في مطلع مبحثنا. . . العبودية التي تستغرق شؤون الدنيا والآخرة والتي يعبر عنها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، وإذا كان ظاهر الآيات السالفة يدل على ضرورة الانقطاع للآخرة، فليس معنى هذا نسيان

الدنيا؛ لأنها مزرعةُ الآخرة، والجسرُ المُوصل لها، ومن حُرم جنةَ الدنيا سيحرم جنة الآخرة، ولقد عبر القرآن عن سعي الإنسان لطلب الرزق وقوت أهله بأنه سعي وراء فضل الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة: ١٠]، وكذلك في رحلة الحج وهي الرحلة التعبدية الصِرفة، يقول تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾[البقرة: ١٩٨]، بل جعل طلب الرزق وفضل الله مبررًا كافيًا لترك قيام الليل، أو التقلل منه، ووَسَّطَه بين المرض والجهاد في سبيل الله عند ذكر المبررات لرفع الجناح، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ﴾[المزمل: ٢٠]، فجعل طلب الرزق عذرًا بين عُذرَيِّ المرض والجهاد؛ لأهميته، ولبيان أنه ضرورة من ضرورات الحياة المسيسة، والله لا يريد من عباده أن يَدَعُوا أمور حياتهم وينقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان، وكل هذا هو ذاته ما يعبر عنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧]، ويقف سيد قطب عند هذه الآية معقبًا: وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أنْ يأخذ قسطًا من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إيَّاه تكليفًا؛ كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها[١]. اهـ.

وهكذا يحقق هذا المنهج التوازن في حياة الإنسان؛ التوازن بين دنياه وآخرته،

---

(١) سيد قطب، الظلال: (٥/ ٤٤٣).

ويُمَكنه من أداء مهمة الخلافة في الأرض، والاستعداد في ذات الآن ليوم الموقف الرهيب، فلا يحرم الإنسـان زهرة الحياة ومتعتها، كما لا مكان للإرادة الممقوتة لها، التي تصرف عن الآخرة بالكلية، فينسى رجوعه إلى الله ووقفته الرعيبة بين يديه، وما جعل اليهود أحرص الناس على حياة سوى ذلك السفول في فهمهم للدنيا والآخرة، وإرادتهم لما يفنى، وترك دار البقاء.

الإرادة الممقوتة تلك التي تعمي صاحبها، فلا يعود يميز في طلبه للدنيا أَمِنْ حلال كان أو من حرام، فتجده يرتع في حدود الله وحرماته دونما لائم من نفسه، أو حسيب من ضمير، همه الدرهم والدينار، وأمله النفعية الضئيلة الحسيرة المحدودة، بدائرة الدنيا الصغيرة الحسيرة، الإرادة الممقوتة التي تشكل مادة لهو وشغل عن الآخرة وطِلبَتها، وعن الله والخضوع إليه، تلك الإرادة التي تصير في بعض أطوارها معبوداً من دون الله تعالى، أما إذا استطاع الإنسان أن يوازن بين طلب الدنيا وطلب الآخرة، معطيًا كلاً حجمه وما يليق به من مقام، مقارناً بين الوسائل والغايات، بين الهدف المرحلي والهدف البعيد المنشود، مدركًا الدور الذي أراده الله للدنيا، وكونها واحدة من المسخرات الكونية لخدمة الطبيعة الإنسانية المستخلفة في هذه الأرض، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤]، عندها سيتمكن الإنسان من السير بخطوات ثابتة راسخة، على أرض الوعي ببصيرة العلم، مستعيناً بالسنن، متكئًا على المسخرات الكونية؛ ليحقق

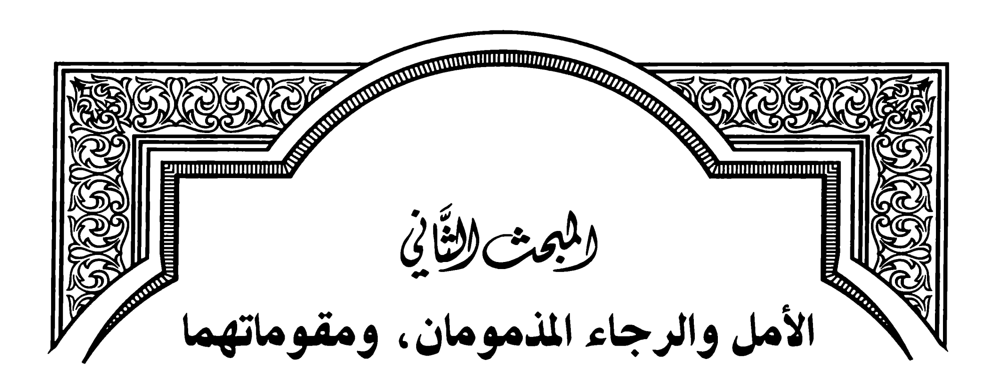
آماله ورجاءاته بالخلافة والعمارة في الأولى، والنجاة والفوز في الآخرة، هذا وذاك يكون في ظل الإدراك للغايات والوسائل، والأهداف والآمال، والإمكانات والسنن، مع الإحاطة بقائمة المباحات والمحذورات، بالإضافة إلى قاعدة بيانات حول المرحلة وطبيعتها، والعوائق وأسبابها، والخصوم وبرامجهم وإعداداتهم، كل ذلك كفيل أن يوصل الإنسان الخليفة إلى آماله ورجاءاته، والقرآن لا يبخل، والسنة زاخرة، ومذخور الخبرة لدى سلفنا مبارك وفيه الكثير من متطلبات المهمة المقدسة.

الإدراك والفهم لكل هذا يجعل سير الإنسان في مهمة عمارة الأرض جزءًا من عبادته لله تعالى، يشعر وهو يعمر الأرض أنه يؤدي وظيفة مقدسة، تبدأ به في الدنيا سيدًا، وتنتهي به في الجنة مُنعمًا، فلن يشعر بقلق الانشغال عن الله، وإحراج البذل والتضحية من أجل السخيف الدَّنيِّ، عندها لن يكون شغله بالدنيا ممقوتًا مذمومًا، بل هو الحميد ولن يكون هدرًا للطاقة، بل هو المذخور.

عندها، وعندها فقط يكون بلغ ذروة ما يمكن أن يبلغه الإنسان في حدود طاقته الخافتة من حقوق الخلافة في الأرض، عندها ستكون الدنيا والآخرة حلقتان متصلتان متناغمتان في مسلسل الإنسانية الطويل، ليس بينهما تفاصل وندِّيَّة، ستكون الدنيا خادمة للإنسان، كالجنة مخلوقة لمتعته كذلك، عندها سيملكها ولن تملكه، كالجنة مسخرة بأمره، عندها فقط ستُخْرِج الدنيا كل إمكاناتها لخدمة سيدها الإنسان الحاكم بأمر الله؛ ليحقق فيها كل آماله ورجاءاته ورغباته وأمنياته، حينئذ يحب الله أن يرى أثر نعمته على عبده، ولا بأس لو تنعم في الدنيا وأخذ زينتها عند كل مسجد ومنتدى، وسكن أجمل الدور، وركب خير المطايا، وانتفع بكل

ما يمكن أن يصل إليه علمه من المدنية وثورة الاتـصالات والحاسـوب، إذ الدنيا وما فيها مسـخرة ليبلغ هذا المخلوق المكرم كل ما يأمل ويرجو.

* * *



المبحث الثاني

الأمل والرجاء المذمومان، ومقوماتهما

وينقسمان إلى ثلاثة أقسام:

أولاً ـ الاتكالي: تعريفه ومقوماته:

الاتكالية: حالة شعورية تبعث فيمن تملكتـه الاطمئنان لأن سـيبلغ مراداته وآماله من غـير أسبابها، وطرقها الموصلة إليها بحسب القوانين الكونية، والسنن الثابتة، حتى يُدهش بعد الفوت بالخَسَارِ والندم، وسوء العاقبة وحرمانه من آماله، ولئنْ تيقظ في وقت إمكانٍ؛ فإنَّ خساره على قدر تأخر استيقاظه، وإدراكه أهمية الأسبـاب والأخذ بها، فالاتكالية ترك الأسـباب، والتعلق بالأوهام، كانتظار من لم يزرع للحصاد، وتوقع من لم يدرس النجاح، والدعاء بتحرير المقدسات ممن لم يحمل السلاح، ويذود عن الحمى والذمار.

وما حال بني إسرائيل إلا ممارسةٌ واقعيةٌ لمفهوم الاتكالية، حيث كتب الله لهم الأرض المقدسـة، بعد الملك والرسالات التي جعلها فيهم ـ ولك أن تتأمل ما في كل هذا من التشريف والإكرام ـ برزت فيهم آثار المرض المقعد عن كل سبق وفضيلة، الذي لا يصيب إلا العَجزةَ ومُوَّاتَ الهمم، فقالوا: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾[المائدة: ٢٢]، ولعظيم دهشة تابِعَيْ موسى ـ عليه السلام ـ اللذين يخافان، ولا يخافان إلا الله نطقا بضرورة الأخذ بالأسباب: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، الأخذ بالأسبـاب الممكنة والمتـاحة، ومنها المباغتة والخـدعة في

الحرب، وترك الجُبن والضعف، ويكلل هذا التوكل على الله تعالى، وطلب عونه ومـدده: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣]. ولقد عبَّر القرآن عن فهمهما وإيمانهما وتوكلهما بأنها جميعًا نعمة من الله إليهما، سابغة عليهما؛ ليدل بالمخالفة على حرمان أضدادهما الجبناء المتواكلين من كل خير ونعمة.

على الرغم من كل هذه النعم الثلاثة الكبيرة، نعمة الأنبياء الذين أرسلهم فيهم، ثم جعلهم ملوكًا في الأرض أحرارًا يملكون أمر أنفسهم، ثم كتب لهم الأرض المقدسة، إلا أنهم أبَوْا نيل الشرف بِسَواعِدهم، وقطف الثمار بِتَطاولهم، بل تواكلوا واعتمدوا على غيرهم، وأرادوا الغزو والنصر دون زَفْرَةِ تضحيةٍ أو شَهْقَةِ كدٍ، وأرادوا الأرض المقدسة على طبقٍ وارفٍ من النوم والإسبات، ولم يكتفُوا بجريمة تقاعدهم، بل مزجوا تواكلهم بسوء أدب، فقالوا لنبيهم بكل جَلافة: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[المائدة: ٢٤]، فحُرموا من عطاء ربهم، ومُنعوا الأرض المقدسة، وكذا كل متواكل خنوع، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[المائدة: ٢٦]، إن التواكل ذميم، ومن يأكل من صنع يده أحب وأكرم عند الله ممن يتكفف الخلق، واليد العليا خير من اليد السفلى، ولقد أثنى الله على صنف من الناس ليس لأحد من البشر عندهم نعمة تجزى، ولا فضل يشكر؛ لأنهم أعز في أنفسهم من سؤال أحد غير الله، فلم يمدوا أيديهم للخلق، بل هم من أخرجوا زكواتهم وصدقاتهم، ليس سدادًا لِدَينٍ، ومقابلةً لنعمةٍ بمثلها، بل ابتغاء مرضات الله، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[الليل: ١٧ ـ ٢١]، وهكذا يريد الإسلام تربية المسلم على الاستغناء عن كل أحد إلا الله، وهذا ما قصده النبي ﷺ في حديث أنس بن مالك قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر أكثرنا ظلاً

يومئذ الذي يستظل بكساء فأما الذين أفطروا فسقوا الركاب وامتهنوا وعالجوا وأما الذين صاموا فلم يعالجوا شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «ذهب المفطرون بالأجر»(١).

واسمع لعوف بن مالك الأشجعي يروي لنا قصة بيعة بعد بيعة مع رسول الله ﷺ وعهد يتجدد بعد عهد على لزوم الحق، واتباع الحق، يقول: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثَ عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! فعلام نبايعك؟ قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا والصلوات الخمس وتطيعوا، وأسرّ كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئًا. فلقد رأيت أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه»(٢).

ومِنْ أسوأ ما في الاتكالية ـ وكلُّها سوء ـ ما تلقيه في قلب صاحبها من الانتفاش والعزة، والشعور بالفضل على سواه من الناس، الانتفاش الفارغ الذي ليس له رصيد من واقع، ولا يرتكز على حقائق، الانتفاش القائم على عوارض ليست ذاتية سرعان ما تزول، ومنهم الاتكالي المستند على نفر ممن حوله من النفعيين، ذوي المصالح العاجلة الدنية كما فضحهم القرآن الكريم، وفرّق بين ظاهرهم الخادع الوسيم، وباطنهم الأجوف السقيم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[المنافقون: ٤]، فظاهرهم مُموه وباطنهم مُشوّه؛ لذا شبههم الله بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط في كونهم أشباح خالية من العلم والنظر، و﴿خُشُبٌ﴾:

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: فضل الخدمة في الغزو: (٤/ ١٥).

(٢) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب: كراهة المسألة للناس: (٥/ ٢٥١).

جمع خشباء، وهي الخشبة التي نخر جوفها، ويصح أنها جمع خَشَبَة كبدنة، وشُبهوا بها لحُسْنِ منظرهم وقبح المخبر.

وقال ابن عطية: الخشب المسندة إنما هي أجرام لا عقول لها، معتمدة على غيرها ولا تثبت بأنفسها[١]. اهـ. وكذلك عبارة القرطبي: شبههم بالخشب التي قد تآكلت فهي مسندة بغيرها لا يعلم مافي بطنها[٢]. اهـ.

وقال ابن عقيل النحوي الحنبلي: أي: مقطوعة ممالة إلى الحائط لا تقوم بنفسها ولا هي ثابتة، إنما كانوا يستندون إلى من ينصرهم وإلى من يتظاهرون به[٣]. اهـ. فإذا ما انكشف ظهرهم وقلَّ نصيرهم لِما يكون من تقلبات الزمن وتعاقب أحواله، ظهر زيفهم وعجزهم وانتفاشهم، لتبقى السنة الكونية الثابتة، لتبقى الحقيقة الصادقة التي تُظهر زيف سواها، حقيقة المسؤولية الذاتية، ليبقى الواحد رهين أعماله وما يكون ذاتيًا منه، وملازمًا له ما كانت الحياة تلازمه: من خلق ودين وإنجاز وعمل وجهد وأمل، محفوف جميعه بحسن التوكل على الله، وهذا ليس مقصورًا على أحد دون غيره، بل باب مفتوح لكل من يرغب بالولوج، وميدان فسيح لكل صاحب سابقة، وهذا القرآن يعلنها صريحة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٦٢] فالطريق إلى الله مفتوح حتى لمن أَبْعَدوا النُجعة، وأغرقوا في التيه، كالذين هادوا والنصارى والصابئين؛ لينسبكوا مع الذين آمنوا بلوازم الدين، ثم عملوا بقتضاها، فرحمةُ الله تسع كل المقبلين

---

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٦/ ٣٧٥).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (١٣/ ٢١٥).

(٣) محمد أحمد الراشد، عودة الفجر، نقلاً عن الآداب الشرعية لابن مفلح: (١/ ٧).

الصادقين العاملين التائبين، وليس هناك مكان للكسالى والمتواكلين العجزة، ولن يثبت ويُفلح إلا من جدُّوا وعملوا وأرادوا لأنفسهم ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[البقرة: ٢٦٥]، وإلا فالخيبة والخسار وضياع الآمال حليفة القاعدين، لتفجعهم الحقيقة القرآنية من بعد: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران: ١٦٥]، ولمزيد من الإبانة حول التواكل لا بد من عرفان مقوماته، عسى أن نحذره وننجو من حبائله، وما أحوجنا وحال الأمة من الضعف والهوان ما لا يخفى لذلك العرفان... والله المستعان:

أولاً ـ الجهل:

لئن كان العلم أصلاً لكل خير فإن الجهل أبٌ لكل شر، وما كان إبليس ليحقق مراده بإغراق الناس في بحر من الأماني والأوهام العابثة إلا يوم أسكنهم في ظلمات الضلال والجهل... الجهل بالله وبأنفسهم، الجهل بحقيقة الدنيا والآخرة، وبالغاية التي لأجلها خلق الله الخلق وأوجدهم، هذا الجهل ليس قائدًا للأماني العابثة، ويقف عند حدها الوخيم فحسب، بل ويحرك من الشر في النفس البشرية ما يدفعها إلى اعتقاد أحقية التدخل في تصوير خلق الله، والعبث في كيفيات تكوينه لها، وإرادة تغيير بعض أحوالها، وإذا بلغت النفس هذه النهاية من الإسفاف في الأماني والمعتقد، صارت من نصيب الشيطان وحزبه المفروض، قال تعالى: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١١٨ ـ ١١٩]، وما كان الإنسان من نصيب الشيطان المفروض إلا يوم جهل وضل؛ فغوى وزلَّ، وصار جندًا للباطل ونصيرًا، وهذا ما نجده في سورة (الحجر) تلك السورة التي ذكرنا في مطلع دراستنا من الفصل الأول أنها جاءت تشخص الآمال الفاسدة، وتبيِّن بعض

مقوماتها، وتكشف عُوارها وخطرها، بيَّنت السورة أن أتباع الشيطان هم الغاوون من أهل الضلال عن الله، والجهل به ﷻ، وبأنفسهم، وحقيقة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الحجر: ٤٢]، يقول الراغب الأصفهاني: إن الغي هو الجهل من اعتقاد فاسد، وقد يكون الجهل لغير اعتقاد فاسد، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[طه: ١٢١]، أي: جهل[١]. اهـ.

فلما وجد الشيطان ضالته في الغاوين والجهلة، ابتعد في أمله بإضلالهم، إلى الحد أنه أراد سوقهم كما تساق البهائم والعجماوات، كما أخبرت بذلك سورة (الإسراء) حكاية عنه، قال تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٦٢]، والحَنَكُ نقطة ضعف في البهائم؛ فيسهل سوقها بالضغط عليه، ولا يساق على صورة البهائم إلا الجاهل الضال، أما صاحب العلم فهو عصيٌّ على هكذا حال، ويأبى على نفسه ذلكم المآل، ولعل أنموذج أهل سبأ يدلل بصورة جلية كيف يكون الفرق في آمال الجاهل وصاحب العلم والبصيرة، فأما الملأ وعامة الناس فقالوا ردًا على الرسالة التي ألقيت إلى ملكتهم ـ كما حكى القرآن الكريم ـ: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[النمل: ٣٣]، وكان الحائل بينهم وبين بلوغ سليمان ـ عليه السلام ـ وقهره وإزهاق ملكه، إشارةٌ من أصبع مَلكتِهم، فقوَّتُهم وبأسُهم أعظم من أن يتجاوزها شعب، أو أمة من الأمم، وسليمان ـ عليه السلام ـ وجيشه وشعبه من آحاد هذه الأمم، التي في مُكنتهم غلبتها وقهرها، وما كان هذا الظن إلا لجهلهم، وما كان هذا البعد في أملهم إلا لقصر نظرهم، أما ملكة سبأ فلم تذهب مذهبهم، ولم تتعجل في أحلامها، وأرادت لآمالها رصيدًا من واقع، وأرضية من علم ويقين، فقالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤

---

(١) الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن: (١/ ١٧٠).

وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[النمل: ٣٤ ـ ٣٥]، هدية اختبار، قال البغوي: والهدية هي العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إنِّي مرسلة إليهم؛ أي: إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكي، وأختبره بها أملك هو أم نبي؟ فإن يكن ملكًا قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبيًا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه(١). اهـ.

وما أجمل ما أوتيه أبو السعود من فهم يوم قال: فلما أحست بلقيس منهم الميل إلى الحراب، والعدول عن سنن الصواب، شرعت في تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[النمل: ٣٥](٢). اهـ. وحقًا تبيَّن لها أنَّ أمل قومها سرابٌ لما ارتفع جهلها برؤيتها لعظمة سليمان ـ عليه السلام ـ، وأن ما آتاه الله خير مما آتاها، فضلاً عن هديتها التي أرسلتها، وأن نبوته محاطة بالملك والسلطان، وهذا ما جهله الملأ من شعبها «والجهل: خلو النفس من العلم، وهذا هو الأصل، وقد جعل ذلك بعض المتكلمين معنى مقتضيًا للأفعال الخارجة عن النظام، كما جعل العلم معنًى مقتضيًا للأفعال الجارية على النظام، وقيل: الجهل: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه. وقيل أيضًا: هو فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أو فاسدًا»(٣)، والجهل يتضمن كل هذه المعاني، وسياقه يقرر إلى أيها هو أقرب،

---

(١) البغوي، معالم التنزيل: (٦/ ١٦٠)، لم يثبت أنها بلقيس والأشهر أن يشار إليها بملكة اليمن، غير أن الأمر ليس ذو كبير بال.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (٤/ ١٨٥).

(٣) الراغب، معجم مفردات القرآن: (١/ ١٩٨).

غير أن الجهل في مجمله يدفع لما يصح أن يوصف بأنه شر وباطل وإسفاف، ومن أخطر عواقب الجهل أنه يرتب السوء والأذية لصاحبه قبل سائر الناس، والجاهل ـ لضعف عقله ـ لا يدرك هذه القضية فمن حيث يظن أنه يمكن أن يحقق آماله، تراه لا يجد إلا الخيبة والخسار غالبًا.

وآية الأمانة تعبر عن هذا المعنى في أجلى صوره، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]، قال ابن كثير: إنَّ الله قال لآدم إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فلم يطقنها. فهل أنت آخذ بما فيها؟ قال: يا رب، وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت وإن أسأت عوقبت. فأخذها آدم فتحملها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[الأحزاب: ٧٢]، وظلومًا حيث لم يف بها، ولم يراعها حقها، والظلم وضع الشيء في غير محله، والظلم والظلام أصل واحد، فالظلام غشاوة على العينين، والظلم غشاوة على القلب والعقل، وإذا كانت العيون لا ترى سيغلب على الإنسان أن يضع الأشياء في غير مواضعها وكذلك الظلم[1]. اهـ.

والجهول: هو من لا يدرك عواقب الأشياء، فَحملَ الأمانة لِيبلغَ الجزاء الحسن والعاقبة الحميدة، غير أنه طلبها من غير أبوابها، وتعلق قلبه بالثواب فقط وغفل عن العقاب، فلاقى المصرع الوخيم والعاقبة السوء، حتى انتكست فطرته وضيع الأمانة، قال تعالى يصف طلبًا من بعض الجهلة، وتأمل ماذا يصنع الجهل بأهله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[الزمر: ٦٤]، وما علة طلبهم إلاَّ ظنهم أن عبادتها ستأتيهم بالخير، وتدفع عنهم الضر، وتحقق آمالهم فوصفهم بالجاهلين؛

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ١١٦).

لقلة علمهم وجعلهم العبادة في غير موضعها، ولمن لا يستحقها، بل لا يملك دفع الضر عن نفسه أو جلب الخير لها، وكذلك الإنسان حمل الأمانة وظن أنها نزهة لن تأتي له إلا بكل خير، وغفل عن عواقب تضييعها والتقصير في حملها؛ لأنه ظلوم جهول، وما عَلِمَ أنها خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها، غير أن حال الكثير من الناس في تضييعها مثل (رَيطَة بنت سعد بن تيم) الخرقاء والدة (الأخنس بن شريق)، التي اتخذت مغزلاً قدر ذراع، وصنارة مثل إصبع، وفلكة عظيمة على قدرها، فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة إلى الظهر، ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن[1]، وكذلك من آتاه الله أسباب الخلافة ثم هو ينقض عهده مع ربه، وما ذاك إلا لجهله وضعف عقله بالرغم من إمكان الوفاء، وتوفر آلاته في جملة المُسخرات الكونية التي تيسر مهمة الخلافة، وعمارة الأرض، وأداء الواجبات وترك المنهيات، وبالجملة حمل الأمانة.

إنَّ الإنسان إذا أوغل في الجاهلية، سيتحلل من كل فضيلة، وسيفقد زمام الخلافة، ويضيع كل أمل ورجاء، وإذا كانت الجاهلية الأولى أسفرت عن تبرج في صفوف النساء؛ فأظهرن مفاتنهن وزينتهن وكشفن ما يجب أن يظل مخبوءًا مصاناً، فإن الإنسان ـ في مطلقه ـ إذا أوغل في الجاهلية فسيتبرج كذلك، لكنه تبرج عن كل سوء وعيب أراد الله منه إخفاءه بما منَّ عليه من علم وحكمة، وشاء ستره بكساء الدين والخلق، وتغطيته بلباس التقوى ورياشه، ليصير أهلاً لحمل الأمانة، فليس كل أحد أهل لحملها، وما كان عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال على مسمع آدم وبنيه إلا ليُحرك فيهم دواعي استثقالها، وإدراك عظيم قدرها وجليل

(١) إشارة إلى الآية ٩٢ من سورة النحل: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ البحر المحيط: لأبي حيان: (٧/ ٢٨٤).

شأنها، ويوم يعذب الله المنافقين والمشركين لتقصيرهم بها، فإنه سيتوب على المؤمنين ويدخلهم الجنة بسبب ذلك الإدراك وذلك الحمل، وأي أمل ورجاء أبعد للمؤمن من هذه النهاية الرخيمة.

ثانيًا ـ عدم الأخذ بالأسباب:

لقد تشكل العقل الإنساني عند غياب الوحي والاتصال بالسماء على صورة نمطية، تجرد فيها من الكثير من صلاحياته التي وهبها الخالق الكريم له، إلى الحد الذي نقل الناس إلى عبادة أصنام حجرية وخشبية وبشرية، بعذر أنها تقربهم إلى الله زلفى، ويستسقون بها المطر، ويستنصرون بها على العدو، وهذا الذي حدا (بعمرو بن لحي) أن يستعطي أهل الشام بعض أصنامهم، وينصبها حول الكعبة، ومن يومها والأصنام تتكاثر وتزداد في أروقة مكة وأطرافها، والخرافات تزداد، والخزعبلات تتعاظم، والعقل البشري يسفل إلى أدنى أحواله، حتى لقد صارت أعظم أمور الناس لها ارتباط وثيق بهذه الأصنام، في إقصاءٍ سافر للعقل وتجاريبه وحكمته، فلقد جعلوا (هبل) في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح مكتوب في أولها (صريح) والآخر (ملصق) فإذا شَكُّوا في مولود أهدوا له هدية، ثم ضربوا بالقدح، فإذا خرج صريح ألحقوه وإن خرج ملحق دفعوه، وجعلوا قدحًا للنكاح، وقدحًا للميت، وقدحًا للسفر، كأنْ ليس لهم عقول تهديهم إلى ما يجب فعله، وما الذي يصح اختياره، حتى قضية أنسابهم تعلقت بقدح يقطع شكهم فيها باليقين، وكان الرجل منهم إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا، وجعل ثلاثةَ أثافِيَّ لقدره، وإذا ارتحل تركه فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك.

وكان (إساف) يتعشق (نائلة) في أرض اليمن، فأقبلوا حجاجًا، فدخلوا الكعبة فوجدوا غفلة من الناس، وخلوة في البيت، ففجر بها هناك، فَمُسخا، فأصبحوا

فوجدوهما مسخين، فأخرجوهما فوضعوهما، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بَعْدُ من العرب، وكان لقُضاعة ولخم وجذام وأهل الشام صنم يقال له (الأقيصر) فكانوا يحجون إليه ويحلقون رؤوسهم عنده، وكانوا كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قبضة من دقيق، وكان مالك بن حارثة يبعث به أبوه باللبن إلى (ودّ) ويقول: اسقه إلهك.

هكذا كان المستنقع الذي تعيش فيه البشرية في مرحلة غياب العقل المستنير بالوحي، حالة اختناق للروح والوجدان والعقل، خرائب مهجورة مظلمة يعشش فيها التخلف والجهل، والسخف والإسفاف، والتعطيل الكلي للعقل وتجاريبه وحكمته[1].

وما حالة (السامري) في استخفافه بعقول قومه إلا أنموذجًا صارخًا، حيث أخرج لهم صنمًا عجلاً له خوار، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى. فعبدوه من دون الله؛ لعجيبة الخوار، التي لم يجدوا لها تعليلاً إلا أنه ربٌّ فوق الذي يدعو إليه موسى.

بل قالت عادٌ في غياب لأدنى مسكة عقل لديها للنبي هود ـ عليه السلام ـ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[هود: ٥٤]، وزعم فرعونُ الصنمُ البشري أنه يملك مصر، ونِيْلَها العظيم يجري بأمره ومن تحته، وكأنه ما كان يجري قبله، أو توقف من بعده. . . هذه الحقائق غابت عن قومه لصفاقة عقولهم وسخفها، فاستخفهم فأطاعوه.

---

(١) انظر: كتاب الأصنام لهشام بن محمد السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي: ص٦، الطبعة الثانية/ مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٤م، وانظر كذلك: كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي.

ولقد عبَّر القرآن عن الحالة البشرية في جملتها على تعدد مذاهبها، واختلاف قبلاتها، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾[مريم: ٨١].

وصورة أخرى تعبر عن الغياب الكامل للعقل، ذلك التصنيف للدواب فمنها البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وما يترتب عليه من تأثير في معاشهم وأرزاقهم، والنسيئة في الشهور كذلك، صورة قاتمة أخرى تعبر عن الحالة الخربة التي كان يعيشها الإنسان، والشلل الكامل للعقل وتجاريبه وحكمته.

إنَّ التشكيل الذي ذكرنا طرفًا منه للعقل البشري عند غياب الوحي، والتوجيه السماوي، ينم عن الفطرة التي ارتكزت في أصل النفس الإنسانية، والتي ساهمت في تشكيل ذات العقل، إذ جبلت النفس على التعلق بمصدر قوة تعتز بها من ذل، وتقوى بها من ضعف، وتغنى بها من فقر، وتلوذ بها عند مصيباتها، وتشعر بفضلها لِمُفرِحَاتها.

ولما كانت ذات النفس البشرية تميل بطبعها إلى السهل كالماء، تعلقت بأقرب معبودات لاحت لها وخطرت لحواسها، وكلما كانت الحواس المدركة لهذه القوى أكثر كانت الموثوقية بها أكبر، وهذا بحدود الفهم البشري القاصر، فتشبث الإنسان بأول ما دغدغ فطرتَه مما يُدرَك بالحواس مما سوغت النفسُ المظلمة والعقلُ الخرب قبول كونه إله، سواء من حجر أو شجر أو بشر، فراح الإنسان يعلق آماله ورجاءاته على هذه الآلهة الوشيكة القريبة، ويمني النفس باستجابتها، وكل ذلك استجابة لشعوره الصميم وفطرته الكامنة بضرورة التعلق بقوة فوق حدود ما يعلم ويفهم. وعندها ترك الكثير من الأسباب وأهملها وتعلق بما اعتقد آلهيتها وربوبيتها، يوم غاب الوحي وأهمل العقل، وكانت هذه الحالة أكثر ما تسود في جزيرة العرب، فلقد كان للفرس حضارتهم، وللروم مكانتهم، والحبشة سابقة وذات سيادة، أما الحالة العربية فكانت متطامنة ضعيفة، على قدر ضعف إدراكهم، وغياب عقولهم،

بِحُكمِ أثر الواقع المحيط، والثقافة السائدة في تشكيل ذلك العقل.

إنَّ عدم الإيمان بكل الغيب يعتبر حالة متقدمة على حالة العرب في ذلك الوقت[١]، إذ تركه يعتبر مرحلة التخلية من كل خزعبلات الوثنية وجاهليتها، ومن انعتق من العبودية لتلك القوة لا شك سينكب على الدنيا بحذافيرها، وسيخلي بينه ـ بكل طاقته ـ وبين أسبابها، يخطئ مرة ويصيب مرة، ويخفق في جولة وينجح في أخرى، حتى يصل إلى القمر كما فعلت مدنية أوروبا في وقتنا المعاصر، كل ذلك لأنه لا يعتقد بقوة أعظم منه أو أقدر منه... ولا يعتقد أن هناك عالمًا من المجهول مغيب عنه فوق حدود طاقته، مما يدفعه للضرب في الأرض وسلوك جميع فجاجها، والسعي عبر كل سبلها؛ ليحقق مقاصده ومراداته بالنفوذ من أقطار السماوات والأرض عبر سلطان الأسباب والعلم، وهذا ما ترك الشرعُ فيه القدرة البشرية طليقةً تنتظمها جميعًا قوانين الأسباب والسنن الكونية، بصرف النظر عن اتجاهاتها واختلاف قِبلاتها وإثنيَّاتِها، قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾[الرحمن: ٣٣]، أما العرب فلقد كانوا متأخرين جدًا، تقيِّدُهم وثنيتهم، وتجمد عقولهم آلهتهم، وتكبل أيديهم تراكمات المعتقدات الجاهلية الموروثة جيلاً عن جيل، فنشأ عن كل هذا وذاك حالة من الاتكالية وإلقاء الأيدي خلف الظهر والضعف، جعلت العرب إما أذنابًا للروم في شمال جزيرتهم، أو أتباعًا للفرس من جهة جنوبها. ولا تزال أنظارهم وقلوبهم وعقولهم تتعلق بـ (هبل) و(اللاَّت) و(العزى) وتنتظر منها فجر عزٍّ غير وشيك.

---

(١) إن ما نذكر ليس إقرارًا لإنكار الغيب وثناءً على أهله إنما هو من باب وصف الواقع وإن كان الحكم عليه من المعلوم من الدين بالضرورة فهو الكفر في أقذع صورة.

تنزل القرآن على العرب والحالة كذلك، فأراد أن يعيد تشكيل العقل الإنساني، وأن يرده إلى الأصول التي أعطت أباه آدم ـ عليه السلام ـ سيادة الدنيا وخلافة الله فيها، أراد القرآن أن يعيد هيبة الأسباب، وأن يرتقي بها من مكانتها الهامشية، لتصير محورية في التشكيل الجديد للعقل الجديد، في مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥]، وغيره...

فكان العلم أول الأسباب التي أُعطيت لآدم ـ عليه السلام ـ يوم كان لا يحتاج إلى سواه؛ إذ كان في الجنة يتنعم فيها ويرفل بخيرها، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[البقرة: ٣٥]، حتى كان الهبوط إلى الدنيا، فاتسعت دائرة الأسباب بحسب الواقع الجديد، والاستحقاقات الجديدة، فقال له القرآن الكريم: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة: ٢٤]، وقال كذلك: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨]، فإذا كانت هي المستقر ومحل الإقامة، وكل ما يريد من مُتعِهِ مُتحصِّلٌ في حيِّزِها، فلا بد من اتباع هداية السماء، والأخذ بالأسباب والقوانين التي فرضتها الإرادة الطليقة، ذات المشيئة الطليقة، حتى يتم من بعد لآدم ـ عليه السلام ـ منطوق قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾[الأعراف: ٢٥]، ومضى القرآن الكريم في مراحل التشكيل والتنوير للعقل، وتبويئه مقامه المستحق، يحفُّه بالهداية والتسديد من السماء، ليتفوق على كل الحضارات السابقة، وتصير جميعًا عيالاً عليه، فأخذ يحثُّه: ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾[آل عمران: ١٣٣]، و: ﴿سَابِقُوٓا۟﴾[الحديد: ٢١]، في أسلوب الترغيب، ثم ما يلبث أن يحذر، كما في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ١ ـ ٣]، ويرتقي في

تحذيره بذكره لحال النادمين، المقصرين بالأسباب، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]، فإذا بالانقلاب في حياة العرب، والتحول الحميد حتى صاروا ـ كما أسلفنا ـ أسياداً للدنيا في كل حقول المعرفة والإبداع، وهذا ما شهد به الغرب، يقول (غوستاف لوبون): كلما أمعنَّا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية، واختراعاتهم وفنونهم، ظهرت لنا حقائق جديدة، وآفاق واسعة، لسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف مدة خمسة قرون مورداً علميًا سوى مؤلفاتهم، وأنهم الذين مدّنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقًا. وتأثير العرب عظيم في الغرب وهو في الشرق أشد وأقوى. اهـ. ويقول (لويس يونغ): إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم، وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد، أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة. يجب أن لا تغيب عن ذهننا ـ إذ نناقش ونُقَيِّم الحضارة الإسلامية ـ تلك الأفكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية، مع الإسلام وقبله، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليوناني؛ فيصنعوا من ذلك لوناً جديدًا سباقًا فريدًا، ولقد تركت بصماتها في أوروبا على جميع المستويات، ابتداءً من بعض العادات الشعبية، وانتهاءً بالعلوم: كعلم الفضاء، وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليه أسماء لبعض العلماء العرب: كالزركلي، والبتاني، وأبي الفداء، وإن أشياء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية. اهـ. ويقول (سارتون): حقق المسلمون عباقرة الشرق أعظم المآثر في القرون الوسطى، فكتبت أعظم المؤلفات قيمة، وأكثرها أصالة، وأغزرها مادة، باللغة العربية، وكانت من

منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري، حتى لقد كان ينبغي لأيٍّ كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره، وبأحدث صورها، أن يتعلم اللغة العربية، لقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها. اهـ.
وسأختم هذه الشهادات بقول (دريبر): ينبغي عليَّ أن أنعى على الطريقة الرتيبة التي تحايل بها الأدب الأوروبي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا. أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيرًا بعد الآن مخفية عن الأنظار، إن الجَور المبني على الحقد الديني، والغرور الوطني، لا يمكن أن يستمر إلى الأبد. اهـ[1].

ولا تزال الإنجازات الإسلامية العربية في كل الفنون شاهدة حاضرة، ناطقة بالنقلة العجيبة في شكل العقل المسلم الجديد. إن الذي نقل العرب من تلك الحمأة الوبيلة إلى قمة الإنجاز الحضاري هو وحي السماء إلى الأرض، وإن الأمة تمر اليوم في حالة من الضعف تحتاج معها لإعادة تشكيل جديدة؛ كي تخرج من سلبيتها وتبعيتها واتكاليتها على الغرب والشرق، حتى في أبسط مستلزمات الحياة، ومتطلبات العيش، فإن غالب ما تَلْبَس ليس من صنعها، وكثيرًا مما تأكل ليس من زرعها، ولهذه الحالة من المدلولات الخطيرة ما لا يخفى على ذي لب، وأظن أن مفاتشةً سريعةً للأمةِ حول حالها وما آلت إليه، بعد الذي كانت حصلت عليه من العز والتمكين، سيوقفها مشدوهة منكوسة.

ويوم قال إبراهيم ـ عليه السلام لقومه ـ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ

---

(١) هذه الشهادات نقلاً عن كتاب «حول تشكيل العقل المسلم»، لعماد الدين خليل ضمن سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي: ص (٩٣ ـ ٩٤) ولقد اقتبست عبارة تشكيل العقل من عنوان كتابه.

إن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣]، رجعوا إلى أنفسهم وقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الأنبياء: ٦٤]، بل لقد نكسوا على رؤوسهم يوم علموا: ﴿مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٥]، لكن تعطيلهم للأسباب، وتعلقهم بالوهم والاتكالية، غشّى عيونهم وقلوبهم، ومسخ عقولهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[الأنبياء: ٦٨]، فتمادوا في غيهم وبعدهم عن الحق، وبعدهم عن تحقيق كل أمل ورجاء وخير وهناء، وكان يكفيهم لحظة صدق ليخرجوا من كل هذه الارتكاسة. . . تكفيهم عودة للحق، وإنزالُ أصنامِهم قدرها الذي تستحق، وحل رباط عقولهم، وإعمال الأسباب على حسب قانون السماء، والمشيئة الطليقة.

وأمتنا كذلك لا بد لها من العودة للأصول الأولى التي شكلت العقل المسلم، وأخرجته من ظلمته واتكاليته وتبعيته؛ عسى تحقق من بعد آمالها بخلافة الأرض والتمكين لدين الله فيها[١].

ثالثًا ـ الاعتماد على التراث ومجد الآباء:

«الإنسان مدني بالطبع؛ أي: لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران».

بهذا بدأ ابن خلدون مقدمته الأولى في سفره القيم في الاجتماع والتاريخ، وأردف: الاجتماع ضروري للنوع الإنساني وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياه[٢]. اهـ.

---

(١) لقد أطلت في المبحث الأول في عنوان الأخذ بالأسباب وذكرت نماذج قرآنية كثيرة لذا آثرت في هذا المبحث الجانب الفكري عسى يكون إضافة علمية نافعة والحمد لله رب العالمين.

(٢) ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي (ت٨٠٨هـ)، المقدمة: (ص٢٧).

هكذا قرر هذه الحقيقة، ومن قبل نجد القرآن الكريم يعترف بِجَامِّ الصلة ووثاقتها بين حاضر الإنسان وماضيه، وأثر الماضي والحاضر في البيئة الحاضرة، وكيف يتفاعل أبناء الجيل مع أنفسهم ومع سوابقهم بصورة محمودة أحياناً، وذميمة أخرى، والقرآن إذ يذكر هذه الحقيقة؛ إنما لوصف الواقع الذي ليس منه خلاص للبشر قاطبة، قبل إصداره لأحكامه القطعية فيها، وأيها يقبل، وما الذي يرد، لقد قرر الكتاب الكريم وحدة المجتمع المدني بمهاجريه وأنصاره، وإن كان يعترف بحلقة أقرب، هي القرابة والنسب والدم ـ عند اتحاد الدين طبعًا ـ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[الأنفال: ٧٤ ـ ٧٥]، القرابة والرحم عروة، كما الدين والإيمان عروة، وكذلك الإنسانية والآدمية عروة، والإسلام يقرها ويعتبرها، وكلها جميعًا ضرورات تفرضها الحاجات البشرية، والطبائع التي جبلت عليها طينة البشر، حتى رأينا القرآن يصف هوداً ـ عليه السلام ـ بالإخوانية الإنسانية لعاد، على كفرهم، وكذلك الشأن مع صالح في إخوته لثمود، وشعيب مع مدين ـ على أنبياء الله الصلاة والسلام ـ، لتظهر قيمة الإنسانية كعروة وُثقى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النساء: ١]، ثم ليقرر القرآن ضرورة الاجتماع والمدنية، والاتصال ببني البشر، وأنها غاية قرآنية، كما أنها ضرورة كونية جبلِّيَّة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ ﴾[الحجرات: ١٣].

ومن الحقائق التي لا يجد القرآن بدًّا من الاعتراف بها وإقرارها، ذلك

الأثر الذي تورثه البيئة والمجتمع في الفرد أيًا كان، على تفاوت بحسب الفرد، حتى أنبياء الله ليسوا بمعزل عن التأثر ببيئتهم، فيما لا يتعارض مع عصمتهم وكرامتهم، فنبي الله إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ اختصم في العراق مع النمرود كما تحدثنا سورة (البقرة) حول خالقية الله تعالى، وهل لذلك الطاغية خالقية تختص به، وبعد أن دمغه بالحجة والدليل، وبُهت الكافرُ الطاغيةُ، وجدنا سؤالاً يتحرك في نفس نبي الله إبراهيم، وما أورده القرآن عقيب قصته مع الطاغية إلا إشارة خفية لخيط ارتباط بين الحدثين، وكأنها صورة لأثر البيئة في الإنسان، وإن كان نبيًا، فقال نبي الله إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٦٠]، «معلوم أن مسألة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم تعرض من جهة الشك، ولكن من قبيل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال»[١]، ويوم ظن بعض الناس أن نبي الله شك، قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذا قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[٢]»، وما قاله رسول الله ﷺ إلا تواضعًا وتبرئة لأبيه ـ عليه السلام ـ، وربما لو لم يقع الخصام مع النمرود لما سأل خليل الله مسألته، وإلا لماذا تأخرت بعده؟.

وكذلك الحال مع نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ يوم طلب الرؤيا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى

---

(١) البغوي، معالم التنزيل: (١/ ٣٢٣).

(٢) مسلم بن الحجاج، الصحيح، كتاب: الإيمان، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة: (١/ ١٣٣).

ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٣]، مسألة كان فيها موسى ـ عليه السلام ـ متأثرًا بسؤال قومه من قبل: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، مع اختلاف البواعث في الطلب، فطلبهم جحوداً وعناداً وكبرًا، وطلبه للتشرف والكرامة والحظوة عند الله تعالى، سؤالهم يحمل معنى الكفر والإنكار، وسؤاله للشرف والاطمئنان.

أراد القرآن أن يؤكد هذه القضية في حملته التربوية المتدرجة، فجاء سؤال بني إسرائيل في سورة النساء، وجاء سؤال موسى ـ عليه السلام ـ بعدها[1] في سورة الأعراف، وما يُرجح أن سؤال موسى ـ عليه السلام ـ كان عقب سؤال قومه هو السياقاتُ القرآنية في (النساء) و(الأعراف)، ففي (النساء) قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴾[الآية: ٥٣]، فالذين سألوا الرؤية غير الذين اتخذوا العجل لأن السائلين للرؤية هلكوا جميعًا بالصاعقة، وذراريهم من بعدهم هم الذين اتخذوا العجل من دون الله، ولا بد من فترة طويلة بين الحدثين، أما في سورة (الأعراف) وسؤال موسى ـ عليه السلام ـ للرؤيا نجد أن الفارق قصير جدًا بين سؤاله الرؤيا واتخاذهم العجل.

فبعد أن سأل موسى ـ عليه السلام ـ الرؤيا وكان الذي كان من اندكاك الجبل، وانصعاق النبي ـ عليه السلام ـ، ثم كانت الإفاقة والتوبة، ونزلت التكاليف

---

(١) بعدها في ترتيب السور وليس النزول لأن الأعراف مكية والنساء مدنية، ومعلوم أن ترتيب السور توقيفي ليحقق الحِكَم والغايات التي نزل القرآن لأجلها.

الجديدة لموسى ـ عليه السلام ـ ولمن صدَّقوه وآمنوا به، قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فلما كانت أحكامًا مهمة، وتكاليف عامة، قال تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، ثم جاء التهديد والوعيد للمخالفين للكتاب والهداية النازلة فيه، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦ ـ ١٤٧]، وبعدها عقب القرآن باتخاذهم العجل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وانظر لقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ (أي: من بعد ما ذهب للقاء ربه الآنف الذكر الذي كانت فيه مسألة الرؤيا في الطور)[1].

إنَّ القرآن ذكر هذه القضية؛ ليقرر الأثر الفاعل للبيئة في الفرد أيًا كان، فجاء ليؤدي دوره التربوي في ترشيد العلاقة بين الماضي والحاضر، بما يحقق منافع الإنسانية وخيرها وآمالها ورجاءاتها، وكذلك ليضبط علاقة الإنسان ببيئته ومجتمعه في حدود الشرع والدين والمصالح العامة، ويؤكد المسؤولية الفردية، وأن شماعة التاريخ والبيئة مما لا يقرُّه الدين، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، فالعلاقة في نظر

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٤٢)، وإن كان الخلاف في المسألة عريضًا كما ذكر ذلك ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل: (١/ ٤٠٣) وغيره من كتب العقائد.

القرآن الكريم بين الحاضر والماضي للاتعاظ والاعتبار، وأخذ الدروس والمنافع، أما اتباعُ السلفِ على عواهنه، والتأثر بالبيئة السلبية دون تفكير وتمحيص، فهي دعوة شيطانية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[لقمان: ٢١]، فالتقليد ومحاكاة السلف، والسير خلفهم دعوة شيطانية تُغيِّبُ العقلَ والفكر، ولكم ضلَّ أقوامٌ لهذه العلة، وتكاثرُ هذه الحالة في التاريخ جعل القرآن الكريم يُعزِّي أنبياء الله بكفر أقوامهم، إذ الشأن ليس مستهجنًا أن يكفروا كما كفر أسلافهم، قال تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[العنكبوت: ١٨]، وقال العليم الحكيم: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[آل عمران: ١٨٤]، بل لعل من أسباب الكفر عند طائفة منهم مجاملة الكافرين من أهل بيئتهم، بحسب طبيعة المصالح بينهم، كما قال خليل الله لقومه مهددًا ومتوعدًا بأن هذه الصِلات لا تنفع يوم القيامة ولا ترفع، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[العنكبوت: ٢٥]، يقول ابن كثير: يقول عليه السلام مقرعًا لهم وموبخًا على سوء صنيعهم في عبادتهم الأوثان: إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا، صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا، وهذا المعنى لِمَنْ قرأها بالنصب. أما مَنْ قرأها بالضم[1] ﴿مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ﴾ فالمعنى إنما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط[2]. اهـ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ

---

(١) قرأها بالضم ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس أما حمزة وحفص وروح بالنصب، النشر في القراءات العشر، لابن الجزري: (٢/ ٣٤٣).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ١٢٣).

بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[العنكبوت: ٢٥]، وصدق الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[البقرة: ١٦٦]، وعندها: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴾[الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، أنسابٌ قامت على الباطل، وأواصر على الكفر والظلم، لا يقرها الشرع، ولا يعترف بها، ومن يتعلل بها يوم القيامة لن تقيله أو تعذره، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠١]، لذلك قرر الإسلام ضرورة هجر الباطل بكل صوره، وهجر أهله مهما كانت الصِّلات معهم؛ لئلا يتأثر القلب ولو باليسير، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠]، هجر الباطل، وإعلان البراءة منه، فضلاً عن ترك الاعتماد والتوكل عليه، ولخطورة هذا الأمر قال الله لنبيه ﷺ بعد أمره بلزوم أهل الطاعة، وصبر نفسه معهم: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾[الكهف: ٢٨]، فمجاوزة النظر عن أهل الحق إلى غيرهم مدخل للشيطان ووساوس النفس، الذي لعله أن يترك في القلب أثرًا لباطلهم؛ فيتحركُ فيكَ أنْ: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[الكهف: ٢٨]، إن القرآن الكريم واقعيٌّ ويتناسب مع أحكام العقل الواعي؛ لذلك أراد أن يُرشِّد علاقة الماضي بالحاضر، ويضبط علاقة الإنسان بمجتمعه، يوم قرر أن هذه صلات لا محيد عنها ولا مفر منها، أراد أن يجعل من هذه الوشائج سبيلاً للرقي والتقدم والتطور، وبلوغ الآمال والرجاءات، وليست بوابة للاتكالية والتقصير.

يوم كانت العلاقة صحيحة قائمة على الانتفاع، واقتباس كل خير، والسير على المنهج الحق، كانت سببًا للاصطفاء في سلك المرسلين والصالحين، قال

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤]، اصطفاءٌ للعاملين الجادِّين المتوكِّلين على ربهم العظيم، مسترشدين بسلفهم وماضيهم العريق، ولوطٌ انتفع بقرابته من إبراهيم ـ عليهما السلام ـ فيوم كان الأخير عليه السلام داعية إلى الله وقَلَّ أتباعه، اتصل به ابن أخيه وصدَّقه، فكانت الصلة بينهما ـ صلة الدم ـ مُقدِّمةً لكل خير ورجاء، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[العنكبوت: ٢٦]، ولم يركن لكون عمه خليل الله.

لقد أنشأ المجتمع المسلم الأول من المهاجرين والأنصار جيلاً مباركًا عظيمًا، دخلوا في دائرة الرضوان والرحمات لمَّا بذلوا وعملوا من ذات الطاعات التي ورثوها عن آبائهم الكرام، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ١٠٠]، وإذا كان الماضي ألقى بظلاله المباركة على خَلَفهم فإن الخَلَف الصالح الذي يلزم منهج القرآن في طبيعة العلاقة بين السلف والخلف، ولا يقبس إلا الخير، لسان حالهم قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[الحشر: ١٠]، أما مع مجتمعهم وبيئتهم، فحالهم كما بيَّنه الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر: ١٠].

إنَّ المنطلق الأساسي والقاعدة الجذيرة التي لا بد من إدراكها حال بياننا لطبيعة هذه الوشائج، هي المسؤولية الذاتية، والتبعة الفردية، التي نطق القرآن الكريم بها في محافل كثيرة منه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾[العنكبوت: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[الروم: ٤٤]، ويلخص القرآن الكريم كل ما سبق من حقيقة الصلة بالماضي ثم المسؤولية الفردية من بعدها في سورة

(الروم) في قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾[الروم: ٩ ـ ١٠]، هي دعوة قرآنية للنظر والتدبر في الأسلاف، وما آل إليه حالهم عند عصيانهم، ومخالفتهم للسنن الناظمة للكون، التي لا تحابي أحدًا، وكما لا ينبغي لجيل من الأجيال أن ينفرد مستقلاً عن حركة التاريخ، والاعتبار بقوانين الحياة، فإنه من غير المقبول أن يعتمد على السابقين، ويلقي يديه خلف ظهره متواكلاً كأنه لن يحاسب على أفعاله واختياراته، ويضرب القرآن لذلك أمثلة من الغابرين الذين كانوا: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ فقد كانوا على درجة متفوقة من المدنية والتطور، وأقدر من العرب في الجزيرة وقت نزول القرآن الكريم، لكنهم لمَّا أنذرهم أنبياؤهم: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ما أحسنوا الاعتبار بالآيات والاتعاظ بالسنن؛ فمضت فيهم إرادة الله تعالى، ولم تنفعهم مدنيتهم، ولم يغن عنهم علمهم شيئًا، فحصدوا ما غرست أيدهم: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وكذلك عاقبة المسيئين والمخالفين الخارجين على القوانين، كما تقرر الآيات: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾، كانت السوأى هي العاقبة التي لقيها هؤلاء، ومِنْ بَعدِهم المُقلدون المُتواكلون الذي جعلوا من سلفهم ـ بقده وقديده ـ أنموذجًا يُتّبع ويُسار في ركابه، فكانت جزاءً وفاقًا.

هذا التصور وهذه الحقيقة التي يريد القرآن الكريم من المسلم أن يتخلّق بها، ويتطبّع بأركانها، وأن تملأ قلبه وعقله؛ عسى أن يدرك حقيقة الصلة بينه وبين ماضيه وحاضره، وأن يوظفها لتحقيق آماله ورجاءاته، وأن ينعتق من الاتكالية المقيتة،

الاتكالية على سابقيه ومجتمعه وبيئته في إطار بحثه عن شماعة أعذار يعلق عليها تقصيره، وإخفاقه في بلوغ المراد، وليتخلص من دوامة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣]، وما يتجاوز مجرد الاقتداء والسير خلفهم، وذلك لانطماس بصيرتهم، فيقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٢].

رابعًا ـ سوء الفهم للنصوص الشرعية:

إن أكثر المعاول هدمًا في البناء الحضاري الإسلامي تلك التي يحملها أهل الحضارة أنفسهم من حيث لا يشعرون، فحين يظن واحدهم خدمة الإسلام والمشاركة في تشييد عمرانه السامق، لا نلفينه إلا يهدم ناحية منه، ويفتح ثغرة فيه، وكم من متربص يتحين ثغرة تُفتح ليـميل على الإسلام ميلة واحدة عسى يسلب متاعًا، أو سلاحًا، في فلتة غفلة، فيضرب جانبًا من عمران الحضارة الإسلامية السامق.

إنَّ تقسيمًا منطقيًا لأعداء أيِّ فرد أو مؤسسة أو جماعة ودولة أو معتقد ودين ينتهي إلى جعلهم ثلاثة أقسام:

الأول: أعداء ظاهر كرههم، ولا يخفى مكرهم، قال تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾[عمران: ١١٨]، الذين يمكرون بالليل والنهار، وينفقون أموالهم ليصـدوا عن سبيل الله والأمة المسلمة، والشـأن معهم أيسر من سواهم.

الثاني: أعداء أخفياء؛ لتقلبهم ونفاقهم، فإذا ﴿لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾[البقرة: ١٤] من الصنف الأول ـ أي الأعداء الظاهرون ـ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[البقرة: ١٤]، وهذا صنف أشد خطرًا من سابقه، وأعظم وِزْرًا، فهم: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[النساء: ١٤٥]، لكنهم يصعب عليهم الاستمرار

في الاستخفاء، ولئنْ خادعوا الصف المؤمن في غالبه، فإن لذوي البصائر فراسة تدركهم من فلتات ألسنتهم، أو خطرات عيونهم، أو ريبة حركاتهم، وأصحاب الفراسة في الصف المؤمن لن يُعدموا، وإذا لم يصلوا إلى حد اليقين في عرفان ذوي الوجهين، فلعلهم أن يحذروا من كل مرتاب حقود، والجرح مقدمٌ على التعديل، إذ الشأن يمس مستقبل الدين وأهله.

الثالث: الأصدقاء الأعداء، الذين لا نشك في صدقهم وحبهم وانتمائهم، لكنهم وإن تحققوا من شرط القبول الثاني فإنهم فقدوا الأول، ولا ريب أن أعمالهم ستُرَدُّ عليهم، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]، فالإخلاص في الأعمال يؤهلها للقبول إذ تجاوزت قنطرة الحق والصواب، وكانت موافقة للشرع، منضبطة بالمنهج، ولقد وَسَمْتُهم بالأصدقاء؛ لأنَّ حب الدين شأنٌ مستقر في نفوسهم وقلوبهم، وانتماءهم للأمة وثيق وإرادتَهم خدمة الدين والأمة صميمة، فالإخلاص لديهم مُتَيَقَّن، ووسمتهم بالأعداء لسوء فهمهم لحقائق هذا الدين وأصوله، وثوابته وأركانه، هم أصدقاء لأن مرجعيتهم النصوص من الوحيين، لكنهم أعداء بسبب عيِّهم في التعاطي معها، وجهلهم بطرائق سبرها والغوص إلى لبها، وإدراك ظلالها وفحواها وتأويلاتها ولوازمها، مما يُرتب تعطيلاً لأحكام الدين وشرائعه، وتجسيدًا لصورة لا تمثل هذا الدين وحضارته، شوهاء عوراء صلعاء، تهدم في عمران حضارته السامق ما لا يهدمه الفريقان السابقان معًا.

إن الإصابة للحق هي الركن الركين الذي لا يستغنى عنه، والذي قدمه الله تعالى على الإخلاص في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[الكهف: ١١٠]، هذا الركن الركين الذي به وبالإخلاص معه تحقق الأمة آمالها ورجاءاتها بسيادة الدنيا ولقاء الله راضية مرضية، وفي غيابه تكون الانتكاسة في حمأة التأخر والتخلف الوبيلة،

ومما يزيد الأمر صعوبة أن صاحب هذه الحالة لا يعلم خطورة حالته، والتحرزُ منه ومن عواقب فهمه أصعب بكثير على الأمة وأرباب الفكر فيها من التحرز من القسمين الأوليين، ولك أن تتأمل معي كم سيكون الأمر خطيرًا لو أن فاروق الأمة عمر بن الخطاب لم يُصوِّب فهم قدامة بن مظعون عامله على البحرين يوم شرب الخمر وشهد عليه أبو هريرة والجارود وزوجه هند بنت الوليد رضي الله عنهم جميعًا ـ فتعلل بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[المائدة: ٩٣]، قال عمر رضي الله عنه: أخطأت التأويل، إن اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله عليك، وكان قدامة مريضًا، فاستشار فيه الفاروق بعض أصحابه ثم جلده بعد أيام[١]. وفي رواية، قال قدامة بعدما ذكر الآية: وإنا من المهاجرين الأولين ومن أهل بدر وأهل أحد. فقال عمر بن الخطاب: أجيبوا الرجل فسكتوا، فقال لابن عباس: أجب، فقال: إنما أنزلها عذرًا لمن شربها من الماضين قبل أن تُحَرَّم، وأنزل تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[المائدة: ٩٠]، حجة على الباقين، ثم حَدَّه[٢].

لقد وضع حدًا بحدِّه لهذا الفهم ذي الأبعاد الخطيرة جدًا، الذي قد يفتح بابًا للتشهي والآمال الذميمة، والانسياق وراءها، والعجبُ أنَّ المستند قول الله تعالى، والاتكالية على فهمه الخاطئ، الذي يقود إلى ما هو أعظم وأخطر.

إن مسألة الفهم الخاطئ للنصوص الشرعية كانت البوابة العريضة لانقسام الأمة الإسلامية إلى فرق وأحزاب، بلغ الحد فيها أن تتناحر ويسفك بعضها دماء بعض، وأن يُعذَّبَ أهلُ العلم والحق، وما مسألة القدر، وأسماء الله الحسنى، وخلق

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى: (٨/ ٣١٥).

(٢) النسائي، السنن الكبرى: (٣/ ٣١٣).

القرآن، وحكم مرتكب الكبيرة، وغيرها إلا شواهد حية على سوء الفهم عند الكثيرين، وكلهم يعتقد بلوغ الحق والصواب واحتكار العلم والمعرفة، وأن سواه باطل صِرفٌ ومنكر محض: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون: ٥٣]، والجميع يستند فيما يذهب إليه لكتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ ومكمن الأشكال في الفهم الخاطئ للنصوص: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٤]، وما أُلفت كتب المُشكل والمتشابه إلا حلقة في محاولة التقويم للأفهام، والتعامل مع النصوص.

إنَّ الذي حدا بإخوة يوسف ـ عليه السلام ـ أنْ يقعوا في فعلتهم النكراء، أملهم بنيل الحظوة عند أبيهم بخلاصهم من أخيهم الذي ملأ حبُه أركان قلب والدهم النبي يعقوب ـ عليه السلام ـ، فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩]، والذي سوَّغ فعلتهم، سوءُ فهمهم، حيث ظنوا أمر التوبة هيِّن فأضمروه قبل الوقوع في الذنب، وهذا شطط عن الحق.

هكذا ينزغ الشيطان وهكذا يسوِّل للنفوس عندما تغضب، وتفقد زمامها وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث، وتفقد الفهم الصحيح للنصوص والدين القويم، وهكذا لما غلى في صدورهم الحقد، برز الشيطان ليقول لهم: (اقتلوا يوسف، والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات). وليست التوبة هكذا، إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلاً جاهلاً غير ذاكر، حتى إذا تذكر تندَّم وجاشت نفسه بالتوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ١٧]، «أما التوبة الجاهزة، التوبة التي تعد سلفًا قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، فليست بالتوبة إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان، وسوء فهم تقود إليه حركات

النفس ورغباتها وآمالها»[١].

اتكاليتـهم على النصوص من خلال سوء فهمهم، قادتهم إلى هذه الخطيئة التي ضمت جملة كبائر: من عقوق أبيهم والكذب والشروع بالقتل، بل القتل بأبشع صوره لأخيهم الأصغر سنًا عليه السلام.

وما خشية النبي ﷺ من تحديث معاذ بالبشارة في الجنة لمن نطق بالشهادتين مُوقنًا، إلا من الاتكالية وسوء الفهم، حيث ثبت عن النبي ﷺ من حديث أنس بن مـالك يوم كـان معـاذ رديفـه عـلى الـرحل، قال: «يا معاذ بن جبل! قال: لبيك يا رسول الله! وسعديك، قال: يا معاذ! قال: لبيك يا رسول الله! وسعديك ثلاثًا، قـال: ما مـن أحـد يشـهد أن لا إله إلا الله وأن محـمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرَّمه الله على النار. قال: يا رسول الله! أفلا أخبر به الناس فيستبشروا، قال: إذًا يتكلوا. وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا»[٢].

فالاتكالية تدفع إلى الأمل بالجنة بمجرد النطق بالشهادتين، في حين أن الدين أقوال وأعمال، والإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، وقد تكلم (ابن القيم) في حال هؤلاء النفر الذين انشغلوا بالعبادات الظاهرة من صلاة وصيام، وتركوا حقيقة الـدين أملاً أن هذه العبادات كافية لنيـل رضوان الله ودخول الجـنة، تركوا الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحكيم كتاب الله تعالى، قال: وقد غرَّ إبليس أكثر الخـلق بأنْ حسَّن لهم القيام بنوع من الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات ـ مثل المعاملات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ، فلـم يُحدِّثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عنـد ورثة الأنبياء من أقلِّ

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٩٤) بتصرف يسير.

(٢) البخاري، الصحيح، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم: (١/ ٢١٨).

الناس ديناً، فإنَّ الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالاً عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي[١]. اهـ.

فإنَّ الاتكالية على بعض العبادات واعتقاد النجاة في سلكها، مع التقصير في الكثير غيرها، يعتبر طامة في الدين، ولقد دخلت امرأةٌ عابدةٌ النار في هرة سجنتها حتى ماتت، فلا هي أطعمتها ولا سقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[٢]. ويوم قيل للنبي ﷺ إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها بلسانها، قال: «لا خير فيها هي في النار» وقيل: إن فلانة تصلي المكتوبة وتصوم رمضان وتتصدق بأثوار من أقط ولا تؤذي أحد بلسانها، قال: «هي في الجنة»[٣]. فسوء فهم الأولى صاحبة الهرة أودى بها، وبمن تؤذي جيرانها إلى النار، وإن كن ذوات صلاة وصيام وعبادات، وإدراك الأخيرة لحقائق الدين وحسن فهمها للحقوق والواجبات، أدخلها جنة الخلود، قال ابن الجوزي رحمه الله: وينـدر من الخلق مَنْ يُلْهَم الكمال وطلب الأفضل والجمع بين العلوم والأعمال ومعاملات القلوب، ويتفاوت أرباب هذه الحال[٤]. اهـ.

ولقد عاتب عبدالله بن المبارك صاحبه الفضيل بن عياض، وطلب إليه ترك البكاء عند المسجد الحرام، وقد كان نزل به حتى سمي عابد الحرمين، عاتبه لأنه تفرغ للصلاة والصيام، وترك فريضة الجهاد في سبيل الله فقال له:

---

(١) ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين: (٢/ ١٧٧).

(٢) البخاري، الصحيح، باب: تحريم قتل الهرة: (١١/ ٣٠١).

(٣) الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري (ت٤٠٥هـ)، المستدرك على الصحيحين: (٧/ ١٥٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (١/ ١٢٨).

(٤) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)، صيد الخاطر: (ص٩٩).

يـا عابـد الحـرمين لـو أبـصرتنا لعلمت أنـك في العبـادة تلعـب

مـن كـان يخـضب خـده بدموعـه فنحورنـا بدمائنـا تتخـضب

أو كـان يتعـب خيلـه فـي باطـل فخيولنا يـوم الـصبيحة تتعـب

ريـح العبيـر لكـم ونحـن عبيرنـا رهـج الـسنا بـك والغبـار الأطيـب

ولقـد أتانـا مـن مقـال نبينـا قـول صـحيح صـادق لا يكـذب

لا يـستوي وغبـار خيـل الله فـي أنـف امـرئ ودخـان نـار تلهـب

هـذا كتـاب الله ينطـق بيننـا لـيس الـشهيد بميـت لا يكـذب

فلما قرأ الفضيل كتاب عبدالله بن المبارك ذرفت عيناه، ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني[1]. اهـ.

إنَّ الأمة الإسلامية تمر في مرحلة صعبة تحتاج فيها إلى إعادة نظر في كثير من موروثاتها وقناعاتها، تحتاج إلى إعادة ترتيب لأولياتها، مُنطلقةً من فهم صحيح للكتاب والسنة، على طريقة الكتاب والسنة، وليس موضوع دراستي (الأمل والرجاء) إلا واحدًا من الموضوعات التي تحتاج إلى إعادة نظر وبحث كالحاكمية، والشورى، والصلة بالآخَرِ وضوابطها، وركائز البناء الحضاري في الإسلام، ومقومات الفكر الإسلامي، بالإضافة إلى موضوعات التربية وإعادة تشكيل الإنسان المسلم خلقًا وعقلاً وروحًا.

إنَّ مشكلة العالم الإسلامي تكمن في الإخلاص والصواب، في الفكرة والتطبيق، في الطموح والواقع، وفي الثابت والمتغير، وفي الغاية والوسيلة، والقفزات والتدرج، والإيمان والعمل، وكل هذا يستوجب من أهل الحل والعقد

---

(١) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت٥٧١هـ). تاريخ دمشق: (١٦/ ٤٤٩).

بالتآزر مع أصحاب القرار والفعل، صحوة جديدة لإعادة تشكيل العقل المسلم على نور من الكتاب والسنة، عسى يخرج من كهف الاتكالية المظلم في مساعيه لبلوغ آماله ورجاءاته، ليجد له موطئ قدم في أرض الإنجاز والعمل على نور من الكتاب والسنة.

إنَّ المجتمع الغربي الذي نجد فيه نسبة الانتحار الكبيرة بالسم والرصاص والقفز من شاهق، ليس إلا ثمرة للخواء الروحي، والفراغ الإيماني، وغياب الصلة بالله تعالى، وليس من فرق كبير بين الانتحار بالأسباب الماضية أو الانتحار بسوء الفهم وعدم الإدراك للأولويات، فإذا كان الانتحار الغربي مادي فإنه في العالم الإسلامي روحيٌّ ومعنويٌّ، وكِلا الأمرين وخيم، ولعل الثاني أعظم خطرًا، لأن الأمة تحتاج إلى مرحلة تخلية قبل الوصول إلى التحلية بالفكر السديد والفهم القويم، والمرحلة الأولى في إعادة التشكيل هي المُرَّة الصعبة، فللموروث قداسته كما بيَّنَّا ذلك في المطلب السابق.

ومن لم يتوصل إلى حسن الفهم للقرآن والسنة، لعله أن يكذِّب الله ورسوله ويكذِّب الدين القويم، قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يونس: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[المؤمنون: ٦٩].

ثانيًا ـ الاندفاعي، تعريفه ومقوماته:

هو الرجاء لقادم أحسن دون النظر إلى الواقع والإمكانات، مع الإغفال لمتطلبات المرحلة، وتكاليف المستقبل المنشود... هو القفز المتفائل من غير توفير متكامل لأنواع القوى واللوازم؛ لعبور المرحلة بأمان واستقرار، من غير خسائر

أو متساقطين على الطريق.

قال ابن منظور: الدفع: هو الإزالة بقوة، ورجلٌ دَفّاع؛ أي: شديد الدفع، وتدافع القوم؛ أي: دفع بعضهم بعضًا، والاندفاع: المضي في الأرض كائنًا ما كان[1]. اهـ. وقوله: (كائنًا ما كان) إشارة إلى قوة في اضطراب، وترك للحسابات وانعدام النظر للنتائج والخلاصات، الاندفاع ذميم في غالبه، «وما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»[2]، وأثنى رسول الله ﷺ على أشج بني قيس فقال: «إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة»[3]. ولقد اصطبغ خَلق الله جميعًا بالخُلق الذي يحبه الله تعالى، فهذه الشمس في حركتها وادعة هادئة، فلا تمش في السماء مرحًا أو باختيال، بل تؤدي دورها، وتعطي للقمر خيره الكامل؛ ليؤدي دوره، كل قد علم صلاته وتسبيحه، بغير اندفاع أو مسابقة، قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠]، وغير البصير المندفع في أحكامه يقرر أن الجبال جامدة: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ﴾[النمل: ٨٨].

أراد القرآن تربية الأمة على الأناة والحلم، وترك الاندفاع؛ لِمَا له من مخاطر وآثار سلبية، حتى كاد أن يتسبب في مقتلة عظيمة بين النبي ﷺ وبني المصطلق، وذاك يوم تعجل الوليد بن عقبة بن أبي معيط في الحكم عليهم، واندفع يقول لرسول الله ﷺ: (يا رسول الله! أتيت قومًا في جاهليتهم جدوا القتال ومنعوا الصدقة)، مع أنهم كانوا قد ركبوا في أثره، وقد ساقوا طائفة من صدقاتهم ونفقاتهم، ولما وصلوا إلى رسول الله ﷺ قالوا: (يا رسول الله! بلغنا مخرج رسولك فسررنا بذلك،

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، باب: دفع: (٧/ ٣٩٧).

(٢) مسلم بن الحجاج، الصحيح، فضل الرفق: (٦/ ٤٨٧).

(٣) المصدر السابق، باب: الأمر بالإيمان بالله تعالى: (١/ ١٠٧).

وقلنا: نتلقاه، فبلغنا رجعته، فخفنا أن يكون ذلك سخطةً علينا) وفي حقهم نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات: ٦][1].

وما حادثة الإفك إلا تربية ضافية في ذات السياق، تربية للمؤمنين لكيلا يقعوا في حبائل الاندفاع... فيقعوا في الإفك والبهتان، فالقاعدة الأصيلة: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[النور: ١٢]، غير أن بعضهم لم يكن كأبي أيوب الأنصاري وزوجه ﵄ في حسن ظنهم بعائشة وصفوان ﵄ حيث برآهما واتَّهما نفسيهما[2]، فتعجل واندفع بمجرد سماع الشائعة، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٥]، قال أبو السعود: والتلقي للخبر يكون بسماعه بالأذن، لكنه عبَّر باللسان تعريضًا بحرصهم على تلقي الخبر؛ فهم حين يتلقونه يبادرون بالإخبار به بلا تروٍّ ولا تريث، وعبَّر ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ وليس من كلام إلا بالأفواه تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ أي: هو قول غير موافق لما في العلم، ولكنه عن مجرد تصور؛ لأن أدلة العلم القائمة بنقيض مدلول هذا القول، فصار الكلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه[3]. اهـ.

أراد القرآن الكريم أن ينتقل بالمؤمنين من خلال هذا الدرس العظيم، وهذه الحادثة البشيعة، إلى الأناة، وترك الاندفاع، وأن يصير حالهم: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٦]، ويضرب القرآن لنا أنموذجًا آخر لخطورة الاندفاع، حين يحدثنا عن أصحاب الجنة الذين أقسموا

---

(١) البيهقي، السنن الكبرى: (٩/ ٥٥)، صححه الألباني في السلسلة برقم (٣٠٨٨).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٨/ ٢١٠).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل: (٦/ ٣٦١).

ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون شيئًا من ثمارها؛ لئلا يسألهم مسكين منها، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾[القلم: ١٨]؛ أي لا يقولون: إن شاء الله «وتسميته استثناء مع أنه شرط من حيث أن مؤداه مؤدى الاستثناء، فإن قولك لأخرجن إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله، بمعنى واحد. أو لا يستثنون حصة المساكين كما كان يفعله أبوهم»[1]، وفي كلا الحالين من المعنى، فإنَّ قائدهم الاندفاع والعجلة؛ بسبب حب الدنيا وشهواتها، وكأن هذا الاندفاع سيؤدي بهم إلى آمالهم وأحلامهم من الغنى والمال... فكان على عكس ما ظنوه، قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾[القلم: ١٩ ـ ٢٠]، فيوم أرادوا الحَرَد ـ أي: المنع ـ والنكَد للمساكين وترك النفع للفقراء، انقلب الحَرَدُ عليهم يوم رأوها، حتى ظنوا أنهم تاهوا عن حديقتهم، وهكذا عاقبة الاندفاع السلبي غير المحسوب، لا يبلغ إلا للندامة والحسرة.

الاندفاع سلاح رعيب، ولقد حاول فرعون الطاغية إعماله يوم أراد أن يستصدر إقرارًا من قومه، وموافقة على قتل موسى ـ عليه السلام ـ في لحظة تهييج للمشاعر، ودغدغة للعواطف، أراد أن يغلبهم على عقولهم بحجة الخوف من الإفساد، وتبديل الدين، فتندفع ألسنتهم بما لا يعلمون عواقبه، ويقولون بأفواههم: أُقْتل موسى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦]، فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الوثني الكفور عن موسى رسول الله ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾[غافر: ٢٦].

وكذلك الاندفاع، وكذلك عواقبه، فيوم تكون السرعة والعجلة في الحركة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٢٧).

بغير وجهة ولا بوصلة، أو بغير حساب ودراسة للأحوال المحيطة، والظروف المواتية، أو فيها تغييب للعواقب والنتائج؛ سيتعجل القوم في إرادة قتل الحق، وقتل موسى ـ عليه السلام ـ الذي جاء بالحق.

وحصل فرعون على إقرار ضمني، وشارك القوم في جيشه. . . والسحرة يتنافسون في دحض ما يظنونه السحر، في حكمٍ هو الآخر عجولٌ مندفعٌ على موسى ـ عليه السلام ـ ليحصلوا على ما يأملون من الأجر والقربة من فرعون وبطانته.

الاندفاع ذميم كله، إلا ما كان على بينة من كتاب الله وسنة رسوله، إلا إذا كانت تباشير الجنة تلوح للسالك من بعيد، أو إذا اتفق العقلاء على صحة السير ونقل الخطى، عندها يصدق على ما كان هكذا حاله، قوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾[الحديد: ٢١]، و﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾[آل عمران: ١٣٣]، ولن يتأخر عنها إلا البطّال، وكي نخرج من دائرة الآمال الاندفاعية والرجاءات العجولة ـ وكلاهما ظاهر العوار ـ فلا بد من عرفان مقوماتهما وهي ثلاثة:

أولاً ـ التعلق بالماديات:

لكي يدرك القارئ الكريم ما أقصد سأبدأ بمثال ليتضح المقال، وتنجلي الصورة عن مكنون العنوان، وغميض مراميه، والمثال من سورة (الحجر)، تلك التي تحدثنا عن دورها في الكشف عن خطورة الآمال الذميمة، وتعرية الكثير منها، لتقف اليوم شامخة ـ كما هو شأنها دائمًا ـ تفضح بعض أسرار تلك الآمال، وتكشف خبيئاتها. . . ومثالنا متعلق بجوهر السورة، ولا أدلَّ على ذلك من أنه علة تسميتها بسورة الحجر، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[الحجر: ٨٠ ـ ٨٤]، هذا الأنموذج في السورة هو آخر

القصص فيها، قبل أن ينتقل إلى الخطاب المباشر لرسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[الحجر: ٨٥]، حيث بدأت السورة بالحديث عن الأمل الفاسد، أمل الدنيويين العجول الحسير، الأمل الهابط الرخيص، وراحت السورة كما بينًّا سابقًا تضرب لذلك الأمثلة، وتوضح وتبيِّن، لتقف عند هذا الأنموذج الأخير، الأنموذج الصارخ القوي المليء بالحركة والأحداث، وكأن صورة القوم شاخصة وهم في تخبط محموم، يسابقون الزمن في نحت بيوتهم في شواهق الجبال، عسى أن يبلغوا الأمان، وتكتب لهم النجاة؛ فيتحصلوا على آمالهم ورجاءاتهم.

أصحاب الحجر هم قوم نبي الله صالح ـ عليه السلام ـ، هم ثمود، ولم يرد وصفهم بأصحاب الحجر إلا في هذه السورة، حيث ورد ذكرهم في القرآن الكريم باسمهم (ثمود) في ستة وعشرين موضعًا، بدأت من (الأعراف) وختمت في سورة (الشمس)، فَذِكرُهم جاء في طول القرآن وعرضه، فلماذا خصَّهم في هذه السورة بأن سماهم أصحاب الحجر؟ أظنه لارتباط هذا الوصف بموضوع السورة الرئيس، الأمل، والذميم منه تحديدًا، حيث تعلقت آمالهم الذميمة بحجورهم وكهوفهم، وارتبطت رجاءاتهم بالنجاة بمقدار سرعتهم في إنجازها ونحتها. قال أبو السعود: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[الحجر: ٨٢] من الانهدام ونقب اللصوص، وتخريب الأعداء؛ لوثاقتها، أو من العذاب؛ لحسبانهم أن ذلك يحميهم فيه[1]. اهـ.

وإشارة لإتقان بيوتهم سماهم الله أصحاب الحجر، فصار نحت البيوت وتشييدها عَلَمًا عليهم، ومع ذلك فإن بيوتهم لا تقيهم عذاب الله، «وجاء ذكرهم

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٨٨).

عقب أصحاب الأيكة[١] لأنه ربما قيل: إنه لو كان لأصحاب الأيكة بيوت متقنة لمنعتهم من العذاب؟ فعطف عليهم مَنْ هُم على طريق أخرى من متاجرهم إلى الشام، وكانوا قد طال اغترارهم بالأمل، حتى اتخذوا الجبال بيوتًا، وكانت آيتهم في غاية الوضوح، فكذبوا بها تحقيقًا؛ لأن المتعنتين لو رأوا كل آية لقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾[الحجر: ١٥] فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ﴾»[٢].

تعلقهم بتلك الكهوف، وتحصنهم بها، شكَّل دافعيتهم للكفر بنبي الله صالح ـ عليه السلام ـ غير أنهم خاب فألهم وبارت آمالهم، قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[الحجر: ٨٤]، «من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد»[٣]، فكان جنس عذابهم مما لا تقف في وجهه جُدر ولا أسوار، ولا يُحترز منه بالقصور والدور، كان عذابهم بالصيحة الرهيبة التي تقتحم كل بناء وثيق، وحصن مكين، وكان موعدها في زمن الاطمئنان، حيث تذهب فزعة الخوف من كل خائف، عند شروق الشمس وذهاب آخر هزيع من الليل، فحيث تأملوا الأمان في المكان والزمان، كانت قاصمة الله لهم بالطاغية، ذلك أن إيواءهم ما كان للركن الشديد، والصمد المتين، وآمالهم ما تعلقت به وبفضله، بل بلعاعة من الدنيا ومِزَقها الفانية.

وما حالهم إلا كابن نوح ـ عليه السلام ـ يوم قال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾[هود: ٤٣]، فقال له والده الشفوق، البصير والعالم بربه، والمدرك لسلطان القدرة وفوقيتها على كل شيء، قدرةِ الأمر الرباني الذي لا مغالب له،

---

(١) أصحاب الأيكة قوم نبي الله شعيب عليه السلام، والأيكة: الشجرة الملتفة الأغصان.

(٢) البقاعي، نظم الدرر: (٤/ ٤٢٦).

(٣) الزمخشري، الكشاف: (٢/ ٣٢٠).

ولا قاهر، أمر الله الذي لا يُخدع، ومن أراد أن يُلبس عليه ويمكر، فإنَّ القدرة الكاملة ستفاجئه بقولها: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٩]، فقال النبي الوالد ـ عليه السلام ـ: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[هود: ٤٣]، وصدَّق أمرُ الله قولَه، وبان زيف أسباب الكفر وضعفها، وقلة حيلتها وهشاشتها، وأنَّ أيَّ أملٍ وإنْ قلَّ لا ينبغي أنْ يُعلق عليها، ويُرتهن لها، فضلاً عن الاندفاع للكفر والعصيان، ورجاء النجاة فيها والظفر، قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

إنَّ التعلق بالمادة أمرٌ جُبِل عليه الإنسان، ولا يكتب له شيء من الانفكاك من ربقة العبودية لها إلا بقدر صلته بالله تعالى، وتعلقه به وثقته بقدرته، وأنه محل الآمال والرجاءات، وليس شيء آخر سواه، وهذا الأمر هو ما استغرق القرآنُ زمنًا كبيرًا ليرسخه في قلوب أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٢ ـ ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[الأنعام: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، بهذه الآيات المتكاثرة وغيرها يريد القرآن أن يوصل الإنسان إلى حقيقةِ منطوقها ومفهومها: قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النساء: ٧٨]، ولذلك نعى القرآن على أصحاب رسول الله يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فقالوا: (لن نغلب اليوم من قلة)[1]. فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ

---

(١) الطبري، جامع البيان: (٥/ ١٨١)، البيهقي، دلائل النبوة: (٢/ ١٨٧).

إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: ٢٥]، نعى عليهم القرآن تعلقهم بالماديات... بالعدد والعدة، وعاقبهم الله بهزيمة في بدء المعركة، حتى إذا آبوا إلى رشدهم: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[التوبة: ٢٦].

وعند النظر في حديث القصعة[1]؛ نُدرك تجذر المادة في نفوس البشر، ولو كانوا صحابة؛ فهم ناس من الناس، فحين يقول النبي ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**» يتبين ذلك التجذر بخفي اللمحة من ردِّ الصحابة وتعجبهم، حيث قالوا: (أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله!) فجعل الصحابة تفسير الضعف مرتبط بالعدد، قلة وكثرة، والعُدة والسلاح، وجودًا وعدمًا، وهل التعلق بالماديات غير هذا؟ وإلا فأي شيء هو؟ عندها نفى لهم رسول الله ذلك الظن والوهم، فقال: «**بل أنتم يومئذ كثير**»، نفى لهم قلة العدد والعدة التي فسروا بها وضع الأمة وضعفها، وأثبت جانبًا آخر، وهو جانب نوعية الإنسان، وحالته الإيمانية وصلته بالله تعالى، نسب العجز إلى الغثائية فقال: «ولكنكم غثاء كغثاء السيل»، نسب النبيُّ الضعف إلى ذات الشيء الذي تحرك في نفوسهم، وربَطَ في أذهانهم تكالب الأكلة عليهم لشؤون العدد والعدة من حيث كثرتها أو قلتها، نسبه إلى تعلق قلوبهم بالماديات ونظرتهم الخاطئة، التي تجعل الإنسان يستكين للدنيا ويطمئن إليها، دون تمييز بين حياة الذل وحياة الكرامة حتى يصير حاله «ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله! وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

---

(١) أبو داود، السنن، كتاب: الملاحم: (٥/ ٣٧١)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٣/ ٣٢).

وهذه حالة الأمة اليوم، حالة الغثائية التي كادت تعصف بالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يوم حنين لولا أدركتهم رحمة الله، ثم معية رسول الله ﷺ، الغثائية التي تشير إلى تعلق القلب بالدنيا والماديات، حتى يصير حاله كما قال الله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[البقرة: ٩٦]، فيندفعوا لطلبها ظنًا منهم أنها محلاً لآمالهم ورجاءاتهم، وإن كان طلبها على حساب كرامتهم وعزهم، بل إن القرآن الكريم يصف ما هو أقذع من هذه الحالة، وذلك حين تملأ الدنيا قلب الإنسان فإنه يتجاوز حالة الغثائية، للارتماء في أحضان الكفر والكفار؛ طلبًا للدنيا وزخرفها، وخوفًا من الدوائر والمصائب، وهذا ما نجده في واقع المسلمين اليوم من الاستخذاء للصهيونية العالمية، والخضوع لإملاءاتها وشروطها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[المائدة: ٥١ ـ ٥٢]، من هكذا شأنه، فليس من أسباب تحزين أهل الإيمان؛ لأن الدنيا التي يسارعون لأجلها ليست محلاً للنزاع، وهي دون ذلك بكثير، بل حالهم هو الذي يدعو للشفقة والحزن؛ لحرمانهم ـ باندفاعهم في الدنيا لطلبها ـ من الآخرة وحظوظها وهي محل الأمل الموعود، أما الدنيا فملكيتها ليست دليلاً على الإكرام من الله تعالى، بل لعلها استدراج وإمهال، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤]، وليس هذا المفهوم من عدم التعلق بالمادة، مناقض لضرورة الأخذ بالأسباب، فأخذ الأسباب واجب، غير أن الاعتماد عليها قرين الكفر.

وخلاصة الأمر أن على المسلم أن يأخذ بالأسباب كأنما لا يوجد غيبيات،

وفي ذات الـوقت يجب أن يتوكل على الله ويتعلق به كأنما لا توجد أسباب، وبذا يبلغ الإنسـان ما يأمل ويرجو وهو حـميد مأجور، أما إذا أبـى الإنسان إلا التعلق بالماديات، فلا يعجب لقلة التوفيق وحرمانه الخير، كما قال ابن عطاء السكندري: لا تستبطئ منه النوال ولكن استبطئ من نفسك وجود الإقبال[١]. اهـ. وكي يتأكد المرء من صدق إيمانه بربه، وتوكله عليه، ولجوئه إليه وخلوه من الماديات، فليزن نفسه بميزان ابن عطاء الله يوم يقول: من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل[٢]. اهـ. يعني: أنَّ من علامات تعويل العامل على عمله والماديات تحت يده، أن ينقص رجاؤه في رحمة الله عند وجود زلل، ومفهومه رجحان الرجاء عند التحلي بالعمل والمادة، والبعد عن الزلل، أما المؤمنون فإنهم لا يعظم رجاؤهم بالأعمال، والمـادة، والعبادة، والصـلاح؛ لأنَّهم لا يشاهدون لأنفـسهم عملاً، ولا ينقص أملهم في رحمة الله ومدده إذا قَلَّت إمكانتهم، وضعف سلاحهم؛ لأنهم غـرقى في بحـار الرضـا بالأقدار، مـتمسكون بحـبل قـضاء ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨]، لأنَّ سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار، فلا يندفعون إلا علـى بصيرة من الكتاب والسنة، يوم يكمل توكلهم على الله تعالى في طلبتهم ما يأملون، ويخلعون الدنيا والمادة من قلوبهم، فتكتب السعادة والاطمئنان.

ثانيًا ـ البعد عن الواقعية:

الواقعية تعني أن تبصر الأشياء بعدسة مستوية، فليست محدبة تصغر الأمور، ولا مقعرةً تضخمها، عدسة حقيقية تصور الواقع بحقائقه وموجوداته، بلا تزييف

---

(١) السكندري، ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم (ت١٣٠٩م)، الحكم العطائية: (ص٥).

(٢) المرجع السابق: (ص٦).

ولا تبديل، ولا تلبس الأشياء غير أثوابها، فيبصر الرائي الدنيا كسراب بقيعة يحسبه ماءً سرعان ما تدهشه إذا جاءها ببهتانها وإفكها.

الواقعية صدق مع الذات، ومعرفة بحدودها وقدراتها، كما هي معرفة للمحيط وظروفه، وآثار ذلك المحيط وظروفه في النفس والذات، فلا تتطاول النفس إلى ما لا تقدر، ولا تتضاءل دون ما تملك وتستطيع.

الواقعية علم يبحث في فقه الأحوال المعاصرة، من العوامل المؤثرة في المجتمعات، والقوى المهيمنة على الدول والشعوب، والثقافات السائدة والأفكار الموجهة لغزو عقول وأرواح الناس، ثم التبصر والتفكر بالوسائل المشروعة والمتاحة لحماية الأمة، وعقيدتها، وغاياتها، في الحاضر والمستقبل من ذلك الغزو وشروره، ومن لم يؤسس لخطواته قواعد من الواقعية والإدراك لمحيطه القريب والبعيد، والعدو والصديق، فلعله يركض نحو آماله وأحلامه باندفاع؛ لعدم إدراكه لعواقب ركضه وتسارعه، إذ جُبِل الإنسان على حب الشهوات، والتطلع للملذات، وراحة النفس وسعادتها، فتجده يندفع كالفَرَاش الذي حدثنا عنه النبي ﷺ نحو النار ظنًا أنها نور فيهلك ثَمَّة ظن النجاة.

فلقد روى أبو هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها»[1]، وما بيَّن النبي ﷺ هذه الحالة إلا لواقعيته في معاملاته مع خلق الله تعالى.

(١) البخاري، الصحيح، باب: الانتهاء عن المعاصي: (١٠/ ١٢٧).

وكذلك القرآن من قبل كان واقعيًا وهو يدعو النبي لحسن التعامل مع البيئة من حوله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الأنعام: ٥٥]، فمن فِقْه الواقع استبانة سبيل المجرمين، ومعرفة أهدافهم، ومخططاتهم؛ كي يسهل التعامل معهم، والحذر من أخطارهم، قال ابن عجيبة: تستبين سبيل المجرمين لتُعَامِلَهم بما يحق لهم من الإبعاد إنْ بَعُدوا أو الإقبال إنْ أقبلوا(١). اهـ. وما أجمل تعليق القشيري: نزيل الإشكال ونفصح طريق الاستدلال، ونطلع شمس التوحيد، ونمد أهله بحسن التأييد، ونَسِمُ قلوبَ الأعداء بوسم الخذلان، ونذيقهم شؤم الحرمان؛ لئلا يبقى لأحد عذر ولا في الطريق إشكال(٢). اهـ. وما تنزلت سورة الفاضحة (التوبة) إلا لفضح المنافقين وكشف خداعهم وتضليلهم، وحادثة (مسجد ضرار) شاهد فاقع على إرادة القرآن توطئة أرض صلبة للنبي ﷺ يتعامل من خلالها مع خصومه وأعدائه، على أساس من الواقعية والموضوعية، بلا اندفاع أو تهور، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[التوبة: ١٠٧ ـ ١٠٨]، وهذا ما طبقه النبي ﷺ يوم بعث معاذًا إلى اليمن، فبين له أنَّ لأهلها واقعًا خاصًا يحتاج معاملة خاصة، فقال له: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب» ولقد رتب النبي على هذه الخصوصية صورة من التعامل معهم، انطلاقًا من معرفته بواقعهم، فأراد من معاذ ؓ أن يدعوهم بواقعية،

---

(١) ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الفاسي (ت١٢٢٤هـ)، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: (٢/ ١٥٣).

(٢) القشيري، لطائف الإشارات: (٢/ ٢٤٣).

بعيدًا عن الاندفاع والتحمس والأحلام، فقال له: «فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن أطاعوك لذلك فأعلمـهم أن الله افتـرض عليهم صـدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

وما تَعَقُّبُ النبيِّ وأصحابِه لحرب فارس والروم وتسطير القرآن لهذه الحادثة، إلا تأكيدًا على أهمية الواقع، وجعله منطلقًا للدعوة لتبلغ الآمال والرجاءات بغير اندفاع وتهور، حتى أنَّ أبا بكر الصديق ﷺ أخذ يتحدى الكفار على انتصار الروم، فقالوا: (اجعل بيننا وبينك أجلاً، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا. فجعل أجلاً خمس سنين، وأخبر النبي ﷺ فقال له: «ألا جعلتها عشرًا». ثم ظهرت الروم من بعد ذلك)[2]. فهذا القرآن الكريم ثم السنة المطهرة وأصحاب رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم ـ يسيرون على نهج الواقعية الذي خالفه أهل الكفر وتنكبوه، فوقعوا في حبائل الاندفاع غير البصير.

إنَّ من أهم أسباب الاندفاع غير البصير عدم الواقعية والجهل بالمحيط، وما كان الاندفاع في الكفر من مشركي العرب إلا لعدم إدراكهم لواقعهم وحقيقة معتقدهم وفساد مذهبهم، فراحوا يتأملون في دينهم كل خير وفي شركائهم النفع ودفع الضر، حتى جـاءهم المصرع الوخيم، وحشـروا مع شـركائهم، وبان لهم زيفهم وزيف معتقداتهم وآلهتهم، فلم تكن فتنتهم ومصيبتهم وبليتهم إلا عدم واقعيتهم، وصدقهم

(١) أبو داود، السنن، باب: زكاة السائمة: (٤/ ٣٨٠)، صححه الألباني، رقم الحديث (١٥٨٤).

(٢) الترمذي، السنن، باب: تفسير سورة الروم: (٦/ ٤٧٩)، وأحمد في مسنده: (٤/ ١٦٨)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح: .

مع أنفسهم، وقولهم كذبًا: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٢٣]، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ٢٢ ـ ٢٤]، (فالفتنة هي البلية والمصيبة)[1]، قال الطاهر بن عاشور: وتحتمل اضطراب الرأي والحيرة في الأمر، ويحتمل أن يراد بالفتنة جوابهم الكاذب؛ لأنه يفضي إلى فتنة صاحبه؛ أي: تجريب حالة نفسية. قلتُ: وكلاهما اندفاع غير محسوب النتائج.

ويستمر الطاهر فيقول: ويحتمل أن تكون أطلقت على معناها الأصلي وهو الاختبار، والمراد به السؤال؛ لأن السؤال اختبار عما عند المسؤول من العلم، أو من الصدق وضده، ويتعين حينئذ تقدير مضاف؛ أي: لم يكن جواب فتنتهم؛ أي: سؤالهم عن حال إشراكهم إلا أن قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[2]. اهـ. وحتى على هذا الاحتمال وهو الاختبار والسؤال، فلقد كان جوابهم مندفعًا بائن العوار والكذب.

ثم عاقبة كذبهم وتهورهم الاندفاعي... المندفع في الغي والباطل، أن غابت عنهم آلهتهم، وغاب عنهم شركاؤهم وغابت آمالهم، وبان لهم سراب أحلامهم وخداعها: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ٢٤]، هكذا المشركون وأهل الكفر: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ﴾[البقرة: ٢٧٥]، يحسبون أنفسهم على شيء وأنهم سبقوا، وما دَرَوا أنهم غير معجزين، والناظر إليهم بغير إمعان لِما جَعلوا حولهم من هالةٍ كذبٍ، يحسبهم أيقاظًا، وهم رقود.

أمَّا القرآن الكريم فإنَّه لا يتعجل ولا يندفع، بل يسير في حركته الإصلاحية هادئًا منساباً لطيفًا، يدرك الواقع ويتعامل معه بواقعية، فالتمهيد ضرورة تربوية،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٢١).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٧/ ٣٩٣).

وإثارة الأشواق سلوك متدرج في الإصلاح، وأوضح مثل له ما كان من الممهدات التي أوردها القرآن الكريم بين يدي تحـويل القبلة من بيت المقدس نحو المسجد الحرام، فإنا نجد القرآن لم يندفع في التحـويل دون مقدمات؛ لِما كان من اللغط بين المشركين واليهود والمنافقين في المسألة، وما يمكن أن يُرتب من آثار في بعض حديثي الإسلام، ورقيقي الدين من الصحابة، كما بيَّن ابن قيم الجوزية، فبعد ذكره لأقاويلهم وما كان من لغطهم عَقَّبَ فقال: ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيمًا وطَّأَ سبحانه قبلها بما يلي:

١ ـ أمر النسخ وقدرته عليه وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله.

٢ ـ ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت على رسول الله ﷺ ولم يَنْقَدْ له.

٣ ـ ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذر عباده من موافقتهم واتِّباع أهواءهم.

٤ ـ ثم ذكر كفرهم وشركهم به وقولهم أن له ولد سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا.

٥ ـ ثم أخبر أن له المشرق والمغرب وأينما يولي عباده وجوههم فثم وجه الله وهو الواسع العليم.

٦ ـ ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه.

٧ ـ ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم، وأنه إن فعل وقد أعاذه الله من ذلك فما له من ولي ولا نصير.

٨ ـ ثم ذكَّر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوّفهم من بأسه يوم القيامة.

٩ ـ ثم ذكر خليله باني بيته الحرام وأثنى عليه ومدحه، وأخبر أنه جعله للناس

إمامًا يَأْتَمُّ به أهل الأرض.

١٠ ـ ثم ذكر بيته الحرام وبناء خليله له، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس، فكذا البيت الذي بناه إمام لهم.

١١ ـ ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا أسفه الناس.

١٢ ـ ثم أمر عبادَهُ أن يأْتمُّوا ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبـراهيم وإلى سائر النبيين.

١٣ ـ ثم رَدَّ على من قال إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى وجعل كل هذا توطئة ومقدمة بين يدي تحـويل القبلة، ومع هذا كله فقد كبـر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة من بعد مرة بعد ثالثة وأمر به حيثما كان رسول الله ﷺ ومن حيث خرج[1]. اهـ.

كل هذا الـجهد المتطاول المنظم، وكل هذه الأناة والحلم هي طريق بلوغ المراد، وليس الاندفاع والتعجل، وهذا ما تأثر به رسول الله ﷺ من التربية القرآنية الرائدة، وظهر جليًا في قضية إعادة بناء الكعبة على بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فاعتبر بالواقع وأخذ بالروية، بغير اندفاع، مع أنه يحب لو أعاد البناء على أصله، ويأمل ذلك، غير أنها هدأة الحكمة، وتريث البصيرة، فقال لعائشة ﵂: «لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزمته بالأرض، وجعلت له بابين: بابًا شرقيًا، وبابًا غربيًا»[2].

وهكذا يسـتمر القرآن في تربية الأمة على الأناة والتريث من بوابة الواقعية

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد في هدى خير العباد: (٢/ ٦٨).

(٢) البخاري، الصحيح، باب: فضل مكة وبنيانها: (٢/ ٤٩٦).

والموضـوعية، وينهـل النبي الكريم ﷺ من معينه النمير، والأمة من بعده، عسى تبلغ آمالها ورجاءاتها.

ثالثًا ـ عدم احترام السنن الكونية:

لقد خلق الله تعالى الكون وفق سنن لا تتبدل ولا تتغير، وهذه السنن الكونية والقواعد الربانية تنتظم جميع أفراد الكون، ولا تستثني من المجموع أحدًا البتة، حتى الإنسـان في جانبه القهري أو كما يسـميه بعض المتكلمين (الجانب المُسيَّر فيه)[1]، على اعتبار أن جانبه الآخر هو التخيري، فإنه خاضع لقوانين الكون وسننه، ولا يملك الخروج عليها، ولئن تحامل على نفسه في مدافعة التيارات الداخلية في نفسه، فإن صبره لن يطول، وسيكتب له من الضنك والمشقة بقدر ما يخالف فطرته، وتركيبه الذي خلق عليه. ومن أدلة ذلك أن القرآن الكريم أكثر من ذكر بعض مظاهر الكون وآياته، على اعتبار خضوعها للسنن والقوانين، وعدم خرقها لها أو خروجها عليها، وكان يُعَقِّب على ذلك بذكر النفس البشرية، وكأنَّ لها نصيبًا يجب أن تأخذ به من السنن والقوانين، كما في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[الأنعام: ٩٦ ـ ٩٨]، (فكما أن الصبح والعتمة والشـمس والقمر وكذلك النجوم جعلت ضمن ناموس محدد لا تخرقه، ولها مهمات واضحة لا تغادرها، فكذلك الإنسان في بعض جوانبه، مقهور مغلوب على أمره، خاضع لذات الناموس، فاسـتقراره في صلب أبيه، وفوق الأرض، وعيشه فيها،

---

(١) علي بن نايف الشحود، المفصل في شرح آية لا إكراه في الدين: (١/ ٣٨٤).

ثم استيداعه في الأرحام، أو بطن الأرض)[1]، بعض مظاهر قهره وخضوعه لمشيئة قانون الدنيا، الذي صاغته القدرة الطليقة، وإدراك مثل هذه الحقائق الكونية، يحتاج إلى دقة فهم وفقهٍ، لذلك قال في آخر الآيات: إنها مفصلة: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ «غوامض الدقائق باستعمال الفطنة وتدقيق النظر، فإن لطائف صنع الله ﷻ في أطوار تخليق بني آدم مما تحار في فهمه الألباب»[2].

بل أخذ القرآن كذلك يبرر إحاطة علم الله وإدراكه الأشياء، حتى ما في ضمير الإنسان ودخيلة قلبه، وضمائم نفسه، وأنَّ غَيبَ الإنسان وما يُخفيه يستوي في علم الله تعالى مع عَلَنِه وما يبديه؛ لأن الإنسان أحد المخلوقات في منظومة المقهورات الكونية، والسوابح في ملك الله تعالى. . .

السوابح بقدر وحساب، وبعلم وإحاطة، في منظومة لا تتبدل، ولا تنخرم، إلا أن يشاء مُقَدِّرُها ومُنظِّمُها، فكما أنزل المطر وأنبت الزرع لمنافع الإنسان، وسَوْمِ الأنعام، وسخر الليل والنهار والشمس والقمر وكذلك النجوم مسخرات بأمره، وذرأ ما في الأرض باختلاف ألوانه، والبحر هو أيضًا مسخر بسكانه، والأرض مهيأة مستقرة، ورواسيها تُثبِّتُها، وأنهارها ترويها، وسبلها تمهدها لحركة الإنسان إذا ما تاه في فِجَاجها، والنجوم تكشفها وتجليها، فإنه خلق الإنسان وأحاط به علمًا وقدرة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٢/ ٤٠٥).

(٢) نفس المصدر السابق.

ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل: ١٠ ـ ١٧]، كل هذه الحركة الكونية الدائبة، والعمل الفاعل، بأمره تعالى، كل هذه النعم العظيمة التي لا تحصى، توطئة لبيان حقيقة انتظام هذا الإنسان في سلك هذه المخلوقات، وأنه فرد من أفرادها، وإن كان سيدها، إلا أنه لا يخرج عن السياسة الحاكمة لها جميعًا في كثير من شؤونه، بل وفي دقيقها، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[النحل: ١٩]، وهي عطف على قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾[النحل: ١٧]، «بعد أن أثبت أن الله منفرد بصفة الخلق دون غيره بالأدلة العديدة من آيات الكون ومظاهره، أراد إثبات أنه منفرد بعموم العلم»[1]، حتى لِما يُسِرُّه الإنسانُ، وأنه كالذي يُعْلِنُه، وما كان هذا العلم إلا لأن الإنسان جزء من هذا الكون الفسيح، وتحكمه قوانينه وسننه، بل شأن الإنسان أهون، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[غافر: ٥٧]، وكان القرآن وهو يعرض لهذه الآيات يؤكد أنه لا يعقلها إلا العالمون، فأورد فيها قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]، ثم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[النحل: ١٣]، ثم ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[النحل: ١٧]، وكل هذا تأكيد على خضوع الإنسان لذات السنن التي يخضع لها الكون الفسيح، وأنه قادر على إدراك هذا الخضوع لو تفكر وتأمل، ويوم قال في سورة (الحج) عن سجود الكواكب والنجوم والشجر والدَّواب لله تعالى،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٤/ ١٠٠).

عطف عليها الإنسان، غير أنه لا يخضع معها إلا إذا تفكر وتأمل، وأدرك أنه مقهور لله تعالى مثلها، وأن السنن والقوانين الحاكمة لها جميعًا جارية عليه، ومسلطة على جنسه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحج: ١٨]، أما إذا عطل فكره وعقله، فَسَيَحِقُّ عليه العذاب، قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[الحج: ١٨].

كل هذا العمل العظيم من القرآن الكريم في الإنسان حتى يدرك ضرورة احترام السنن الكونية المنسحبة عليه، وأنه لا يحق له أن يتجاوزها، وإلا سَيَحِقُّ عليه العذاب والضنك والمشقة... حتى يدرك ضرورة التأني وعدم الاندفاع في سيره لتحقيق آماله ورجاءاته، فكما أن لنموه أطوارًا لا بد من عبورها بكل استحقاقاتها ولوازمها، فإن لآماله ورجاءاته ذات الأطوار التي لا بد من قطعها والمرور بها، وإلا لن تنضج كما ينبغي.

وإنَّ من الآمال الذميمة والرجاءات المقيتة، تلك المندفعة العجولة التي تريد تجاوز المراحل وحرق الأطوار وخرق السنن والقوانين، وعندها سيكون الاصطدام ليس فقط مع حركة الأفلاك والأكوان والسنن الضابطة لها، بل سيكون كذلك مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي ليس لها تبديل وتغيير، كتلك التي تحكم الشمس والقمر والجبال والشجر، وما كان طواف النبي ﷺ في مكة المكرمة ومن حوله عشرات الأصنام التي يسجد لها من دون الله إلا صورة لعدم الاندفاع في تحقيق آماله في تعبيد الناس لخالقهم جل وعلا، وعندما ظنَّ الصحابة صلح الحديبية إعطاءً للدنية في دينهم؛ لعجلتهم واندفاعهم[1] سمَّاه الله تعالى: فتحًا عظيمًا، وأنزل

(١) البخاري، الصحيح، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط: =

فيه سورة تتلى إلى يوم الدين، تُعلم المؤمن الأناة وعدم الاندفاع في تحقيق آماله وأحلامه، وأن يستسلم لسنن الكون وقوانينه في إنجاز المراحل وعبور المنعطفات.

ولقد ضرب القرآن مثلاً بديعًا رائقًا، من جملة ما يربيه في النفس البشرية الأناة وعدم الاندفاع واحترام السنن، فيوم بيَّن أثر الكلمة الطيبة ومفعولها السحري، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥]، فكم من الزمن الممتد تحتاج الشجرة لتنمو وتكبر وتثمر وتنضج، ويصير نتاجها طيب الطعم والرائحة... إنها سنوات من الصبر والجهد والانتظار، ومن الأناة والتحمل والتريث، حتى يكون قطف الثمار ناضجة، وكذلك الدعوة إلى الله، وكذلك تحقيق الآمال والرجاءات.

ومن حِكَم خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام تعليم عباده الأناة والصبر، وعدم الاندفاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٤]، قال البغوي: كان الله ﷻ قادرًا على خلق السماوات والأرض في لمحة ولحظة، فخلقهن في ستة أيام؛ تعليمًا لخلقه التثبت والتأني في الأمور[1]. اهـ.

وقال الرَّازي: إنما خلق العالم في ستة أيام ليُعَلِّمَ عباده الرفق في الأمور والصبر فيها[2]. اهـ. ليدل كذلك على خطورة عدم احترام السنن، وآثاره السلبية

= (٣/ ٢٥٦)، والإشارة لموقف عمر بن الخطاب ومن معه من الصلح، حيث امتنعوا عن الطاعة أول الشأن، ثم آبوا للحق وأطاعوا رسول الله ﷺ، ولم أذكر الحديث لطوله.

(١) البغوي، معالم التنزيل: (٣/ ٢٣٤).

(٢) الرازي، التفسير الكبير: (٥/ ١٠٩).

على الإنسان وآماله ورجاءاته.

إنَّ العجلة وإرادة مجاوزة السنن وتخطيها طبيعة بشرية؛ لأن الإنسان قصير العمر، قليل الأمد في الأرض، ويحب أن يقطف ثمرة جهده وعمله، وأن ينعم بتلك الثمرة ويسعد بها قبل موته، لذلك يندفع ويتعجل ويحاول تجاوزَ الأطوار وحَرْقَ المراحل، حتى المؤمن من الناس يَودُّ أن يبشر بالجنة على عجلٍ، وما علم أن دون البشارة مراحل من التمحيص والاختبار والمجاهدة والعمل، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤١ ـ ١٤٢]، ولقد ردَّ الله الكافرين يوم الأحزاب بغيظهم يوم اندفعوا لقتال النبي وحصار المدينة طمعًا في استئصال الإسلام من جذوره، ردهم دون أن ينالوا خيرًا وهم الذين قَدِمُوا على عجل وبلا تريث، أو فهم لسنن الله، وأنه ناصر دينه، ويشهد لهذا وصف القرآن لهم أن مجيئهم كان من جهة الفَوْقِ والأسفل، وأنهم أحاطوا المدينة كالسِّوار حول المعصم، غير أن الله ردَّهم بغيظهم وأنزل في قلوبهم الرُّعب، وراحوا بين قتيل وأسير وشريد، أما المؤمنون فقد فَهِموا سنن الله، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدَّلوا تبديلاً.

ثالثًا ـ العبثي، تعريفه ومقوماته:

الأمل والرجاء العبثيان من معانيهما: التعلق بما لا يمكن أن يكون لفوت زمنه، أو لكونه من المستحيلات الشرعية والعقلية، «والعبث: اللعب. وعابث: لاعب بما لا يعنيه وليس من باله، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، قال الأزهري: بمعنى خلقناكم للعبث، والعَبِيثَةُ: البُرُّ والشعير يخلطان معًا»[١]،

(١) ابن منظور، لسان العرب: (٣/ ١٦٦).

وقال رسول الله ﷺ: «من قتل عصفورًا عبثًا عجّ إلى الله ﷻ يوم القيامة، يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثًا، ولم يقتلني لمنفعة»[١].

ومن خلال النصوص السابقة يظهر أيضًا أن العبث هو الركض خلف غير النافع، ولغير فائدة، ولا يترتب عليه إلا قتل للجهود وتضييع للطاقات وهدر للزمن، قال الراغب: يقال لما ليس له غرض صحيح: عبث[٢]. اهـ. وقال تعالى حكاية عن هود ـ عليه السلام ـ في توبيخه لقومه؛ لعبثهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، قال البقاعي: والريع الأرض: المرتفعة، وقيل: السبيل سُلِكَ أم لم يُسْلكَ، وأصله في اللغة: الزيادة؛ أي: تبنون في كل سبيل علامة على شدتكم، لأنه لو كان للهداية أو نحوها لكفى بعض الأرياع دون كلها، ولما كان إقامة الدليل على قوتهم بمثل ذلك قليل الجدوى عند التأمل قال: ﴿تَعْبَثُونَ﴾، والعاقل ينبغي له أن يصون أوقاته النفيسة عن العبث الذي لا يكون سبب نجاته، وكيف يليق ذلك بمن الموت من ورائه[٣]. اهـ.

لذلك نجد القرآن الكريم يدعو إلى ترك العبث بكل صوره، ويبدأ بتنزيه الخالق الكريم عنه في عدد من آيات الكتاب الحكيم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا

---

(١) النسائي، السنن، باب من قتل عصفورًا بغير حقها: (٦/ ٤٥٥) وأحمد في المسند: (٤/ ٣٨٩) وابن حبان ورقمه (٥٨٩٤) وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٢) الراغب، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (ص٢١).

(٣) البقاعي، نظم الدرر للبقاعي: (٦/ ٧٩).

خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الدخان: ٣٨ ـ ٣٩].

ثم ينتقل لبيان غاية وجود الإنسان، وأنها أبعد ما تكون عن اللعب والعبث، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾[المؤمنون ١١٥]، وقال تعالى: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[القيامة: ٣٤ ـ ٣٦]، وفيها ترتيب للمُهمات في حياة الإنسان فالأهم مقدم على المُهم، والعاقل يبدأ بالأشياء ذات الأولوية، ولا شك ليس للعبث فيها مكان، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾[الإسراء: ٣٧]، (أي: ذا مرح أو لأجل المرح)[١]، وهو صورة من الكِبْرِ وهو عبث، والأصل بالمؤمن قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾[الفرقان: ٦٣]، قال ابن كثير: باتِّزان وبلا عبث أو مرح[٢]. اهـ.

أولئك هم الذين أدركوا غاية خلقهم، وأولئك الجادُّون، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾[المؤمنون: ٦١]، ولقد فرَّق القرآن بين فريقين من الجادِّين: المؤمنين العاملين، والقاعدين المتكاسلين، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥]، أما العابثون فسوف يدركون خطورة عبثهم يوم لا ينفع الإدراك، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]، في ذلك اليوم يندم العابث المفرط، فيقول كما حكى ربنا تعالى عنه: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[المنافقون: ١٠]، وهذا النبي ﷺ يدعو إلى ترك العبث

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٤/ ١٩٦).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٥١).

وإلى الجدية يوم يقول: «يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا»[(١)]، ولا بد من بيان مقومات الأمل والرجاء العبثيين عسى نتفطن فنحذر، وهما مقومان:

أولاً ـ ينتظر ما لا يكون، والمستحيلات الشرعية والعقلية:

هي أول سمة للآمال العابثة والرجاءات المهترئة، التي تَبعد بصاحبها عن كل حكمة وفهم، وتَصِمه بِكل سُخف وحُمقٍ، وهي ما يمكن أن يُمَثل لها بالأنموذج الذي ضربه الله في القرآن الكريم للذين أغرقوا في العبث وانتظار المستحيلات وما لا يمكن أن يكون، ذلك الأنموذج للذين كذَّبوا بآيات الله واستكبروا عنها، ثم يطلقون العنان لآمالهم وأحلامهم بتفتح أبواب السماء لهم، ثم دخول الجنة مع الداخلين. . . مقدمة يستحيل أن تترتب عليها هكذا نتيجة، واستحالة أن يكون لآمالهم رصيدٌ من الواقع كاستحالة أن يَلِجَ الجمل في خرق الإبرة ويدخل عبرها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأعراف ٤٠]، قال أبو السعود: أي: حتى يدخل ما هو مثله في عِظَم الجِرم فيما هو علَمٌ في ضيق المسلك وهو ثقبة الإبرة، وفي كون الجمل مما ليس من شأنه الولوج في سمَّ الإبرة مبالغة في الاستبعاد[(٢)]. اهـ.

قال البقاعي: لا تفتح لهم أبواب السماء لأنها طاهرة عن الأرجاس الحسية والمعنوية، فإذا صعدت أرواحهم الخبيثة بعد الموت مع ملائكة العذاب أغلقت الأبواب دونها، ثم ألقيت من هناك إلى سِجِّين، ولا يدخلون الجنة وهي أطهر المنازل

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: الغيرة: (٣/ ٢٤٢).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (٢/ ٤٨٧).

وأشرفها حتى يكون ما لا يكون، بأن يلج الجمل ويجوز على كبره خرق الإبرة، إذًا فهو تعليق على محال؛ فإن الجمل مَثَلٌ في عِظَم الجِرم عند العرب وَسمُّ الإبرة مَثَلٌ في ضيق المسلك[1]. اهـ.

ولن يبلغوا ما يأملون حتى يكون ما لا يمكن أن يكون، ومثل هذا من التعليق بالمحال وما لا يكون ترتيبُ المشركين إيمانَهم ونجاتَهم من عقوبة الله والنار، ودخولَهم الجنة ـ وهي غاية الآمال ـ على مسائل أرادوها من رسول الله ﷺ كتفجير الينابيع من الأرض، وإجراء الأنهار في حدائق النخيل والعنب، وإسقاط السماء كسفًا، وأن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾[الإسراء: ٩٠ـ٩٣]، وكل هذا تيئيسًا للرسول الكريم من إسلامهم، فأجابهم الرسول الكريم بما يدل على استحالة مثل أسئلتهم عليه، وأنها لا تُطلب إلا من إله خالق: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ قال البقاعي: أي: تنزه عن أن يكون له شريك في ملكه يطلب منه ما لا يطلب إلا من الإله، فهو تنزيه لله، وتعجيبٌ منه؛ لوضوح عنادهم بطلبهم ما لا قدرة عليه إلا للإله ممن لا قدرة له على شيء منه إلا بإذن الله، ولم يدَّعِ قط أنه قادر على شيء منه، فحسن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر ﴿رَّسُولًا﴾ كما كان مَنْ قبلي من الرسل لا أتعدى ما أمرت به من التبليغ فلا آتي بشيء إلا بإذن الله[2]. اهـ.

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٣/ ٢٥٤).

(٢) البقاعي، نظم الدرر: (٥/ ١٠٥).

ولعظيم سخفهم وجهلهم علقوا شأن هدايتهم بمستحيلات؛ فراحوا يتطلبون الخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على الطفولة العقلية، ويتبجحون في حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج، ولم تكفهم الآيات التي جاء بها النبي الكريم ﷺ وعلى رأسها القرآن الكريم المعجزة الباهرة، والخارقة الباقية التي يعجزون عن الإتيان بمثلها؛ في نظمها ومعناها ومنهجها، وما كان إنكارهم لها إلا لأنهم لا يلمسون إعجازها بحواسهم؛ فتطلبوا ما تدركه الحواس، وما علموا أنه ليس من شأن أدب الرسول أن يتطلب ما لم يُصرَّح له به، فقال: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾، بل لقد أعلن لهم النبي الكريم ﷺ بشريته في غير ما محفل؛ ليقطع على المشركين آمالهم العبثية، ورجاءاتهم المهترئة، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[الأنعام: ٥٠]، قطع عليهم آمالهم ورجاءاتهم بالقول الفصل الذي يدركه ويرى قطعيته كل بصير، أما الأعمى، منطمس البصيرة ومغلّف القلب فلن يحسن التفكير، وسيظل سادرًا في بحر غيه ووهمه، متعلقًا بالسراب والمستحيلات.

وما شأن النبي ﷺ في هذا إلا كإخوانه من قبل، فنبي الله نوح ـ عليه السلام ـ واجه من قومه ما واجهه رسول الله، فقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[هود: ٣١]، إنَّ الذي يُعلق آماله ورجاءاته على المستحيلات هو العابث الجهول، الذي لا يقصد الحق ولا يريده، والذي لو رأى بعينيه مسائِلَه من المعجزات الحسية التي أراد فلن يؤمن، وصدق الله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وَلَوْ

أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١].

إنَّ أول إغـواء كان في الـكون للجنـس البشري، انطلق من تعـليق الـقلب بالمستحيلات، وهذا الذي كان من إبليس مع أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ فقال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾[طه: ١٢٠]، وحـكى الـقرآن لـنا قـولته: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[الأعراف: ٢٠]، فتحركت هذه الآمال والرجاءات في نَفْسَيْ آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ بالرغم من أن الله وعدهما: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٨ ـ ١١٩]، وقبلَ وَعْدِه لـهم حذَّرهم بـقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾[طه: ١١٧]، «غير أنَّ الله وقف وعده لهما على الاحتراز عن تلك الشجرة، وإبليس وقفه على الإقدام عليها، وآدم مع كمال علمه بأن الله تعالى هو خالقه وربه ومولاه وناصـره، وإبليس هو عدوه، أعرض عن قول الله تعالى، ولم يُرد المخالفة، ومن تأمَّل هذه الحادثة عرف خطورة هذه الآمال وعرف كذلك أنه لا دفع لقضاء الله ولا مانع منه»[1].

هـذه الآمـال هي الـتي دفعت عاداً إلى اتخاذ المصـانع عسى أن يَخْـلُدوا، قــال تـعـالـى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩]، «المصانع والبروج العالية والقصور المشيدة والحصون، قاموا ببنائها رجاء الخلود في الدنيا»[2]. وهو المحال؛ إذ كتب الله الفناء على كل خلقه، قـال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧]،

---

(١) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: (٤/ ٣٨٤) بتصرف.

(٢) الزمخشري، الكشاف: (٣/ ٢٧).

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[الأنبياء: ٣٤]، وقوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[آل عمران: ١٨٥]، فالخلود تمني أن يكون ما لا يكون، ورجاء للمستحيلات الشرعية والعقلية، غير أن الإنسان مفطور على حب الخلود، وضَرْبُ الشيطان على هذا الوتر ليس اعتباطًا، إذ يعرف من أين تؤكل الكتف.

ثانيًا ـ متأخر عن الوقت المناسب:

كان المقوم الأول للآمال العابثة قيامها على توقع المستحيلات الشرعية والعقلية، وانتظار كون ما لا يكون.

وهذا المقوم سابق على استقرار الحدث وانتهائه ـ غالبًا ـ مع استمرار القدرة على تصويب الخطأ عن قريب؛ لِسَعَة زمن الإمكان، أما المقوم الثاني فهو لاحقٌ له، وبعد الفراغ منه وانتهاء المدة الصالحة له، والخروج من زمن الإمكان والاستطاعة، وإنْ عُذِرَ بعض أصحاب الآمال العابثة الأولى، فلا يعذر سواهم من الذين يستفيقون بعد فوات الأوان، فقد يستدرك منتظر كون ما لا يكون، ومنتظر المستحيلات، بمنبه خارجي، أو مذكر ذاتي، فيصوب خطأه أو يرجع عن مخالفته للأولى، كشأن زوجة العزيز حال طمعها بمواقعة النبي المعصوم ـ عليه السلام ـ، ثم ما لبثت بعد حين وبسبب الضغوط من حولها أن آبت إلى رشدها هي والنسوة معها، فقلن ردًا على سؤال الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] بندم واعتراف، وتنزيه للنبي ـ عليه السلام ـ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾[يوسف: ٥١]، ثم من بعدهنَّ أثنت صاحبة الكيد الأول، الآيبة للحق بعد عرفانها عظيم قَدْرِ غريمها، وأنها كانت تنتظر كون ما لا يمكن أن يكون من مثله؛

لاستحالة السوء عليه هو وإخوانه من أنبياء الله تعالى الكرام ـ عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام ـ: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٥١].

أو كشأن نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ يوم سأل رؤية الله في الدنيا فبان له استحالة مسألته؛ لاندكاك الجبل، وخروره صَعِقًا، فقال لما أفاق: ﴿سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣]، أما المتأخر عن الوقت المناسب، المستفيق بعد فوات الأوان، فالشأن معه آخر، وما مثله إلا كفرعون يوم أدركه الغرق، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠]، (لقد كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصًا على القبول وذلك في قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ ثم ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ثم ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار، فجاءه الرد: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيست من نفسك: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[يونس: ٩١][١]. حتى جبريل ـ عليه السلام ـ بلغ من الغيظ من فرعون وطغيانه ما جعله يَدسُّ في فم فرعون من حال[٢] البحر خشية أن يقول كلمة؛ فيرحمه الله[٣].

وهذا القرآن الكريم لا يزال يقرع نواقيس الخطر لعباد الله، ينذرهم من

---

(١) النسفي، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود (ت٧١٠هـ)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: (٢/ ٤).

(٢) حال البحر: طينه الأسود مثل الحمأ.

(٣) الترمذي، السنن، باب: ومن سورة يونس: (٦/ ٣٧٤)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٥/ ١٤).

الفوت وخلاص زمن الإمهال، ويزجرهم؛ عسى يستدركون، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[المنافقون: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[آل عمران: ١٩١]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾[إبراهيم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[الروم: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾[الشورى: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الحديد: ١٥].

أما السادرون في غيهم، المُصِرُّون على كفرهم، إذا ما عاينوا العذاب والشدة تغيرت أحوالهم، وقرعوا سِنَّ النَّدم، وعضوا أنامل الغيظ، ونكسوا رؤوسهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة: ١٢]، (والخطاب إما لرسول الله ﷺ أو لكل أحد من أهل المشاهدة والعيان، قصدًا إلى بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الشناعة والفظاعة إلى حيث لا يختص استغرابها براءٍ دون راءٍ ممن اعتاد مشاهدة الأمور العجيبة، بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف ثقة بظهوره وإيذاناً بقصور العبارة عن تفصيله، وكذا مفعول ﴿تَرَىٰ﴾ لدلالة ما في حيز الظرف عليه؛ أي: لو تراهم حين ينكسون رؤوسهم ويظهرون الندامة

لرأيت ما لا يسعه التعبير، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق)[١]. وتنكيس الرأس من الحياء والخزي عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا فيقولون: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾؛ أي: صرنا ممن يبصر ويسمع، وحصل لنا الاستعداد لإدراك الآيات المُبصَرة والآيات المسموعة، وكنا من قبل عميًا وصمًّا لا ندرك شيئًا ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ حسبما تقتضيه آياتك ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، قال أبو السعود: وعدلوا عن الجملة الاسمية المؤكدة؛ إظهارًا لثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه، وكل ذلك الجد في الاستدعاء طمعًا في الإجابة إلى ما سألوه من الرجعة، وأنّى لهم ذلك[٢]. اهـ.

وأمثالهم في القرآن كثير كما حدَّثنا ربُّنا جل في علاه في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنعام: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٦ ـ ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[الأعراف: ٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٤/ ٣٨١).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٤/ ٣٨٢).

سَبِيلٍ ﴾[الشورى: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[غافر: ١٠ ـ ١١]، وكل هؤلاء يدهشهم ويصعقهم قول الله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠٠].

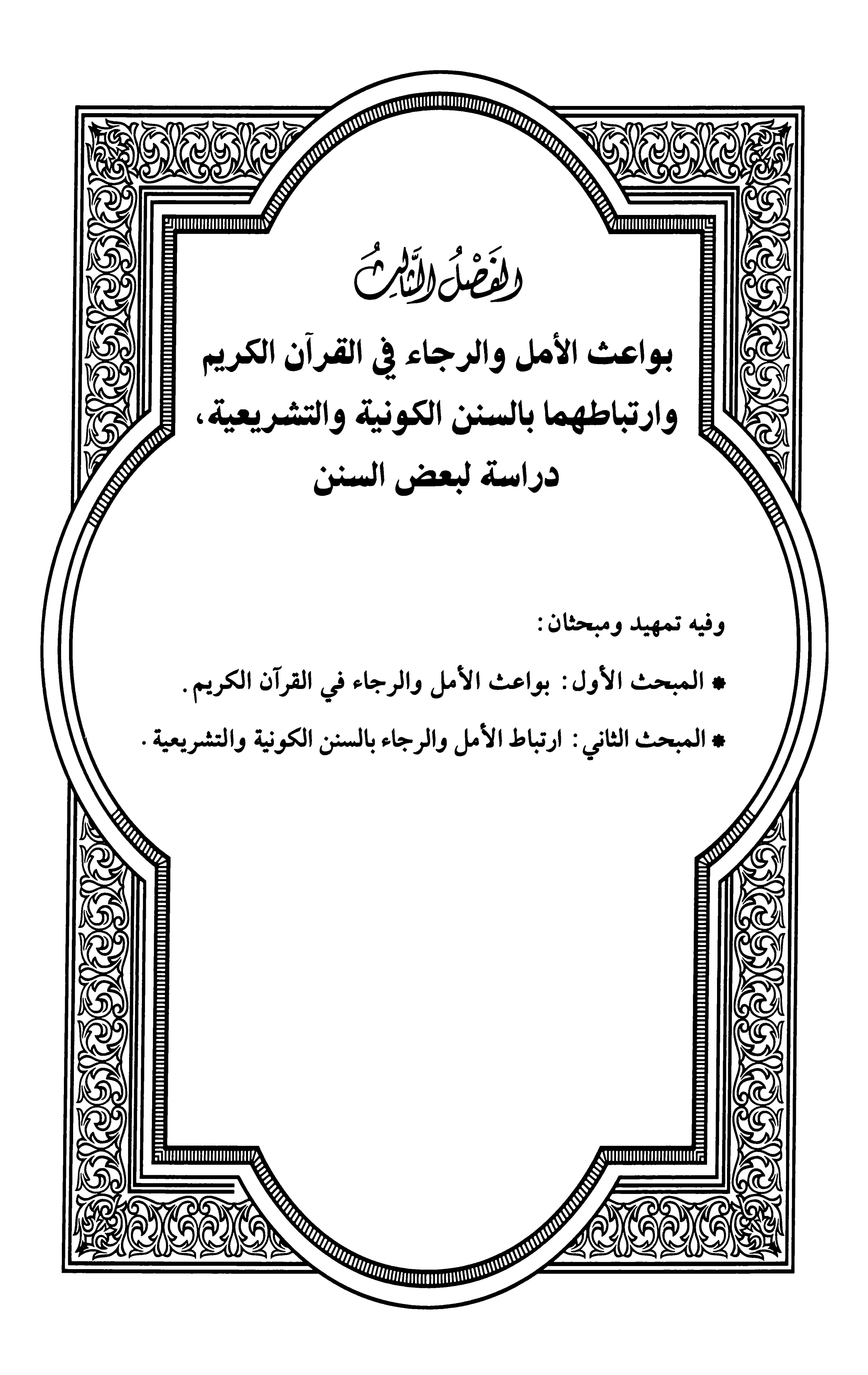
ويظل رجاء النجاة والخلود المتأخر بوابة للآمال العابثة ـ كما قلنا ـ حتى يوم يحشر الناس إلى ربهم، فيود العصاة لو يفتدي الواحد منهم ببنيه وزوجه وأمه وأبيه، بل وبمن في الأرض جميعًا، غير أن الاستحالة تنطق في وجههم لتدهشهم فتقول: «كلا»، قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١٤]، لأنَّ الله كتب أزلاً: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠١]، بل وتظل هذه الآمال العابثة والرجاءات المهترئة تدغدغ قلوب المجرمين في نار جهنم، فتدفع ألسنتهم إلى النداء بلا ملل أو كلل: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[الزخرف: ٧٧]، ومالك ـ عليه السلام ـ لا يملُّ كذلك من قولته في وجوههم زاجرًا ومعنفًا وميئسًا: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾[الزخرف: ٧٧].

فآمالهم عابثة ورجاءاتهم خربةٌ، لأنها غادرت زمن الإمكان ووقت التوبة المقبولة، عافانا الله أجمعين.

تم الفصل الثاني

والحمد لله رب العالمين

❏ ❏ ❏

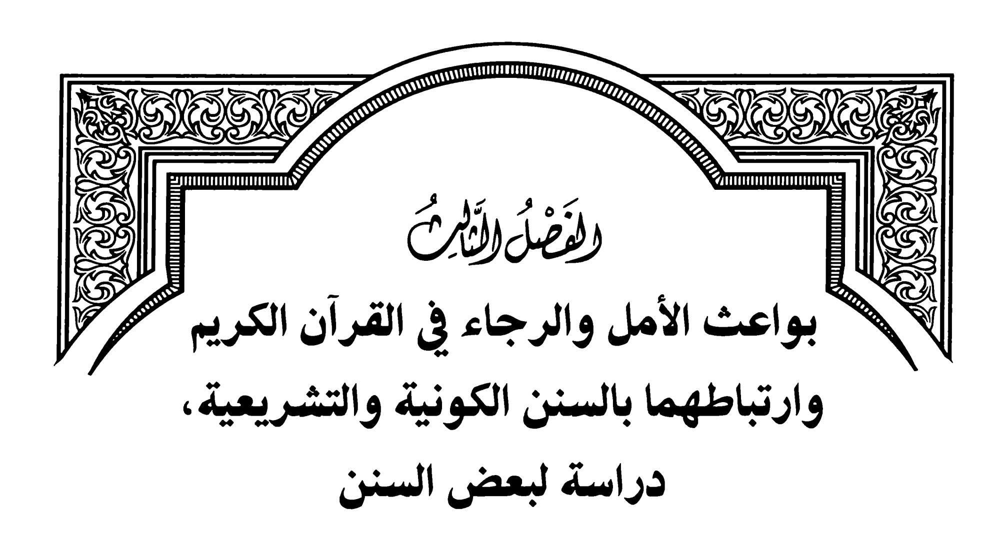


الفَصْلُ الثَّالِثُ

بواعث الأمل والرجاء في القرآن الكريم وارتباطهما بالسنن الكونية والتشريعية، دراسة لبعض السنن

وفيه تمهيد ومبحثان:

* المبحث الأول: بواعث الأمل والرجاء في القرآن الكريم.
* المبحث الثاني: ارتباط الأمل والرجاء بالسنن الكونية والتشريعية.



الفصل الثالث

بواعث الأمل والرجاء في القرآن الكريم وارتباطهما بالسنن الكونية والتشريعية، دراسة لبعض السنن

التمهيد

الأمل والرجـاء غاية قرآنية مَسِيسة، وطلبة قرآنيـة أرادها بحرارة؛ لإدراكـه ضرورة هـذا الإحساس في القلب ليكون عامرًا منتجًا فـاعلاً متفـاعلاً. . . القلب المعمور بالأمل والرجاء قلب حي نابض يزرع الحياة والسعادة حيثما حلّ ونزل، كالغيث حيثما وقع نفع، وشوق البشرية له كشوق الأرض المجدبة العطشى لسماع هزيم الرعد ورؤية نور البرق؛ فيبشرانها ببركات السماء وخيرها.

وإذا استصحب أهل الإصلاح الأمل والرجاء فإن الصعب سيهون، والبعيد سيدنو، والأيام تسفر عن خير وشيك، والزمن جزء من العلاج.

والمثل الأعلى للمصلحين ذوي الآمال السامقة والرجاءات الجذيرة سيدنا محمد ﷺ حيث ظل في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو قومه إلى الإسلام، فيَلْقَوْن دعوته بالاستهزاء، وقرآنه باللغو فيه، وحججه بالتكذيب، وآياته بالتعنت والعناد، وأصحابه بالأذى والعذاب، فما لانت له قناة، ولا انطفأ في صدره أمل.

اشتد أذى المشركين لأصحابه فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وقال لهم في ثقة ويقين ـ ما مقتضاه ـ:

(تفرقوا في الأرض وإن الله سيجمعكم)[1]. هذا وغيره من أدلة الأمل الراسخ، كلها ثمرة لذلك التنزيل القرآني المتطاول المديد في تلك المرحلة الطويلة الشاقة، ثمرة لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٤١]، ولقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، ولقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧]، وغيرها من الآيات المتكاثرة في كتاب الله تعالى والتي سنعرض للكثير منها في هذا الفصل المكون من ستة بواعث، ثم سأدرس اتصال الأمل والرجاء ببعض السنن الكونية والتشريعية، وسأكشف عن مقدار الاتصال بين الأمرين إن شاء الله تعالى، ولا أزعم حصر بواعث الأمل في هذه النقاط، لكن لعلها هي الأبرز فيما أعلم، والله أسأل السداد والتوفيق.

* * *

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ لأصحابه لما رأى الأذى يشتد بهم: **«لو خرجتم إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا»** أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده: (٣/ ١١٠) (٣١١٠) وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية: (١/ ١٨٩).



بواعث الأمل والرجاء

الباعث الأول ـ التاريخ والقصص:

من أبرز بواعث الأمل والرجاء في النفس قصص السابقين، وأخبارهم، وتاريخهم التليد، وعِبَره وفوائده، فسَرْدُ القصص والإشارة للتاريخ من المنهج القرآني في إحياء موات الآمال في قلوب المؤمنين به والتالين له، وبعث الرجاءات الحميدة في نفوس العاملين به والخاضعين لسلطانه، إذ يدرك القرآن قيمة هذا البعث والإحياء في تحويل مسار الأمة، وتوجيه دفة سفينها في مخر عباب الحضارة وصناعتها، وتشكيل لباب شرفها وعزها، وفوزها بحُباب خلافة الدنيا وجَمّها، وظفرها بغَنَاء الجنة وحَيَائها.

التأريخ للغابرين وقصٌّ أحوال السابقين يحقق الكثير من العبر والدروس، ولقد أكثر القرآن من تبليغ رسائله عبر هذا النمط من الأخبار؛ ليحقق أكبر كَمٍّ من الامتثال في صفوف أتباعه، وليغرس فيهم القيم التي يريد، فيحقق آماله فيهم، وآمالهم به، بلزوم الحق الذي فيه، وسورة (الكهف) التي ذَكَرتِ الأمل الراشد بصريح العبارة، وذكرته كذلك بخفي الإشارة من خلال قصصها نموذجٌ قرآني واضح على الدعوى التي أقمناها، حيث بدأت بالفتية أصحاب الكهف وبسرد حادثتهم تعقيبًا على ما أصاب النبي ﷺ من حزن بليغ لنكوص قومه عن دعوته، وتركهم الإيمان برسالته، فقال له القرآن الكريم مصبرًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾[الكهف: ٦]، تاليًا للذي بدأت السورة به من التنويه بخلوص

القرآن من العوج، وقيوميته على الدنيا وما فيها، وبشائره للمؤمنين العاملين بالتمكين، ومكثهم في عيون الأجر أبدًا.

فكان ما جاء من ذكر لهؤلاء الفتية بينةً بعد دعوى، ومثالاً عمليًا بعد نظرية، وباعثًا عظيمًا للأمل في نفس رسول الله ﷺ؛ لأنَّ ما ينفعل في النفس من عجبٍ لإيمان هؤلاء الفتية بربهم بالرغم من قسوة ظروفهم، وكيد عدوهم، وانعدام الآيات المؤيدة والمصدقة لإسلامهم كما الشأن مع رسول الله ﷺ يُهوِّن كثيرًا أمر إيمان العرب في مكة؛ إذ دواعي الإيمان متوافرة وآيات صدق الرسالة متكاثرة، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[الكهف: ١٣]، ولئن كانت كرامة لبثهم الأعوام الطوال في الكهف خارقة لمألوفات البشر وتشبه المعجزات، فإنها لم تكن قبل إيمانهم لتكون دليلاً على أحسنيته، إنما كانت عَقِبه؛ إشارة لجميل مآلهم عند ربهم جل في علاه.

فإن كان من عجب فهو من إيمان هؤلاء، وليس من إيمان العرب في مكة المكرمة، وأي باعث للأمل في نفس رسول الله ﷺ أكبر من قصة الفتية، وأي دافع للعمل والجهد في الدعوة أعظم منها.

ولا يزال القرآن في مواطن كثيرة يؤكد أهمية استحضار التاريخ واستنطاقه ولفت الأنظار إليه، قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾[طه: ٩٩ ـ ١٠٠]، فجعلتِ الآياتُ قصصَ القرآن وسيرَ الأنبياء وأممَهم جزءًا من الذكر الذي فيه، وجزاءَ الإعراض عن الاعتبار بها وخيمًا جدًا، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ

ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَىۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾[يوسف: ٣]، وقال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٠١]، وهاهو كذلك يحض النبي الكريم ﷺ على إحياء القيمـة العُلْويَّة للتاريخ في نفوس الناس من خلال إنبائهم به وتلاوته عليهم، فهو يأمره بذلك ويكلفه به تكليفًا، قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]، وقال تعالـى: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[الحجر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[المائدة: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِى وَتَذۡكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[يونس: ٧١].

ثم نجد القرآن يأمر أهل الخطاب بالاعتبار والاتعاظ بهذه القصص، والسير في الأرض لتلمس مواطن الخير؛ فتكون دفعًا لهم فيلزموه، ولعرفان مواطن الشر وأسبابه؛ فيحذروه، فتُحققُ القصة بذا دورها في تبليغ الناس ما يأملون ويرجون من الكمال البشري، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾[الأنعام: ١١]، وقال

تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾[طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾[السجدة: ٢٦].

ولقد أكثر القرآن الكريم من إنزال التاريخ القديم منزلة الحاضر المنظور في خطابه لرسول الله ﷺ ولأمته من بعده، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨]، وجَعْلُ الخبرِ المسموع كالمشاهد والمحسوس للتأكيد على تحقق وقوعه، ولاستحضار الصورة؛ فيكون الاعتبار والاتعاظ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٢٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٦].

إذًا فالأحداث الغابرة محلُّ اهتمام القرآن الكريم؛ لما لها من أثر في تقويم الحاضر واستشراف المستقبل، بل لقد شغل القصص ثلثي القرآن الكريم، وكانت القصة القرآنية زادًا لرسول الله ﷺ في مسيرته الدعوية، ترفدُه بالنماذج المضحية وتعضدُه بالأمثلة المصابرة، ويوم اشتدت المحن على رسول الله ﷺ وعانى من قومه ما عانى، قال الله تعالى له: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل

لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[الأحقاف: ٣٥]، جاء هذا الخطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ تسلية وتعزية؛ لأن طريق الدعوة شاق ومرهق، والنفوس تتعب منه، ومحمد ﷺ بشر من البشر؛ فاحتاج إلى جرعة تصبيرٍ ومسحةِ حنوٍ ونظرةِ إشفاقٍ من ربه الكريم، بالرغم من صفاء نفسه وصلابة عزمه وانقطاعه لله تعالى. فجاءه الخبر من أصدق القائلين بأن أمد الصبر ليس طويلاً، فما هي إلا ساعة من نهار، ولقصرها وضآلتها قال: ﴿سَاعَةً﴾ ثم هي بعض: ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾ مُنَكَّرٍ لقلته وانحسار زمنه، ثم يكون لكلٍ ما تقتضيه عدالة الله تعالى.

وقصة يوسف ـ عليه السلام ـ تعتبر أنموذجًا واضحًا في هذا السياق من حيث موضوعها ووقت نزولها «حيث نزلت في مكة المكرمة تسلية للنبي ﷺ لِمَا لقيه يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام ـ من آلهم وذويهم من الأذى، وقد لقي النبي ﷺ من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه مثل عمه أبي لهب والنضر بن الحارث، فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء كما قال طرفة[1]:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند»[2]

ولئن كانت عاقبة يعقوب ويوسف ـ عليهما السلام ـ حميدة بعد كل سنوات

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو: شاعر، جاهلي، من الطبقة الاولى. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه. ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شابًا، في (هجر) قيل: ابن عشرين عامًا، وقيل: ابن ست وعشرين. أشهر شعره معلقته، ومطلعها: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) ومنها البيت المذكور.

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (١٢/ ٥).

المرار والفراق، والعمى والبكاء، والجُبّ والفتنة والسجن، فإن عاقبة كل الصادقين كذلك، وغير خافٍ ما في هذه القصص من التثبيت وبعث الأمل وإحياء الرجاء في نفس رسول الله ﷺ وكل التالين لها.

ومما يجب أن يلاحظ أن القصة القرآنية تتعاقب بحسب أحوال المخاطبين، فللمريض ذكرت ما يسليه ويرفع من همته ويعزز أمله كقصة أيوب ـ عليه السلام ـ، وللسجين قصة يوسف ـ عليه السلام ـ مثالٌ سامقٌ، وللطريد تقف قصة موسى ـ عليه السلام ـ شامخةً، إلى غير ذلك من النماذج المعروفة والمعلومة، لتؤدي القصة القرآنية دورها الفاعل في تفتيق العبر والعظات، وتَفْهِيق[1] الآمال والرجاءات للسالكين طريقَ الإيمان والعمل، بصرف النظر عن أحوالهم، وإن بلغت منتهى الصعوبة والمشقة التي يمكن أن تطرأ على البشر، كالقتل بغير وجه حق، كحال كثير من النبيين، فيتجنبوا اليأس المحظور والقنوط المنكور.

كما أن القصص فيه تثبيت للفؤاد وزيادة في اليقين؛ لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيد التالي لها تذكرًا وعلمًا بأن حاله جارٍ على سنن الأنبياء، سواء كان التالي للذكر المقصودَ أصالةً بالخطاب وهو رسول الله ﷺ أم آخر ممن يحمل عبء الدعوة من بعده من أمته، وإذا كان الحال على سنن الأنبياء من قبل فالعاقبة حميدة والنصر موثوق، وبذلك تجد التسلية للداعية على ما يلقاه من قومه من التكذيب فيزيده صبرًا.

ومما يزيد الشعور بالأمل من خلال القصص، كما قال ابن عاشور: علم الداعية التماثل في أحوال الأمم تلقاء دعوة أنبيائها مع اختلاف العصور، ويزيده علمًا بأن مراتب العقول البشرية متفاوتة، وأن قبول الهدى هو منتهى ارتقاء

---

(١) تفهيق: مِنْ فهق، وتعني: التوسع وتدل على الظهور والبروز. لسان العرب، مادة فهق.

العقل، فيعلم أن الاختلاف شنشنة[١] قديمة في البشر، وأن المصارعة بين الحق والباطل شأن قديم وهي من النواميس التي جبل عليها النظام البشري، فلا يحزنه مخالفة قومه عليه، ويزيده علمًا بسمو أتباعه الذين قبلوا هداه واعتصموا من دينه بعراه[٢]. اهـ.

وكذلك للقصة دور فاعل في تنبيه قلب الغافل لحقائق الكون وسننه واستجابات البشر وطبائعهم، وطرائق الدعوة ووسائلها، وما كان تفريق قصة نوح عليه السلام في طول القرآن وعرضه إلا لتكون هذه بعض فوائدها، حيث اختزل القرآن المجيد سنوات دعوته الألف إلا خمسين عامًا في سطور معدودة تثبيتًا لقلب رسولنا الكريم ﷺ وأمته من بعده وتعليمًا . . .

ومثلها قصة موسى وإبراهيم وسائر إخوانهم الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

الباعث الثاني ـ خصائص المنهج الإسلامي، كما يوضحها القرآن الكريم:

إنَّ الدارس للمنهج الإسلامي من خلال أصوله سيجد في نفسه من الطمأنينة والثقة ما لن يجده عند دراسة سواه من المناهج والمبادئ، لأنه المنهج السالم من عبث البشر وتحريفهم، وسيجد نفسه حال كونه يلتزم هذا المنهج يمشي سويًا على صراط مستقيم، وغيره مكبًا على وجهه لا يلوي إلى سبيل، وسيرى الواقع يصدق قول صاحب المنهج: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]، وسيجد أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي حافظ على أصوله، خلوًا من أيِّ كدر يشوب نبعه الأصيل، أو يلبس فيه الحق بالباطل، أما التصورات والاعتقادات الأخرى ذات

---

(١) شنشنة؛ أي: غريزة وطبيعة، اللسان، مادة نشش.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٥/ ٣٢١).

الأصول السماوية فقد دخلها التحريف في صورة من الصور، وأضيفت إلى أصولها مستحدثات غريبة عنها، وشروحات وتأويلات وزيادات من صنع البشر، وبأيديهم، أما صبغة الله التي صبغ بها عباده من أمة محمد الخاتم ﷺ فهي أحسن صبغة، وهي دمغة الإيمان وحِلْيَة الطهر التي شاءها لعباده؛ ليكونوا له عابدين، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾[البقرة: ١٣٨]، والصبغةُ: الدين والمنهج النازل من عند الله تعالى، وكما أنَّ الأصباغ حِلية وجمالٌ للأثواب تُزيِّنها فإن دين الله تعالى جمالٌ للنفس والروح والكون والحياة، وانتصبت على الإغراء؛ والمعنى: الزموا دين الله، ويصح كونه منصوبًا على أنه مفعول مطلق والمعنى: (صَبَغَنا صِبغةَ اللهِ)، وليس أجمل للإنسان من التزيِّي بزيِّ العبودية لله تعالى، لذلك كانت ثمرةُ الصبغة العبوديةَ المطلقة.

جاء هذا المنهج الرباني جاهزًا كاملاً متوازنًا واقعيًا، ويتوقف دور العقل البشري على فهمه وإعداد الآليات الكفيلة بتطبيقه. ولئن كان الوحيُ أثرًا من آثار الله فكذلك العقلُ الإنساني أثرٌ من آثار الله في الوجود، وإنَّ آثار الله يجب أن تنسجم مع بعضها ولا يعارض بعضها بعضًا، ولكن لا يجب أن يفهم بحال من الأحوال أن الوحي والعقل ندَّان؛ لأن الوحي أكبر وأشمل وهو الأصل الذي يجب أن يرجع العقل إليه، والميزان الذي يختبر عنده مقرراته ومفهوماته وتصوراته، ويصحح به اختلالاته وانحرافاته، فبينهما توافق وانسجام على أساس تبعية العقل للشرع والوحي، لا على أساس الندية والتعادل، فالعقل الكامل المبرأ من النقص والهوى لا وجود له في دنيا الواقع، وأبرزُ خصائص المنهج الإسلامي استمداده من الوحي ووقوف العقل البشري منه عند حدوده التي لا يتعداها، وليس كذلك سائر المناهج والتصورات، إن المنهج الإسلامي غير متطور في قواعده وأصوله، إنما تتطور الإنسانية

في فهمه وتطبيقه ضمن أطره الأساسية التي لا تخرج عليها، وتظل البشرية تتطور وترتقي وتنمو وتتقدم والمنهج الإسلامي يسعها، وحركة الإنسانية مهما تطورت تبقى في إطار المنهج الإسلامي الأصيل؛ لأن المصدر الذي شرع هذا المنهج وارتضاه هو ذاته الذي خلق الإنسان ويعلم طبيعته وحاجته المتطورة على مدى الزمان.

أما المناهج البشرية فإنها تحتاج دائمًا إلى التطور في أصولها والتحور في قواعدها، بل والانقلاب عليها أحياناً حين تضيق أطرها عن استيعاب التطور البشري والحاجات البشرية؛ لأنها من صنع الإنسان قصير النظر، الذي لا يرى إلا لمسافة قصيرة مع ما يمكن أن يخيل له مما ليس له أصل كانكسار القلم في الماء، أو الواحة الجميلة في الصحراء الجدباء، فلا يرى إلا لفترة زمنية محدودة وقطاع من الأرض محدود، أما المنهج الإسلامي فواضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان، ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور، ويختار بلا تأثير من الشهوات والانفعالات، لذا فإن ما يَضعُ من منهج للبشر يعتبر أصلاً ثابتًا تتطور البشرية في حدوده، وهو لا يزال مهما تطوَّر وتقدم الإنسان، ومهما نمت وارتقت البشرية يسعها ضمن إطاره العام الكبير.

يُعد هذا المنهج الرباني محورًا تدور حوله البشرية، محورًا ثابتًا والبشرية هي المتغيرة، وأحوالها هي المتطورة، إلا أنه تغيُّر وتطور منضبط بلا فوضى أو تهور، كالنجوم والكواكب كل منها يدور حول محوره في فلكه ومداره، متحركٌ وليس ثابتًا لكنها حركة منضبطة؛ وإلا لحدث الانفلات والفوضى والدمار.

وكذلك الإنسان مع المنهج الإسلامي الرباني الذي له من الخصائص والمقومات ما تجعله المنهج الأكمل والأدوم، يدور في فلكه ومداره حول محوره الرباني الإسلامي بثقة وثبات، يحدوه أمل عظيم أن يبلغ كل ما يحب ويرجو؛ لأنه

ينتمي إلى منهج أصيل له خصائص ومقومات خلا منها أي منهج آخر، ينتمي إليه بعزٍ وافتخارٍ وهو يردد: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾[الأنعام: ١٦١]، قال البقاعي: أي: طريق واسع بيّن، ثم مدحه بقوله: «ديناً قِيَمًا»؛ أي: بالغ الاعتدال والاستقامة ثابتها[1]. اهـ.

أما خصائص هذا المنهج التي تعطيه الثبات والاستقامة والاعتدال فهي:

أولاً ـ الربانية:

وتعني خلوص المنهج من التدخل الإنساني والعبث البشري، وأن وظيفة الرسل والأنبياء لا تعدو النقل الدقيق والتبليغ الأمين، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[النجم: ١ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾[الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الشورى: ٥٢]، وإذا كان دور النبي لا يتجاوز حدود التبليغ، فإن شأن الهداية كذلك ليس في مُكْنته ولا بأمره؛ لتتأكد خاصية الربانية، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾[الأنعام: ١٢٥]، ومما يزيد براءة المنهج الإسلامي عن العبث البشري والنقص والهوى، ويعطيه قيمته الأساسية الكبرى، وأنه وحده المبرأ من الجهل والتحريفات كما نراها مجسمة في التصورات التي صاغها

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٤/ ١٧٠).

البشر من وثنيات أو التي تَدَخّل فيها البشر من عقائد سماوية سابقة، اعتراف الرسول الكريم ﷺ بتلك البراءة والسلامة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٥ ـ ١٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٨ ـ ٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١]، إذًا هو منهج رباني المصدر سماوي الجهة، سليم من البصمات البشرية الناقصة الحسيرة الجاهلة، والانتماء لدين هكذا وصفه لا بدَّ وأن يعطي قيمة عليا لأتباعه وآمالاً رحبة؛ فهم يأوون للرُّكن الشديد الذي تعالى على كل خلقه، فهو ربٌّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وهو كذلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهو يخاطب البشر بضرورة عرفان قدره فقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ويبقى وحي الله إلى خلقه متسامٍ على كل خلقه، ظاهرة فيه الآثار الربانية والقدرة الربانية، وليس يراها إلا الموفقون، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

ثانيًا ـ الثبات:

إن التسليم بالخاصية الأولى للمنهج الإسلامي يجعل لزامًا على كل متفق معنا أن يسلم بالخاصية الثانية له، خاصية الثبات؛ لأنه دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها؛ لأنه لم يكن نتاج فترة زمنية، ولا عوامل أرضية ولم يكن بجهد وفكر بشري، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم: ٣٠].

إنَّ الثبات في التصور وفي المنهج لا يعني الجمود في الفهم وآليات التطبيق، أما المنهج فثابت في أصوله وأركانه وقيمه فهي لا تتغير بتغير ظواهر الحياة المدنية وأشكالها، أما المتلقي للمنهج فلا يعني ثباتُ منهجه جمودَه، بل عليه أن يندفع للحركة الفاعلة الإيجابية متفاعلاً مع واقعه وظروفه في مساحات إطار المنهج الرحبة الثابتة حول محوره الأصيل المكين، وما أعظم ما يبثه ثبات المنهج في نفوس أصحابه من أمل وما يبعثه من رجاء في إدراك محبوباتهم وبلوغ غاياتهم، فعوامل الزمن، وعاديات الأيام، واختلاف الجغرافيا، وتعدد المناخات، لا تؤثر في وعد المنهج لهم وخططهم المنبثقة من معالجته وفهمه، وعد المنهج لهم بالنصر والتمكين والسيادة والثبات، وخططهم لبلوغ وعده من خلال فهمهم له وممارسته وعلاجه، إنَّ ميزة الثبات تضمن التناسق مع النظام الكوني العام مما يضفي استقرارًا آخر، وسعادة أخرى على معتنقي المنهج والمؤمنين به، هذا التناسق يقيهم شرور الفوضى والاضطراب ويبعد عنهم غمائم الفساد والظلام، وكلما تلا المؤمن قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[يونس: ٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا

تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة: ٥٠]، ترسَّخَ في نفسه الانتماء لهذا الدين القويم والمنهج الثابت، وثمرة هذا الرسوخ (ما نراه من تناسق المجتمع الإسلامي وقوته مدى أكثر من ألف ومئتي عامٍ، على الرغم من جميع الهزات العنيفة والهجمات الضارية والضربات القوية من أعدائه المتربصين به، وما أفلح أعداء هذا المنهج وهذه الأمة من النيل منها إلا يوم قطعوا الصلة بين المنهج الثابت وأبنائه، وعملوا على تنحيته من حياة الناس، وإحلال التصورات الغربية الهشة الضعيفة، التي لا تعرف للثبات مكانه)[1].

وإنَّ أيَّ ارتكاز على منهج غير ثابت، ولا يستند إلى أصل مكين سيكون معرضًا للاهتزاز والأرجحة المستمرة، مما سيؤدي إلى الحيرة والبلبلة والتعب، وهذا الذي يحدث في المجتمعات الغربية المنفلتة من كل أصل ثابت، والتي لا يُقيِّدُها دينٌ ولا منهج ولا تصور.

يقول الأستاذ محمد أسد: يخبرنا التاريخ أنَّ جميع الثقافات الإنسانية وجميع المدنيات أجسام عضوية تشبه الكائنات الحية، إنها تمر في جميع أدوار الحياة العضوية التي يجب أن تمر بها، إنها تولد ثم تشب وتنضج ثم يدركها البِلَى في آخر الأمر، فالثقافات كالنبات الذي يذوي ثم يستحيل ترابًا، تموت في أواخر أيامها وتفسح المجال لثقافات أخر ولدت حديثًا.

أهذه إذًا حال الإسلام؟ ربما ظهرت كذلك عند إلقاء أول نظرة سطحية، مما لا شك فيه أن الثقافة الإسلامية شهدت نهضة مجيدة وعهدًا من الازدهار ثم سكنت وركدت وأصبحت كلمة جوفاء، وها نحن اليوم نشهد انحطاطها التام وانحلالها. . .

---

(١) محمد قطب، هل نحن مسلمون؟: (ص٣١).

ولكن هل هذا كل ما في الأمر؟

إذا كنا نعتقد أن الإسلام ليس مدنيًا من المدنيات الأخر وليس نتاجًا بسيطًا لآراء البشر وجهودهم، بل هو شرعٌ سَنَّه الله لتعمل به الشعوب في كل زمان ومكان، فإن الموقف يتبدل تمامًا. وإذا كانت الثقافة الإسلامية ـ في اعتقادنا ـ نتيجة لشرع منزل فإننا حينئذٍ لا نستطيع أبدًا أن نقول أنها كسائر الثقافات خاضعة لمرور الزمن ومقيدة بقوانين الحياة العضوية، ثم إنَّ ما يظهر انحلالاً في الإسلام ليس إلا موتٌ وخلاءٌ يحلان في قلوبنا[1]. اهـ. ويبقى الإسلام هو الإسلام الذي لا يحتاج إلى تصويب أو ترميم أو عمليات إصلاح بين الحين والآخر، فهو بريء من كل هذه الشوائب التي تعرض للمناهج الأخرى؛ لأنه صنع الله تعالى، وتبقى طريقة الإنسان في تعاملاته مع الإسلام هي التي تحتاج إلى تطوير وإصلاح وتحسين.

لذا فإن من أخطر المصطلحات الدارجة اليوم مصطلح (الرجعية) الذي يحرص الغرب وبعض أتباعهم من المستغربين العرب وَسْمَ المنهج به، لإحلال (التقدمية) أو (التنوير) مكانه، تقدمية المنهج الغربي البائد المهترئ، وعندها ـ عند قبولنا لبديل عن منهج الله تعالى ـ لا نكون مضيعين لأنفسنا فحسب في تِيه المناهج الأرضية الخَرِبَة، بل نكون مضيعين للبشرية كلِّها حين نفقدها المنهج الإسلامي الثابت الذي يجب أن تفيء إليه؛ لتجد عنده الأمن والاستقرار وتحقق الآمال والرجاءات.

ثالثًا ـ الشمول:

وهي كذلك منبثقة من الخاصية الأولى وهي الربانية، والشمول نتيجة الكمال الرباني والإحاطة والإدراك الكامل للكون والحياة، وهو طابع الصناعة الربانية الأصيل.

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطريق، ترجمة عمر فروخ: (١٠٩ ـ ١١٢).

إن الإنسان المحدود بالزمان والمكان والمتحيز بالتاريخ والجغرافيا لا يستطيع أن يخرج عن إطار زمانه ومكانه وحقبته التاريخية ومساحته الجغرافية، وسيظل رغم أنفه في هذه الحدود، وسيجيء تفكيره محكومًا بها، جزئيًا، يصلح لزمان ولا يصلح لآخر، ويناسب مكاناً ويشذ في غيره.

كما أنه قصير النظر لا يحيط بالأشياء من جوانبها جميعًا، ولا يدرك ملابساتها كلها، ولا بد من زاوية خافية عليه أو أكثر؛ لذا سيكون المنهاج البشري جزئيًا وقتيًا مما يحتم عليه التغيير بين الحين والآخر، أما المنهج الإسلامي الرباني فإنه بريء من الجزئية والتحيز والارتهان للزمان والمكان، وسيكون شاملاً، يصدق فيه قول واضعه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[يس: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾[الإسراء: ١٢]، هذا الشمول في المنهج الإسلامي منبثق كذلك من صفات الله المهيمنة على الكون والحياة، والمضطلعة بالمخلوقات على اختلافها كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤]، وما يظنُّ الإنسانُ خروجَه عن حيز القدرة الربانية، وأنَّ وراءه سببًا آخر غير الله تعالى، جاء المنهج الإسلامي ليردَّه إلى الله من وراء الأسباب الظاهرة الضعيفة.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا

فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[الواقعة: ٥٧ ـ ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ١٧].

ليتأكد المسلم من شمول منهج السماء، وإحاطته لكل الأشياء خفيِّها وجليِّها ودقيقها وجليلها، وأنه نزل ليحقق مفهوم العبودية لله تعالى في أقصى حدوده وأبعد ما يمكن أن يبلغه من حياة الفرد المسلم؛ ليتحقق قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، فاستغرق المنهج الرباني كل النشاطات الإنسانية، ليطلق عليها جميعًا وصف العبادة لله تعالى، وهي غاية المنهج القويم، فليس من هدف وراء النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والتشريعات الجنائية وتشريعات الأسرة في هذا المنهج إلا تحقيق العبودية لله تعالى، قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: إن تقسيم النشاط الإنساني إلى عبادات ومعاملات مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة الفقه، ومع أنه كان المقصود به ـ في أول الأمر ـ مجرد التقسيم الفني الذي هو طابع التأليف العلمي، إلا أنه مع الأسف أنشأ فيما بعد آثارًا سيئة في التصور ـ بعد فترة ـ، آثارًا سيئة في الحياة الإسلامية كلها إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة العبادة إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله فقه العبادات، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله فقه المعاملات، وهو انحراف في التصور الإسلامي لا شك فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلها في المجتمع الإسلامي[1]. اهـ.

وهذا ما نجد القرآن يحاربه وهو يتحدث عن دقائق معاش الإنسان، كأدب

(١) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: (ص١٢٩).

الاستئذان، وتحديد البيوت التي يأكل منها بغير إذن، والمحرمات من النساء، وعندما يقرر الإرث بتفصيل تطرَّق فيه إلى تقسيم التركة على مستحقيها بنسبٍ لا تحتمل التأويل: كالنصف والثلث والربع وغيرها.

حارب القرآن الكريم تقسيم الفكر الإسلامي وعزل بعضه عن بعض تحسبًا؛ لئلا يصل هذا الفكر إلى مرحلة

(ما لله لله وما لقيصر لقيصر) خشية أن يصل إلى العَلمَنَةِ في الحياة وفصل الدين عن الدنيا. فكما تضمَّن بين دفتيه سورة (الإخلاص) والتوحيد لله تعالى، فإنه تضمن سورة (الحجرات) أو (سورة الآداب والأخلاق)[1]، وكما أن أعظم آية في القرآن الكريم تتحدث عن خصائص الله وصفاته وإحاطة علمه وقيومته وتنزهه عن كل النقائص حتى السِنة والنوم، فإن أطول آية في القرآن الكريم تقرر ضرورة حفظ الحقوق وتوثيق الديون[2]، ليقرر لنا المنهج الإسلامي شمول الفكر الديني والتصور الرباني لكل جوانب الحياة، فليس الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده في جانب التوحيد والعبادات، وما يتعلق في شؤون الآخرة والجنة والنار فقط، بل الأمر والهيمنة والسلطان لله وحده في الدنيا والآخرة، في السماوات والأرض، في عالم الغيب والشهادة، وفي كل نفَسٍ وخاطرةٍ وحركةٍ، وفي كل اتجاهٍ، وشمولُ وعظمةُ صفاتِهِ ينعكس على دينه الذي ارتضاه للناس، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الزخرف: ٨٤].

رابعا ـ التوازن:

وهذه الخصيصة لتقي الفكر البشري من الجنوح بعيدًا في فهم شمول المنهج

---

(١) الصابوني، محمد بن علي. صفوة التفاسير: (٣/ ٢٤١).

(٢) اشارة إلى آية الكرسي وآية الدين من سورة البقرة.

الإسلامي، فهو منهج شاملٌ وهو كذلك متوازنٌ وليس فيه غلبةٌ لجانبٍ على آخر، أو غلوٌّ في طرف على حساب غيره، أو تصادمٌ هنا أو هناك، وهذا ما نجده في التصورات الأرضية أو السماوية التي عبثت بها يد الإنسان.

فحين جمدت اليهودية في ماديتها، وأغرقت النصرانية في روحانيتها، وأنكر الملاحدة الخالق وعالم الآخرة، وآمنت البوذية بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم، جاء الإسلام ليقرر التوازن في تصوره للدنيا والآخرة، والجسد والروح والمادة والمعاني والغيب والشهادة، فكان منهجًا فردًا عزيزًا، قَبِلَ الخير في المناهج السابقة ثم أضاف إليها؛ فكَمَّلها من نقص، وصوَّبها من خلل، وهدم ما فيها من الباطل وأزال ما عَلِقَ من الأوهام، جاء ليقرر الحقيقة الماثلة في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[الملك: ٣]، إنْ في خلقه أو منهجه أو في كونه وأرضه وسمائه.

جاء ليقرر التوازن في كل شيء، وجعل أنموذجه البائن قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ﴾[القصص: ٧٧]، هذا التوازن الذي يشمل جوانب الإنسان جميعًا؛ الروحي والعقلي والجسدي على حد سواء، فكما لبى أشواق الروح، أطلق العنان للعقل، وأذِنَ للجسد أن يبلغ محبوباته، ولكلٍ ضوابطُه وحدودُه، ولا يجوز لأيِّها أن تطغى على غيرها، وأيُّ طغيانٍ فهو محلُّ سخط المنهج وإنكاره، وهذا ما أغضب رسول الله ﷺ يوم سمع قالةَ الثلاثة الذين تقالُّوا عبادته، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخْبِروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلِّي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله

وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[(١)]، إذًا فتوازن المنهج الإسلامي مسألة من الأهمية بحيث تكون سببًا في المفاصلة مع الآخرين، وعدم الإقرار بها واحترام كينونتها من خصائص المنهج يعتبر مبررًا كافيًا للعزل عن مجموع الأمة الإسلامية.

أما القرآن الكريم فيقرر التوازن في حياة الإنسان يوم يقرر أنه خلقه على الهيئة التي تمكنه من الخلافة في الأرض وإعمارها، مستفيدًا من تسخيرها وخضوعها لأمره؛ ليصل إلى حقيقة التوحيد والعبودية لله تعالى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾[النمل: ٦٢]، فيوم خلق الناس في أحسن تقويم، وسخر لهم ما في السماوات والأرض، فإنه يكون قد هيأهم للخلافة في الأرض؛ للوصول بكل هذه التوازنات للتوحيد والعبودية، وإلى حقيقة أنه لا إله إلا الله.

ومن صور التوازن في المنهج كذلك جمعه بين الترغيب والترهيب في دعوته وخطابه، ليقع التوازن في الضمير بين الخوف والطمع والرهبة والأنس والفزع والطمأنينة، ويسير الإنسان في حياته يقطع الطريق إلى الله ثابتَ الخطوِ مفتوحَ العين نقيَّ القلب موصولَ الأمل متجدد الرجاءات، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال تعالى مادحًا عبده زكريا وآله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]، ومن صور التوازن في هذا المنهج العظيم التوفيق بين

---

(١) البخاري، الصحيح، باب الترغيب في النكاح: (٦/ ٤٣٩).

مصـادر العلم والمعرفة، وآلة التعاطي معها لدى الإنسان وهي العقل، فحين قرر أن مصدر الهدايـة هو الإله الواحد، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ① ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[الأعلى: ١ ـ٣]، حتى العجماوات تكفَّل الشارع بهدايتها: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⑥⑧ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾[النحل: ٦٨ ـ ٦٩]، فإنه قرر أيضًا ضرورة إعمال العقل ليكون مصدرًا للمعرفة والعلم والتعامل مع الهداية الربانية، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف: ٢]، وقال تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾[البقرة: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ②⓪ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فصلت: ٥٣]، وقال تعالـى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾[سبأ: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: ٧٨]، إلى غير ذلك من الآيـات المباركة، وعليه فصُوَرُ التوازنات في المنهج الإسلامي أكثر من أن نحصرها في هذا المبحث الضيق، وإنما هذه نماذج تقرر للعقل الواعي خصيصة مهمة من خصائصه العظيمة التي تترك في النفس شعورًا بالغبطة والسعادة والفخر والاعتزاز، شعورًا ينعكس على سلوك صاحبه فينقلب فـاعلاً متفاعلاً متوازناً في نشـاطاته، على قدر فهمه لتوازن المنهج الـذي يؤمن به، مدركًا أنه من خلال هذا المنهج يمكن أن يبلغ ما يأمل ويرجو.

خامسًا ـ الواقعية:

كما ذكرنا في الفصل الثاني أن الواقعية من مقومات الأمل الراشـد والرجاء

المحمود، وأن عدم الواقعية من أسباب الآمال والرجاءات المندفعة الذميمة، فإننا هنا سنقرر حقيقة مهمة متعلقة بالمنهج القرآني والتصور الإسلامي، حقيقة أنَّ هذا المنهج واقعيٌ وأننا لم نخلص إلى ما قررناه في الفصل الثاني إلا انطلاقًا من إدراكنا لمقومات المنهج الذي منه نستمد تصوراتنا وقناعاتنا، ومن خلاله تتشكل عقولنا، ومن آفاقه نستلهم آمالنا ورجاءاتنا.

إنَّ واقعية المنهج الإسلامي تظهر في جملة علاقاته ومقرراته ـ عقب هذه العلاقات بل وقبلها ـ واستجاباته لمجموع المؤثرات المحيطة به، وطبيعة الآثار التي يتركها في جمهور المتأثرين به، ويمكن تلخيص هذه العلاقات في ثلاثة محاور: أولها: الصلة بين المنهج وبين الله تعالى المؤثر الوحيد في المنهج، وثانيًا: الكون. ثم ثالثًا: الإنسان. والأخيران هما محل التأثر وموطِنَا التفاعل والعمل.

ـ أما المحور الأول والمؤثر الوحيد في المنهج والواضعُ له فإنَّ صلة المنهج به تتلخص في اعتباره الله المتفرد بالألوهية، الذي له كل خصائص الألوهية وكمالاتها، وعظمة الرب وفوقيته، وصفات الجمال وأسماء الجلال، وكل هذه مستمدة من ذاته الأزلية بصورة تليق بعظمته، وتظهر آثارها في عالم الواقع كذلك، ويمكن لكل بصير إدراك أفعالها الواقعية، هكذا أراد المنهج أن تكون صلته بالله تعالى وهكذا أراد للعقل أن يدرك الصلة؛ لئلا يظل شاردًا في التيه والجهالة في عوالم الماوراء والميتافزيقيا، بغير بصيرة ولا بوصلة يضرب لله الأمثال، وفي كل مرحلة يعبد ربًا من صناعة عقله الشارد التائه المهتدي بخطوات الشيطان، والتي لن تنتهي بمقتفيها إلا بأمره بالسوء والفحشاء وأن يقول على الله تعالى ما لا يعلم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩].

إن خصائص الألوهية التي يدركها المنهج الإسلامي تثبت واقعيته ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٩٥ - ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤]، وقوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الشورى: ١٠ ـ ١٢]، وهكذا يدركُ المنهجُ الإسلامي الإلهَ الخالقَ واجبَ الوجودِ، يدركه من كلامه الذي صدر عنه، ومن خلقه الذي يدل عليه، ويتعرف عليه من خلال حركة الكون وما يجري فيه وفق إرادته وحكمته، وبهذه الصفات والخصائص يخاطب البشر جميعًا ويعرفهم على خالقهم تعريفًا سهلاً واقعيًا لا يجد العقل مشقة أو عنتًا في تقبله؛ لأنه ينسجم معه ويسير في ذات الاتجاه الذي يتحرك إليه في فلك واحدٍ حول محورٍ واحد.

ـ أما المحور الثاني فهو الكون، وبمثل واقعية المنهج في صلتـه بالله تعالى يتصل بالكون ويكشفه للإنسان ويعرفه له. الكون هو الوجود المحيط بالإنسان ويدركه بحواسه، ويدركه من خلال المنهج وصلته به ونظرته إليه. . .

الكون بسمائه وأرضه ونجومه وكواكبه وجبال الأرض وأشجارها وبحارها وأنهارها ومجموع الكائنات السابحة فيها أو في محيطها القريب.

لقد تعامل المنهج مع الكون بواقعية ومصداقية يمكن للإنسان أن يدركها بجهد قليل؛ لأنه يرى التطبيق العملي للنظرية التي يتلوها في ذلك المنهج، يراها واقعية صادقة كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي

ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[الرعد: ١ ـ ٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٠ ـ ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾[الحجر: ١٦ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الفرقان: ٤٥ ـ ٥٠].

ـ وكذلك المحور الأخير وهو الإنسان، فإن المنهج يدرك طبيعة التركيب المميز له ويعلم دخائله وضمائم نفسه؛ فيتعامل معه بواقعية من خلال ذلك الإدراك والعلم، يتعامل مع الإنسان من لحم ودم وأعصاب وعقل ونفس وروح، الإنسان ذي النوازع والآمال والأشواق والرغبات والمخاوف والمحذورات، الإنسان بكل أخلاقه وانفعالاته، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا

شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[الإنسان: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾[المؤمنون: ١٢ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[عبس: ١٧ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾[المعارج: ١٩ ـ ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾[هود: ٩ ـ ١١]، والكثير من الآيات التي يكشف من خلالها المنهجُ الإسلامي الإنسانَ للإنسان، ويَعرفُ له خصائصه وركائز شخصيته من غير فروض خيالية ليس لها رصيد من الواقع، الإنسانَ كما هو، لا كما يتمناه الإنسانُ بأحلامه العابثة السابحة في عالم الخيالات والسراب، ولا كما يرجوه إنسانُ القرن الواحد والعشرين من إنسان القرون اللاحقة، بعيدًا عن الإدراك لحدود طاقاته وحدود تكوينه الواقعي من لحم ودم وأعصاب وجسم وعقل وروح.

وها هو القرآن الكريم أو المنهج الإسلامي يتعامل مع الإنسان بواقعية حتى مع أرقى النماذج البشرية وأرفعها، مع النبي الكريم ﷺ ويطلب إليه أن يواجه سخف قومه وفضائية عقولهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٣]، هذه الحقيقة الساطعة الظاهرة الواقعية ردًا على مطالبهم السمجة كما حكى عنهم القرآن الكريم، ولقد أسلفنا بسط القول فيها.

إذًا فالإسـلام دين واقعي يحسن التعامل مع الواقع والأشـياء المحيطة به، المؤثرة فيه والمتأثرة به، إنه دين الحركة والعمل والنماء، دين تطابق تكاليفه للإنسان الفطرة التي فَطر عليها الإنسانَ، بحيث تعمل جميع الطاقات الإنسانية بنفس اتجاه حركة الكون وحركة المنهج المنبثق عن المُحركِ الأول والخـالق العظيم، عندها يكتب لهذه الطاقة الكامنة في الإنسان أن تكون فاعلة محركة تصنع التطور والنماء فيعمِّر الكون ويبدع فيـه، ولا يقف في وجهه تصور خـاطئ أو نظرة قاصرة؛ لأنَّ منطلقاته جميعًا واقعيةٌ مطابقةٌ لكينونة الإنسان والكون والحياة

وعندها يحقق الإنسان جميع آماله ورجاءاته.

سادسًا ـ الايجابية:

هي الثمرة الأكيدة للخصائص السابقة: الربانية والثبات والشمول والتوازن والواقعية، وأكبر دليل على إيجابية المنهج اشتماله على هذه الخصائص الجامعة لكل خير وكمال، والمانعة لكل نقص وخلل، إيجابية هذا المنهج تبرز في قدرته على تغيير واقع الكون، وواقع الناس بعد الشـر المستطير الذي انداح في الأرض وأفسدها، وهذا ما سنتحدث عن طرف منه في المبحث التالي عند حديثنا عن إفلاس المناهج الأخرى. . . المناهج الأرضية أو ذات الأصول السماوية التي لم تسلم من عبث البشر وتحريفهم.

إيجابية المنهج من خلال تعامله مع خالقٍ مدبّرٍ مُوجدٍ حيٍّ لا ينام، ولا تأخذه حتى السِنة العابرة، وكل ما في الوجود خاضع لإرادته الحرة الكاملة، ولا يقع شيء في السماوات والأرض إلا بأمره وتقديره وعلمه، ويدرك معيَّتَه كلُ أحدٍ أرخى العنان لإحساسه الصادق في تلمس آثار لطفه.

القرآن الكريم حافل بما يقرر هذه الحقيقة الباهرة، ويعرض الكثير من أدلتها

ومظاهرها في أنحاء متعددة من الكون والأحياء؛ تُظهر آثار العناية الربانية وإحاطتها، وما لهذا من آثار إيجابية تنعكس على المنهج برُمَّته، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾[الرعد: ٨ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢]، آيات باهرات تؤكد الحقيقة الباهرة، حقيقة الإيجابية في علاقة الخالق العظيم بخلائقه كلها، وأنَّ هذا المخلوق الضعيف محلُّ عنايته وتحت نظره وسمعه، وأي تشريف أعظم من هذا، وأي تفاعل يرفع قدر الإنسان ويعلي شأنه أكثر من معية الله له منذ لحظات تشكله في رحم أمه وإلى ما يتجاوز حدود الدنيا الحسيرة.

إنَّه لفرقٌ كبير بين الإنسان الذي يعتقد أنَّ ربه يهتم لشأنه ويرعاه في الدنيا

والآخرة، أو أنْ يعتقد أنَّ ربه لا يحفل به ولا يهتم لأمره، أو لا يعلم بوجوده أصلاً. . . فرق كبير بين الحالتين، وما أعظم الإحساس الذي تحرك في نفس أم المؤمنين عائشة ﵂ يوم تنزلت آيات من السماء تبرئ ساحتها وتؤكد عفتها، إحساس ملأ عليها جوانحها، فيوم عجز أَبَواها ﵄ عن الكلام في وجه رسول الله ﷺ وهو يسألها ـ والحيرة تملأ قلبه ينتظر خبر براءتها ـ قالت ﵂ وهي التي خَبُرتْ علاقة السماء بالأرض وأدركت تفاعل الأقدار مع البشر وإيجابية المنهج الإسلامي الذي تؤمن به: «فو الله ما فزعت وما باليت، قد عرفت أني بريئة وأن الله غير ظالمي»[(١)].

عائشة ﵂ كانت على ثقةٍ من إيجابية المنهج ومعية الله لها، وإيجابية علاقة الخالق بها وبكل خلائقه، غير أنها رأت نفسها أقلَّ وأدنى من أنْ يُنزِّلَ الله تعالى فيها قرآناً يُتْلَى في المساجد، فها هي تقول: «وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيَّ قرآناً يُقرأ به في المساجد ويُصلى به، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذب الله به عَنِّي؛ لما يعلم من براءتي، أو يُخبرَ خبرًا، فأما قرآن ينزل فيَّ فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك»[(٢)].

فما أعظمه من خالق يقوم على شؤون خلقه ويرعاهم حتى لقد أعلن لكل خلقه أنه قريب يسمع مناجاتِهم وخَفِيَّ قلوبِهم: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦]، ولعل قائلاً يظن أن قدر الله يحابي بيت النبوة لعظيم قدره، فجوابه أنّا شهدنا العناية الإلهية تتدخل علانية في شأن أسرة صغيرةٍ فقيرةٍ مغمورةٍ؛ لتقرر حكم الله في قضية بين امرأة وزوجها حين لم يجد رسول الله ﷺ جوابًا: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: حديث الإفك: (٣/ ٤٤).

(٢) نفس المصدر السابق.

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾[المجادلة: ١].

وكذلك الشأن مع الأعمى الفقير ابن أم مكتوم يوم عبس النبي ﷺ في وجهه، رأينا عناية الله تواسي ذلك المسكين، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[عبس: ١ ـ ١٠]، أيُّ إيجابيةٍ وتفاعلٍ وحضورٍ أكثر من هذا، فضلاً عن الأحداث الكبرى: كغزوة بدر وأحد والأحزاب والفتح وتبوك، ليشرق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ﴾[الحديد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾[البقرة: ٢٥٧]، وغيرها من الآيات المتكاثرة التي أدركها النبي ﷺ وأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فنشأت الجماعة الأولى في معية المنهج الإسلامي بل في معية وحضرة صاحب المنهج جل في علاه، يحسون بوجوده في نفوسهم وفي حياتهم وكل معاشهم، عاشوا وهم يتحسسون يد الله فوق أيديهم تبارك أعمارهم وأيامهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠]، عاشوا وهم يشعرون برقابته وسمعه وبصره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة: ٧]، عاشوا وهم يستلهمون المعية والقوة والنصرة منه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾[الحج: ٤٠]، عاشوا حياتهم وهم يستشعرون حاجتهم إلى ربهم في كل جزئياتها؛ لأنهم علموا أنَّ كلَّ شيء بفضله وأمره، ونتيجة للعلاقة الإيجابية بينهم وبينه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾[إبراهيم: ٣٤]، فكانوا يستخيرون الله في كل شيء حتى

في الملح لأن معلمهم الأول العظيم ﷺ كان يعلمهم الاستخارة كما يعلمهم سورة القرآن[١].

كل هذا ثمرة لتفاعلهم مع المنهج ومع إيجابيته، فانطلقوا في الأرض يستشعرون مسؤوليتهم نحو ربهم ودينه، ونحو الكون وأنفسهم والبشرية جميعًا، لسان حالهم: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥]، يستشعرون أنَّ وجودَهم على الأرض ما كان عبثًا وليس فلتةً عابرة، إنما هو قدر الله تعالى، الذي له غايته ومقصده.

وتصور المسلم للأمر على هذا النحو لا شك يرفع من قيمته في نظر نفسه، كما يرفع من مستوى اهتماماته، ويغير أولوياته وآماله ورجاءاته، بقدر شعوره بضخامة المسؤولية الملقاة على كاهله، والتبعة من بعدها، أي بقدر شعوره بالأمانة التي يحملها والتي ناءت بها السماوات والأرض والجبال، وسيستمر على ذلك حتى يلقى ربه وقد أدى الأمانة وأدى الشهادة ووفّى لله بحدود بشريته؛ ليبلغ من بعدُ أقصى آماله؛ فيُزَحْزَحَ عن النار مع الفائزين.

الباعث الثالث ـ إفلاس المناهج الأخرى كما يعريها القرآن الكريم:

إنَّ ترتيب هذا المبحث تاليًا لحديثي عن خصائص المنهج الإسلامي ليس من قبيل قول العرب: بضدها تتميز الأشياء. أو قولهم: لا يعرف طعم النعمة إلا من نالته يد العلة والبلاء. (ومقالة الحكيم: كم من نعمة عرفت ببلية نزلت، ونعمة جهلت بسلامة لبثت)[٢].

---

(١) البخاري، الصحيح، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى: (٤/ ٣٤٧).

(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء: (٤/ ٥٠٧).

فمنهج الله أعلى وأجل من مقايسته بالباطل، وليس إفلاس المناهج الأخرى غير الإسلام هو سبب نبوغه من بينها، وعلو شأنه؛ لأن علوَّه ذاتيٌّ؛ لِمَا أوتي من خصائص تفرَّد بها؛ فامتاز على سواه، كما أوضحنا سالفًا.

إنَّ المناهج التي صاغتها أو عبثت بها يد البشر تعاني من النقص، والمرحلية، ولكل منها جنسية بحسب موقعها الجغرافي، وليس منهج الشمال يصلح لأهل الجنوب، كما أنها مُرتهِنةٌ ومتعلقةٌ بالحقبة الزمنية التي تسن فيها، وكلما مرَّ الزمنُ بان عوارُها أكثر وحاجتُها للتعديل والتصويب؛ إذ استمدادها من البشر الناقص الضعيف الذي لن يتمخض عنه إلا ما هو أكثر نقصًا وضعفًا، لذا فصلاحية المنهج الإسلامي أقدس وأجل من أن تقارن بالمناهج البشرية، والتعجيب الكائن من المقارنة بينها لا يقل منه عند المقارنة بين الله وخلقه والمقايسة بينهم ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ فالله تعالى هو الكمال المطلق، والعظمة المطلقة، ونقص البشر وجهلهم لا يخفى على البشر أنفسهم.

لمَّا جاء منهج الله تعالى واصطدم بالجاهليات الأرضية المهترئة لم يجد عنتًا في إسدال الستار على حقبة حُكمِها، والحلول مكانها في تصورات ذوي الألباب والعقلاء من البشر، كما لم يقبل المزاوجة بينه وبينها والائتلاف معها أو التناوب على السلطة ليحكم هو مرةً ويترك الحكم لها أخرى كما أراد بعض مشركي العرب، فقال لهم المنهج صريحًا واضحًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾[الكافرون: ١ ـ ٥]، ثم قرر المفاصلة النهائية التي لا تقبل مزيد جدل: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[الكافرون: ٦][1]، لما جاء هذا المنهج إلى الأرض لم يكن البديل لها، الذي يصح أن يقال أنه أفضل

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٥٠٧).

الموجود، وليس بالإمكان أفضل مما كان، والعُوارُ خيرٌ من العمى، إذ منهج الله أعلى وأجل؛ لأنـه يستمد علوه من الله العظيم، فكان حـاله مع المناهج الأخرى كالشمس تمحو آية الليل؛ لِتظلَّ في كبد السماء مبصرةً سامقةً.

كانت البشرية من غيره كالأعمى يتخبط في التيه والوحل والظلام، ثم ما لبث أن أبصر جمـال الكون وروعته، كان المنهج كالحق الذي لا يرضى إلا بأن يبطل الباطل، قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ١٨]، وكان الإضراب في هذه الآية عن اتخاذ اللهو واللعب كما في سباقها: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ١٦ ـ ١٧]، تنزيه من الله لذاته العلية، كأنه قال: «سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب، بل من عادتنا وموجب حكمتنا واستغنائنا عن القبيح أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق. واستعار لذلك القذف والدفع تصويرًا لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه»[(١)]، وكما قـال تـعالـى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء: ٨١]، وعبَّر بقول زهق الباطل؛ أي: «اضمحل وبطل وهلك من غير مؤثر خارجي، فزهوقُه كان من ذاته، والدليل أن القرآن علَّل فقال: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾؛ أي: في نفسه وجبلته وطبعه وهذا قضاء قضاه الله تعالى من الأزل»[(٢)]، إذًا فليـس الشـأن فـي هذا المبحث أن نعقد مقارنـة بين الثرى والثريـا أو السـيف والخشب، إذ:

شـتان بـين المـاء يـشرب صـافيًا والمـاء يُـشرب بالقـذى والطحلـب

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٣/ ٢١٠).

(٢) البقاعي، نظم الدرر: (٥/ ٩٧) بتصرف يسير.

شتان بين الشمس لمَّا أشرقت والشمس حين تلفعت بالمغرب[١]

غير أنني أردت من هذا المبحث أن أصادم وأنابش العقلانيين من أدعياء الحداثة والارتماء في أحضان الآخر، إذ لخطاب العقل عندهم مقامٌ يعلو مقامَ النص والشرع، ولمثل هؤلاء في المنهج الإسلامي سَعةٌ، تسمح بحوارهم ومفاتشتهم عسى يرعَووا ويؤوبوا إلى الحق الباهر، أما المناهج الأخرى المفلسة التي سنحاكمها للعقل وللخطاب القرآني الذي يحترم العقل ويقر أحكامه، ويعتبر إعماله من أسباب بلوغ الحق؛ إذ آفاق عمله ونتائجه عند انضباطه لا تخرج عن إطار الدين والحق؛ فهو الوليد والربيب الشرعي لهما، أقول: المناهج التي سنحاكمها هي المناهج السماوية المحرفة والمناهج الشركية، أما السماوية فسنعرض لليهودية والنصرانية، وليس نصيب السماء منهما إلا كقطرة خل أدخلت في بحرٍ عميقٍ فلا تترك طعمًا أو ريحًا.

ـ فاليهودية منهج لم يكن له أثر في غيره في الجانب السياسي والاجتماعي أو الديني؛ لِمَا عاشوه من فترات اضطهاد واستبداد ونفيٍّ وجلاءٍ وعذابٍ وبلاءٍ[٢]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤]، فعامة أحوالهم كما قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ

---

(١) لم أجد أبيات الشعر منسوبة لمعين فقلت معارضًا لها:

شتان بين الشمس يسطع نورها والليل يسدل بالعمى والعتمة

شتان بين الحق يرفع صوته والزور يخرس خائبًا في ذلةِ

(٢) ارجع لكتاب الخطط للمقريزي ج١ وستجد فيه تفصيلاً واسعًا، وكذلك ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي.

عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾[آل عمران: ١١٢]، بالإضافة للبلايا التي أوقعها الله بهم لسوء خلقهم معه ومع أنبيائه، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة: ٦٠]، وكذلك العقوبة بالتيه تركت فيهم آثارًا نفسية عميقة، قال تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾[المائدة: ٢٦]، ولما أمرهم موسى ـ عليه السلام ـ بالصبر والاحتمال كان ردهم يدل على قدر معاناتهم، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾[الأعراف: ١٢٩]، يقول الندوي: فقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة، والاضطهاد الفظيع، والكبرياء القومية، والإدلال بالنسب، والجشع وشهوة المال، وتعاطي الربا، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة، وانفردوا بخصائص خُلُقيَّة كانت لهم شعارًا على تعاقب الأعصار والأجيال، منها الخنوع عند الضعف، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة، والختل والنفاق في عامة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله[1]. اهـ.

المنهج اليهودي منهج لا يصلح لسيادة الدنيا؛ لقيامه على كل هذه الأخلاق الذميمة، فهم الذين قالوا عن الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾[آل عمران: ١٨١]، وهم الذين قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾[المائدة: ٦٤]، وكَذِبُهم على الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٠]، وطلبهم رؤية الله تعالى بغير توقير أو إجلال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا

---

(١) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: (ص٣٨) وينصح بقراءة كتاب (إفساد اليهود كما جاء في القرآن والتوراة والإنجيل) للدكتور محمد السنباطي.

جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٥٣]، وكذلك سوء أدبهم مع أنبياء الله تعالى، وتكذيبهم فضلاً عن محاربتهم وقتلهم بغير وجه حق: ﴿كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[البقرة: ٦١]، وجمع الله عدداً من جرائمهم في سورة النساء، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[النساء: ١٥٥ ـ ١٥٧]، بالإضافة إلى محاربتهم لرسول الله ﷺ في الأحزاب وخيبر، ومحاولة قتله أكثر من مرة بالسم والصخرة وغيرها، وليس هذا مع الأنبياء والمرسلين فقط، بل مع النصارى كذلك؛ لأن اليهود لا دين لهم غير المصلحة والمنافع، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[البقرة: ١١٣]، فهذه الأمة بهذا المنهج ليست مؤهلة لقيادة الدنيا وسيادة الناس، ومعرفة المسلم بحقيقة هذا المنهج تزيده تمسكًا بمنهجه الحق وأملاً به، وأنه محل رجاءاته وأحلامه.

ـ أما النصرانية فشقيقة اليهودية في إفلاسها وبعدها عن الحق، يقول أبو الحسن الندوي: لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان بحيث تقوم عليه حضارة أو تسير في ضوئه دولة، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط، فجاء (بولص) فطمس نورها وطَعَّمَها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها، والوثنية التي نشأ عليها، وقضى قسطنطين على البقية الباقية حتى أصبحت النصرانية مزيجًا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية، اضمحلت في جنبها

تعاليم المسيح ـ عليه السلام ـ[1]. اهـ.

ولقد عرّى القرآن الكريم النصرانية وبيَّن فسادها وبطلانها في مناسبات عديدة، فهم الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة، ولا أعتقد أنهم يفهمون معنى هذه العبارة ـ إن كان لها معنًى على الحقيقة ـ وما هو مقصودها وكيف يكون تطبيقها، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[المائدة: ٧٣]، وهم الذين قالوا بالناسوتية واللاهوتية المجتمعتان في شخص عيسى ـ عليه السلام ـ لأنه ولد لأمٍ من غير أب، ونسوا أن آدم ـ عليه السلام ـ خلق بغير أب وبغير أم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[النساء: ١٧١]، وعلى الصعيد الاجتماعي بلغت الدولة النصرانية انحطاطًا كبيرًا حتى ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، «يقول جيبون: وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أُمَمُ العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً»[2].

---

(١) المصدر السابق: (ص٣٢)، وللاستزادة ينصح بكتاب (الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية) لجونثان ريلي، ترجمة محمد فتحي الشاعر و(موسوعة الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم) ليوسف العاصي الطويل.

(٢) علي بن نايف الشحود، الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل: (ص٣٤)، =

ولئن وصف القرآن الكريم في سورة (الفاتحة) اليهود بالمغضوب عليهم، فإنه وصف النصارى بالضالين؛ لأنهم يسيرون على غير هدى ولا بصيرة؛ ولأنهم وقعوا فريسةً لليهود الذين عبثوا بهم وبدينهم على يد (بولص) حتى وصف الله النصارى بالجهل وعدم العقل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨]، ثم وصف لنا القرآن شيئًا من كيدهم وسوء طبعهم، فقال تعالى: ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[آل عمران: ٦٩ ـ ٧٤]، لقد فعلت النصرانية الأفاعيل والسوء، يقول الدكتور (جوستاف لوبون): لقد أكرهت الإمبراطورية الرومانية مصر على انتحال النصرانية، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينشلها منه سوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحًا للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية وأنهكها استبداد

= جيبون: مؤرخ انجليزي معاصر عرف بالإنصاف غالبًا.

الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين[(١)]. اهـ.

ـ أما المنهج الأشد إسفافًا وانحطاطًا فهو المنهج الجاهلي الشركي، منهج المشركين الذين إن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى يسألهم مستنكرًا عليهم: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[المؤمنون: ٨٤ ـ ٩٠]، ثم لما سمع اعترافاتهم بألسنتهم قرر الحقيقة الحاسمة التي لا يجب أن تغيب عن عاقل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون: ٩١ ـ ٩٢]، ثم إذا قيل لهم ما عبادتكم هذه الأوثان؟ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: ٣]، ثم ردَّ القرآن على زعمهم الشرك بقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر: (ص٣٣٦).

فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[الأنبياء: ٢١ ـ ٢٤]، ولقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يعترف بجاهلية قومه وسفههم، فقال: يا رسول الله! إنا كنا أهل جاهلية وعبادة أوثان، فكنا نقتل الأولاد، وكانت عندي بنت لي، فلما أجابت عبادة الأوثان، وكانت مسرورة بدعائي إذا دعوتها، فدعوتها يوما فاتبعتني، فمررت حتى أتيت بئرًا من أهلي غير بعيد، فأخذت بيدها فرَدَّيْتُ بها في البئر، وكان آخر عهدي بها أن تقول: يا أبتاه يا أبتاه. فبكى رسول الله ﷺ حتى وكف دمع عينيه، فقال له رجل من جلساء رسول الله ﷺ: أَحْزَنْتَ رسول الله. فقال له: «كف، فإنه يسأل عما أهمه». ثم قال له: «أعد عليَّ حديثك». فأعاده، فبكى حتى وكف الدمع من عينيه على لحيته، ثم قال له: «إن الله قد وضع عن الجاهلية ما عملوا، فاستأنف عملك»[1].

هـذه هي أهم المناهج التي كانت سائدة في الأرض بالإضافة للمجوسية والبوذية وغيرها، وكلها في الفساد شَرِكَة، والنظر فيها وتقصي أحوالها من أعظم ما يزيد المسلم ثقة بمنهجه، وأملاً ببلوغه مراده من خلاله، بل من عدل هذا المنهج ومن ثقته بنفسه قال ما لم يقل به أي منهج آخر، وتحدَّى بطريقة لم يسبق لها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: ٦٢]، وأعاد التحدي في سورة المائدة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[المائدة: ٦٩]،

---

(١) الدارمي، أبو عبدالله بن عبد الرحمن (ت٢٥٥هـ). السنن، باب: ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي ﷺ من الجهل والضلالة: (١/ ٨) قال الألباني: صحيح، ويشهد له حديث «مَنْ أَحْسَنَ في الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام، أخذ بالأول والآخر»، رواه البخاري، باب: إثم من أشرك بالله وعقوبته في الدنيا: (٤/ ٢٣٩)، ومسلم، باب: هل يؤخذ بأعمال الجاهلية: (١/ ٣٠٢).

بل لقد وَسَّع التحدي في سورة (الحج) ليشمل المجوس والذين أشركوا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[الحج: ١٧]، غير أنَّهم باعترافاتهم يؤكدون سَبْقَ المنهج الإسلامي وعُلْوِيَّتَه وفوزَه بالتحدي الكبير في سباق الصلاحية في حكم الأرض والناس، فعن ابن إسحاق قال: (كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فَواقًا عند اللقاء، فقال هرقل وهو على أنطاكية لما قدمت الروم منهزمةً، قال لهم: أخبروني ويلكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم؛ أليسوا هم بشرًا مثلكم؟! قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنَّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يرضي الله ﷻ، ونفسد في الأرض. قال: أنت صدقتني)[1]. ولندرك الفرق بين الإسلام وغيره فلننظر فيما يلي:

مقارنة بين حال المرأة في الإسلام وفي المناهج الأخرى:

ولو أننا عقدنا مقارنة سريعةً بين طرائق المناهج جميعًا في التعامل مع المرأة وحقوقها، سنجد أسبقية للمنهج الإسلامي لا ينازعه فيها أي منهج، نأخذ قضية المرأة كأنموذج على صلاحية الإسلام وإفلاس غيره.

أما عند اليهود فهم يعتقدون أن المرأة لعنة لأنها أغْوَت آدم، وقد جاء في

---

(١) الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد القاضي المالكي (ت٢٧٦هـ)، المجالسة وجواهر العلم، تحقيق مشهور حسن: (٤/ ٩١).

التوراة: «المرأة أمرُّ من الموت وإن الصالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحدًا بين ألفٍ وجدتُ، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد».

وكانت عند بعض طوائف اليهود تعتبر في مرتبة الخادم، ولأبيها الحق في أن يبيعها قاصرة، وما كانت ترث إلا إذا لم يكن لأبيها ذريَّةٌ من الذكور.

أما عند المسيحيين فقد هالهم ما رأوا من فسادٍ وانحلالٍ في المجتمع الروماني وانتشارٍ للفواحش والمنكرات؛ فاعتبروا المرأة هي المسؤولة عن هذا كله؛ لأنها كانت تخرج إلى المجتمعات وتتمتع بما تشاء من اللهو، وتختلط بمن تشاء من الرجال وكما تشاء، فقرروا أن الزواج دنس يجب الابتعاد عنه، وأن العزب أكرم عند الله من المتزوج، وأعلنوا أنها باب للشيطان، قال (القديس ترتوليان): إنها مدخلٌ الشيطان إلى نفس الإنسان، ناقضةٌ لنواميس الله، مشوهةٌ لصورة الله أي الرجل. اهـ. وقال (القديس سوستام): إنها شرٌّ لابد منه، وآفةٌ مرغوب فيها، وخطرٌ على الأسرة والبيت، ومحبوبةٌ فتاكة ومصيبةٌ مطلية مموهة. اهـ.

وفي القرن الخامس اجتمع مجمع (ماكون) للبحث في مسألة: هل المرأة مجرد جسم لا روح فيه أم لها روح؟. ومن الطريف أن نذكر أن القانون البريطاني حتى عام (١٨٠٥م) كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته وقد حدد ثمن الزوجة بستة بنسات.

أما عند العرب المشركين فإن المرأة مهضومةُ الحقوق فليس لها حق في الإرث، وليس لها أيُّ حقٍ على زوجها، وليس للطلاق عددٌ محدود ولا لتعدد الزوجات حدٌّ معين، ولم يكن عندهم نظام يمنع تمكين الزوج من النكاية بها، ولم يكن لها الحق في اختيار زوجها، وكان الابن الأكبر يرث زوجات أبيه، وكانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى وكانوا يئدونها وهي صغيرة.

أما عند الهنود فلم يكن للمرأة حقٌ في الحياة بعد وفاة زوجها، بل يجب أن تموت يوم موت زوجها، وأن تحرق معه وهي حية على موقد واحد، واستمرت هذه العادة حتى القرن السابع عشر حيث أبطلت على كره من رجال الدين الهنود، وكانت تقدم قرباناً للآلهة لترضى عنهم وتمطر لهم وتأتيهم بالأرزاق، وجاء في شرائع الهندوس: ليس الصبرُ المقدر والريح والموت والجحيم والسمُّ والأفاعي والنار أسوأَ من المرأة.

وفي شريعة (حمورابي) كانت المرأة تحسب في عداد الماشية المملوكة، حتى أن من قتل بنتًا لرجل كان عليه أن يسلم ابنته لغريمه ليقتلها أو يتملكها، ولم تكن المرأة عند الفرس واليونان والرومان أحسن حالاً[(١)].

أما في المنهج الإسلامي فإن مبادئَ الإسلام المتعلقةَ بالمرأةِ عظيمةٌ تؤكد صلاحيته لحكم الأرض وتتلخص هذه المبادئ فيما يلي:

١ ـ أن الرجل والمرأة سواءٌ في الإنسانية، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[النساء: ١]، ويقول الرسول الكريم ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[(٢)].

٢ ـ دفع عنها اللعنة التي ألصقها بها اليهود بحجة أنها السبب في خروج آدم من الجنة، وبيّن أن المسؤولية تقع عليهما معًا، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ

---

(١) هذا الملخص عن بعض أحوال المرأة في هذه المناهج من كتاب المرأة بين الفقه والقانون لمصطفى السباعي: (ص١٥ ـ ٢٤) بتصرف يسير.

(٢) الترمذي، السنن، باب: الرجل يجد البلة في منامه: (١/ ٢٩٩) صححه الألباني في الصحيحة: (١/ ١٧٧).

أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[الأعراف: ٢٠ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة: ٣٦]، وعند حديث القرآن عن التوبة بيّن أنها كانت منهما معًا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

٣ ـ أنها أهل للتَّديُّن والعبادة ودخول الجنة إن أحسنت، وإلا فالنار، حالها كحال الرجل، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

٤ ـ حارب التشاؤم بها والحزن لميلادها كما كانت تفعل العرب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل: ٥٨ ـ ٥٩].

٥ ـ حرَّمَ وأْدَها وشنَّع أشدَّ التشنيع على ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير: ٨ ـ ٩]، وقال: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[النحل: ٥٩].

٦ ـ حث على حسنِ تربيتها وتعليمها واعتبرهما من أعظم الأعمال الصالحة، قال الرسول الكريم ﷺ: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو ابنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة»(١).

٧ ـ أعطاها حق الإرث زوجـةً كانت أو بنتًا، كبيرةً أو صغيرةً، بل حتى لو

---

(١) الترمذي، السنن، باب: ما جاء في النفقة على البنات: (٧/ ١٥٠) قال الألباني: صحيح لغيره، صحيح وضعيف الترمذي: (٤/ ٤١٦).

كانت حَملاً في بطن أمها، قال تعالى: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[النساء: ٧].

٨ ـ نظَّم حقوق الزوجين وجعل للزوجة حقوقًا كما أنَّ عليها واجبات، ونهى الرجل عن الاستبداد والظلم، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾[البقرة: ٢٢٨].

٩ ـ نظم قضية الطلاق بما يمنع تعسف الرجل فيه، واستبداده في أمره فجعل له حدًا لا يتجاوزه وهو الثلاث، وجعل له وقتًا محدوداً، وجعل للزوجة حق الخلع كذلك، ضمن شروط وضوابط.

١٠ ـ حدَّ من تعدد الزوجات فجعله أربعًا، وقد كان عند العرب وعند غيرهم من الأمم التي تبيح التعدد غير مقيد بعدد معين.

١١ ـ جعل للمرأة أهلية كاملة في التملك وإقامة العقود وغيرها[1].

وبعد هذا الاستعراض نجد الفرق الكبير بين المنهج الإسلامي وغيره، وتفوقه عليها مجتمعة، وأحقيته بالسيادة والحكم؛ لما يحقق من سعادة البشرية وخيرها في الدنيا والآخرة، واعتقاد المسلم لهذه القضية يعطيه مزيدًا من الشعور بأحقيته وأفضليته على سائر الخلق ممن لا يدينون لهذا المنهج بالتبعية والخضوع، مما يزيد أمله ببلوغ مراداته، ويُعظِّمُ رجاءَه بتحقيق محبوباته العاجلة والآجلة؛ لأن الذي فرض عليه هذا المنهج العظيم جل في علاه هو ذاته الذي وعده بردِّه إلى معاده الذي خلقه لأجله من السيادة في الأرض والخلافة فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[القصص: ٨٥]، وسيفي بوعده، وما فَتْحُ مكة إلا شاهد ودليل.

---

(١) من كتابَيْ: مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون: (ص٢٩ ـ ٣٠) والبهي الخولي، الإسلام والمرأة المعاصرة: (ص١١ ـ ١٣).

الباعث الرابع ـ أسماء الله الحسنى جلَّ وعزَّ:

إنَّ من أعظم بواعث الأمل والرجاء في القرآن الكريم ما يجده التالي له من أسماء ربه الكريم، وصفاته الكريمة، المنتشرة والموزعة في معظم جنباته، حتى لا تكاد تخلو صفحة بله آية من ذكر الذات العلية بالاسم الجامع المهيب (الله) أو بغيره من أسمائه وصفاته العظيمة الأخرى.

صفات الجلال وأسماء الكمال التي استأثر الله تعالى بها وانفرد، توزعت في الكتاب الكريم على نسق من البلاغة فوق إدراك البشر وإحاطتهم، ولكثرتها وتكررها قد يظن غير البصير أنها مبعثٌ للسآمة والملل، حال ما يصوغه الشعراء والأدباء، غير أنها خالفت ما عرفه البشر، وباينت ما ألفه الناس من الشعر والنثر، حيث تنزلت في الآي الحكيم في مواضعها متمكنةً راسخةً وإن ظهرت على نموذج ما يُعرف بالتكرار في سائر الكلام، إلا أنها جاءت كالماء العذب على العطش، وليس يغني عن شرب اليوم الشرب في الأمس، ولابد لكل ساعةِ ظمأ من غرفة للإرواء.

جاءت كحبل النجاة يمتد للمعوزين المحاويج، فالمذنب من العباد يجد ربًا غفورًا رحيمًا عفوًا، والمظلوم المُنكسر يجد ربًا حقًا عدلاً حكمًا وليًا نصيرًا، والفقير المُعدم سيجد رازقًا برًا حسيبًا كفيلاً وكيلاً، والمستضعف المقهور سيجد قويًا جبارًا عزيزًا قديرًا والمتحير المتشكك سيجد عليمًا حكيمًا خبيرًا وهكذا سيجد العباد من أسماء ربهم وصفاته ما يناسب حاجاتهم، وينشلهم عند ضعفهم وعوزهم، وكذلك الفطرة اقتضت أن تلجأ النفوس إلى قوة عليا عند اضطرارها، وتطلب من غني حال فقرها، وتسأل الخلاص من رب قدير عزيز إذا أراد غشوم إذلالها، وهذا ما نص عليه ذات القرآن الكريم آمرًا المؤمنين: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]؛

أي: ادعوه بما يناسب أحوالكم ويلائم ظروفكم من أسمائه التي وسعت كل الكمالات، فبمثلها ينبغي أن تتشبثوا وتستغيثوا.

ولما كان واقعُ البشر محدوداً، وعلمُهم محدوداً، وأحوالُهم في الدنيا محدودةً، تعرف الله عليهم ببعض أسمائه وصفاته التي تلزمهم في دنياهم المحدودة، واستأثر تعالى بالباقي مما يفوق إدراك البشر، مما ستكون الحاجة له في وقت آخر كيوم القيامة مثلاً حين يسجدُ النبي الكريم ﷺ تحت العرش فيفتحُ الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبله، ثم يقال: «يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع»[1]. وتلك المحامد أو ما ذكره النبي ﷺ من حسن الثناء على ربه كما قال كثير من أهل العلم[2]: هي أسماء من أسماء الله تعالى لم يعلّمها أحدًا من قبل، يعلمها لنبيه ﷺ في ذلك المقام المهيب ليدعوه بها فيستجيبَ له.

وهذا ما يصدقه حديث رسولنا الكريم ﷺ الذي أورده ابن القيم مستدلاً لمذهبه حين قال: الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحدُّ بعدد؛ فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك». فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمّى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده، وقسم استأثر به في علم غيبه فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه، ولهذا قال: «استأثرت به»؛ أي: انفردت بعلمه[3]. اهـ.

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: قوله ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[الإسراء: ٣]: (٤/ ١٧٥).

(٢) منهم ابن قيم الجوزية.

(٣) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: (١/ ١٧١)، والحديث أخرجه أحمد في مسنده: (٨/ ٦٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (١/ ٣٨٣).

ومن فقه الحديث ـ أي: حـديث السجود تحت العرش ـ التضرع لله تعالى بالثناء الحسن، وأحسنه أسماء الله تعالى وصفاته التي ارتضاها لنفسه؛ إذ هي سبيل بلوغ المراد وتحقيق المأمول، ولا يَرُدُّ الله تعالى عبدًا سأله بها، وهذه إحدى حِكَمِ تكرار الأسماء والصفات في القرآن الكريم. . . تربية النفوس المؤمنة على التعلق بحبال الله تعالى من جهة محبوباته، وأنموذج آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ شاهد حيٌّ على الأثر البليغ للأسماء عندما يتفاعل العبد معها، فلما أكلا من الشجرة وبدت لهما سـوآتهما جـاد الله تعالـى عليهما بكلمات كـانت بلسمًا لدائهما، وعونًـا في مصابهما، وغفراناً لذنبهما، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٣٧]، فكانت الكلمات، وكان التفاعل منهما مع اسم الله التواب واسمه الرحيم واسمه الغفور، وكانت النجدة من الأسماء والتجاوب مع حالة آدم وزوجه، فعملت عملها وتحققت التوبـة والرحمة والمغفرة من صاحب الأسـماء والصفات مع عبديه النسيَّيْنِ لمَّا انفلتت ألسنتهما بالكلمات التي ضمت سؤال الله ببعض كمالات أسمائه وآثارها: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣]، فسـألا ربهما أن يتوب ويرحم، سألا ربهما بأسمائه التي تناسب حالهما فجاءهم الرد ممن يتوب ويغفر ويرحم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٣٨].

ولذات الأمر نجد التوفيق يغـادر أهل النار وأهل المعصية، البُعداء عن الله تعالى وأسمائه وصفاته يوم يكونون أحوج شيء إليها ولفعلها، فَيُعمي الله بصائرهم عن ندائه بأسمائه، وعن الاستغاثة بصفاته؛ لأنهم تغافلوا وتعاموا عن التفاعل معها فـي زمن الإمكان، قال تعالى حكايـةً لحالهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾[غافر: ٤٩]، فانظر سوءَ أدبهم مع ربهم حتى

وهم في ذلتهم التي هم فيها وهوانهم ما قالوا: ربنا، ولم يستحضروا أيًا من أسمائه وصفاته.

وقال تعالى كذلك عنهم: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[الزخرف: ٧٧]، ودقق النظر فلم يقولوا: (ربنا) هنا أيضًا. ويوم اعترفوا بربوبيته تعالى غفلوا عن أسمائه وصفاته التي يحب أن يُدْعَى بها كما أمر: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]، فقالوا: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾[المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧]، وكان يتوقع منهم الضراعة إلى الله تعالى ببعض أسمائه وصفاته التي يقتضيها حالهم كالرحمن أو الرحيم أو التواب أو العفو، لكن صدق فيهم قول ربنا جلَّ في علاه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[طه: ١٢٦].

وحتى يدربنا النبي الكريم ﷺ على إحياء أسماء الله تعالى في حياتنا؛ لنشهد بركاتها في الدنيا والآخرة؛ فإنه قال كما ثبت في الصحيح: «إن لله تسعًا وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة»(١).

قال النووي: وأما قوله ﷺ: «من أحصاها دخل الجنة» فاختلفوا في المراد بإحصائها؛ فقال البخاري وغيره من المحققين: معناه حفظها. وهذا هو الأظهر لأنه جاء مفسرًا في الرواية الأخرى: «من حفظها»، وقيل: أحصاها: عدَّها في الدعاء بها، وقيل: أطاقها؛ أي: أحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدَّق بمعانيها، وقيل: معناه: العمل بها والطاعة بكل اسمها، والإيمان لا يقتضي عملاً، وقال بعضهم المراد حفظ القرآن وتلاوته كله لأنه مستوف لها، وهو ضعيف،

---

(١) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب: في أسماء الله تعالى وفضل إحصائها: (٥/ ١٧٢).

والصحيح الأول[١]. اهـ.

فالإحصاء: هو الحفظ. قال ابن منظور في (اللسان): الإحصاء: العد والحفظ، وأحصيت الشيء: عددته، وأحصى الشيء: أحاط به[٢]. اهـ. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[المجادلة: ٦]، قال أبو السعود: أي: لم يَفُتْهُ منه شيء[٣]. اهـ. وجعْلُهُ النسيانَ مقابلَ الإحصاءِ دليل كونه الحفظ والتعداد، وعليه فالإحصاء المطلوب ابتداءً هو حفظ أسماء الله الحسنى وصفاته العلا؛ لتجري في دم المؤمن وعلى قلبه ولسانه، وليكون من بعد التفاعل معها واستشعار معيَّتها وخيرها، وما أجمل ما أشار إليه ابن القيم في بيان مدلول الإحصاء، فقال: مراتب إحصاء أسمائه التي مَنْ أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة ومدار النجاة والفلاح ثلاثة:

المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها.

المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها.

المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]، وهو مرتبتان: إحداهما: دعاء ثناء وعبادة. والثاني: دعاء طلب ومسألة، فلا يُثْنَى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكذلك لا يُسأل إلا بها، فلا يُقال: يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني، بل يُسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيًا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلاً إليه بذلك الاسم، ومَنْ

---

(١) النووي. أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني (ت٦٧٦هـ)، شرح صحيح مسلم (٥/ ١٧).

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (٦/ ١٨٤).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٦/ ٢٨٨).

تأمَّل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجدها مطابقة لهذا[١]. اهـ.

أمَّا من لا يحسن هذا الفن على التحقيق، وإدارة الأسماء في مداراتها بحسب أحواله ومقتضياتها؛ فيسعه قول الله تبارك: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[الإسراء: ١١٠]، فلا فرق بين دعاء المسلم ربه باسمه الله أو باسمه الرحمن أو باسمه الكريم؛ فإنه ذو الأسماء الحسنى كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر: ٢٤].

وما كان هذا إلا لربط المسلم بأسماء ربه وصفاته، وليتحقق معنى التعلق بها وطلب الخير من جهتها لا من جهة الأسباب والأغيار، ويوم طلب يوسف ـ عليه السلام ـ الخلاص من السجن من جهة المَلِك لبث فيه بضع سنين، إذ الله محل الأمل والرجاء، وأسماؤه عين ذاته الكاملة، «وأسماؤه تدل على صفاته لا كما زعمت المعتزلة فقالوا سميع بلا سمع وبصير بلا بصر، وبذا أثبتوا الذات فقط وجعلوا أسماء الله الدالة عليها أسماء فارغة من الأوصاف؛ أي: أسماء بلا مسمى، ومعلوم من مذهب السلف الصالح أن أسماء الله في دلالتها لا تشبه أسماء المخلوقين في دلالتها، فقد يسمى الإنسان سعيدًا وهو حزين، أما رب العزة والجلال فهو الغني الذي يتصف بالغنى لا الفقر، وهو القوي الذي يتصف بالقوة لا الضعف، وهو السميع الذي يتصف بالسمع تعالى الله عن ضدها، وهكذا في سائر الأسماء والصفات ولهذا كانت أسماؤه عظمى وحسنى ولا تكون عظمى وحسنى بغير ذلك»[٢].

---

(١) ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد: (١/ ١٧١).

(٢) محمود عبد الرازق الرضواني، أسماء الله الحسنى: (١/ ٣١).

ولهذا نجد النبي ﷺ تعلق بالأسماء والصفات وكان ينادي بها ويتضرع بجاهها ويُعَلِّم أصحابه ذلك كما في حديث أنس بن مالك، أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل أعطى»[1].

وكانت هيئة الركوع والسجود وهي الذلة في أعظم صورها لله تعالى في أحب عبادة له وهي الصلاة مَحَلَّيْن للتسبيح بأسماء الله العلية والعظمى؛ لتزيد توثيق الصلة بها والاستشعار بحميمية الركون إليها؛ لأن الأفعال الصادرة عنها كاملة بقدر كمالها... الأفعال التي يرقبها المؤمن في حياته بشغف وشوق وحب ولهفة وانتظار، الأفعال التي تغير حالته من الشقاء إلى السعادة، ومن المرض إلى الصحة، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن الضعف إلى القوة، الأفعال التي تجعل الفرق في حياة الإنسان قبل وجودها فيها وبعدها كالفرق بين النار والجنة، «لأن أفعال الله صادرة عن أسمائه وصفاته بعكس أسماء المخلوقين فهي صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالى أفعاله من كماله، والمخلوق كماله من أفعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملاً فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كَمُلَ ففعل، والمخلوق فعل فَكَمُل الكمال اللائق به»[2].

إدراك القرآن الكريم لهذه الحقائق الماسَّة جعله يحرص على إيجاد الصلة بين التالي له وبين أسماء الله تعالى وصفاته العلية؛ لقدرتها على تحريك مواجيدَ في

---

(١) أبو داوود، السنن، كتاب الصلاة، باب: الدعاء (٢/ ٧٩) وصححه الألباني وانظر: في الصحيحة: (١/ ٢٧٩).

(٢) ابن القيم، بدائع الفوائد: (١/ ١٦٩).

نفس الإنسان، وإيجاد معارف لم تكن لتتحرك أو توجد بغيرها؛ لأنها أصلٌ للخير لا ينضب كذات الله ﷻ، وحيثما أدرتها في كتاب الله نفعت ورفعت، وأضافت قيمة غائبة لمن يتلوها لن يُوجِدَها شيءٌ سواها. وسندرس ثلاثة نماذج تظهر قيمة الأسماء والصفات في حياة المسلم.

ـ بعض أسماء الله تعالى في سورة الأنفال:

تظهر الأسماء والصفات في القرآن الكريم في مواضعها متمكنة راسخة متفاعلة في أوقات العوز لها، وعند مسيس الحاجة لخيرها؛ لتكون للملهوفين طوق أمان وحبل نجاة، وما سورةُ (الأنفال) النازلةُ للحديث عن يوم بدر إلا شاهدٌ ودليلٌ، فيوم ملأ الخوف قلوب أصحاب رسول الله ﷺ كأنهم يساقون إلى أعواد المشانق وبريق المقاصل وهم ينظرون بعين المترقِّب الخائف المرعوب، امتدت إليهم يد الأسماء القادرة أملاً وبلسمًا، فليس يُعينُهم في محنتهم إلا العزيز المتفرد، ولا يُقدِّر لهم النجاة بعد التفاف خيوط الموت حول أعناقهم إلا الحكيم المُدبِّر، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٩ ـ ١٠]، قال ابن عاشور: فصاغ الصفتين العَلِيَّتين في صيغة النعت، وجعلهما في هذه الآية في صيغة الخبر المؤكد إذ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فنزَّل المخاطبين منزلة من يتردد في أنه تعالى موصوف بهاتين الصفتين: وهما العزة المقتضية أنه إذا وعد بالنصر لم يعجزه شيء. والحكمة، فما يصدر من جانبه غوص الأفهام في تبيين مقتضاه، فكيف لا يهتدون إلى أن الله لمَّا وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين وقد فاتتهم العير أن ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير[1]. اهـ.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٦/ ٩٠).

فالعزيز الحكيم هو محل الآمال، ومن شموس أسمائه انفهقت بشائر النصر والتمكين، فضلاً عن النجاة من الموت المحتوم؛ «لأنه لا يُغالب في حكمه ولا ينازع في أقضيته ويفعل كلّ ما يفعل حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، والجملة ـ أي: جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ـ تعليل لما قبلها، متضمن للإشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحِكَم البالغة»[1].

ومما يلاحظ في السورة أن الأسماء والصفات الكريمة للذات الكريمة لم تظهر من أول السورة إلا في هذا الموضع في الآية العاشرة منها[2]، وكأن دورها وفعلها يقتضي عدم ظهورها إذ النفوسُ مطمئنةٌ ساكنةٌ والإيقاع هادئ مسترسل، حتى إذا ما انأزم الحال واشتد، وبارت حيل الناس، وانقطعت أسبابهم، وبان عُوار إنسانيتهم الضعيفة، ظهرت كالمنقذ لهم والمخلص؛ عسى ينعتقَ الإنسان من تعلقه بالأسباب؛ فتتخلص عقيدته من كل شائبة يوم يدرك أنه لا منجى له من الله إلا إليه، فيتحقق من أسرار لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنوار لا إله إلا الله، ولتستقر في قلبه بركات قولة إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ في كربه: حسبي الله ونعم الوكيل[3].

لذلك نجد أنها أعادت الكرة بعد أن غابت طويلاً عن إيقاع السورة لتظهر من جديد في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال: ١٧]،

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٣/ ١٠١).

(٢) إذا قمنا باستثناء اسم (الله) و(الرب) على اعتبار أنهما أشهر علمين للذات العلية والقصد من الكلام سواهما، إسذ هما الأصل وسائر الصفات وإن كانت أزلية أصيلة إلا أنها كالمتفرعة عن هذين الأصلين، ودليل ذلك أن علماء التوحيد قسموه إلى توحيد الألوهية والربوبية، والأسماء والصفات.

(٣) البخاري، الصحيح، باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾: (٣/ ٢٣١).

حيث روي أنهم لما انصرفوا من المعركة غالبين غانمين أقبلوا يتفاخرون ويقولون: قتلتُ وأسرتُ وفعلتُ وتركتُ فنزلت[١]. وعن حكيم بن حزام قال: «لما كان يوم بدر أُمر رسول الله ﷺ فأخذ كفًّا من الحصباء فاستقبلنا بها وقال: «شاهت الوجوه». فانهزمنا، فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٢]، والجمع بين الروايتين لا يتعذر إذ الداعي واحد، وهو إثبات الفاعلية لله تعالى وعجز أسباب البشر، والمهم هو أن الأسماء ظهرت هنا لأنها قضيةٌ حقيقة بالتوقف عندها، وأن تتفاعل الأسماء معها، إنها مسألة وازنةٌ جليلةٌ... مسألة التوكل على الله تعالى والانخلاع من كل حول وقوة إلا حولَ اللهِ تعالى وقوتَه، إنها قضية العبودية لله بأجمعها، ولأنها في دقتها ـ أقصد الأنا والإعجاب بالذات، ونكران فضل الله تعالى ـ بحيث تسري في القلب كالطيف الخافت وتفعل فعلها المفسد فيه، الذي يأتي على التوحيد فيهدمه، وهو غاية الخلق والوجود، أظهر من أسمائه ما يُلائم المقام فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، سميع لما يختلج في قلوبكم، كما سَمِعَكم يوم كنتم تستغيثون فاستجاب لكم، قال سيد قطب: يسمع استغاثتكم، ويعلم حالكم، ويجعلكم ستارًا لقدرته متى علم منكم الخلوص له، ويعطيكم النصر والأجر كما أعطاكم هذا وهذا يوم بدر[٣]. اهـ.

ثم غابت الأسماء والصفات كرةً أخرى غيابًا أطول؛ لتبرز من جديد في سياق الحديث عن القتال بشيء من التفصيل، والأمر به، ووصف المعركة وأرضها، لتظهر

---

(١) أبو حيان، علي بن محمد بن العباس التوحيدي (ت٤٠٠هـ). البحر المحيط: (٤/ ٤٧١)، أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٣/ ١٠٦)، والبيضاوي: (١/ ٣٧٥).

(٢) الطبراني، المعجم الكبير: (٣/ ٣٣٥)، صححه الألباني في مشكاة المصابيح: (٣/ ٢٨١) من حديث سلمة بن الأكوع ﷺ.

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٣/ ٣٨١).

من جديد فاعليتها في المواقف الحاسمة الفاصلة: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾[الأنفال: ٣٩ـ ٤٠]، ليظهر اسم الله البصير والمولى والنصير، وأي شيء يحتاج المقاتل في معركته غير هذه الأسماء وآثارها وأفعالها ليكون مستقرَ النفسِ هادئَ البال، متيقناً من التمكين والانتصار وتحقيق الآمال والرجاءات.

ثم ظهرت في ذات السياق وهو يتحدث عن أرض المعركة وزمانها، وأن هذا كله وغيره من عناصر المعركة كان تحت عين الله وسمعه وبصره وعلمه: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنفال: ٤٢ ـ ٤٣]، فيعود من جديد اسم الله السميع والعليم، السميع لهمسات القلب وأحاديث النفس، والعليم ببواطن العقول وذوات الصدور؛ لأنه موقف حاسم وله صلة وثيقة بنتيجة المعركة، فلم يَكِلْه الله تعالى لعلم البشر وسمعهم؛ لقصوره وضعفه وانحساره، وانظر أثر العامل النفسي واليأس الذي خالط المعنويات كيف فعل فعله بالمشركين، فصاروا ينظرون للمسلمين: ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[الأنفال: ١٣]، وصدق وعد الله للمؤمنين في بدر حيث كان الأمل بالله فيها عُدَّتَهم وزادَهم وطعامهم وشرابهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[آل عمران: ١٢]، وهكذا يمضي السياق حتى آخر السورة، وكذلك تمضي الأسماء والصفات فيها لتغيب حيث تشاء الحكمة الربانية المطلقة، وتظهر حيث تشاء، تظهر عند قواطع الأمور وعظائم المسائل، مما له صلة بكُبْرَيات القضايا التي تهم الدعوة والمسلمين كالتوحيد وانتصار الأمة، وردِّ الظالمين وبغيهم ورسوخ

قدم الدعوة وانتشارها.

ـ بعض أسماء الله تعالى في سورة الممتحنة:

ومن المواطن التي ظهرت فيها الأسماء والصفات على صورة تدهش العقول، وفي نسق غير متكرر في القرآن الكريم، ويخالف النسق العام فيه، في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]، وذلك لأنَّ الموقف شديد عسير، والأزمة النفسية بلغت أقاصيها، والقلوب جاوزت الحناجر همًا وضيقًا حيث لمَّا نزل صدر السورة «تشدد المؤمنون في عداوة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ومقاطعتهم، فلما رأى الله ﷻ منهم الجدَّ والصبر على الوجه الشديد، وطول التمني للسبب الذي يبيح لهم الموالاة والمواصلة، رحمهم فوعدهم تيسير ما تمنوه، فلما يَسَّر فتح مكة أظفرهم الله بأمنيّتهم وحقق لهم آمالهم فأسلم قومهم وتم بينهم من التحابّ والتصافي ما تمّ. و﴿عَسَى﴾ وعد من الله على عادة الملوك حيث يقولون في بعض الحوائج عسى أو لعل فلا تبقى للمحتاج شبهة في تمام ذلك، أو قصد به إطماع المؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أسلم من المشركين»[١].

حقًا جاء اسم الله تعالى ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكنًا في موضعه بحيث استطاع أن يقلب الحالة النفسية الحرجة للمؤمنين؛ فأراح قلوبهم وأذهب ما فيها من الخوف والحزن، وبلغهم مأمولهم من مواصلة أحبابهم وآلِهم.

ـ بعض أسماء الله تعالى في سورة البروج:

ولو نظرنا في سورة البروج سنجد كذلك من أعاجيب الأسماء ما يدهش

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٤/ ١١٥).

ويعجب، فالإعجاز يبدو في روعة فِعْلها وحركتها، وأثرها في القلوب ومناسبتها للمواقف وتنزلها متمكنة راسخة لا يمكن الاستغناء عنها؛ فهي أمل المؤمنين وفيها التحزين للكافرين الجاحدين.

سأقتطع من السورة موقفًا واحدًا ليكون الشاهدَ الأخيرَ، موقفَ ذكر اسميِّ الله تعالى الغفور والودود في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[البروج: ١٤]، بعد الرعب الذي قذفه في قلوب خصومه من الجَرْس القرآني الحاسم الجاد والقاطع المهيب: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[البروج: ١٢ - ١٣]، جَرْس قويٌّ يلقي في نفس الجاحدين المنكرين جو المفاصلة النهائية الرعيبة مع الله تعالى، ويقطع أملهم بأدنى سانحةٍ للإصلاح أو رأبٍ للصدع؛ لأن من يتعرض لبطش الله الشديد لاشك في أقصى الدركات التي تحول بينه وبين درجات القرب والود مع الله تعالى، وأكد شدة الجرس وعنفه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾، «ففيه مزيد تقرير لشدة بطشه، أو هو يبدئ البطش بالكفرة في الدنيا ويعيده في الآخرة»[١].

هـذا الجرس الرعيب العنيف كان لابُـدَّ أن يتبع بالأسـماء التي تهون منـه، وتخفف من حدته على نفوس التائبين العائدين لله تعالى؛ فتعيد لهم الأمل والرجاء بإمكان الصلة بالله والعودة إلى رحاب العبودية بين يديه، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[البروج: ١٤]، ليفتح لهم أبواب الآمال على أوسع طاقتها؛ فلا يقف عند حد الرجاء بالمغفرة والعفو عن تقصيرهم، بل يتجاوز ذلك إلى أن يتمنوا أن يكونوا من أهل ودادته والقرب منه، وكم في ذلك من تقريب للشاردين عن الله تعالى وتعزيز لأمل اليائسين من رحمتـه، ولهذه الغاية جمع في هذا المقـام بين هذين الاسمين العظيمين ليحدث شيئًا من التوازن بين الرعب القاتل والأمل المشرق، وزاد تأكيده

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٦/ ٤٩٤).

بقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾[البروج: ١٥ ـ ١٦].

الباعث الخامس ـ الإعجاز العلمي والتشريعي:

إنَّ البحث الذي نحن بصدده متعلق بشؤون قلبية خالصة أبعد ما تكون عن المادية الجافة والعضويات القاسية... بحثنا عن الأمل والرجاء وإحيائهما في الروح المسلمة الجديدة، بعد أرتال الرَّان التي سكَّرت عليهما؛ فَقَلُصَا في واقع المسلمين وانكمشا، بعث هذه الروح كان من أهم الغايات القرآنية، ولقد منح في سبيلها كثيرًا من الوقت، وأعطى لأجلها مساحة عريضة من مجموعه الكبير.

كان الإعجاز القرآني جزءًا من هذه المساحة العريضة التي تهدف لذلك الإحياء والبعث الجديد، فليس غاية المعجزات إثبات صدق الأنبياء فحسب ـ وإن كانت هذه تتصدر جملة أهدافها ـ وإلا لفقدت المعجزات قيمتها بمجرد تحصل الإيمان في قلوب الناس ورسوخه.

إن مسألة إثبات صدق الرسالة ورسولها، ومواجهةَ تكذيبِ الكفار وجحودِهم بالمعجزات والخوارق الحسية التي يراها جمهور النُّظار، ويعاينها الحُضَّار، كانت أكثر ما تكون في بني إسرائيل، وذلك لفرط بلادتهم وغلظ حسِّهم وحبهم للجاجة والمراء، فلم يكن الحق مقصدهم ولا العدل وجهتهم، وليس إلا الجحود والعناد، قال تعالى في مثلهم: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[الأنعام: ٧ ـ ٨] وصدق الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[الفرقان: ٢١]، فهو الجحود والعناد وليس شيئًا آخر: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[النمل: ١٤]، ولا أعني أن الرسالة الخاتمة كانت خلوًا منها؛ فلقد أيد الله

نبيه الكريم ﷺ بالكثير منها كتلك التي كان يطلبها المشركون تعنتًا فيجابون لبعضها كانشقاق القمر، ولا يجابون لأكثرها؛ رحمة من الله بهم وبالأمة جميعًا كما أخبر ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾[الإسراء: ٥٩][1]، كما كان الكثير من هذه المعجزات الحسية يقع ابتداءً على مرأى من المؤمنين؛ فتكون مواساةً لهم وتثبيتًا لقلوبهم، وتعميقًا ليقينهم وإحياءً للأمل في نفوسهم بأن الذي قـدَّر لهم مثل هذه المعجزات لن يَتِرَهم جهودهم، ولسوف تثمر ولو بعد حين.

أقول: إنَّ المعجـزة الكبـرى لهذه الأمـة الخاتمـة لم تكن على نمط الأمم السالفة؛ لأن هذه الأمة تُعظِّم جانب الذوق، وتُقدر قيمة الروح، فكانت معجزتها عقلية لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي تنزَّلت فيه... معجزة تخاطب كل عصر بلغته التي يفهم، على أساس غاياتها الأصيلة، ومجرد إدراك الأمة لهذه الخصيصة لها لابد وأن يعزز ثقتها بالرسالة والرسول، ويعطيها دفعًا ليس له نظير، وهذا ما يصدقه حديث النبي الكريم ﷺ: «مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّما كَان الَّذِي أُوتِيتُ وحْيًا أَوحاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تابعًا يومَ الْقيامةِ»[2]. يقول ابن حجر العسقلاني: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه

---

(١) كما أنذر الله حواريي عيسى عليه السـلام بتشديد العقوبـة لمن يكذب بعد معاينـة معجزة الـمائـدة: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[المائدة: ١١٥].

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب: فضائل القرآن، باب: كيف نزل الوحي: (٣/ ٢٧٨).

شيء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه، وقيل: المعنى أن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر، لأن الذي يُشاهد بعين الرأس ينقرضُ بانقراض مُشـاهِدِه، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرًّا[١]. اهـ. ثم يعقب ابن حجر بعد ذكر القولين: بصحة الجمع بينهما ونظمهما في كلام واحد؛ لأن مُحصَّلهما لا يتعاند، بل يتعاضد، فيقول: ويمكن نظم هذه الأقوال كلها في كلام واحد؛ فإن محصلها لا ينافي بعضه بعضًا[٢]. اهـ. إذًا فالقرآن كافٍ شافٍ، ولا تحتاج الأمة إلى معجزة أخرى ليثبت لها صدق الدعوة، أو ما يتجاوز ذلك من الوثوق بها والتضحية لأجلها، لقد كان القرآن وحده كفيلاً بكل هذا وأكثر، فأوّلاً هو يصدق الرسول ﷺ ورسالتَه بإعجازه لكل الخلائق عن الإتيان بمثله. ثم ثانيًا هو يعزز ثقـة المؤمنين ويرفع هممهم ويبعث الأمل فيهم بما أودع من أسرار وأنوار يدركها العقلانيون والروحانيون على حد السواء، تستقيم بها الحياة وتعود لرشدها، وتؤوب بها للجادة بعد التيه والشرود.

أدرك علماء المسلمين تينك الغايتين فأخذوا ببذل الجهود الموصولة الحثيثة من أجلهما، أما الأولى فللرد على المتشككين ودحض ما يلقون من شبهات، وتأليف قلوب القريبين وتطبيب قلوبهم من الشهوات، وبفضل الله تعالى فإن مجموع الأمة تجاوزت هذه المرحلة، إلا على المستوى الفردي الذي لا يشكل ظاهرة تؤثر على التوحيد في أصوله. وأما الثانية فهي أم الغايات، وأحوج غائب عن الساحة الإسلامية،

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري: (٧/ ١٨٦).

(٢) نفس المصدر السابق، وقد ذكر ابن حجر أقوال أخرى أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة واكتفاءً بالأقوال الأليق.

ولقد استغرق القرآن الكريم زمنًا يتنزَّل لاستحضارها وبعثها روحًا نابضة في جسد الأمة السابت، ولإعجازه بكل أضرابه الدور الذي لا يُنكر ولا يخفى، بل لعله الأهم والأبلغ، وبسبب الواقع العام وتطور الحياة ومظاهر المدنية الصاخبة، وما تعاني منه الأرض من أزمات أخلاقية واقتصادية وسياسية، والحروب التي لا تتوقف، والدماء التي لا تتخثر، فإن أبرز جانبين لابد من إظهارهما هما الإعجاز العلمي والتشريعي للقرآن الكريم؛ ليتقرر ـ بلا ريب ـ أن المنهج الإسـلامي هو الأصلح لقيادة الدنيا وحكم الأرض والسيادة على الناس، وتوضيع أصول معاملاتهم وعلاقاتهم.

ـ الإعجاز العلمي:

أما الإعجاز العلمي للقرآن الكريم فهو ضرورة ملحـة، بغيرها سيكون من العسير على مسلمي هذا الزمان توصيل خطابهم للعالم لا سيما بعد الثورة الصناعية والعلمية في المجتمع الغربي، حيث كان الدين المُحرَّفُ هو المتصدر في ذلك الوقت فنشب الصراع بين العلم والدين في كل ميادين المعرفة البشرية، ولأنه دين محرف وصناعة بشرية فلم يكن يملك أدوات خوض هذه المعركة، أو الصمود ولو يسيرًا فيها فخرج منهزمًا من حلبة الصراع، وبانهزامه بقيت البشرية تتخبط في متاهات الحيرة والظلام، تجرب دون هدًى، وتسير إلى غير هدفٍ، تتجرع غصص الفشل المتكرر، وتتكبد مرارته بين الحين والآخر.

لقد حدث هذا في غياب الإسلام عن ساحة المعركة، وهو الوحيد القادر على خوض غمارها، والتصدي لمثلها؛ لأنه يتفق مع الحق في كل صوره، بل يحتضن الحق والعلم ويدعمهما حيث كانا، وبرجوع الإسلام إلى الساحة تحولت العلاقة بين العلم والدين من التنـافر والتمانع إلى التـآلف والتـلازم؛ لأنَّ الإسـلام منهجٌ قائمٌ على العـلم حتى في أدق ركائزه، وهي التوحيد، فقال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ

إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد: ١٩]، ولقد تنبه علماء الأمة إلى هذا الصراع الدائر بين العلم والدين، وإلى محاولة أعداء الإسلام نقل المعركة إلى بلاد المسلمين، وهزيمة دينهم الإسلامي أمام ثورتهم العلمية والصناعية، كما فعلوا بدين الغرب المحرف الناسوتي، فهبَّ علماء الإسلام وأخذوا يكتبون عن التوأمة بين العلم والإسلام، ومن حيث أراد أعداء الإسلام إطفاء نوره فإذا بهم يتسببون في تحريك الأمة لأن تكون مادة الله في أرضه لإتمام نوره وحفظ منهجه، وإذا بالأمة متمثلة بعلمائها يضعون أيديهم على معجزة غابت عنهم كثيرًا، أيَّد الله بها دينه ونصره في معركته، ألا وهي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وكان ذلك تحقيقًا لوعد الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[فصلت: ٥٣]، فكان التشريف والرفعة لهذه الأمة بهذا الفتح الجديد، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ١٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شرفكم[(١)]. اهـ.

إن القرآن الكريم يضم ما يربو على ألف آيةٍ تتحدث عن معالم هذا الكون ومفرداته: من السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والكواكب والجبال والبحار والأنهار والشجر والدواب وغيرها، في سياق لفت الأنظار إلى مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق، واستدلالاً على تفرده بالربوبية والألوهية، ولإطلاق العنان للعقل البشري في السباحة في الآفاق والأنفس؛ ليتبين أن العلم والدين صنوان لا يفترقان؛ فيتبين أنه على الحق، ويسير للوجهة الحق، فتتعزز ثقته وتعلو همته ويبعث أمله من جديد، فيرجع الدين إلى حلبة الحياة والدنيا سيدًا منتصرًا بعد أن خرج بديلُه غير الشرعي منهزمًا ـ أقصد دين الغرب المحرف ـ، يرجع وهو يملك الأدوات

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٧٤).

اللازمة لإخضاع أعناق الناس جميعًا لسلطانه، والائتمار بأمره، ولابد لمن كان هذا الدين منهجه من الشعور بالغبطة والفخار، وحتمية علوٍّ منهجه على كل منهج سواه.

وأهمية الإعجاز العلمي وكذلك التشريعي في هذه المرحلة بالذات تكمن في أنَّ العلم هو لغة العصر، ووسيلة التواصل بين الناس، ومن شأن المعجزات للأنبياء دومًا أن تحاكي عصورهم، وتتناسب مع جمهور المخاطبين بها، يقول ابن حجر العسقلاني: إن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره، تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه، كما كان السحر فاشيًا عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص؛ لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك[1]. اهـ.

هي حقًا البلاغة معجزة المعجزات، غير أن ضرورة هذا الزمان وبراعة أهله في حقول العلم اقتضت أن ينهض جانب آخر من جوانب إعجاز القرآن الكريم؛ لتمضي سنة الله تعالى في مطابقة معجزات أنبيائه لأحوال أقوامهم.

إن عظمة القرآن التي جعلته قادرًا على تجسيد الدور اللازم في عصر النبوة، هي ذاتها التي تجعله قادرًا على تجسد الدور اللازم في كل عصر، وهذه ميزة هذا المنهج على سواه، والتي تعطيه حق السيادة في كل زمان... السيادة المتولدة من صلاحيته لكل زمان ومكان، وتأَمَّل كم لهذا من أثر عظيم في أتباع المنهج المبارك.

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري: (٧/ ١٨٦).

أما المناهج الأخرى فعاجزةٌ ليس عن استشراف المستقبل فحسب، بل وعن معالجة الحاضر، ولو أنك تأملت في كتب المناهج الأخرى المقدسة سواء كانت من أصل سماوي أم أرضي فلن تجد مثالاً واحدًا على هذا النوع من الإعجاز فضلاً عن سواه. أما القرآن الكريم فقد احتفى بالكثير منها وسنذكر بعضها:

١ ـ **الانفجار الكوني العظيم**: ففي عام ١٩٢٧م عرض العالم البلجيكي (جورج لوميتر) نظرية الانفجار العظيم، والتي تقول بأن الكون كان في بدء نشأته كتلة غازية، عظيمة الكثافة واللمعان والحرارة، ثم بتأثير الضغط الهائل المتأتي من شدة حرارتها حدث انفجار عظيم فتق الكتلة الغازية، وقذف بأجزائها إلى أماكن متناثرة في كل اتجاه فتكونت مع مرور الوقت الكواكب والنجوم والمجرات.

وفي عام ١٩٤٨م اكتشف العالمان (بانزيان وويلسون) موجات راديو منبثة من جميع أرجاء الكون لها نفس الميزات الفيزيائية في أي مكان سجلت فيه، سميت بـ (النور المتحجر) وهو النور الآتي من الأزمنة السحيقة ومن بقايا الانفجار العظيم الذي حصل في الثواني التي تلت نشأة الكون.

وفي سنة ١٩٨٩م أرسلت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) قمرها الصناعي (كوبي اكسبلورر) والذي أرسل بعد ثلاث سنوات معلومات دقيقة تؤكد نظرية الانفجار العظيم وما التقطه كل من (بانزيان وويلسون)، وكانت المحطات الفضائية السوفياتية قد أكدت هذه النظرية سنة ١٩٨٦م.

فما قول هؤلاء جميعًا لو أنهم يتلون قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ووجه الإعجاز في الآية أنها تقرر بأن نشأة الكون بدأت إثر انفجار عظيم بعد أن كان كتلة واحدة متصلة، وهذا ما أوضحته وأكدته دراسات الفلكيين وصور

الأقمار الصناعية في نهاية القرن العشرين.

٢ ـ البصمة وشخصية الإنسان: بعد أن أنكر كفار قريش البعث يوم القيامة، وأنه لن يجمع الله عظام الميتين، رد عليهم رب العزة بأنه ليس قادر على جمع عظامِه فحسب، بل حتى على خلقِ وتسويةِ بنانِهِ، هذا الجزء الدقيق الذي يُعرف منه صاحبه والذي يميز كل إنسان عن غيره مهما حصل له من الحوادث، وهذا ما دلت عليه البحوث والكشوف العلمية أواخر القرن التاسع عشر، وهو الذي أشار إليه القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾[القيامة: ٣ ـ ٤]، ففي عام ١٨٢٣م اكتشف عالم التشريح التشيكي (بركنجي) حقيقة البصمات، ووجد أن الخطوط الموجودة في رؤوس الأصابع (البنان) تختلف من شخص لآخر، ووجد ثلاثة أنواع من هذه الخطوط: أقواس أو دوائر أو عقد أو على شكل رابع يدعى المركبات لتركيبها؛ من أشكال متعددة.

وفي عام ١٨٥٨م؛ أي: بعد خمسة وثلاثين عامًا أشار العالم الانجليزي (وليم هرشل) إلى اختلاف البصمات باختلاف أصحابها، مما جعلها دليلاً مميزًا لكل شخص، وفي عام ١٨٧٧م اخترع الدكتور (هنري فولدز) طريقة وضع البصمة على الورق باستخدام حبر المطابع، وفي عام ١٨٩٢م أثبت الدكتور (فرانسيس غالتون) أن صورة البصمة لأي أصبع تعيش مع صاحبها طوال حياته فلا تتغير رغم كل الطوارئ التي قد تصيبه، وقد وجد العلماء أن إحدى المومياء المصرية المحنطة احتفظت ببصماتها واضحة جلية، وأثبت العالم (جالتون) أنه لا يوجد شخصان في العالم كله لهما نفس التعرجات الدقيقة، وأكد أنها تظهر على أصابع الجنين وهو في بطن أمه عندما يكون عمره مائة وعشرين يومًا، واستخدمت البصمات كدليل قوي عام ١٨٩٣م في دوائر الشرطة في بريطانيا.

ويمكن أن نذكر عدداً كبيراً من موضوعات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مثل:

١ ـ إنزال الحديد من الفضاء.

٢ ـ النجوم التي تطرق السماء.

٣ ـ تشكل الأجنة في الأرحام.

٤ ـ الأمواج الداخلية في البحار.

٥ ـ نقص الأكسجين في طبقات الجو العليا.

٦ ـ تحديد أخفض منطقة في العالم[1].

وغيرها الكثير مما يؤكد عظمة القرآن الكريم وأنه كما قال ربنا الكريم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[فصلت: ٤٢]، فبالله كم في هذا من إحياء للأمل في نفوس المؤمنين بأنهم على الحق وأن الله مؤيدهم وأنهم سيبلغون مراداتهم ولو بعد حين.

ـ **الإعجاز التشريعي:**

أما الإعجاز التشـريعي فهو كذلك كالإعجاز العلمي ضرورة ملحة في هذا الزمان، خصوصًا بعد سقوط دين الغرب المحرف، والبديل غير الشرعي للإسلام في معركته، وفشله في التعاطي مع مشكلات الحياة، فضلا عن كونه تسبب في الكثير منها وفاقمها، كالمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكذلك الأخلاقية، فحدثت الردة الغربية الجماعية، وتحولت المجتمعات من النصرانية إلى العلمانية، وفصلت الدين عن الحياة، والحق أنها ليست علمانية «وما تسميتها بهذا الاسم وربطها

---

(١) مرجعي في بيان صور الإعجـاز الآنفة هو الموسوعة الشاملة، الإصدار الرابع، بالإضافة إلى الشبكة العنكبوتية (الانترنت).

بالعلم إلا لغرض تزيينها وترويجها، والصواب أنها اللادينية؛ لأنها تبعد الدين عن مجالات الحياة الواقعية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية»[١].

لقد كانت اللادينية في أوروبا أمرًا منطقيًا مع سير الأحداث هناك، حيث جعلت الكنيسة من الدين ألعوبة تحرفه وتشوهه وتَعْرِضُه للناس بصورة مُنفرةٍ، دون أن يعلم الناس مرجعًا يصوب لهم هذه الأخطاء والتشويهات، ويرده إلى أصوله الصحيحة المنزلة، كما هو الحال مع القرآن الكريم المحفوظ بحفظ الله تعالى ورعايته: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩].

إنه من المعلوم أن الإنجيل دُوِّنَ بعد عيسى ـ عليه السلام ـ بسنوات طويلة حيث اختلطت النصوص بالشروحات، بل غلبت الشروحات على النصوص، ووقع الاختلاف والتحريف، وظهرت الأناجيل المختلفة، واستَبدَّت الكنيسةُ بالاحتفاظ بها وبشروحها حتى تطاول الاستبداد فشمل جوانب الحياة جميعها، وعندها تشكل النفور عند الناس من التَّدين وأهل الدين، واتجهت أوروبا إلى اللادينية كردة فعل، وكان الإقصاء للدين عن الحياة، وكان انهزامه مرة أخرى وعزله بعيدًا.

ولهذا كان لابد من رجوع الدين الحق... دين الإسلام لواقع الناس وحياتهم؛ ليعود الاستقرار والاطمئنان من جديد للأرض وسكانها؛ لأن التشريع القرآني ينسجم مع واقع الناس وفطرتهم؛ فواضعه هو ذاته الخالق للإنسان والحياة، وأي شيء مبعثٌ للأمل والرجاء في نفوس أتباع هذا المنهج أكثر من هذه القضية العظيمة، فيوم تجد المناهج الأخرى مفلسةً أمام أبسط مشاكل المجتمع، وتجد الإسلام الحنيف يتصدى لها بالحل الناجع من غير محاولاتٍ، أو تجاريبَ يخطئ في بعضها ويصيب في الآخر، تجده يعطي الحلول بلا تردد أو شكوك، وكما ذكرنا

---

(١) محمد قطب، العلمانية: (ص٥).

أهمية الإعجاز العلمي لهذا الزمان ليكون مناسبًا لحال أهله، فكذلك القول في الإعجاز التشريعي؛ ذلك أن العالم يمر بأزمات عظيمة أرهقته وأقضَّت مضجعه، فمن أزمة سياسية إلى أزمة اجتماعية، فأخرى اقتصادية، وكل العالم يلهث نحو حلول لهذه الأزمات الفاتكة الرهيبة، ولن يجد الخلاص إلا في ظل التشريع الرباني، التشريع الإسلامي العظيم، وسأسوق أمثلة تثبت عظمة الحل الإسلامي لأكثر قضايا العصر تعقيدًا وصعوبة، مما يظهر إعجازه وفوقيته على سائر المناهج، فلقد وضع حلولاً في القرن السادس الميلادي لأعقد أزمات القرن الواحد والعشرين، ومن أخطرها، والتي لا تزال البشرية تعاني من آثارها، الأزمة الاقتصادية التي يعد سببها الأول هو الربا كما صرح بذلك أساتذة الاقتصاد الغربيون أنفسهم، وعلى أثره بدأت بعض الدول الغربية بإنشاء مصارف تعمل بنظام الاقتصاد الإسلامي لتجعل قيمة الربا ـ ما يسمى بالفائدة زورًا ـ يساوي الصفر[1].

١ ـ **تحريم الربا**: لقد جاء النظام الإسلامي والتشريع الإسلامي ليسعد البشرية، ويصلح الفرد والمجتمع، ويدفع المفاسد عنهم، ومن أبرز هذه التشريعات تحريم الربا.

إنَّ القرآن الكريم حرم الربا ومنع الناس من التعامل به؛ لما فيه من أخطار تعود على البشرية قاطبة، وهذا ما أدركه خبراء الاقتصاد في هذا العصر، ومن هذه الأخطار: سوء توزيع الثروة، وجعل الأموال دُولة بين الأغنياء فقط، وكذلك ضعف التنمية الاقتصادية، والتضخم، والبطالة، وانتشار الفقر، وما ينجم عنه من جريمة

---

(١) وجدت بعد البحث عبر الشبكة العنكبوتية أن في بريطانيا خمسة مصارف إسلامية ومنها مصرف أركابيتا ومصرف وبي أم بي الإسلاميان، وفي أمريكا مصرفان وفي استراليا واحد وفي روسيا واحد وفي ألمانيا واحد وفرنسا تعمل على افتتاح أول مصرف قريبًا جدًّا والأعداد مرشحة للزيادة بصورة كبيرة بفضل الله.

وقتل وسرقة، بعد الحسد والحقد والكراهية، وغيرها، مما يدل على إعجاز التشريع الإسلامي وأنه من لدن حكيم خبير، إن القرآن الكريم إذ يدرك هذه المخاطر للربا فإنه لم يتساهل بشأنه، بل حرمه بأشد الصيغ القرآنية تهديدًا وتخويفًا، وهي إعلان الحرب من الله ورسوله على آكل الربا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩]، فالربا ظلم من المرابي بالزيادة على المدين مقابل الزمن، ولعل المرابي اليوم أن يكون مدين الغد فيُظلَم هو الآخر، وعلى هذا فإن الربا أكل لأموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٠ ـ ١٣١]، كما أن الربا ذهاب للبركة ومحق للمال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[الروم: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٦].

يقول الدكتور (شاخت) الألماني والمدير السابق لمصرف (الرايخ) الألماني: إنه بعملية غير متناهية يتضح أن جميع مال الأرض صائر إلى عدد قليل جدًا من المرابين؛ وذلك لأن المرابي يربح دائمًا بينما المدين معرض للربح والخسارة ومن

ثَمَّ فإن المـال كله في النهاية لابد في الحسـاب الرياضي أن يصير إلى الذي يربح دائمًا اهـ.

فالربا يزيد الغني ثروة والفقير ذلاً، ويضعف التنمية الاقتصـادية؛ لأن الربا أسـهل وأضمن طريقة لمضاعفة الثروات، فلن يغامر الأغنياء بأي مشاريع تنموية ما دامت الأرباح تأتي مضمونة بغير مخاطر، يقول الدكتور الاقتصادي المشهور، البريطاني الجنسية (جون كينز): إن معدل سعر الفائدة يعوق النمو الاقتصادي لأنه يعطل حركة الأموال نحو الاستثمار في حرية وانطلاق فإن أمكن إزالة هذه العوالق؛ أي تقليل: نسـبة الفائـدة حتى تصيـر إلى الصفر فإن رأس المال سـيتحرك وينمو بسرعة. اهـ[1].

إذًا فلقد وضع الإسلام الحلول للمشاكل الاقتصادية قبل وقوعها؛ أي: أن هذا التشريع لا يمكن أن يكون من صنع الأرض، وكم حجم الأمل لدى من يعتنق هذا الديـن ويؤمن بهذا المنهج عندما يجد حلول أزمات العالم في دِينِهِ ومنهجه، أظنه أعظم من أن يوصف.

٢ ـ **القصاص**: وسأتحدث عن قانون حفظ الحياة في المجتمع وصيانته من كل ما يهدد أمنه واستقراره، لا سيما ونحن نشاهد ونسمع الجرائم التي ترتكب صباح مساء، ليس في بلاد الكفر والإلحاد فقط بل وفي بلاد المسلمين؛ لأن قانون السماء والتشريع الرباني غُيِّب عن الساحة، قانون القصاص، قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٧٩]، هذا القانون الذي يحقق الحياة يحمل في طياته إعجازًا تشريعيًا لم تصل إليه حتى الآن السياسات القضائية والعقابية

(١) مِنْ بحث بعنوان الربا وآثاره الاقتصادية للدكتور عبد المجيد عبدالله دية الأستاذ المساعد في جامعة الزرقاء الأهلية، بتصرف.

في كافة النظم القانونية الوضعية الموجودة في العالم.

إنه وإن كان ظاهر الآية التناقض، إذ جعل القصاص الذي يصل إلى درجة الموت حياةً، فإنه تناقض في عقول الذين لا يعرفون فلسفة التشريع الجنائي في الإسلام، إن الأساس الذي يقوم عليه قانون القصاص هو المماثلة بين الجريمة والعقوبة، وهذا قانون الله الساري في كل الأمم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾[الرعد: ٦]؛ أي: أن العقوبات مماثلة للذنوب والآثام، وعقوبات الأمم اللاحقة على ذنوبها مثل عقوبات الأمم السابقة على ذنوبها، إذًا فالعقوبات تقوم على مبدأ المساواة بين الجرم والغرم، وهذه الغاية لم يصل إليها إلا قانون السماء، وتتلازم مع القصاصِ الحدودُ، وهي العقوبات المقدرة شرعًا، ووجبت لله تعالى على جرائم محددة تمس أمن المجتمع، وسميت حدودًا لأنها تمنع مرتكبها من العودة لمثلها بعد أخذ العقوبة المحددة، وقيل لأن القرآن هو الذي حددها.

لقد شرع الله هذه العقوبات حفاظًا على أمن واستقرار المجتمع، فالله لم يجعل عقوبة التعدي على أهم عوامل سلامة الأمم خاضعة لأهواء البشر، وإلا لانتشرت الجريمة كما هو الحال في الحضارات الغربية التي ارتفعت فيها معدلات الجريمة إلى حدود غير معقولة غدت تشكل تهديدًا خطيرًا يوشك أن يَذْهَب بنجم تلك الحضارة ويصير إلى أفول.

إنَّ النظام القضائي الإسلامي يهدف إلى حفظ الكليات الخمس؛ لذا شرع عقوبات رادعة لمن يعتدي على شيء منها، كما وضَّح الغزالي ذلك في كتابه (المستصفى).

إنَّ هذه العقوبات تعد الرحمة بعينها، وإنْ ظهرت بزيِّ الظلم لغير البصير؛

لأنَّ جلب المنفعة ودفع المفسدة خير ورحمة، والعدل والرحمة متلازمان، وكل ما يُفوِّت منفعة ويجلب مفسدةً فهو الظلم، والاعتداء على الكليات الخمس تفويتٌ للمصالح وجلبٌ للمفاسد، وهو الظلم الذي لا بد من إيقافه بالعدل، ولو أن أيَّ مشفق على المجرم كان هو المجني عليه لما أشفق.

إنَّ جميع القوانين الوضعية تُجَرِّمُ الاعتداء على الكليات الخمس، لكنها فشلت في المحافظة عليها، لذلك فإن معدلات الجريمة ترتفع عندهم، وبدأت ترتفع بالمجتمعات الإسلامية؛ لأن حكم الله معطّل فيها من يوم دخل الاحتلال الغربي لهذه البلاد فأفسدها وأفسد كل خير فيها، أما يوم حكم الإسلام الأرض فإن جرائم الاعتداء كانت تعد على أصابع اليد الواحدة، كما في خلافة أبي بكر وعمر.

إن الاختلاف كبيرٌ بين التشريع الرباني العظيم وتشريع البشر؛ لأن تشريع الله يأخذ صفاته، فهو الكامل الخالد الصالح في كل زمان ومكان، على مر العصور وكرّ الدهور، وهي كاملة من كمال الله، أما تشريع الإنسان فهو ناقص مثله، ولذلك نجد القوانين الأرضية تتغير بين الحين والآخر، وتطرأ عليها تعديلات، كما أنها خاضعة لرغبات وشهوات مشرعها، فإذا تغيرت المصالح تغيرت الشرائع، كما أن الواقع أثبت تَحيزَها وبعدها عن العدالة، أما قانون الله فهو الحق العدل الذي يحمل شعارًا سطَّره النبي الكريم: «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها»[1].

كما أن نصوص الشريعة تتصف بالمرونة بحيث تتسع وتستوعب الحوادث والمتغيرات، وليس كذلك تشريع البشر، ويضاف إلى ذلك أن شريعة الله وُضعت للبشر جميعًا، أما قوانين البشر فتوضع خاصة لمجموعة خاصة لا تصلح لغيرها،

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب: الحدود، باب: كراهة الشفاعة في الحد إذا رفع للسلطان: (٤/ ٤٩).

والجزاء في القوانين الشرعية في الدنيا والآخرة، أما قوانين الدنيا فتختص بالدنيا فقط، والقانون السمائي لا يحاسب على الجزء المادي فحسب بل يتطرق إلى القلوب وتوجهاتها، وهذا ما لا يمكن أن يصل إليه حكم البشر، لذلك فهو يهذب النفس والروح والقلب[1].

هذه نبذة يسيرة عن قانون القصاص في الإسلام ولن أتوسع فيه أكثر من ذلك، لأن المقصد كان ضرب المثال فقط، وليس البسط والبحث؛ فإن محله كتب التشريع الجنائي والفقه.

ومن الأمثلة التي يمكن أن يتم الحديث عنها في الإعجاز التشريعي كذلك الإعجاز في الزكاة، وفي تحريم التبني في الإسلام، وفي تحريم الميسر في الإسلام، والإعجاز في قوانين الحرب، وفي مراحل تحريم الخمر والميراث، وغيرها الكثير الكثير مما يظهر عظمة الإسلام وصلاحيته لقيادة الناس، مما يعطي دفعًا إيمانيًا لأتباعه وبعثًا للأمل في قلوبهم؛ فإن دينًا فيه هكذا تشريع لا يمكن أن يُكتب له الفناء، بل هو المنصور والغالب بإذن الله العظيم.

الباعث السادس ـ الإيمان باليوم الآخر:

لقد ذهب كثير من فلاسفة الغرب ـ وكثير من الناس تبع لهم ـ إلى أن الموت يعني انتهاء مسار رحلة الإنسان والحياة، وخاتمة المطاف، فلا شيء بعده ولا حياة تَلِيهِ، وأن فكرة البعثِ عبثٌ ليس له أصلٌ؛ أي: أن الموت هو الفناء والعدم المحض، كما بين ذلك (جاك شورون) في كتابه (الموت في الفكر الغربي) وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن الكريم في قوله: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[الأنعام: ٢٩]،

---

(١) كان هذا تلخيصًا لبعض ما ورد في بحث بعنوان: رائعة التشريع الجنائي الإسلامي في القصاص للدكتور السيد مصطفى أحمد أبو الخير، بتصرف.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[هود: ٧]، وهذا الفريق من البشر ينكر كل ألوان الثواب والعقاب البرزخي والأخروي، ويعيش في لهو ولعب، يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام، وجهلوا أن النار ستكون مثوًى لهم.

والحق أنهم كما قال (بوسويه): خوف الناس من الموت هو الذي حدا بهم إلى تجاهل التفكير بالموت والعمل على تناسيه[1]. اهـ. «وذهب فريق آخر منهم إلى أن الموت لا يعني انتهاء الرحلة وخاتمة المطاف، وأن بعد الموت بعثًا، لكنهم اختلفوا في طبيعة البعث، هل هو للنفس أم للجسد؟. أما المسلمون فلقد ذهبوا إلى أن الموت انتقال من عالم إلى عالم... عالمٍ من عوالم الله إلى آخر من عوالمه أيضًا، وأنه انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، انتقال من دار التكليف والعمل إلى دار الجزاء والثواب لمن أحسن، والعقاب لمن أساء، قال تعالى: «﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧ ـ ٨]»[2]، إذًا الموت اسم يطلق على لحظة الانتقال من الحياة الدنيا إلى البرزخ، ثم من بعده البعث والجزاء، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]، ولئن كانت الحياة الدنيا هي الحلقة الأولى في حياة الإنسان فإن البرزخ هو الحلقة الثانية، ويوم البعث والجزاء هو الحلقة الأخيرة، لذلك يسميه القرآن الكريم باليوم الآخر.

---

(١) جاك شورون، الموت في الفكر الغربي: (ص٣١).

(٢) د. عبد الحي الفرماوي، الموت في الفكر الإسلامي: (ص٥).

ومما يؤمن به أتباع القرآن الكريم كذلك أن اليوم الآخر هو يوم الحساب، ويوم الفصل بين العباد، وفيه يأخذ كل ذي حقٍّ حقه، وتنتزع حقوق المظلومين من ظالميهم، وينزل كل أحد منزله الذي يستأهل، فهو يوم العدالة الشامل الذي لا يظلم فيه الإنسان مثقال ذرة، وهذه الفلسفة التي أراد النبي ﷺ تطبيقها في الحياة الدنيا يوم قال: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[(١)].

فلا يكون الأجر قبل العمل إنما بعد تمامه، «أي: ينبغي المبادرة في إعطاء الأجير حقه بعد الفراغ من الحاجة»[(٢)].

فإذا كانت الحياة الدنيا ليست إلا مجرد حلقة في سلسلة عمر الإنسان المحدود، وإذا كان المسلمون يعتقدون أيضًا أن الدنيا دار عمل وجهد كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عملٌ ولا حساب وغدًا حسابٌ ولا عمل[(٣)]. اهـ.

ويعتقدون كذلك أن الأجر يكون بعد تمام العمل؛ فإن المسلمين في مجمل أحوالهم مطمئنون ساكنو النفس، يعلمون أن حقوقهم لن تضيع، وأن عدل الله سوف يشملهم، مع ما ينضاف إلى هذا من علمهم أن الحياة الدنيا هي الحلقة الأضعف، والأقل شأنًا والأخس قيمة، وأنها لا تعدل جناح بعوضة، فإنَّ مِنْ شأن كل هذه المعتقدات أن تعزز أمل الإنسان وتزيد من همته، فلا يتسلل اليأس إلى قلبه إن

---

(١) ابن ماجه، السنن، باب: أجر الأجراء: (٤/ ٢٩٤) صححه الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجه رقم الحديث: (٢٤٤٣).

(٢) السندي، محمد بن عبد الهادي (ت١١٣٨هـ). حاشية السندي على ابن ماجه: (٥/ ١٢٨).

(٣) البخاري، الصحيح، باب: في الأمل وطوله: (٣/ ٢٢٥).

ضاقت الدنيا؛ لأنه يرقب الآخرة ويحس بسعتها، ولا يتهيب ظلم الطغاة في الدنيا لعلمه أن يوم القصاص آتٍ لا محالة، ولا تلتاث نفسه من أحلك الظروف وأقصاها، بل يقابلها بروحٍ نزقةٍ مستخفةٍ بقسوتها لأن الله العدل والحق قال له: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران: ١٥].

ومما يزيد أمل المؤمن أكثر وأكثر اعتقاده أن الجزاء من جنس العمل، وأنَّ كلَّ طاغيةٍ ظالمٍ سيتجرع في الآخرة ذات الكأس التي سقاها للمناكيب المظلومين في الدنيا، مع فارق التشبيه بين شقاء الدنيا، وشقاء النار والعذاب في جهنم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل في قَدَرِ الله وفي شرعه، فإن هذا العدل الذي تقوم بـه السماء والأرض كما قال الله: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[النساء: ١٤٩]، وقـال تعـالـى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢]، وقال ﷺ: «من لا يَرحم لا يُرحم»[١]. وقال ﷺ: «إن الله وترٌ يحب الوتر»[٢]. وقال: «إن الله جميلٌ يحب الجمال». وقال: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»[٣]. ولهذا قطع يد السارق، وشرع قطع يد المحارب ورجله، وشرع القصاص في الدماء والأموال والأبشار، فإذا أمكن أن تكون العقوبـة من جنس المعصية كان ذلك هو المشروع

(١) المصدر السابق، باب: رحمة الولد ومعانقته وتقبيله: (٣/ ٢٠٣).

(٢) الترمذي، السنن، باب: ما جـاء أن الوتـر ليس بحتم: (٢/ ٢٥٥)، صححـه الألباني، صحيح وضعيف الترمذي: (١/ ٤٥٣).

(٣) كلا الحديثين عند مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح، الأول باب: تحريم الكبر وبيانه: (١/ ٢٤٧)، والثاني باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب: (٣/ ١٩٢).

بحسب الإمكان[١]. اهـ.

والأمثلة في كتاب الله التي تؤكد أن الجزاء من جنس العمل كثيرة جدًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟﴾[المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦]، وقول النبي ﷺ: «من يسّر على معسرٍ يسّر الله عليه الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٢].

يقول ابن قيم الجوزية: وقد دلّ الكتاب والسنة في أكثر من مائة موضع على أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[النبأ: ٢٦][٣]. اهـ.

وكل هذه الأصول مما يعزز ثقة المسلم بدينه، ويزيده صبرًا؛ لعلمه أن عاقبة الصبر خيرٌ وأجرٌ في الموقف العظيم، ويبعث فيه أملاً يتجاوز حدود الدنيا الضيقة؛ لأنه يعلم أن الدنيا مجرد حلقة صغيرة ضئيلة، يعقبها ما هو أعظم منها وأكبر، ولإدراك القرآن الكريم لعظيم منزلة اليوم الآخر في حياة المسلم، وأثر الإيمان به كان غالبًا يجمع بينه وبين الإيمان بالله تعالى دون غيره من أركان الإيمان الستة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٢٠).

(٢) مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن: (٦/ ٢١٢).

(٣) ابن القيم، تهذيب السنن: (ص٣٧).

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التوبة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ . . .﴾[المجادلة: ٢٢]، وغيرها العشرات في كتاب الله تعالى.

وكان هذا الربط بين هذين الركنين؛ لأنَّ الأول هو الغاية الأسمى والمقصد الأساس من خلق السماوات والأرض والناس، وجاء الثاني للتذكير بأن هذا التكليف بالإيمان بالله تعالى سيعقبه الجزاء عليه؛ فمن آمن وأصلح فله الجنة دار النعيم، ومن كفر وأفسد فله النار دار الجحيم، والنفسُ البشرية مجبولةٌ على انتظار المقابل لأفعالها، وتحب أن تحصدَ ثمار جهودها، ومجبولةٌ كذلك على كره الفشل والخسارة حتى في أبسط صور المنافسات التي قد يشارك فيها الإنسان؛ لذلك لا تكاد تخلو صفحة في الكتاب العزيز من ذكر اليوم الآخر، وطرفٍ مما سيكون فيه من أحداث بحسب المقام، كما لا تكاد تجد تكليفًا إلا ويُتبع بذكر الأجر المترتب عليه، وعاقبة المستنكفين؛ لأن الإيمان باليوم الآخر له أشد الأثر في توجيه الإنسان، وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله تعالى.

إنه لاشيء يرفع الإنسان من ثقلة الأرض بعد الإيمان بالله تعالى كالإيمان باليوم الآخر، فعمارة المساجد ثمرة لذلك الإيمان والمحافظة على الصلاة، والجهاد في سبيل الله تعالى، وموالاة الله ورسوله، ومحادة أهل الكفر وإنْ مِنْ ذي القربى، كلها كما صرَّح القرآن من ثمار ذلك الإيمان؛ فلولا أنه يحرك آمال المؤمن بالجنة ونعيمها لما تحرك لمثل هذه المكاره من الأعمال. . . الإيمان بأنَّ كل متاع زائل يتنازل عنه الإنسان في الحياة الدنيا طاعة لله تعالى والتزامًا بأمره سيعوض عنه في الآخرة متاعًا أغلى وأبقى، وبالمقابل أيُّ خروج على أمره طمعًا في الدنيا وزينتها ستكون عاقبته

العذاب الأليم، هذا الإيمان هو أكثر ما يحرك همته.

ومما يقوي همة الإنسان ويزيد أمله ما يتلوه في الكتاب العزيز من أحوال المتقين في دار النعيم؛ فكأنه يشاهد ويسمع بل ويتذوق، فمرةً يقرأ عن طعام الجنة وثمارها، وأخرى عن قصورها ودورها، وثالثة عن مائها وأنهارها ثم عن حورها وولدانها، فيُدركُ ما ينتظرُه إنْ بذل وصابر، فيبذل ويصبر.

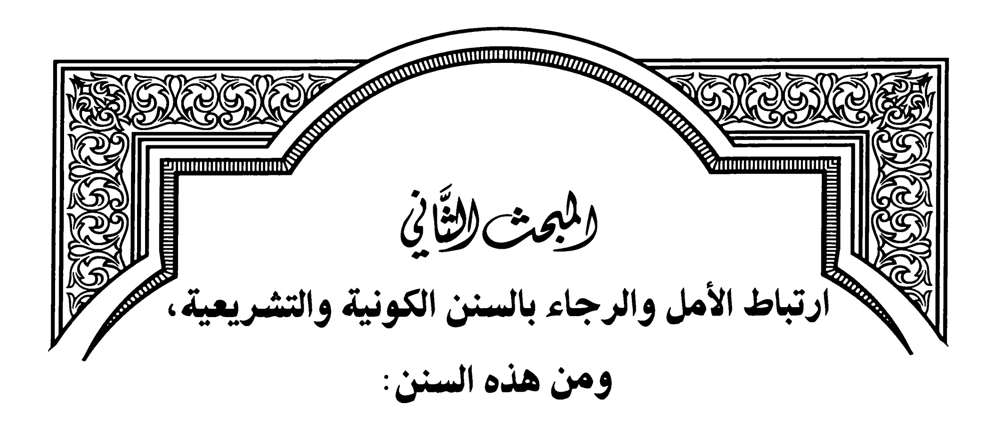
وكذلك مما يرفع من همة المؤمن ويزيد أمله ورجاءه ما يتلوه في كتاب الله تعالى عن العاقبة الوخيمة للظالمين، وكيف أن الله سينتقم منهم، ولئن سخروا من المؤمنين في الدنيا فإنهم سيسخرون منهم كما كانوا يسخرون، وعندها سيعلم الفريقان من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[المطففين: ٢٩ ـ ٣٦]، إنه شعور بالراحة والسعادة، شعور بالفوز والانتصار يعوض الله به المؤمنين المصابرين المرهقين في الدنيا، يعوضهم به في الآخرة في اليوم العظيم، يوم الخلود مقابل ما لاقوه من عنت ومشقة من الطواغيت والمجرمين، ويالله كم لهذا العرفان من أثر في نفس المؤمن بأن صبره وجهده لن يذهب مع الريح ولن يكون عبثًا، وأنه سيعوض عن كل دمعة عين، وقطرة عرق، وجفلة خوف، ورعدة بَرْدٍ، سيعوض حقًا في ذلك اليوم المهيب، وأن ما ذاقه من كل هذه البلايا سيستمتع ـ متكئًا على الأرائك ـ برؤية أعدائه يذوقون أضعافه في النار، هـذا الشعور والتصديق بهذه العقيـدة يبعث من الأمل في نفس المؤمن ما يجعله يصابر ويحتسب، بل يزيح الجبال من مواطنها.

ثم يقرأ المؤمن كذلك ما يزيده أملاً وفرحًا وغبطةً بأنه هو الفائز عند الله تعالى،

وأن عدوه مجحومٌ معذبٌ يستجدي بذُلٍ وانكسارٍ، قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[المؤمنون: ١٠٢ ـ ١١١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[الحاقة: ١٩ ـ ٣٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾[الانشقاق: ٨ ـ ١٥]، كم يشعر المؤمن بالسعادة يوم يجد القرآن يعقد مقارنات بين عاقبة المؤمنين والكافرين، ويكشف عن البعد الرهيب بين المنزلتين، إنه وإن كان يتألم في الدنيا فسيصبر لعلمه أن عاقبة ألمه السرور والفرح في جنات المأوى، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ

مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[السجدة: ١٨ - ٢٠]، كم يشعر بالفرح وستملأ الضحكات شدقيه حتى وإن كانت عيونه مغرورقةً بالدمع ألمًا وحسرةً في الدنيا؛ لأنـه يعلم أنـه سيضحك أخيرًا، وأنه هو الذي سيضحك طويلاً، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠]، أيُّ شيءٍ يمكن أن يبعث الأمل في نفس المؤمن أكثر من هذا الإيمان باليوم الآخر، الذي ما يؤخره الله تعالى إلا لأجلٍ معدودٍ، فإذا جاء ذلك اليوم فهو السعيد يوم ينقسم الناس إلى شقي وسعيد: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[هود: ١٠٧ - ١٠٨]، هذا الإيمان باليوم الآخر غناءٌ لصاحبه، ومندوحةٌ لـه عن التطلع إلى الدنيا ولعاعاتها، أو النظر إلى أهلها وإن جمعوها بحذافيرها؛ لأنَّ أملَـه تعلق بالأهم والأعظم، ورجـاءه متصل بالأَسَدِّ والأَقْوَم، ولا أعتقـد أن مؤمنًا بالله واليوم الآخر سيستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

* * *



المبحث الثاني

ارتباط الأمل والرجاء بالسنن الكونية والتشريعية، ومن هذه السنن:

أولاً ـ حتمية النصر والتمكين للدين الإسلامي:

لقد ارتبطت مسألة النصر والتمكين للدين في القرآن الكريم بذكر سنن الله في أرضه بصورة تجعل الأمر كأنه ظاهرةً قرآنيةً بل هو كذلك؛ لذا فإنَّ نصرَ دين الله تعالى ودعوةَ أنبيائه جزءٌ من القانون الناظم لهذا الكون والمُسيرِ له، وإنَّ حتمية نصر منهج الله تعالى في ثبوتها كالشمس إذ تخرج من صوب الشرق وتحط في الغرب، وكالماء فيه الإرواء والإغراق، وكالجزء بعض الكلّ، وغيرها من السنن والقوانين التي لا تقبل الجدل ولا يماري فيها إلا الجهول، ومن الأدلة القرآنية على ذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩]، وانظر كيف جعل الله تعالى ذِكْرَ سنته في المكذبين بدينه مقدمةً للحديث عن هزيمةِ المسلمين يومَ أحد، وفي هذا من التسريةِ والتعزية ما لا يُقادر قدره؛ إذ طلب منهم ألاَّ يهنوا ولا يحزنوا ولا يضعفوا لأنهم هم الأعلون والغالبون في آخر الأمر، وهم من سيضحك كثيرًا... ولقد ثبت أنهم ما هزموا بعدها قطُّ، وصدق فيهم وعد الله تعالى، وجرت عليهم وعلى المكذبين من خصومهم سنةُ ربهم جلَّ في علاه، وكان النصر والتمكين للدين الحنيف.

يقول البقاعي: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ولما كان العلم بالقريب في الزمان والمكان أتمَّ، وكان الذين وقعت فيهم السنن جميع أهل الأرض، ولا في جميع الزمان، أثبت الجار

فقال: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ أي: فلا تظنوا بما أملى لهم بهذه الإدالة أن نعمته انقطعت عنهم، ﴿سُنَنٞ﴾؛ أي: وقائع سنَّها الله في القرون الماضية والأمم الخالية في المؤمنين والمكذبين، وأحوال وطرائق كانت للفريقين، فتأسوا بالمؤمنين وتوقعوا لأعدائكم مثل ما للمكذبين، فانظروا وأنعموا التأمل في أحوال الفريقين وإن لم يحصل ذلك إلا بالسير في الكد والتعب الشديد ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: للاتعاظ بأحوال تلك الأمم برؤية آثارهم لتضموا الخير إلى الخير، وتعتبروا من العين بالأثر، وتقرنوا بين النقل والنظر[1]. اهـ. وانظر كيف أكد هذه السنة بقوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، فهذا البيان يزيل الشبهة ويؤكد الخبر، وفيه هدًى؛ أي: إرشادٌ للعقول وموعظةٌ ترقق قلوب المتقين المؤمنين بالله وبسننه في الأرض، فَجَمعَ بَينَ خِطابِ العقل وتحريك العاطفة في إثبات سننه الماضيةِ في كونه والناظمةِ لجميع خلقِه.

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[الفتح: ٢٢ - ٢٣]، هذه آيات نزَلت تتحدثُ عن واقعةٍ خاصةٍ غير أن سنة الله التي حركت خيوطها... سنةٌ عامةٌ ماضيةٌ لا تتبدل فإذا كانت الآيات تصف فتح مكة وبعض الأحداث التي وقعت فيه من ترك أهل مكة لقتال النبي ﷺ وجيشه خوفًا وفزعًا، وأنهم أبَوا للصلح رهبة وتحسبًا، فَليُعلَم أنَّ الله تعالى هو الذي سنَّ غلبة أنبيائه، لذلك عبَّر بقوله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوبة على أنها مفعول مطلق؛ أي: سنَّ اللهُ غلبةَ أنبيائه سنةً، ويؤكد هذه السنة قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[المجادلة: ٢١].

يقول سيد قطب: وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسننه الكونية الثابتة

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٢/ ١١٨).

التي لا تتبدل. فأية سكينة، وأيُّ ثقة، وأيُّ أمل، وأيُّ تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم وهم يسمعون من الله أن نصرَهم وهزيمةَ أعدائهم سنةٌ من سُننه الجارية في هذا الوجود؟ وهي سنة دائمة لا تتبدل ولكنها قد تتأخر إلى أجلٍ ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم، أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين لتكون له قيمته وأثره، أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله ولكن السنة لا تتخلف والله أصدق القائلين: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾(1). اهـ.

وهكذا تمضي السياقات القرآنية تؤكد هذه السنة الخالدة خلود الله، والأزلية كأزلية القرآن الكريم، والتي لن تملك قوةٌ بشريةٌ أرضية حادثة حسيرةٌ ضعيفة أنْ تُغيِّر من مسارها شيئًا، ولقد جَرَّبَتْ كثيرٌ من الأممِ السابقة تجاوزَها والعلوَّ عليها فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون... بلغوا من المدنيَّة والحضارة مبلغًا رهيبًا، فبنوا القصور والأبراج، وجيَّشوا الجيوش، وجمعوا الأموال، وارتقوا في العلم إلى الحدِّ أنَّ نفوسَهم سوَّلت لهم الاستهزاء بعلوم أنبيائِهم، غير أنَّ سُنَةَ الله قهرتْهم وقهرت كلَّ حضاراتِهم ومدنيَّتِهم، وتجاوزتهم إلى غيرهم من غير أن تعبأ بهم أو بعلومهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٦/ ١٨).

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥]، قال ابن كثير: يخبر الله تعالى عن الأممِ المُكذبة بالرُّسل في قديم الدَّهر وماذا حلَّ بهم من العذاب الشديد مع شِدَّة قُواهم، وما أَثْرَوْه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئًا، ولا ردَّ عنهم ذرةً من بأس الله؛ وذلك لأنَّهم لمَّا جاءتهم الرسلُ بالبيِّنات والحجج القاطعات والبراهين الدامغات لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل؛ فأحاط بهم بأس الله وعذابه وعندها آمنوا لكن حيث لا تُقال العثرات ولا تنفع المعذرة؛ فلم يقبل الله منهم، وهذه سنة الله وحكمه في أعدائه وخصومه[1]. اهـ.

والسُّنةُ في هذا السياق عامَّة في إهلاكِ الكفار ونصر الأنبياء والمؤمنين وأنَّ التوبةَ حال مُعاينة الهلاك والعذاب مردودةٌ، قال النسفي: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]؛ أي: أنَّ الإيمان عندَ نزولِ العذاب لا ينفع، وأنَّ العذاب نازلٌ بمكذبي الرُّسل وعبر بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ وهو مكان مستعار للزمن؛ أي: أنَّ الكافرين خاسرون في كل أوان، ولكن يتبيَّن خُسرانهم إذا عاينوا العذاب[2]. اهـ.

ولما أراد المُرجِفون في المدينة زعزعة إيمان أصحاب رسول الله بتلفيق الشائعات والأكاذيب عن سرايا رسول الله ﷺ، فقالوا: هُزموا وقُتلوا وجَرى عليهم كيتٌ وكيتٌ؛ لِيَكسروا بذلك قلوب المؤمنين، أثبت الله تعالى أن هذا لن يكون؛

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٢١٦).

(٢) النسفي، مدارك التأويل وحقائق التنزيل: (٣/ ٢٦١).

لأنه مخالفٌ لسنته في أرضه بل وهدَّد المنافقين بالتقتيل والإخراج من المدينة المنورة، قال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢]، ولقد مضت سنةُ الله مع شَخصِ رسول الله ﷺ يوم أَخرَجه قومُه من بلده مكة المكرمة وأظهرَه اللهُ عليهم بعد سَنةٍ ونصف، فقتل كبارهم وقادتهم وأسر الكثير كذلك منهم، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]، إذًا فهي سنةٌ ربانية وطريقةٌ كونية سارت عليها جميع الخلائق وانتظمت كلَّ المخلوقات: أنَّ المكرَ السَّيِّء لا يَحيقُ إلا بأهلِه، وأنَّ من استكبر في الأرض عاقبتُه الذِّلةُ وإن لم تكن في الدنيا فإنها في أقصى أبعادها في اليوم الآخر، وكم هو قريبٌ وشيكٌ. . .

فكم لهذه السنة الربانية من أثر في قلوب المؤمنين تبعث الأمل فيها وتزيد ثقتها بمنهجها، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢ ـ ٤٣].

إذًا هي سنةُ الله التي لا تحيد، والتي تمضي في طريقها ولا يُعيقها شيءٌ ولا يُحبطها شيءٌ، ومن كان حاله كالمخالفين للسنن فإنه لا ينتظر إلاّ أن يَحلَّ به ما حَلَّ بالمكذبين المستكبرين من قبله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

وبعدُ، فهي ظاهرة قرآنيةٌ جليةٌ واضحة وسنةٌ كونية بارزةٌ شامخةٌ، ولقد عبَّر

القرآنُ عنها ـ أحياناً ـ بغير صيغة السُنيَّة، غير أنها تحمل ذات دلالتها ومفهومها الذي يقنن لانتصار الدعوة والدعاة وظهور الإسلام على كل المناهج الأخرى، وانهزام الكفر والباطل ولو بعد حين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[إبراهيم: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧]، هذه الآيات وغيرها تدل بصراحة على القانون الناظم لهذا الكون والمُتصرف فيه، فلا يتبدل ولا ينخرم...

قانون الله الباقي والدائم؛ لأنه مستمد من الله الأزليِّ الباقي، هذا القانون والناموس الذي ينعكس بهجةً وسرورًا وفألاً حسناً وأملاً رحبًا في قلوب المؤمنين بالله تعالى وبناموسه الناظم للكون.

إنَّ أول دورٍ للمسلمين في كل زمان لا سيما في هذا الزمن الحاضر الصعب على الأمة الإسلامية هو إدراك هذه النواميس والسنن وفهمها وإحسان تصورها والتفاعل معها؛ لأن حتمية تفاعل هذه السنن مع من يتفاعل معها ويهتدي بهديها كحتمية وجود الله تعالى، فلا مراء ولا جدال، ومن يُنكر قُدرتها فإنَّما يُكذبُ اللهَ تعالى ـ عافانا الله ـ في صريح آياته وبذا يخرج من محيط المسلمين وأهل الملة، وما شأن هذه النواميس إلا كمصباح كهربيٍّ ينيرُ لمن يُحسن إدارةَ مِفتاحِه على جهةِ التشغيلِ، ولو أنَّه ظَلَّ في صلاة ودعاء ـ ما عُمِّر ـ في حجرته بجوار المصباح يبتهل إلى الله أن يضيء المصباحُ دون أن يكلف نفسه جهد إدارة مفتاحه فلن يضيء؛ لأن المصباح فرد من الأفراد المُنتَظَمة في ناموس الله تعالى الناظم لهذا الكون.

يقول صاحب المنار: إنَّ إرشاد الله إيانا إلى أنَّ له في خلقه سُنناً يُوجب علينا أنْ نَجعل هذه السنن عِلمًا من العلوم المُدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبيِّنون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بيَّنها العلماءُ بالتفصيل عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن سجَّل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلَّنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسيرَ في الأرضِ لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها، ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم بما منحوا من الذكاء والخوف وقوة الاستنباط يفهمون المراد بسنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها، ونحن في هذا العصر أحوج إلى فهم هذه السنن وتدوينها، كما احتجنا إلى تدوين علم الأحكام وعلم العقائد؛ لما لها من أهمية عظيمة في حياة الأفراد والأمم؛ ولما يبعث فيهم من

الحياة ويحيي فيهم العزائم والهمم، فتستطيل الآمال والرجاءات لكل خير وفضل في الدنيا والآخرة[١]. اهـ.

فإذا قامت الأمة بهـذا الدور الأول خير قيام وأدركت سنن الله ونواميسه في كونه فإنها ستنتقل بصورة تلقائية إلى المحطة الثانية، وهي كيفيات تفعيل هذه السنن وطرائق التعاطي معها، لتفعل فعلها وتؤدي دورها، وكما بيَّن القرآنُ هذه السنن فإنه أكمل دوره على عادته، ووضَّح طرائق تفعيلها والانسباك مع روحها. . . ومقدار الأمل الحاصل في نفوس أتباعـه من خلال فهم سننه هو الذي سيُشَكِّل قوة دافعة للزوم تلك الطرائق واحتـرام الشروط، وإن كلفهم الأمـر بـذل الكثير من أموالِهم وأوقاتهم بل أرواحهم ودمائهم.

يقول محمد قطب: لقد قدر الله تعالى لدينه أن ينتصر، وللمسلمين أن يُمَكنوا، وللمشركين أن ينهزموا. ومع ذلك فهل قال الله تعالى للمسلمين: ما دمت قدرت لكم النصر والتمكين فاقعدوا وانتظروا إنفاذي قدري وهو لا بـد نافـذ؟ كلاَّ وإنَّما قال لهم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال: ٦٠]، وقـال تعـالـى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾[محمد: ٤]، وقال ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[محمد: ٧]، فلا بد من اتخاذ الأسباب والعمل بالشروط لبلوغ سنة الله في نصر دينـه والتمكين لأمته وإن كان ذلك قدرًا مقدورًا من عند الله[٢]. اهـ.

إنَّ الله تعالى ليس عاجزًا عن نصرة الحق والدين، وإعلاء كلمة التوحيد بغير

---

(١) محمد رشيد رضا، المنار: (٣/ ٣١٥)، في ضمن تفسير آية (١٣٧) من آل عمران، بتصرف يسير.

(٢) محمد قطب، مفاهيم ينبغي أن تصحح: (ص٢٦٣) بتصرف يسير.

الأدوات البشرية، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون، ولكن هكذا اقتضت مشيئته وهكذا تجري سننه، وهذا ما فهمه النبي الكريم ﷺ وكان يطبقه في كل غزواته، وحتى في هجرته فما ترك الأسباب قط ﷺ كيف وهو صاحب قاعدة: «اعقلها وتوكل»[(١)].

فإذا بلغ المسلمون هذا الدور من الأخذ بالأسباب انفتحت أمام نواظرهم أبواب الأسباب كما يبيِّنها كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ والتي من شأنها أن تبلغهم وعد الله بنصرهم والتمكين لدينهم ومنهجهم، وليس من شأن هذا البحث أن يتوسع في أسباب النصر والتمكين؛ إذ لها مواطن ورودها ومظانها[(٢)].

أقول إنَّ أول قضية على المسلمين إدراكها أنَّ الله كتب لهم النصر منذ الأزل، وأنَّ تأخُره ليس لشأنٍ متعلقٍ بالسنن والنواميس أو نظام الكون، إنما لقصورٍ وقع فيه المسلمون في أمرٍ من الأمور هنا أو هناك، أو مخالفةٍ لمنهج الله في شأن أو أكثر، تحجبُ عنهم كرائم النصرِ لحينٍ، ولعلها تكون سببًا في حرمان جيلٍ كامل من الشعور بنشوة النصر، ويُرجأ إلى جيلٍ غيره، وانظر في التاريخ تجد كم صبر المسلمون حتى فُتحت القسطنطينية، وقد كانوا منذ عهودٍ مبكرةٍ بعد رسول الله ﷺ كلٌّ واحدٍ منهم يرقب لعله أن يَشْرُفَ بأن يكون من قال فيه رسول الله ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[(٣)]، حتى فاز بها محمد الفاتح عام

---

(١) الترمذي، السنن: (٦/ ٥٧) وصححه الألباني في صحيح الترمذي رقمه (٢٥١٧).

(٢) مثل كتاب فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم لعلي محمد الصلابي، وعوامل النصر والتمكين في دعوات المرسلين، لحمد بن حمدان الشهري وغيرهما.

(٣) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب: الفتن والملاحم، باب: فتح القسطنطينية: (٨/ ١٧٥)، والبخاري في التاريخ: (٢/ ٨١)، وأحمد في المسند: (٤/ ٢٦) قال الألباني: إسناده ضعيف لجهالة عبدالله بن بشر الخثعمي فقد انفرد بالرواية عنه الوليد بن المغيرة =

(١٤٥٣م)، ما يوافق العام (٨٦٥) للهجرة وجيشه الكرام[1].

إنَّ سنن الله تعالى لا تتحول ولا تتبـدل، إلا إن كان هناك قوةٌ أعظم أرادت تغييرها بأخرى من عندهـا، فإذا سَلَّمنا أنَّ السنن من الله القوي بل الأقوى، وأنـه لا قوة في الكون تعارضه وتنازعه؛ فينبغي أن نسلم ـ بالضرورة ـ أنَّه سبحانه الذي يملك هذا التحويل ولا يستطيع أحدٌ أبدًا تحويل سنة الله وناموسه، فقوله الحق الذي لا يملك معارضته حادثٌ، ولو أنَّ مَواكبَ الباطل جميعًا أرادت مُصادَمَـة الحق، ـ وسُنَنه الحق ـ فإنَّ مصيرها الزوال والاندثار، وكل معارك الباطل مع الحق كانت الغلبة فيها للحق المبين، وانظر في سورة (العنكبوت) تجد جملة من الصدامات مع الحق من أشدَّ الأقوام وأعتاهم. . . كعاد الذين خالف القرآن النسق في وَصْفِهم، فكلُّ الأقوام غيرُهم ـ من الكافرين ـ قال الله لهم مهددًا أنه أهلك من هم أشدُّ منهم قوةً إلا عادًا فلم تعرف الحِقب التاريخية قومًا أشدَّ منهم، فقال لهم الله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[فصلت: ١٥]، هـذه عادٌ ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾[الفجر: ٨]، صادمـت الحق بباطلها هي: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾[الفجر: ٩]، أيضًا: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾[الفجر: ١ ـ ١٢]، وقارون الذي مفاتح كنوزه تنوء بالعصبة أُولي القوة، وغيرهم، فمضت فيهم سنة الله، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا

= المعافري ولم يُؤْثَر توثيقه عن غير ابن حبان.

(١) الزركلي، أبو الغيثِ خيرُ الدينِ بنُ محمـودِ بنِ محمّدِ الزركليُّ الدمشقيُّ (ت١٩٧٤م). الأعلام: (٤/ ٢١٢).

كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ ﴾[العنكبوت: ٣٨ ـ ٣٩]، مضت سنة الله ونواميسه في هؤلاء الطواغيت، قال الله ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠]، وذكر الله قبلهم مَدين وقوم لوط وقوم نوح، وكلهم جرت عليهم سنة الله التي لا تحابي أحدًا. وفي كل مرة انتصر الحق وزهق الباطل، وفي كـل مرة ارتفعت كلمة الله وسفلت كلمة الباطل، لتتجذر في قلوب المؤمنين سنة الله تعالى في نصر دينه ودعوته، ويالله كم من الأمل يتفتق في نفوس المؤمنين، وكم من الرجاءات تنبعث فيهم من مثل هذه السُّنَّةِ الباقية.

ثانيًا ـ التداول:

وهو التعاقب في المال والسلطة، أو التناوب في الظفر في الحرب، والاستيلاء على المكان، كما قال أهل اللغة، فمعنى اندال القوم، أي: تحولوا من مكان إلى مكان... ومن هذا الباب: «تداول القوم الشيء بينهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض، وقيل الدَّولة والدُّولة لغتان، ويُقال بل الدَّولة في الحرب، والدُّولة في المال لقوله تعالى: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ فعبَّر عن المال بالضم»[1].

قال ابن منظـور: يُقال: اللهم أدلني على فلان؛ أي: انصرني عليـه، وفي حديث وفد ثقيف: نُدال عليهم ويُدالون علينا[2]. ومنه حديث أبي سفيان لهرقل: نُدال عليه ويُدال علينا؛ أي: نغلبه مرةً ويغلبنا أخرى[3]، وقالوا: دواليك؛ أي:

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٢/ ٢٧٤).

(٢) إشارة إلى حديث أوس بن حذيفة الذي أخرجه أبو داود، باب: تحزيب القرآن الكريم: (٤/ ١٦٥).

(٣) البخاري، الصحيح، باب: بدء الوحي: (١/ ٨).

مداولة على الأمر، ودالت الأيام؛ أي: دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة[١]. اهـ. والتداول سنة من سنن الله تعالى في كونه، لأن كل خلق الله فانون وتجري عليهم الحوادث، ويتقلبون من حال إلى ضدها، فمن صحيح إلى مريض، ومن غني إلى فقير، وصغير فيكبر، ومسافر يرجع، وغيرها من الأحوال التي تتعاور الإنسان، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٥٤]، قال صاحب المنار: قال الأستاذ الإمام: هذه قاعدة كقاعدة قد خلت من قبلكم سنن؛ أي: هذه سنة من تلك السنن، وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين والمبطلين، المداولة تكون مبنية على أعمال الناس؛ فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافًا، إنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها. اهـ. أقول: فإذا علم المسلمون هذه الحقيقة الساطعة فعليهم أن لا يهنوا ولا يحزنوا أو يجبنوا ويضعفوا مما أصابهم في أيِّ زمان أو مكان، بل يجب أن يعظم أملهم لأنهم يعلمون أن دولة الباطل وإن طال أمدها فإنها ستدول، إنْ هم فهموا سنة التداول وعملوا بمقتضياتها، لذا يُكمل محمد رشيد رضا النقل عن شيخه: والعبارة توحي إلى شيء مطويٍّ كان معلومًا لهم، وهو أنَّ لكل دولة سببًا، فكأنه قال إذا كانت المداولةُ منوطةً بالأعمال التي تفضي إليها كالاجتماع والثبات والصحة في النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتُحْكِموها أتمَّ الإحكام[٢]. اهـ.

إذًا فالتداول سنة اجتماعية قد تكون بطيئة في تحققها، وقد تستغرق عشرات السنين، وأحياناً المئات حتى يتكامل مفعولها، وغير اللبيب أو بليد الذهن لن يدركها

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (٦/ ٢٥٢).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٤/ ١٢٢).

حين لا تتحقق في عمره المحدود؛ فيحسب أنه ناجٍ من آثارها فيستغرقُ في الترف غيرَ مكترثٍ بالنتائج أو عابئ بها، ولو أنه قرأ التاريخ أو سارَ في الأرض ونظر فيها لوجد كيف كانت مصائر من كانوا قبله، فالتاريخ هو شاشة العرض الكبرى للسنن الاجتماعية طويلة الأمد التي تتجاوز أعمار الأفراد.

والطغاة يظن كل واحد منهم أنه حالة فريدة غير مسبوقة، ولو تفكروا لأدركوا حقيقة خطاب الله لهم: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[إبراهيم: ٤٦]، لذلك فإن التاريخ يَعُجُ بأخبار الطغاة... ولم يبق منهم سوى الأخبار بعد أن دَرسوا وتركوا ديارهم لأَخلافِهم.

وإذا كنا قد تحدثنا في المطلب السابق عن سُنَّة التمكين؛ فإنَّ سنة التداول لاحقةٌ لها فلم تَدُمْ قوة في الأرض مهما طال بقاؤها... وإنما يحدث التغيير دائمًا، وتنتقل القوة من مكان إلى مكان، ومن شعب إلى شعب ومن جنس من أجناس البشر إلى جنس آخر.

وعلى الرغم من أنها سنةٌ من سنن الله لها حِكْمَتها عنده، فإنَّ لها أسبابَها؛ فهي لا تحدث اعتباطًا، يقول محمد قطب: إنَّ الأمم في نشأتها واضمحلالها تمر بأطوار، في نشأتها تكون مستوفزة الطاقات، فهي تصارع القوى القائمة لتُثْبِتَ وجودها، ثم لتُثَبِّتَ وجودَها، والصراع دائمًا يحفز القوى الكامنة فتعمل بكل طاقتها، ثم تجيء فترةٌ تكون الأمةُ مُمَكنة لكنها خائفةٌ من أعدائها، فتظل يقظةً لنفسها وما حولها فيستمر تمكينها.

ثم تجيء فترة أخرى تطمئن فيها إلى أنها قد أصبحت في مأمن من أعدائها، لأنها بلغت مبلغًا من القوة يُرهب أعداءها فلا يفكرون في العدوان عليها، وفي هذه

الفتـرة يبدأ التراخي ويبدأ الترهل ويبـدأ الترف، ويبـدأ الانحلال الذي يؤدي إلى الضعف فيطمع الأعداء.

وحين يصل الترف إلى حب الحياة وكراهية الموت، وكراهية تكاليف الجهاد في الأنفس والأموال يبدأ الاضمحلال الذي يؤدي إلى الزوال، وتنتقل القـوة إلى مولود جديد يشب ثم يترعرع، حتى تدركه السنة في نهاية المطاف[1]. اهـ. وهذا المعنى عين ما قصده ابن خلدون في (مقدمته) يوم عَنْوَنَ للفصل الرابع عشر فيها بأن (الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص)[2]، وما كان هذا إلا لأن هناك سنة ربانية وقانون اجتماعي ينتظم الكون كله، هي سنة المداولة أو قانون التداول قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، قال الزمخشري: المراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة ونداولها: نُصرِّفها بين الناس، نُديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء كقوله:

فيومًـــا علينـــا ويومًـــا لنـــا ويومًـــا نُـــساءُ ويومًـــا نُـــسَرُّ[3]

ومن أمثال العرب: الحرب سجال[4]. اهـ[5].

ومما يؤكد حسن فهم الجيل الأول لهذه السنة الكونية العظيمة وما ترتب على

---

(١) محمد قطب، لا يأتون بمثله: (ص١٥٣).

(٢) ابن خلدون، المقدمة: (ص٨٥).

(٣) هذا البيت لنمر بن تولب، وهـو صحابي روى حديثًا واحدًا عن رسول الله ﷺ، وهو من المخضرمين من الشعراء، أدرك الإسلام وهو كبير، وكان يلقب بالكيس، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: (١/ ٤٨٥).

(٤) وجدته في مجمع الأمثال للميداني، وهي مِنْ سَجَل وهـو الدلو فيه الماء، وتستعمل في المعارضة والمباراة والمنافسة في كل شيء، ومعنى المثل: أن الحرب دُوَل بين الناس، سَجَل منها على هؤلاء، وسجل منها على هؤلاء.

(٥) الزمخشري، الكشاف: (١/ ٣٢٧).

فهمها من انبعاثٍ للأمل في نفوسهم حتى في أحلك الظروف وأقساها، ما كان حين صعد أبو سفيان الجبل يوم أحد فقال: (أين ابن أبي كبشة[١] أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله ﷺ وهذا أبو بكر وها أنا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والأيام دول، وإن الحرب سجال. فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار. فقال أبو سفيان: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذن وخسرنا)[٢]. فانظر إلى الروح الشامخة لدى عمر بن الخطاب وهو المنهزم ـ في موازين المادية الجافة ـ وقايسها مع روح أبي سفيان المنتصر، عمر يبصر الخير والجنة من وراء أُحد، وأبو سفيان الخيبةَ والخسارَ، انظر إلى هذا الجيل العظيم الذي تعلم من الرسول العظيم ﷺ أنَّ سُنَّة التداول هي التي جعلتْ وتجعلُ خطَّ سير التاريخ يأخذ شكل الدوران، فكما يتم التداول بين الليل والنهار كذلك يتم التداول بين العدل والجَور، وبين الصعود والهبوط، وبين التقدم والتخلف، وبين النهوض والانحطاط، وهذا ما قاله رسول الله ﷺ: «لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره»[٣].

---

(١) قيل: أبو كبشة: رجل تألَّه قديمًا، وفارق دين الجاهلية، وعبد الشعرى فشبهت المشركون النبي ﷺ به، وقيل: كانت له أخت من الرضاعة تسمى كبشة، وكان أبوه من الرضاعة يكنى بها، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض: (١/ ٢٨١).

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية (٤/ ٢٥)، مسند أحمد بن حنبل، مسند عبدالله بن عباس: (٦/ ١٠) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) مسند أحمد بن حنبل، مسند معقل بن يسار: (١٧/ ٢٥٦)، والسيوطي، جمع الجوامع رقمه (٢١٤٩)، وقال: فيه خالد بن طهمان، وثقه أبو حاتم الرازي وابن حبان، وقال: يُخْطِئُ ويهم، وبقية رجاله ثقات، وصححه العراقي في محجة القرب: (ص١٧٧).

وإذا كان الحال كذلك مع سنة التداول؛ «فإن الهزيمة النفسية لا يجوز لها أن تعرف مكاناً لها بين الأمة التي تؤمن بهذه السنة مهما اشتدت المحن وطال الليل وتكاثفت الظلمات، خصوصًا مع تصديق التاريخ على صدق سنَّة التداول في مراحل التاريخ... إنَّ الأمة الإسلامية تمتلك وطنًا متكاملٌ أقطاره وتبلغ مساحته خمسة وثلاثين مليوناً من الكيلومترات المربعة؛ أي: أربعة أضعاف مساحة الصين... ويبلغ تعداد هذه الأمة مليارًا ونصف؛ أي: ربع البشرية وأغلبية المتدينين بالديانات السماوية... والتي تمتلك من الثروات المادية ما يجعلها العالم الأول على ظهر هذا الكوكب... إن هذه الأمة رغم المأزق الحضاري الذي يمسك منها الخناق لا زالت تمتلك الجوامع الخمسة: وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة الحضارة، ووحدة الأمة، وتكامل دار الإسلام، وذلك فضلاً عن الرصيد الحضاري الذي تعلمت منه الدنيا والذي جعل هذا العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون، بينما عُمْر الغرب كعالم أول لم يتجاوز قرنين من الزمن... فإذا دعت هذه الأمة تاريخها في ظلِّ سُنَّة التداول، وإذا أدركت أرصدتها الحضارية والمادية في ظل هذه السنة، فإن الهزيمة النفسية التي هي أخطر تحديات واقعنا المعاصر لن تجد لها طريقًا مفتوحًا إلى عقول هذه الأمة وقلوبها...»[1]، وعندها سينبعث الأمل في النفوس وينطلق الرجاء في الأمة من جديد بالعودة إلى سيادة الدنيا، وأنَّ القيادة ستدول إليها من جديد.

لقد حدَّثنا القرآن عن سُنَّة التداول في الأمة نفسها إنْ هي قصَّرت في نصرة دينها والذود عن حياضها، وهو تداولٌ داخليٌّ بأنْ يستبدل الله الأمة المقصرة بأخرى غيرها خيرٍ منها، ترفع اللواء وتحمل العِبْءَ وتُرجع الأمة إلى خطِّ سيرها الأصيل،

---

(١) محمد عمارة، التداول. بحث قصير وجدته على الشبكة العنكبوتية (الانترنت).

الحقيقةِ بـه والذي لا ينبغي لغيرها؛ إذ هي وارثـة الخلافة والأمانـة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[محمد: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: ٥٤]، وقـال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾[النساء: ١٣٣].

إنَّ سنة التداول ترتبط بصورة وثقى بسنة التدافع، (والتدافع مِنْ الدَّفع: وهو الإزالـة بقوة، وتدافع القوم؛ أي: دفع بعضهم بعضًا)[1]، قال ابن فارس: الدال والفاء والعين أصل واحدٌ مشهور يدل على تنحية لشيء[2]. اهـ. «والتدافع سُنَّة من سنن الله تعالى لحمايـة الحق من غلبة الباطل، ولامتحان مواقع الناس في خنادق الصراع؛ فإما في خندق الإيمان وإما في خندق الكفر، وإما مع أهل الحق وإما مع أهل الباطل... هكذا كان الصراع منذ فجر التاريخ وحتى يرث الله الأرض ومن عليها لحفظ الدين من الانهيار، وحفظ الدنيا من الفساد، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾[البقـرة: ٢٥١] ويقـول تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ

---

(١) ابن منظور، اللسان: (٦/ ٨٧).

(٢) ابن فارس، معجم المقاييس: (٢/ ٢٣٥).

وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج: ٣٩ ـ ٤١][(١)]، فكانت سنة الله في كل مرة تَكُفُّ الظلمة والعُصاة عن ظلم المؤمنين؛ ويكون الكفُّ على أيدي أنبيائه ورسله وأئمة دينه حيث كان يقع بين أولئك المُحِقِّين وأولئك المبطلين مدافعات ومكافحات ومنازعات، وكان الله في كلٍّ يدفعُ أهل الباطل بأهل الحق، ويظهر الحق ويَغلبُ الباطلَ ويدفعُه فإذا هو زاهق، لتدول دولةُ الباطل، ويندال الحكم لله ودينِه، فالذي يصنع التداول هو التدافع ـ في كثيرٍ من الأحيان ـ.

والذي يُحركُ دواعي التدافع عند البشر سنةٌ ثالثة هي سنةُ التحولِ والتَّقلبِ الذي يجري على ذات البشر فيُغير أحوالهم وظروفهم، فالصغير عندما يكبر سيدخل حلبة التدافع، والضعيف إذا قوي كذلك، والفقير حين يصير من أصحاب الثروات، وهذا على مستوى الفرد، وينسحب على ما فوقه لينتهي بالإمارات والدول، فلقد كتب الله على الإنسان التقلب والتحول من حال إلى أخرى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾[الحج: ٥]، إنَّ إنشاء الإنسان من التراب، وتطور الجنين في مراحل تكوينه، وتطور الطفل في مراحل حياته، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود، كل هذه التحولات في هذه المخلوقات وغيرها متعلقة بأن الله هو الخالق،

(١) فتحي يكن، فقه سنة التدافع، بحث قصير وجدته على الشبكة العنكبوتية.

والتحولُ هذا إذًا من السنن المُطَردة التي تنشأ من أنَّ خالقَها هو الحقُّ الذي لا تختلُّ سننُه ولا تتخلف، وأنَّ اتجاه الحياة هذا الاتجاه في هذه الأطوار لَيَدُلُّ على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها وتحولاتها، فهناك ارتباطٌ وثيقٌ بين أنَّ الله هو الحقُّ الخالق وبين هذا الاطراد في التحولات، والثبات عليه ما كانت الحياة والأحياء، فهي سننٌ ثلاثٌ متكاملة: سنة التداول، وسنة التدافع، وسنة التحول، ثلاث سنن مركبٌ بعضها على بعض، وكلٌّ واحدة منهن من لوازم الأخرى، والثلاثة تتداور في رؤوس مثلث الحياة، وتتعاقب فإن انتهى دور سنة بدأ دور الأخرى؛ لتُسَلِّم هي كذلك للتي تليها، ثم لتقوم الأخيرة ـ رتيبةً ـ بالرجوع على الأولى بالدور، وهكذا تجري عربة الحياة تتعاورها رؤوس المثلث بانتظام ولا تتخلف أيٌّ منها أو تتبدل. السنن الثلاث تتعاقب مع الحالة الواحدة، غير أنها جميعًا تعمل بلا توقف مع المجموع البشري بلا كَلَلٍ أو ملل؛ لأنها سنن الله الباقية بقاء الله تعالى الحي الذي لا يموت. فيوم يكون الطفل قابعًا في أطوار تحولاته يلهثُ ليصير شابًا، يكون والده الذي بلغ أشدَّه وصار كهلاً يدافع جدَّه الذي بلغ سنن الشيخوخة، ولعله الفَنَد، فما عاد يعلمُ من بعدِ علمٍ شيئًا. . . فتدول دولة الجدِّ ليعقبه الابن مُنتظرًا هو الآخر الجيل الذي بعده ليدفعه، وتستمر عربة الحياة مُنداحةً في حركتها الدائبةِ ليس يُوقفها شيءٌ. . . وتستمر معها السنن الناظمة لها بِقَدرٍ مُحكمٍ وميزان لا يطفِّفُ الكيلَ ولا يُخسر أحدًا حقه، بل هو القسطاس المستقيم. . . وليس يجور، إذًا هو تغير في الأحوال يؤدي على تدافع بين الناس في الأدوار مما يقود إلى تداول بينهم على عرش السيادة والسلطة.

ويبقى سؤال ملح لا بد من طرحه، هل الإسلام خاضع لسنة التداول؟ أم الأمة الإسلامية هي الخاضعة؟ وما الفرق بين الأمرين؟.

والجواب يكمن في التفريق بين الإسلام وحملة الإسلام؛ فالإسلام شيءٌ، ومن يعتنق الإسلام شيءٌ آخر، والدليل أنَّ الكافر بكلمة يصير مسلمًا، والمسلم بضدها يخرج من محيط الإسلام، كما أنَّ المسلم يستحق هذا الوصف ـ أي: الإسلام ـ أو يُحرمُ من بركته بقدر ما يقتربُ أو يبتعدُ عن حقيقته، وبقدر تمثُّلِهِ لأصوله وأركانه، واحترامه لها أو تقصيره فيها وتخلِّيه عن بعضها وزَرْيِهِ بها، فالإسلام كالشمس ترسل أشعتها وضوءها عبر مساحات الكون المفتوح أمامها، ويكون اهتداء الإنسان بذلك الضوء والشعاع على قدر فتحه لعينيه، وتلمسه لسبل الخلاص على بصيرة من ذلك النور، أما إذا ذهب الله بنورهم ـ نتيجة لفعل أيديهم ـ وأرادوا السلوك بغير الشمس وضوئها، واشتروا الضلالة بالهدى، فهم الصمُّ البكم العمي الذين لا يرجعون ولا يهتدون، الذين قال الله فيهم: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[البقرة: ١٧].

إنَّ الإسلام للبشر كالشمس للدنيا أو كالعافية للبدن فالدنيا لا يمكن أن يكون لها غناء عن الشمس، كما أن البدن سيكون عليلاً ضعيفًا من غير العافية، وحاجة الأرض للشمس في أول شأنها لا تزيد ولا تنقص عن حاجتها لها في زماننا أو في آخر عمرها، وحاجة آدم ـ عليه السلام ـ للعافية كحاجة آخر أبنائه ممن تقوم الساعة وهم شهود، وكذلك الإسلام للبشرية فلقد كان مذ كانت الخليقة، وسيظل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وقوافل الأنبياء والرسل لم يكن دورهم في ابتداع دين أو إسلام كلٌّ بحسب هواه، إنما كان يتمثل دورهم في إحياء الدين والإسلام الذي خَفُتَ في نفوس الناس، وكان الله تعالى كلما ذَوَتْ شعلة الدين في الأرض يذكيها بنبي أو رسول يعيد لها نارها ونورها من جديد[١].

---

(١) ينصح بقراءة كتاب الفلسفة القرآنية، لعباس محمود العقاد فهو قيم جدًا وله إشارات.

وإذا كانت النبتة في الهجير تشتاق للوابل أو الطلّ، وإذا كانت الأرض لا بد لها من دورتها حول الشمس لتتم فصولها ويبقى التوازن فيها؛ لتبقى الحياة، وإذا كانت نسبة الأكسجين في الجو ثابتة لا تتبدل تحرزًا من خطر زيادته ومغبة نقصه. . . فإنَّ البشرية بالمثل تحتاج إلى الإسلام الذي افترضه خالق البشرية القائل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[آل عمران: ١٩]، والقائل ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[آل عمران: ٨٥]، والقائل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[آل عمران: ٨٣]، هذه البشرية سيكتب لها من الاستقرار والهناء بقدر تمثلها للإسلام، ونطقها به، ودعوتها إليه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت: ٣٣]، هذه الكلمة التي نطق بها نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٧٢] ولقد عاش بها ولأجلها إبراهيم ـ عليه السلام ـ وذريته من بعده وكانوا يتواصون بها:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٣].

وكانت دعوة يوسف ـ عليه السلام ـ أن يموت على الإسلام وهو الوارث لدعوة جده إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وأمر بها كليم الله موسى ـ عليه السلام ـ قومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وأمر الله بها أصحاب عيسى ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، ودعا اللهُ حبيبَه محمدًا ﷺ لقولها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣]، ويوم أدرك الغرقُ فرعونَ علم أن لن ينجو إلا بحبل الإسلام فمد يده إليه فما بلغَهُ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، إذًا فالإسلام هو ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وإذًا فإنَّ هناك فرقٌ بين الإسلام ومعتنقيه، فإن دولة الإسلام لن تدول أما دولة المسلمين فقد يكون لها ذلك، فقد شاخت الدولة الأموية وذهبت، وهرمت الدولـة العباسية وفنيت، وكذلك دولـة المسلمين في الأندلس درست، ومرضت الدولة العثمانية وذهبت، لكن الإسلام لم يذهب والأمة الإسلامية بمجموعهـا باقيـةٌ لا تزول، والدليل أنَّ المـارد الإسـلامي في كـل فتـرة يستيقظ ويبعث اللهُ له من يجددُ أمرَه في الناس، كما أخبر الصادق المصدوق «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1]، فيوم زالت حضارة الفراعنة

---

(١) أبو داوود، السنن، باب ما يذكر في قرن المائة: (٦/ ٣٦٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داوود رقمه (٤٢٩١).

والكنعانيين والأنباط والأشوريين وغيرهم من الأمم العريقة ويوم اندثرت حضارة الرومـان والفـرس بالرغم من الشأن الـذي بلغـوه، وحتى في زماننا زال الاتحـاد السوفيتي ومن قبله بريطانيا العظمى، والآن نرى مقدمات زوال أمريكا وترهلها ـ إن شاء الله تعالى ـ والإسلام في كل هذه المراحل يبقى هو الإسلام العظيم الذي لا يزول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩] فالمستقبـل مفعم بآمال العـودة إلـى التمكين وخاصة حين تقع المعركـة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ التي يقـول فيها الحجر والشجر «يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»(١).

المستقبل مفعم بالآمال والرجـاءات إذا استشعر المسلمون ضرورة تجسيد الإسلام في واقعهم، وتطبيق منهجه ومراعاة سننه، عندها سيتجدد وعد الله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ﴾[النور: ٥٥]، وعليـه فالفرقُ بين الإسـلام وبين معتنقيـه حاضر، وعلى قـدر صدق القوم بالتزام أصول وأركان الدين الرباني يكتب لهم من شرف الانتساب إليه والتسمية به، وإذا علمنا أن الإسلام هو دين السماء والأرض والبشرية جميعًا منذ خلق الله السماء والأرض؛ فإننا ينبغي أن نعلم أن السنن الناظمة للكون لن يكتب لها التحكم بالسنة الكبرى، السنَّةُ التي لأجلها تعمل كل السنن الأخرى، ولخدمتها سنَّها الله تعالى، تلك السنة والقاعدة والغاية الكبرى هي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، سنة الإسلام والتوجه إلى الله تعالى والشعور بمعيته وعظمته في كل ما تبصره العين وتسمعه الأذن ويقع عليه الحس، ومن غير

(١) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء: (٤/ ٢٢٣٩).

المتوقع بله من المستحيل والممتنع أن تعمل سنن الكون في ضد تيار سنة تعبيد الكون لله تعالى؛ لأن ذات السنن من جنود الله ومما ينطبق عليه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦]، وهي ممن قال الله فيهم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدثر: ٣١]، في حزب الله الكبير الذي كتب الله له أن يفوز ويفلح، وكما أن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١]، فإن إرادة الله تعلقت بأن يكون القرآن الكريم ليس كمثله كلام، وأن الدين المختار للبشرية ليس كمثله دين، وكما أن الله تعالى لا تجري عليه الحوادث، فإن كتابه لا تجري عليه الحوادث؛ لأنه في حفظ الله القدير: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[الحجر: ٩]، وكذلك هذا الدين محفوظ في ثنايا ذلك القرآن الكريم[1]، ومتعلق بضمير العظمة ﴿إِنَّا﴾ الذي لا يغالبه شيءٌ، ولا يدافعه شيءٌ، ولن يتداول معه أحدٌ على عرش العظمة والخيرية؛ لأنه من الله العظيم الذي صدر عنه ذلك الكتاب العظيم؛ فأعاد بقيادته دفة الدنيا لترجع لدين الله العظيم، هذا الدين الموجود والباقي هو صاحب الكلمة الأولى والأعلى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٤٠]، الذي لا تنطفئ شعلته ولا يذوي نوره: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[الصف: ٨]، إنَّ هذه النصوص القرآنية تعبر عن حقيقة الدين، وترسم صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء، ترسم صورة الذين يكيدون ويتآمرون محاولين القضاء على هذا الدين الجديد المتجدد، الذي تدين به السماوات والأرض والجبال، يريدون إطفاء نوره بنفخة من أفواههم الضعيفة، وهدم بنيانه السامق بنطاح من رؤوسهم الهزيلة،

(١) وتدخل السنة النبوية الثابتة في دائرة الحفظ لأنها وحي الله إلى رسوله ﷺ ومكملة الدين ومتممة النور.... فليس فيها ما صدر عن شهوة أو هوى لقول النبي الكريم ﷺ كما في مسند أحمد: «أوتيت القرآن ومثله معه» ولقول الله تبارك وتعالى من قبل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[النساء: ٨٠].

وما علموا أنَّ الله تعالى كتب لنور دينه أن يظلَّ متقدًا، ولبنيان شرعه أن يظلَّ شامخًا حتى يوم الدين، ويكتب للناس من الظهور والتمكين بقدر تمسكهم به وارتباط حياتهم بشعائره؛ فهو كالقطار السائر فلا يعبأ بالريح والأمطار، ولا تغير مساره العواصف العاتية، ومن يركب فيه فهو الناجي؛ لأنه قطار يسير على عين الله وسكةُ سيرِه من صنع الله الخبير، وما شأن السنن الكونية مع هذا الدين إلا كشأن توابع الشمس، تلك الكواكب التي تقبس منها وتستمد منها، ولن يكتب لها يومًا أن تتحكم أو تَحْكُم بشيء عليها، إنَّ الإدراك لهذه السُّنَّة ـ سنة التداول ـ على هذا النحو يبعث في الصف المسلم أعظم الآمال ويحيي فيه رميم الرجاءات بأنَّ الأمة منصورة، وأن السيادة ستدول بين يديها وترجع إليها إنْ هي عرفت لسنن الله قوانينها، ورعتها حق رعايتها وأدت الذي عليها لها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[إبراهيم: ١٤].

إنَّ سنَّة التداول تبعثُ الأمل في النفوس؛ لأننا نملك الحقَّ الذي لا بد أنْ يظهرَ ويحلَّ عوضًا عن الباطل؛ إذ النزاع بينهما باق ولا بد أن يكون البقاء للأصلح كما حدثنا الحكيم العليم: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ثالثًا ـ إن مع العسر يسرًا:

إنَّ المُتتبعَ والدارسَ للدين الإسلامي بِدقَةٍ وتَمَعُّنٍ يجدُ أنَّه يَتميزُ بخصائصَ ومُميزاتٍ لا توجدُ في غيرِه جعلتُه قابلاً للنماء والثبات والعطاء طِيلَة أكثرَ من أربعةَ عشرَ قرناً من الزمن، وسيبقى كذلك إلى أنْ يطوي الله السماء والأرض ومن فيهنَّ كطيِّ السجل للكتب؛ ذلك أنَّ الشريعة الإسلامية ذات صفة عالمية خالدة.

ومن هذه الخصائص التي انفرد بها الإسلام الأغرُّ عن سواه: رفعُه للحرجِ عن أتباعِه، وإرادتُه الأيسرَ لهم، وكفُّ كلِّ ما فيه مَشقةٌ وعسرٌ عنهم، وليست كذلك الشرائعُ السابقة، فبعضُها تضمن بعضَ العنتِ والأعمالَ الشّاقة مما يُناسب أحوال وأوضاع تلك الأمم التي جاءت لها تلك الشرائع، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[النساء: ١٦٠ ـ ١٦١]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[الأنعام: ١٤٦]، ومن صور التشديد على الأمم السابقة اشتراط قتل النفس لتتم التوبة من بعض الذنوب الكبيرة والتخلص من وزرها: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[البقرة: ٥٤]، (ومثله تطهير الثوب بقطع موضع النجاسة منه، وكذلك بطلان العبادة في غير الموضع لها، إن الشرائع السابقة لم تخلُ من المشاق والتشديد بدليل دعاء المؤمنين في القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾[البقرة: ٢٨٦]، ومن أبرز البشائر التي جاء بها محمد ﷺ لأمته التيسير والتخفيف ورفع الحرج، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ

لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧])[1].

قال وهبة الزحيلي: يضع عنا الإصرَ والأغلال؛ أي: يرفع عنا التكاليف الشاقة كالقصاص من غير تمكينٍ من العفوِ أو دفعِ الديَّة، وقتل النفس عند التوبة؛ أي: بالتقاتل وإهدار الدماء، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وتحريم العمل يوم السبت، وهذا ما تميزت به رسالة رسول الإسلام؛ من الأخذ باليسر والسماحة والبعد عن الحرج والمشقة وإرهاق النفس[2]. اهـ.

إنَّ قواطع القرآن الكريم وفواصل[3] السنة الشريفة تؤكد التيسير في الإسلام؛ لما في التعسير من خطرٍ كَمينٍ على أتباع المنهج يُنفِّرُهم ويصدُّهم عن اللزوم، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦]، كما ثبت عن رسولنا الكريم ﷺ أن قال في ذات السياق لأبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما: «يسِّرا ولا تعسِّرا وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا»[4]، وقول النبي ﷺ: «إنَّ الدين يسرٌ ولم يشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه

---

(١) د. مازن مصباح مصباح. اليسر ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية: (ص١) جامعة الأزهر/ غزة.

(٢) الزحيلي، وهبة بن مصطفى. التفسير الوسيط: (٣/ ٧٥) بتصرف.

(٣) فواصل: جمع فاصله مِنَ الفصل وهو القطع والبت، ومنه حديث النبي الكريم ﷺ «هو الفصل ليس بالهزل». الترمذي، باب: ما جاء في فضل القرآن الكريم.

(٤) البخاري، الصحيح، باب: ما يكره من التنازع والاختلاف: (٢/ ٢٥٩).

فسددوا وقاربوا»[١]، وقوله: «إنَّ خيرَ دينِكم أيسرُه»[٢]، بل لقد ذكر الله تعالى المحرمات وحددها في القرآن الكريم في كثير من الأحيان بأعيانها؛ لِقِلَّتِها، كما في بيان المحرمات من النساء والمحرمات من المطعومات، كما أنكر أشدَّ النكير على الذين يشُقُّون على المسلمين فيحرمون عليهم ما لم يرد فيه نصٌّ، وتحسبًا من مغبة الانخداع بهم والتأثر بجهالاتهم قال تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام: ١٥١]، ليقطع الطريق على كل من يريد أن يفتري على الله، أو يشق على المسلمين ويشدد عليهم ويفتنهم عن الحق: ﴿وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وفي تشريع الرخص في الإسلام أكبر الدلالة على رحمته ويسره وغنى الله تعالى عن تعذيبنا أنفسنا، قال القاسمي: فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النفوس إلا وسعها[٣]. اهـ.

إذًا فالإسلام دين التيسير والرحمة، وإذًا كم من الأمل سينبثق من هذه الخِصيصةِ في نفوس أتباع هذا الدين الكريم وهم يرونه ويسمعونه، بل يحسونه يتلمسهم ويعطف عليهم ويرحم ضعفهم ويكلف نفسه من التشريعات الضافية ما ليس لها غرضٌ إلا التخفيفَ عنهم لكل عنتٍ وعقابيل قد تواجههم في مسيرة عبوديتهم لله تعالى.

إنه شعور قَمينٌ أنْ يُوَلِّد في نفس المؤمن آمالاً بِنِطاح النجوم والعلو عليها،

---

(١) المصدر السابق، باب الدين يسر: (١/ ٢٣).

(٢) أحمد بن حنبل، المسند: (٢/ ٣٢) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢/ ٣٧٩).

(٣) القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت١٩١٤م)، محاسن التأويل: (١٢/ ٤٤٥).

شعورٌ يجتاح حجرات القلب فيملؤها غبطةً وسعادةً وسرورًا وهناءً، شعور العبد الضعيف المسكين بأن عين الله لا تغفل عنه وتحوطه وتحميه، شعور المخلوق الهزيل الحسير أنَّ يد الله القادرةِ فوق يدِه تَجذبُه إلى ساحة الرضا والتوفيق من فوق كل شرٍ يحيط به أو مكرٍ يُدبر له.

هذا المسكين المنُكرُ الذي كان في حينٍ قريب من الدهر شيئًا ليس مذكورًا، المخلوق من نطفةٍ أمشاجٍ هيِّنةٍ مَرذُولةٍ ما لو لامس مثلها صفحة يد الإنسان لغسلها متأففًا مستقذرًا لها، أو طالعت عينه ذلك السَّليخ(١) الضئيل في مطالع نشوءه في تريبة(٢) الأمِّ لتقزز واسترجع.

هذا المسكينُ المَهيضُ وهكذا حاله محلاً للعناية الربانية والألطاف الرحمانية، فيالله كم في هذه الصلة من تشريف وتكريم لهذا المخلوق على الرغم من هذا الضعف والهوان، وليس الأمر مقصورًا على التشريع والأحكام التكليفية بل وفي سائر حياة الإنسان ومعاملاته فإذا استوى الإنسان على أمواج القدر، وهتفت به من جوانب الغيب مُلمةٌ أو نائبةٌ، أو كاد له فَاجرٌ كَفُورٌ، سيجد بشارة في قول ربه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[الحج: ٣٨]، يقول محمد أحمد الراشد: فليس في ذاك الأوان أسعدُ منه ولا أكثرُ منه وثوقًا في المستقبل، فيدرك أن العاقبة للمتقين وأنها محجوزةٌ له محتكرةٌ إذا استقام، وإذا قرأ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾[الشرح: ٥ ـ ٦]، فإن قلبه يجد إلى الطمأنينة سبيلاً، وكأنه يتناوش اليسر من مكان قريب، أو يُرمى به إليه هديةً، وعليها اسمه وعنوانه ملفوفةً بوثيقة امتياز،

---

(١) سليخ: مِنْ سَلَخَ، وهو كشط الجلد.

(٢) تريبة: واحدة الترائب، وهو صدر المرأة إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٧].

يؤهله لتصرف غير ذي حد ولا انتهاء، إلا أن يكون هو الناكل بعدما يتدخل حسد الشيطان؛ فينكبح، فتكون له قصة توبة ثانية، ليست لذة الاستئناف فيها بأقل من لذة الرفل بتلك السكينة الأولى لو كان مستمرًا[١]. اهـ.

إذًا فاليسر في تعقبه للعسر يمثل سنةً كونيةً مطردةً ثابتة، وليست حالةً طارئةً في ظرفٍ خاصٍ لفردٍ أو جيل معين، والمؤمن حين يدرك هذه السنة فإنه سيبلغ ذروة عالية من الأمل والفأل، وكأنَّ زمام الصِعاب في يديه فما من عوادٍ عليه ولا صوائل[٢] إلا وربه ضمينٌ له وكفيلٌ، يبردُ على قلبه ويخففُ عنه، ويحفظه من كل سوء بمثل ألطاف قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[الفرقان: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[الطلاق: ٢ ـ ٣]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الليل: ٥ ـ ٧].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[البروج: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[الزمر: ٣٦].

---

(١) محمد أحمد الراشد، نحو المعالي ص (٤٣).

(٢) صوائل: جمع صائل، وهو القاهر، مِنْ صال يصول، ومنه حديث النبي ﷺ «اللهم بك أصول وبك أجول»؛ أي: أسطوا على العدو. مسند أحمد، من مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (٣/ ٢٣٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق: ٧].

وكم قصَّ القرآن الكريم من قصص تفريجِ كربات أنبيائه عند تناهيها في الشدة، كإنجاء نوح ـ عليه السلام ـ ومن معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ من النار، وفدائه لولده الذي أُمر بذبحه، وإنجاء موسى ـ عليه السلام ـ وقومه من اليمِّ وإغراق عدوهم، وقصة أيوب ويونس ـ عليهما السلام ـ وقصص محمد ﷺ مع أعدائه وإنجائه منهم، كقصته في الغار ويوم بدر ويوم أحد ويوم حنين، وغير ذلك لِيَصْدُقَ فيهم جميعًا وعد الله الصادق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[يوسف: ١١٠]، وما يوم الأحزاب إلا أنموذجٌ لبلوغ الشدة ذروتها، بل لقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وظنَّ كثيرٌ من الناس بالله الظنونا، وكان ابتلاءً للمؤمنين وزلزالاً عظيمًا «يوم انتهى أمرهم من الشدة إلى حيث اضطرهم الضجر إلى أن يقول الرسول ـ وهو أعلم الناس بشؤون الله تعالى وأوثقهم بنصره وداعيهم إلى الصبر ـ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾[غافر: ٢٥] وهم الأثبت بعده، العازمون على الصبر، الموقنون بوعد النصر ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[البقرة: ٢١٤] استبطاءً له واستطالة لمدة الشدة والعناء))[1].

عندها جاءهم الرد على طريقة السنة الماضية التي تَنشِل المؤمن من وَهدَةِ الخوف والهلع الخفيضة إلى شاهق الأمن والقرار ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤] هذه السنة التي يجب على من يتحرك في نفسه شيء من الشك فيها أن ينقطع للاستغفار حتى يظنَّ أنَّ الله غفر له، وهذا ما أراده القرآن من أتباعه تطهيرًا لقلوبهم وضمائرهم،

---

(١) القاسمي، محاسن التأويل: (٧/ ٢٣١).

فقال لهم جلَّ في علاه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النصر: ١ ـ ٣]. يقول سيد قطب: والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل، الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسَّسُ إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء، وهو مدخل يصعب تَوقيه في القلب البشري فَمِنْ هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار مما قد ساورَ القلبَ أو تدسَّسَ إليه فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي والشدة الطاغية والكرب الغامر... من ضيق بالشِّدة واستبطاء لوعد الله بالنصر وزلزلة كالتي قال عنها في الأحزاب ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾[البقرة: ٢١٤]، فمن هذا يكون الاستغفار[1]. اهـ.

إنَّ الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، والفجر بعد الليل قانونٌ لا ينخرم؛ لأن الله هو الذي سنَّه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[الشورى: ٢٨]، ولقد جاء الغوث المغيثُ مريمَ ـ عليها السلام ـ يوم قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[مريم: ٢٣]، قالتها يوم ضاقت بها الدنيا وأمحلت سماؤها تسعة أشهر، فألم الولادة والمخاض ـ من جهة ـ يهدُّ جسدها الهزيل حتى ألجأها إلى جذع النخلة ولذلك عبر بقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ قال الزمخشري: أجاء منقول من جاء إلا أنَّ استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ألا تُراك تقول: جئت المكان وأجاءنيه زيدٌ، كما تقول: بلغته وأبلغنيه[2]. اهـ. وخوف

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: (٦/ ٣٩٩٦).

(٢) الزمخشري، الكشاف: (٣/ ٢٣).

الفضيحة، وحياؤها من كلام الناس، وتشوُّرُهم[1] يهدُّ مشاعرها ـ من جهةٍ أخرى ـ، عندها جاءها غيث وفرج من ربها على لسان وليدها في كلمته الأولى: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم: ٢٤]، (أي: أنَّ حالتَك حالةٌ جديرة بالمسرة دون الحزن؛ لما فيها من الكرامة الإلهية)[2]، والمنحة الربانية، فعاقِبةُ الصبر حميدةٌ طيبةٌ، ولقد تمخَّضَ صبر مريم عن نبيٍّ كريـم كانت كلمتـه الثانية: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم: ٣٠ ـ ٣١]، قالها ليعلن ـ قبلَ نبوته ـ براءَةَ أمِّه وعفافَها وأنها على العهد، الصالحةُ البتولُ.

وليسـت هذه هي الحالة الأولى في القرآن التي يتمخض فيها الصبرُ ويسفرُ عن ميلاد نبيٍّ كريم، فهذا نبي الله زكريا يصبر زمنًا طويلاً قبل أن يبشرَ بمن لم يجعل الله له من قبل سميًا، بمن كان فَذًا في اسمه وفي خُلقه وعِلمِه حتى آتاه الله الحكم صبيًا، صبر طويلاً على جدب البنين حتى جاءه الغيث من ربه: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[آل عمران: ٣٩] فكان يحيى السيـِّد[3] الذي لم يُسيَّد في القرآن من الأنبياء أحدٌ سواه، وكان حصورًا زاهدًا عفيفًا نبيًا كريمًا، وكذلك دومًا وعد الله: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[الشورى: ١٩] وقبل ابني الخالة ـ عليهما السلام ـ صبرت زوجة عمران ـ أم موسى ـ على أشدِّ ما قد يعرض للنفس من ضيق وألم. . . ألم فراق الوليد الرضيع الذي كان يُغرمُ به كلُّ من يراه فضلاً عن أمه الحنون:

---

(١) التشور: مِنْ شور، وهو عرض الشيء واستظهاره؛ أي: الخوض في شأنها والاختلاف فيه.

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (١٦/ ١١٠).

(٣) السيِّد: الحكيم والفقيه والعالم، وقيل: هو الشريف، وقال الزمخشري يسود أهله: يفوقهم في الشرف.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[طه: ٣٩]، وكيف تفارق رضيعها خشيةً عليه من الموت؟ في جعله في تابوت يسبح وحيدًا في النيل. . . في صورة هي أشبه ما تكون بالموت لكن بطعم آخر يُغاير نِصال[1] فرعون، غير أن عين الله ما برحت تحوطه، ليصدق فيه وعد الله تعالى له: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[طه: ٣٩]، ومضت سنة الله في زوجة عمران وفي رضيعها، وكان العسر في أحلك صورة نذيرًا باليسر يرفعُ ستاره، ويُذهب أكداره: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: ٧].

وهكذا فهي سنة الله تعالى التي يجب أن لا يُغفلها سُراةُ الأمةِ في القرن الواحد والعشرين قبل رعاعها، سُنَّة الفَرَج بعد الشدة واليسر بعد العسر، وأنَّ ما تمرُّ به المجموعة الإسلامية في الأرض من تضييقٍ وتشديدٍ للخناق ليس إلا مرحلةً لها ما بعدها، وأنَّ الخيرَ سيولد فيها من رحِم الشرِّ، والأملَ سَيُبعثُ من ترائب اليأس والقنوط: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦]، فالألم للأمة ليس مذمومًا دائمًا ولا مكروهًا أبدًا. . . فقد يكون خيرًا لها أن تتألم في مرحلة من الزمان، قال محمد الغزالي: إن أكثرنا يتبرم بالظروف التي تحيط به، وقد يضاعفُ ما فيها من نقصٍ وحرمانٍ ونكدٍ، مع أن المتاعب والآلام هي التُربة الخصبة التي تنبت فيها بذور الرجولة، وما تفتقت مواهب العظماء إلا وسط ركام من المشقات والجهود وكما نقل عن (أيمرسون) في كتابه (القدرة على الإنجاز): من أين أتتنا الفكرة القائلة أن الحياة الرغدة المستقرة الهادئة الخالية من الصعاب والعقبات تخلق سعداء الرجال أو عظمائهم؟ إن الأمر على العكس، فالذين اعتادوا الرثاء لأنفسهم سيواصلون الرثاء

---

(١) نصال: جمع نصل، وهو حد السيف والسهم والسكين كما في اللسان لابن منظور.

لأنفسهم ولو ناموا على الحرير وتقلبوا في الدمقس[١]. اهـ. ولهذا المعنى قال ابن تيمية ساخرًا من سجنه وسجّانه: إنَّ سجني خلوة ونفيي سياحة وقتلي شهادة[٢]. اهـ. ولنفس المعنى أملى أبو بكر السرخسي (المبسوط)[٣] وهو في بئر مظلم؛ فاستحال منارة علم سامقة.

وقبلهم ابن عباس ﵄ الذي أشرق الأمل في نفسه من جهة غروبه لدى معظم الناس حين فقد بصره، وعلم أنه سيقضي ما بقي من عمره مكنوناً محبوسًا وراء الظلمات عن رؤية الحياة والأحياء، فلم ينطو على نفسه لِيندُبَ حظَّه العاثر، بل قبل القِسمة المفروضة، ثم أخذ يضيف إليها ما يهوِّن المُصاب ويبعث الأمل والرجاء في النفوس عمومًا فقال:

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي لساني وسمعي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور[٤]

وهكذا يجب أن تدرك الأمة في هذا الزمن كيف تصنع من العقبات المُرَّة عواقب حلوةً طيبةً، وكيف تنظر للعسر ـ مهما كان ـ، فهو حسيرٌ جدًا لا يتجاوز حدود الدنيا الحسيرة القصيرة، وأنَّه دافعٌ يحرك في النفوس الأمل كالليل كلما أوغل

---

(١) محمد الغزالي، جدد حياتك: (ص١٢٨)، الدمقس: هو الحرير والديباج ويقال له بالفارسية: الابريسم.

(٢) ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي (ت٧٩٥هـ)، ذيل طبقات الحنابلة: (١/ ٣٤٤).

(٣) كما ذكر ذلك هو في مقدمة كتابه المبسوط. وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل (ت٤٨٣هـ).

(٤) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد النمري (ت٤٦٣هـ). الاستيعاب في معرفة الأصحاب: (١/ ٢٨٦).

في الاسوداد أوشك الفجر بالبلج، يقول (دايل كارنجي)[١] في كتابه المشهور (دع القلق وابدأ الحياة): كلما ازددت إيغالاً في دراسة الأعمال العظيمة التي أنجزها بعض النوابغ ازددت إيماناً بأن هذه الأعمال كلها ما تَمَّتْ إلا بدافعٍ من الشعور بالنقص... هذا الشعور هو الذي حفزهم إلى القيام بها واجتناء ثمراتها.

نعم فمن المحتمل أن الشاعر (ملتون) لم يكن يقرض شعره الرائع لو لم يكن أعمى، وأنَّ (بيتهوفن) لم يكن ليؤلف موسيقاه الرفيعة لو لم يكن أصم...[٢]. اهـ. هكذا فَهِمَ هؤلاء الغربيون الأمر على هذا النحو وهم المُغامسين للدنيا، السادرين في ترفها، والذين لم يعرفوا لذة الإيمان على نحو ما يعرف أتباع محمد ﷺ.

هكذا وهم الشاردون عن الله وعن منهجه الحق، وهم الذين قال الله فيهم ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤]، فكيف لو أنهم يتصلون بوحي السماء كما هو حال الموحدين، كيف لو أنهم يتذوقون لذة خطاب الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧]، كيف لو يتذوقون قَدْرَ الأمان الذي يلقيه هذا الإخبار في قلوب المؤمنين به والمصدقين له، كيف لو أنهم الذين قال النبي الكريم ﷺ لهم: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له»[٣]، إذًا لانبعث في نفوسهم من الأمل والرجاء ما يتسامى

---

(١) دايل كارنيجي: كاتب ومؤلف أمريكي في علم الاجتماع والاتصال، ألف العديد من الكتب في هذا الموضوع مثل «كيف تكسب الأصدقاء» «فن الخطابة» والكتاب الذي قبسنا منه، والعجيب أن هذا الرجل الذي كان يعلم الناس أصول التعامل مع المشكلات والحياة ويدعو للتفاؤل والأمل، مات منتحرًا، مجلة البيان: العدد رقم (١٥٦) ص (١٣٢).

(٢) دايل كارنيجي، دع القلق وابدأ الحياة: (ص٣٥).

(٣) مسلم، المسند الصحيح، باب: المؤمن أمره كله خير: (٧/ ٢٨٠).

على الجوزاء في عليائها، كما الشأن للموحدين الذين ينظرون إلى الدنيا من عليائهم بعين الشرع؛ فلا تعدل في موازينهم جناح بعوضةٍ، فيدركون أنها دارٌ للعبور وليست مقرًا يطيب فيه المُقام، وعندها يهون عندهم ما مسَّهم فيها وأصابهم لأنَّ نشيدهم[1]: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وحداءهم: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فإذا كان هذا شأن الحياة الدنيا فالمؤمن حاله معها مترسمًا قول ربه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

رابعًا ـ حتمية الرزق:

(الرزق: يقال للعطاء الجاري تارة، دنيويًا كان أم أخرويًا، وللنصيب تارة، ولما يصلُ إلى الجوف ويُتغذى به تارة، ويُقال: أعطى السلطانُ رزقَ الجنود، ورُزقت علمًا، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ [المنافقون: ١٠]؛ أي: من المال والجاه والعلم)[2]، قال صاحب اللسان: والأرزاق نوعان: ظاهرةٌ للأبدان كالأقوات، وباطنةٌ للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم[3]. اهـ. وقال ابن فارس: الراء والزاء والقاف، أُصَيْلٌ واحدٌ يدل على عطاء لوقت، ثم يحمل عليه

(١) النشيد: مِنْ نَشَدِ، وهو رفع الصوت، كما عند ابن منظور، باب: نشد.

(٢) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات القرآن الكريم: (١/ ٣٥١).

(٣) ابن منظور، لسان العرب، باب: رزق: (٧/ ١١٢).

غير الموقوت [١]. اهـ.

وردت مادة (رزق) في القرآن الكريم في مائة وثلاث وعشرين مناسبةً موزعةً في أنحاء القرآن الكريم، فمنها النازل في أحياء مكة وحِيطَانِها، ومنها المدني في عاصمة التوحيد الأولى.

والمتأمـل يجدُ أنَّ العهد المكي احتجنَ العدد الأكبر من مرات ورودها في المسـاحة القرآنية الناطقة في مسـألة الرزق والمتحدثة عنها، وهذا بحسب طبيعة القرآن الكريم ومنهجـه، حيث وردت في المكـي ثمانين مرة؛ ليكـون الباقي في القرآن المدني؛ أي: ما يَنهَزُ على الثلاث وأربعين مرة.

لقد درج القرآن الكريم في مسيرة الإصلاح والتربية وردِّ الحياة إلى مسارها الصحيح عبر مساربها الصحيحة على البدء بتصحيح العقيدة، ثمَّ ترسيخها في نفوس الموحدين وتجذير أركانها، وهذا هو الشأن في القرآن المكي «حيث نزل في قوم ألداء في الخصومة، أهلِ مماراة ولَجَاجةٍ في القول عن فصاحة وبيان، حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارعَ زاجرةً، وشهبًا مُنذرةً، وحُججًا قاطعةً، يُحطم وثنيتهم في العقيدة، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية والربوبية، ويهتك أستار فسادهم ويُسَفِّهُ أحلامهم، ويقيم دلائل النبوة، ويضرب الأمثلة للحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار، ويتحداهم ـ على فصاحتهم ـ بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم» [٢]. فالتدرج والبدء بالأهم من أصول التربية والإصلاح، وإذا تأملنا على سبيل المثال في ترتيب سورة الأنعام نجدها قد بدأت أولاً بتقرير العقيدة، ثم بعد ذلك بتقرير بعض الأحكام اللأَّزمة في المجتمع المكي، والتي لا يُستغنَ عنها لتستقيم الحياة وتعتدل، لقد بدأت

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، باب: رزق: (٢/ ٣١٩).

(٢) مناع القطان، مباحث في علوم القرآن: (ص٥٠).

السورة بالقضية الأساسية وهي تقرير العقيدة حيث دارت معظم آيات السورة حول هذا الهدف المحوري، فتعرضت لقضية الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر.

وهذا هو المنهج العدل، تقديم الأصول على الفروع والأهم على المهم «فمنذ بداية السورة وحتى الآية السادسة عشرة بعد المائة والسورة تركز على أصول العقيدة ثم جاءت بعد ذلك للحديث عن بعض الأحكام الشرعية العملية مما كان يشكل ضرورة ملحة في واقع المسلمين في مكة»[1].

ولا بد أن نلفت إلى أن القرآن المدني استمر في حديثه عن أصول العقيدة أيضًا وهو يخاطب المؤمنين خاصةً الذين استقر الإيمان في نفوسهم حتى أنشؤوا أمةً مسلمةً، ودولةً مسلمةً، وجيشًا مسلمًا يقاتل في سبيل الله تعالى «لأن قضية العقيدة قضية لها أهميتها الذاتية حتى لو كان المخاطبون مؤمنين... فالتركيز عليها ليس ناشئًا من إنكار المخاطبين لهذا القرآن... إنما هو ناشئٌ من أنها هي المفتاح الذي يصلح للقلوب البشرية الموحدة وينشىء فيها الخير ويربيها على الخير وينتج منها الخير... وأنه لا يوجد مفتاح لهذه القلوب يهيئها لما تهيئها له لا إله إلا الله، وحين تكون القلوب منكرةً تخاطب بهذه القضية لتتفتح للحق والخير، وحين تكون مؤمنةً تخاطب بها كذلك ليتعمق الإيمان بها ويتجدد لأنه الزاد الذي لا زاد سواه»[2].
وانظر إلى هذه التوصية للمؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾[النساء: ١٣٦]، إنه النداء الحنون الحميد، النداء بالإيمان وبالصفة التي تفردهم عن سواهم من أهل الجحود والكفر، النداء الذي يحمل في طياته الأمر

---

(١) أحمد محمد الشرقاوي، الحوار في القرآن الكريم في ضوء سورة الأنعام: (ص١٦).

(٢) محمد قطب، واقعنا المعاصر: (ص١٥) بتصرف.

بلزوم أركان الإيمان، ثم جاء بعده التهديد على الكفر بتلك الأركان: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١٣٦]، والتعبير بالضلال البعيد لأنه لا يُرجى بعده عودة للجادة.

إذًا فقضية التوحيد هي قضية القضايا، وهي محور الرسالة ولقد فعل القرآن في مكة فعله بالنفوس... في نفوس أولئك المشركين فأنشأهم نشأة جديدة كأنها ميلادٌ جديدٌ... ثم فعل فعله في نفوسهم بعد أن آمنوا فأصبحوا ذلك الجيل الفريد الذي نزل في وصفه هذا التقرير الرباني المهيب ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠].

وإن من أبرز مفردات التوحيد الذي نزل القرآن المكي ليبعثها في نفوس أتباعه قضية اعتقاد أن المتصرف الوحيد بشؤون الرزق وتقسيمه هو الله تعالى، وأنَّ هذا الأمر من لوازم ربوبيته، ولا يملكه إلا واجب الوجود؛ إذ كل مُحدثٍ مُحتاجٌ إلى مُوجدٍ ثمَّ إلى رازقٍ ولذلك جاء الترتيب في الآية على هذا النحو: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الروم: ٤٠]، يقول السيوطي: ووجه الاستدلال من ذلك أن الله تعالى بيَّن أنَّ الرزق من عنده، والرزقُ: كلُّ شيء ينتفع به، أو كل شيء يصل إلى العبد مما هو لا يستغني عنه، ويحصل به مما لا بد له منه، وجميع أكساب العبد داخلة تحت هذا، وإن جميع ذلك أرزاق وهو من عند الله ويخلقها، وبيَّن أنْ ليس لأحدٍ أنْ يفعل من ذلك شيئاً ولن يخلقه. أو لا خالق لذلك إلا الله، وفيه وجه آخر من الاستدلال حيث قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وقوله ﴿خَلَقَكُمْ﴾ يقع على خلقه إيانا بصفاتنا إذ لو لم يكن خلقنا بأوصافنا لقال: الله الذي خلق أجسامكم، فلما وقع

الخلـق علينا كما نحن علمنا أنه خلق أجسـامَنا وأوصافَنا، ومن أوصافِنا أكسابُنا، فعلمت أن أكسابنا مخلوق لله تعالى [(١)]. اهـ.

فإذا استقر في نفس المؤمن هذا المعنى الإيماني المهم هان عليه كل ما قد يعرض له في الدنيا من صور البلاء الظاهرة، وتضاءل في عينيه كلُّ وعيدٍ أو تهديدٍ قد يخاطبه به طاغيةٌ هنا أو جبارٌ هناك؛ إذ درج الطغاة على استعباد الخلق بتهديدهم في أرزاقهم وآجالهم، أما الإيمانُ بالقدر وأنَّ الرزق والأجل بيد الله تعالى فأكبرُ دافع للمؤمن في كل زمان ليمضي في طريق الحق والدعوة إلى الله.

إنَّ المُحركَ الأصيل للنفسِ البشريةِ هو أمرُ الله تعالى أو القدرُ، وهو الفاعل الحقيقي في ميدان الحياة، وخيوط توجيه الدمى البشرية وغيرها مما خلق الله تعالى بيَدِه[(٢)]، ولقد كشـفت النصوص الواصفة للقدر عن صلته الوثيقة بالرزق والأجل فقد ذُكرت في أكثر من موضع من الكتاب العزيز مع الإقرار بثبوتها وكونها محددةً، وأنَّ المـرء لا يغادر هذه الأرض قبل أن ينـال كلَّ رزقِه ويستنفد جميع أجله، فلن يموت إلا بقدر ولن يستطيع أحد أن ينقص من رزقه دانقًا[(٣)] واحدًا مهما علا جاهُه، وعظُم سلطانُه.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ). الحبائك في أخبار الملائك: (١/ ٨٦).

(٢) أقصد الجانب التسخيري في الإنسان كالرزق والأجل وهو محل الدراسة، ولا ننكر الاختيار لدى الإنسان، وهو الذي سيحاسب عليه في القيامة.

(٣) الدانق: هـو سدس الدرهم، وجمعـه دوانق، كما في اللسان لابن منظور باب: (دنق): (٦/ ٢٣٢).

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[الأنعام: ١٧]

وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[العنكبوت: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[العنكبوت: ١٧]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[الإسراء: ٣١]. وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الأنعام: ١٥١].

قال سيد قطب: نزلت هذه الآيات ـ من الأنعام ـ لمَّا كان بعضُ أهل الجاهلية يقتلون البنات خشية الفقر والإملاق؛ فأرادت بيانَ أنَّ الرزقَ بيد الله وأنه لا علاقة بين الإملاق وكثرةِ النسل أو نوع النسل، إنما الأمر كله لله، ومتى انتفت العلاقة بين الفقر والنسل من تفكير الناس وصُحِحَت عقيدتُهم من هذه الناحية فقد انتفى الدافع إلى تلك الفعلة الوحشية المنافية لفطرةِ الأحياء وسنة الحياة[(١)]. اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[هود: ٦].

ولقد نطـق بها نبيُّ الله شعيبٌ ـ عليه السلام ـ رداً على تهديد قومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٤/ ٢١).

أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وقال تعالى موجهًا إلى ضرورة الانصراف للعبادة يوم الجمعة مع ما يجب من الموثوقية برزق الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال النبي الكريم ﷺ في هذا المعنى لابن عباس رضي الله عنهما: «. . . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1]، وقال ﷺ: «ألا وإنَّ الروح الأمين نفث في رُوعِي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستكملَ رزقها وإن أبطأ عليها»[2].

إنَّ استقرار هذه العقيدة في النفس يجعلها قويةً فلا تضعف، عزيزةً فلا تذل، تقف أمام كل طواغيت الأرض فلا ترهب سلطاناً، ولا تستجدي ملكًا، ولا تستخذي أمام سطوة المُلك وبريق الدراهم، بل تظل في كبريائها مرتفعة فوق أوحال الأرض وطينتها متسامية على الدنيا وأهلها، دون بغي أو ظلم أو استطالة. وكل هذا من الإيمان بالسُنَّة الكونية والقاعدة الشرعية المتمخضة عن الإرادة الربانية، الإيمان بالرزق وحكمة الله البالغة فيه يبعث في المسلم من الأمل ما لا يُقادرُ قَدْره، ويحيى

---

(١) الترمذي، السنن، من حديث ابن عباس: (٥/ ٥٦) صححه الألباني في صحيح الترمذي، رقمه (٢٥١٦).

(٢) البيهقي، شعب الإيمان، فصل: فيما يقول العاطس: (٨/ ٣١٠)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٦/ ٣٦٥).

فيه من الثبات ما لا يُنال ذراه، وهذا ما أرادت سورة (الذاريات) أن تفعله في نفوس الموحدين في مكة، إنها سورة (الرزق) حيث بدأت بالحديث عن الرياح والأمطار والغمام الجالبة للخير والبركة والرزق لكل ما يدب على الأرض ويحيا فيها؛ فتقسمه بينهم بعلم وحكمة، بدأت السورة واستمرت في سياقاتها ـ غالبًا ـ على هذا النحو لتربط الإنسان بالله تعالى وبعظمته وحكمته، لكي يتحرر من أوهاق[1] الأرض، ويتجرد لله تعالى فلا يأمل سواه ولا يرجو أحدًا غيره، لقد تكررت الإشارة إلى مسألة الرزق في السورة في مواضع متفرقة منها، إما مباشرةً كقوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات: ٢٢]، حيث يقسم تبارك وتعالى على ذلك مؤكدًا ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات: ٢٣] وقد ركز القرآن الكريم على موضع النطق وهو الفم لأنه أيضًا مكان الأكل؛ فالصورة الأهم للرزق كما هو معلوم هي المطعومات والمشروبات، وفي قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨]، ولأول مرة في القرآن الكريم يعبر باسم الله (المتين)، والمتين: مِنْ متن الشيء؛ أي صُلبه، ويدل على الثبات والاستقرار في قوته على الإرزاق، وغناه عن سائر خلقه، وعبَّر باسم الله الرَّزاق دون الرازق؛ «لأن المقصود تقرير ما تقدم من عدم إرادة الرزق وعدم الاستعانة بالغير، لكن في عدم طلب الرزق لا يكفي كون المستغني بحيث يرزق واحدًا؛ فإنَّ كثيرًا من الناس يَرزقُ ولده وعبده ويَسترزِقُ، والمَلِكُ يرزقُ الجندَ ويَسترزِق، فإذا كثر منه الرِّزقُ قلَّ منه الطلب لأنَّ المسترزِقَ منه يُكثر الرزق لا يسترزق من رزقه، فلم يكن ذلك المقصود يحصل إلا بالمبالغة في وصف

(١) أوهاق: جمع وهق، وهو الحبل والقيد، ويطلق على لجام الدابة، لسان العرب: مادة (وهق).

الرازق فقال الرَّزاق. وعبَّر بقوله ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ مع أنَّ «ذُو» تفيد معنى صاحب ولا تفيد معنى اللزوم والثبات؛ فتقول فلان ذو مال وذو جمال وغير ذلك مما لا يلزم لزومًا بيِّنًا ومنه قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: ٧٦] فجعل غيره ذا علم ووصف نفسه بالعليم، فبين ذي العلم والعليم فرق، وكذلك بين ذي القوة والقوي فرق»[١].

ولما كان المقصود في الآيات بيان استغناء الله عن خلقه وقدرته على رزقهم، وهذا أمرٌ ليس بالعظيم ولا الجليل، ولا يحتاج إلا لِقَدْرٍ من القوةِ يَسِيرٍ على عكس ما يعتقد الناسُ من خطورة الأمر وأهميته عبَّر بقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ تحقيرًا لشأن أرزاق الناس من جهةٍ، وفيها إراحةٌ للخلق بأن أمر أرزاقكم يَسِيرٌ على الله تعالى وأنه لا يحتاج إلا لقوةٍ دون ما تظنون؛ فليست بالعظيمة، ثم زاد خلقه تطمينًا يوم وصف قوته بالمتانة وهي الثبات الذي لا يتزلزل ولا يتغير ولا يزول.

وذُكر الرزقُ في السورة تعريضًا كما في مطلعها بذكر الذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات وهي الرياح والغمام والسفن والملائكة المقسمة للأرزاق، وكذلك عندما أخذ يصور حال عباده المتقين مع المال: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[الذاريات: ١٩] وكيف أنهم ينفقون منه؛ لأنهم لا يخشون من ذي العرش إقلالاً، فهو الرزاق الكريم، ثم وَصْفُه لسخاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يُقري ضيوفه القلائل بعجل سمين، يُسارع به إليهم عقب وفودهم إليه وبمجرد إلقاء السلام عليه، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظات، بل لم يعرفهم بعد، وهذا لأنه متخلق باسم الله (الرزاق): ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٢٧].

---

(١) ابن عادل، تفسير اللباب: (١٤/ ٤٠٨).

ومن صور الرزق كذلك التي أشارت السورة إليها رزق الله تعالى سيدنا إبراهيم بابن مبارك وهو في خريف العمر وامرأته عجوز عقيم؛ ليرسخ في نفسيهما وكل الموحدين من بعدهما أنَّ الله على كل شيء قدير، وليس لرزقه حدٌّ معلوم: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨ ـ ٣٠].

ثم أخذت السورة تذكر طوائف من المكذبين بقدر الله وقدرته وكيف أهلكَهم؛ لتصل إلى النتيجة الخالصة الأكيدة... النتيجة الواضحة البائنة التي تربط المؤمن بربه في كل شؤونه؛ لأنه هو الفاعل الحقيقي لكل أحداث الكون ومنها الرزق وتقاسيمه ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وهكذا فإنَّ تخليص القلب من أوهاق الأرض، وإطلاقه من إسار الرزق الذي تعود أن يَحدِب عليه وينشغل به، وتعليقه بالسماء، تَرفُّ أشواقه إليها ويتطلع إلى خالقه في علاه بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق، أو يعوقه عن الفرار إلى الله، أقول: هذا هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي طرقتها؛ لتصل في نهاية مطافها إلى مؤمنٍ ساكنِ القلب هادئِ النفس يُرنِّقُ[1] بجناحيه ليطير في سماء الأمل والرجاء، وشمس ثقته برزق ربه ما طَفلت[2]، ولن يكون لها الغروب وشيكًا.

هكذا أراد القرآن في مكة المكرمة أن يهيئ الأمة إلى مرحلة الامتحان الحق، عند التقاءها بأمواج الطغيان التي تستند في طغيانها على ضربها الوترَ الحساسَ عند المستضعفين من الناس، الذين لا يجدون إلا جهدهم، ولا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً، وترَ الرزق ومعه العمر والأجل، كما كان الشأن مع فرعون

---

(١) رنَّق: الطير إذا خفق بجناحيه ولم يَطِرْ.

(٢) طفلت الشمس: مالت للغروب.

الطاغية الذي قتل رجال بني إسرائيل واستحيا نساءهم، أو كما فعل مع السحرة بعد سلوكهم سبيل المؤمنين، وما حال أصحاب الأخدود مع طاغية عصرهم إلا قريب من هذه الحال.

إنَّ شأن الرزق عند الإنسان عظيم جدًا حتى عند الملوك وأعيان الناس، ولذلك اختبرت صاحبة اليمن نبيَّ الله سليمان ـ عليه السلام ـ بالهدية والمال؛ لتتوثق من كونه نبيًا صالحًا أو ملكًا جبارًا.

وما استطاع نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ أن يقود مصر والمصريين إلى الحقِّ والتوحيد إلا من بطونهم، فإن كثيرًا من الناس يقاد إلى الحق من بطنه.

وثبت عن أنس ﷺ قال: «ما سُئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه ولقد جاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين فرجع إلى قومه فقال يا قوم: اسلموا فإنَّ محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وإنْ كان الرجل ليسلم وما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»(١)، ولذلك كان من أَسهُمِ الزكاة سهم المؤلفة قلوبهم، وهذا لِعِلْمِ القرآن بطبائع الناس وميولهم.

كما ينبغي أن نعلم أن القرآن أكَّدَ حقيقة تفرد الله بمسألة الرزق من خلال نعيه على الزاعمين أن رزقهم بجهدهم وإعمال عقولهم، وصنائع أيديهم، كصاحب الجنتين الذي غرَّته جنتاه فظنَّ أنَّ الله عنه عاجزٌ، وأن رزقه كان بفعله وذكائه، وكذلك (قارون) الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾[القصص: ٧٨]، وما علم يوم فَرى فِريتَه أنَّ الله تعالى حقيقٌ أن يخاطب من عباده بقولهم: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) مسلم، الصحيح، باب: ما سئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال لا، وكثرة عطائه: (٥/ ٤٤٧).

ولو أنه نظر حوله لرأى كيف أنَّ الله يقلِّبُ الأحوال بين عباده، فيصبح الرجلُ غنيًا ويمسي فقيرًا، وكيف أن الملك العزيز يُخلَفُ بالعبيد الأذلاَّء، ويُخرِجُ من عائلةٍ فقيرةٍ مُوغِلةٍ في العِوَز الثريَّ وافرَ الرزقِ، وغيرها الكثيـر الكثيـر من الأمثلـة التي تدل دلالة قاطعة على أن الرزق بيد الله لا بيد غيره، وأنه وحده من يُوسِّعُ الرزق وهو من يَقْدِر.

مع ضرورة الالتفات إلى أن القرآن أمر الإنسان بالسعي لكسب رزقه وقوت عياله، وأنه لا يجوز له أن يقعد بطَّالاً عالةً يتكفف الناس، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٣٣]، فالعمل لكسب العيش واجبٌ، والسعيُّ على رزق العيال فريضةٌ، لذلك قال رسول الله ﷺ في وصف الطير في مَعـرِض أَمرِ النـاس بحسـنِ التوكل مثلَه لينـالوا نواله، : «تغدوا بطـاناً وتروح خِماصًا»[1].

والغدو: الخروج من أول النهار، والرواح: في آخره، وهما كناية عن بذل الجهد والتعب في تحصيل الرزق والقوت، وكذلك صورة التوكل الصحيح، فهو اعتماد على الله تعالى مع الأخذ بالأسباب.

وهذا يقودنا إلى قضية في غاية الأهمية وهي التساؤل التالي: هل تفضيل بعض الناس على بعض في الرزق فيه ظلم وغبن للفقراء؟ وما هي حكمة التفاضل بين الخلق في الأرزاق؟

وسأبدأ الجواب بنصوص من القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند، مسند عمر بن الخطاب ﷺ: (١/ ٣٥٢) صححه الألباني في كتاب (تخريج أحاديث مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام: (١/ ٢٤). المكتبة الإسلامية، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.

بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[النحل: ٧١]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾[الإسراء: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الروم: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[سبأ: ٣٦]، وقال: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[الشورى: ٢٧].

مما تقدم نستطيع القول ـ غير مُجافين للصواب ولا مُغالين ـ إنَّ موضوع الأرزاق حصرًا بيد الله تعالى، وإنه هو الذي يُقَدِّر أرزاق البشر بعدله وحكمته، وإن التفضيل لبعض الناس على غيرهم ليس ظلمًا بل هو العدل في قمةٍ من قممه. . .

إنَّ سعي الإنسان للرزق متفاوت، وكسبه نتيجة لذلك متفاوت، ومن جهة أخرى إنَّ استعداد الناس لتحصيل الرزق من علم وخبرات مكتسبة بالجهد والعمل متفاوت أيضًا ويتفاوت بحسبه كسبهم وأرزاقهم.

إنَّ فلسفة القرآن الكريم وهذا الدين الحنيف تُبين أنَّ الناس لو كانوا جميعًا أغنياء لتوقفت الحياة، وتوقف الناس عن العمل وعمارة الأرض الذي هو هدف الوجود عليها بعد عبادة الله تعالى، لهذا يَهَبُ الله ﷻ الرزق بقدر. . . والقصد هو دفع الناس لتحصيله باستمرار؛ فيعمروا الأرض بسعيهم فيها في شتى مجالات الحياة، وهذه من حكم التفضيل. . . إنَّ النظام الاشتراكي الذي أراد محاربة فطرة الله تعالى فطرح موضوع المساواة بين الناس في الكسب والرزق وأراد إنهاء الصراع الدائر بين طبقة العمال والفلاحين وطبقة الأثرياء بتشييع الثروات ومحاربة فطرة

التملك، وأراد القضاء على التفاوت بين الناس في الدخل فَشِل فَشلاً ذريعًا، وبعد مراحل طويلة من المحاولات وسنِّ القوانين والإكراه بالحديد والنار لطبقات الناس عاد الرزق والدخل فيها حسب التصور القرآني وارتبط بسعي الإنسان ومقدرته الجسدية والعملية ـ في غالب الأحوال ـ وهذه المقدرات هي أيضًا من الخالق هبةٌ منه ورحمةٌ أراد بها وبتقديرها إحداث حالة من التوازن. . . من أجل عمارة الأرض.

لقد أعطى الله ﷻ لكل إنسان استطاعة تختلف عن استطاعة الآخرين، فالبعض يستطيع دراسة الطب والبعض لا يستطيع مجاوزة المرحلة الابتدائية مهما حاول، والبعض قادر على العمل التجاري والآخر لا يحسن إلا أن يكون موظفًا في دائرة، وهكذا تتوزع الأدوار بحسب استطاعة الأفراد المختلفة لتتم عمارة الأرض، وهذا فضلاً عما للتفاضل من حكم أخرى كالاختبار والابتلاء للناس ليميز الله الصادقين من غيرهم لأن من الناس ـ كما أخبرنا الله الحكيم: ﴿مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج: ١١].

أيضا من الحكم بيان مقدرة الله وسطوته، وضعف الإنسان وعوزه؛ لتظل صلته بالسماء وعينه إليها شاخصةً وقلبه بها معلقًا فلا يندُّ عن عبوديته لله ولا يشرد. . .

إذا أدرك الإنسان حقيقة الرزق على هذا النحو وآمن به هذا الإيمان القائم على هذه الأصول؛ فإنه سيتعزز أملُه ويتجذرُ رجاؤه؛ لأنه يعلم أن يد القدرة الطليقة هي التي ترسم الأقدار، وأن الخلائق جميعًا في ظل حروف كلمة (كُنْ) التي بها يصرف الله الأرزاق والأعمار وكل الأمور.

وسيكون حال العبد المؤمن كالحسن البصري ـ رحمه الله ـ يوم سُئِلَ عن سرِّ زهده في الدنيا فقال: علمت أربعة أشياءٍ فاسترحتُ: علمت أنَّ رزقي لا يأخذه

غيري فاطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به وحدي، وعلمت أن الله مطَّلعٌ علي فاستحييت أن يراني على معصية، وعلمت فوق ذلك أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي. اهـ[١].

وقال أديبٌ متأدبٌ صاحبُ علمٍ ويقينٍ[٢] حكمةً فكأنه يصوغها من دُرٍّ أو هو قد ضمَّن الدرَّ إلا أنه كلِمٌ[٣]:

توكلت في رزقي على الله خالقي	وأيقنت أن الله لا شك رازقي
وما يك في رزقي فليس يفوتني	ولو كان في قاع البحار العوامق
ففي أي شيء تذهب النفس حسرة	وقد قسم الرحمن رزق الخلائق

خامسًا ـ الابتلاء:

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[التغابن: ١١]. أخرج البيهقي في (سننه): عن وكيع، عن الأعمش، عن أبي الظبيان قال: كنا نعرض المصاحف عند علقمة بن قيس فمرَّت بهذه الآية: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١] قال فسألناه عنها فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله؛ فيرضى ويسلم. اهـ[٤].

---

(١) علي بن نايف الشحود، موسوعة الدين النصيحة: (٢/ ١٥١).

(٢) تنسب هذه الأبيات للإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

(٣) هذا عجز بيت للمتنبي في مدح سيف الدولة، صدره: هذا عتابك إلا أنه مقةٌ.

(٤) الطبري، جامع البيان: (١٥/ ٤٢١)، وابن كثير في تفسيره: (٤/ ١٣٨)، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل: في ذكر ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات: (١٠/ ٢٨٢).

قال ابن كثير: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: بأمر الله وعن قدره ومشيئته ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره فصبر واحتسب واستسلم للقضاء هدى الله قلبه وعوضه عن ما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقينًا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أُخذَ منه أو خيرًا منه. اهـ[1].

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾؛ يعني: يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. اهـ[2].

وفي مثل هذا المعنى قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد: ٢٢]، قال النورسي ـ رحمه الله ـ: إنَّ دار الدنيا هذه ما هي إلا ميدانُ اختبارٍ وابتلاءٍ وهي دارُ عمل ومحلُ عبادة، وليست محلَّ تمتعٍ وتلذذٍ، وهي ليست مكاناً للأجرِ ونَيلِ الثواب، فما دامت الدنيا دار عمل ومحل عبادة؛ فالأمراض والمصائب فيها ما لم تكن في الدين، وبشرط الصبر عليها، تكون متلائمةً جدًا مع ذلك العمل بل منسجمةً تمامًا مع تلك العبادة، حيث إنَّها تمد العمل بقوة وتشد من أزر العبادة، فلا يجوز التشكي منها بل يجب التحلي بالشكر لله تعالى فتلك الأمراض والنوائب تُحَوِّلُ كل ساعة من حياة المصاب عبادةً ينالُ الأجر عليها[3]. اهـ.

إذًا فالابتلاء قدر من الله، وواحد من سننه الباقية في الأرض كبقائه تعالى،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ١٣٧).

(٢) الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: (١٦/ ١١٢).

(٣) النورسي، بديع الزمان سعيد (ت١٩٦٠م)، كليات رسائل النور، اللمعات: (ص١٠).

«والابتلاء: مِنْ بلا يبلو بلاءً، وابتليته: اختبرته، والبلاء يكون في الخير والشر»[1].

وقال ابن فارس: الباء واللام والواو أوالياء أصلان: أحدهما إفلات الشيء، والثاني نوع من الاختبار. اهـ[2].

ومازَ صاحبُ (الفروقِ) بين الابتلاء والإبلاء؛ بأن الابتلاء لا يكون إلا بتحمل المكاره والمشاق، ولا يقال: فلان مبتلى بالنعمة بل مبلو بها، والابتلاء يقضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية. اهـ[3].

إنَّ المؤمن إذ يدرك سنة الابتلاء في الكون يعيش مطمئنًا؛ لأنه يعلم أن ما يحدث له إنما هو قدر محسوم في علم الله سبحانه منذ الأزل، وهو يعلم أيضاً أن الله الذي قدر البلايا هو من يتلطف في إيقاعها عليه برحمة وتحنن؛ ليقوى على تحملها وتقَبُّلِها، وهو متمسك بإيمانه، واضعًا نفسه في دائرة عناية الله وإحسانه.

هؤلاء الذين آمنوا بربهم وأدركوا سنة الابتلاء في الدنيا فأسلموا قيادهم لخالقهم، يستشعرون ما يجري لهم من متغيرات بأنها ألطاف متوالية عليهم من ربهم؛ فيتقبلونها بهدوء وسكينة لأنهم يعلمون ـ وقد رُفِعَت الأقلام وجفت الصحف ـ أنَّ الأمر أشبه ما يكون ـ ولله المثل الأعلى ـ بمن يجلس متراخيًا في صالة يشاهد فلمًا، فهو يتابع ـ بثقةٍ كاملةٍ ـ الممثلين وأدوارَهم وقد رسمت من قبل وحسمت. . . فالمَشاهِدُ قد تكون مليئةً بالحركَةِ والرُّعبِ، وقد تكون مُفعمةً بالمسرةِ والسكينة وفي كلٍّ تبقى نفس المشاهد مومُوقةً[4] للأحداث بشغفٍ ومُتعةٍ لعلمه أن مشاهد

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (٣/ ٢٩٤).

(٢) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (١/ ٢٧٢).

(٣) الراغب الأصفهاني، الفروق اللغوية: (ص١٠).

(٤) مومُوقة: محبة ومتلهفة.

الصراع والألم قد أُحكمت من قبل لتشغل حيزًا معينًا من مكونات اللوحة التي يشاهدها لا تجاوزها إلى غيرها أو ما بعدها، لتستحيل من بعد فرحًا وسعادةً وهناءً؛ لأنها جميعًا منضوية في علم صاحب الفلم ومنتِجِهِ، وكذلك الدنيا وما فيها من أحداث في علم الخبير العليم.

«فالمسلمون إذا فهموا حقيقة القدر وأدركوا سرَّ الابتلاءات، يرون في الكوارث كالمجاعة والفقرِ جانبًا إيجابيًا؛ فلا يضيقون به ذرعًا واعِينَ أنَّ سلوكَهم الأخلاقيَّ الذي يبدونه حيال الابتلاءات أمرٌ بالغ الأهمية في نظر الله سبحانه وتعالى، فعندما يُواجَهُ المؤمنون بمثل هذه المكاره لا يكونون لقمةً سائغةً للاكتئاب والضغوط والآلام والخوف والهلع؛ لأنهم على يقين أن الله سيبدل كل هذه المصاعب لتصبح خيرًا ويُسرًا»[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقال تعالى يصف طمأنينةَ المؤمنين وسكينتَهم، وما تنطقُ به ألسنتُهم وقلوبُهم في مقابلة أقداره: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة: ٥١].

فالمؤمن إذًا مستسلم لله تعالى ولأوامره، كالبيدق في أرض المعركة على رقعة الشطرنج، فلو أنه بلغ أسوأ ما يمكن أن يكون في معركته، وهو الموت، فهو يعلم أنه دورٌ يمثله كما أنه كان يمثل في مرحلةٍ أخرى دور الحياة، فلا خوفٌ عليه ولن يحزن: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: ١١٢].

---

(١) هارون يحيى، سر الابتلاء (ص٢٢). يؤخذ عليه التعبير بـ(نظر الله) فالنظر الرأي بعد التفكر والتدبر، فلو قال منهج أو ميزان أو قدر.

إنَّ آيات القرآن الكريم الناطقة بسنة الابتلاء متكاثرةٌ حيث وردت مادة (بلا) في القرآن الكريم في ستين موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[الملك: ٢]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[النحل: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[المائدة: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨]. وقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٥]، وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾[محمد: ٣١]. بالإضافة إلى الكثير من الآيات التي تدل بصورة مباشرة على ذات المعنى من غير أن تورد مادة (بلا)، وتستعيض عنها بالفتنة[١] مثلاً أو ما يدل على معناها كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟

---

(١) من مشيئة قدر الله في كتابه التي تفطنت لها ـ بفضل الله ـ أن مادة «فتن» وردت في القرآن الكريم في ستين موضعًا مثل مادة «بلو»، وأذكرها من باب لفت النظر إليها، ولا أزعم إعجازا عدديًا فيها.

ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣]، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله تعالى في بيان اختباراته لنبيه موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وكذلك جاءت الإشارة إلى الابتلاء والاختبار في مثل قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

وقوله تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [العنكبوت: ١١].

والآيات متكاثرة في القرآن الكريم لتؤكد سنةً ماضيةً في الأرض... هي سنةُ الابتلاء والاختبار، ولقد عَنْوَنَ البخاري في (صحيحه) في كتاب المرضى بابًا خاصًا في الابتلاء سماه (باب أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)، وهذا ما أورده الترمذي في (سننه) من حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت

يا رسول الله! أيُّ الناس أشـدّ بلاءً؟ قال: «الأنبيـاء، ثم الأمثـل فالأمثـل، فيبتلي الرجل على حسب دينـه، فإن كان دينـه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينـه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»، وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»[(١)].

ويدل لذلك أيضًا حديث أبي سـعيد الخدري قال: «دخلت على النبي ﷺ وهـو يوعـك فوضعـت يدي عليـه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله! ما أشدَّها عليك؟ قال: إنَّا كذلك يضعَّف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر. قلت: يا رسول الله! أي الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: الأنبياء، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: ثم الصالحون، إن كان أحدهـم ليبتلى بالفقر حتى ما يجـدُ أحدُهم إلا العباءَة يحويها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء»[(٢)].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فنزلنا منزلاً فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل[(٣)] ومنا من هو في جشرِه إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنه لم يكن نبيٌ قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإنَّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمور تنكرونها

---

(١) الحديثان أخرجهما الترمذي في سننه، باب: ما جاء في الصبر على البلاء: (٤/ ٤١٧) قال الألباني فيهما: حسن صحيح، صحيح الترمذي: (٥/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) ابن ماجه، السنن، باب: الصبر على البلاء: (٦/ ٣٠)، صححه الألباني في صحيح ابن ماجه: (٩/ ٢٤).

(٣) ينتضل: يرمي بالسهام، وجشره: اخراج الدواب للرعي، يرقق: يزين، شرح النووي على مسلم (٦/ ٣١٨).

وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر...»[١].

لقد حرص الوحي الكريم على إخبار العباد بهذه السنة الماضية لِحكمٍ وفوائدَ عديدةٍ منها: بيان عدله في إقامة الحجة على الناس حتى لا يبقى لأحد منهم مَعتِبٌ ولا عُذرٌ، وليتميز الناس بين مؤمن صادق وغير ذلك، ومنها: أنه تعالى يُقَدِّر عليهم هذه الأمور لما يريده بهم من خير ورحمة؛ فيعلي درجاتهم ويكفر سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم ويتمُّ به يقينهم؛ فإنَّه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر: ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[الأحزاب: ٢٢]، وهم يتحسسون رحمة الله وعنايته تحوط بهم، وأنَّه يُبدِلُهم من بعد خَوفِهم أمنًا، ومن بعد مصابهم أجرًا، ومن بعد بلائهم رفعةً وسكينةً، وهذا ما أكده النبي الكريم ﷺ يوم قال: «ما من مسلم يُشاكُ بشوكةٍ فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومُحيت عنه خطيئة»[٢].

ومن الحكم أيضًا (أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك والصبر عليه إذا وقع فيهون عليهم حمله وتخف عليهم مؤنته بما يلوذون به من الصبر والتقوى، متنسمين لأنوار ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾[آل عمران: ١٨٦] فيصبروا على ما نالهم في نفوسهم وأولادهم وأموالهم من الابتلاء والامتحان، ويستشعروا تقوى الله في صبرهم وحبه، ويتحسسوا يد القدر تمسح دمعهم بما تعوضهم من أجر ورحمة وقرب من ربهم الكريم؛ لأنهم تخلقوا بما يجب عليهم حال اختبار الله لهم... تخلقوا بما

---

(١) مسلم بن الحجاج، الصحيح، باب: وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء: (٣/ ٣٨٠).

(٢) المصدر السابق، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض: (٤/ ٤٤١).

هو أهلٌ للرحمةِ والإفضالِ وبعزائم الأمور وكرائمها: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] أي من الأمور التي يُعزمُ عليها ويُنافس فيها ولا يُوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥][1].

ومن أبرز الحكم الجليلة لعرفان المسلمين بسنة الابتلاء وفقهه ما تنفتقُ عنه البلايا من أملٍ يحيي نفوس المؤمنين ويثبت أقدامهم، ويهيئهم لمرحلة ما بعد البلاءات والاختبارات، كما الشأن مع رسول الله ﷺ حيث قال له ربه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. إذًا فحال المؤمن مع الابتلاءات كالعضِّ على الأصبع، وبقدر صبر المؤمن يكتب له الخير والتمكين؛ إذ الابتلاء مسلط على الدنيا وما فيها، ولا يتجاوزها إلى ما بعدها، فعندها يهون على المسلم كل ما قد يخسره منها، إذ رأسُ هرمِها وباكورةُ متاعِها لا يعادل جناح بعوضة، فإذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق وطال ليلها؛ فالفقه لسنة الابتلاء وحده هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط، الفقه والفهم لسنة الابتلاء وقوانينها هو العاصم الذي يحتاج إليه المسلم لتصلحَ دنياه ويصلحَ دينُه، ولا بد أن يبني عليه أعماله وآماله وردود أفعاله حيال ما يفاجئه من أحكام الأقدار، وهو على يقين أنَّ الفرج قريب.

لذا لما جاء إخوة يوسف أباهم وعلى قميصه دمٌ كذبٌ قال في ثقة ويقين وصبر وسُكون: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ولأن يقينه لم يهتز أبدًا، ولأنه يُتْقِن فهم سنن الابتلاء أرسل ابنه الآخر

---

(١) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: (١/ ١٦٠) بتصرف.

معهم، وكما وكلَ يوسفَ لله وجعله في حفظه، جعل أخاه كذلك، فلم يأمن الإخوة عليه؛ لأنهم ليسو محلا للاستئمان، فتساءل في صيغة المنكر لحفظهم أخاهم والمثبت بخفي الإشارة أنه لم يثق بهم ابتداءً في حفظ يوسف ـ عليه السلام ـ، وعليه فسيكون مقدار ما يمنحهم من الثقة في حفظ (بنيامين) كمقدار الثقة التي منحهم يوم أرسل أخاه، مقدارٌ يشبه العدمَ أو هو كذلك: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤] والدليل في الاستفهام بـ «هل» استنكارًا وردًّا على قولهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، قال ابن عادل: لما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ قال يعقوب ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾، والمعنى: أنكم ذكرتم مثل هذا الكلام في يوسف وضمنتم لي حفظه حيث قلتم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وها هنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه فهل يكون ها هنا إلا ما كان هناك، فكما لا يحصل الأمان هناك لا يحصل هنا، فقوله: ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ﴾؛ أي: إلا ائتمانا كائتماني لكم على أخيه، شبه ائتمانه لهم على هذا بائتمانه لهم على ذلك[1]. اهـ. ثم أعلن أن ثقته في الأولى والأخيرة بالله فحسب: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤] حتى لشديد عجب أبنائه من ثقته وثباته قالوا: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[يوسف: ٨٥]، فأعلن لهم أنه يعلم سنن الله في أرضه، ويفهم سنة الابتلاء: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم أرادهم أن يوافقوه في ثقته ويقينه، فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، وسيأتي مزيد تفصيل في الفصل الرابع

(١) ابن عادل، تفسير اللباب: (٩/ ٣٠٧).

إن شاء الله تعالى[1]. . .

إن حقيقتين خطيرتين لو يدركهما المسلم سيكون أدركَ فِقه الابتلاء، وكيف يتعاطى مع الرزايا والمصائب، أما الأولى: فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا فإن الله لم يجعـل الدنيا دار بقاءٍ وجزاءٍ، بل هي دار امتحان وتمحيص، والعمرُ الذي يحياه الإنسـانُ فيها عبارةٌ عن تجاربَ متصـلةِ الحلقاتِ، يخرجُ من امتحـانٍ ليدخل في آخر، قد يُغايرُ الأخيـرُ الأولَ في صورته إلا أنَّ المضمون واحد، يُمتحن الإنسان بالشيء وضده، مثلما يصهر الحديد في النار ثم يرمى في الماء، وهكذا، فقد يبتلى بقلة المـال بعد وفرته، وهزال العافية بعد متانتهـا، غير أنه يعلم في كلٍ أنَّ البلاء لا يتجاوز حدود الدنيا، وأنه كغيره من بني جنسه في مقابلة هذه السنة، فحتى الرسل لم يسلموا، ويعلم أيضًا أنَّ خيرًا كامنًا له من ورائه، وإن كان لضعفه لا يدرك مخايله، لكن ثقته بربه تمنحه السكون والاطمئنان مهما اقتحمته عاديات الزمان.

أما الحقيقة الأخرى فتتعلق بذلك الإيمانِ السـاكن قلبَ المسلم والرابط له بربه، فإن الإيمان صـلةٌ بين الإنسـان وخالقه، صلةٌ يَصـدُقُ فيها البعض ويكذبُ آخرون، وإذا كانت الصـلات بين الناس والصـداقات لا يعرف وثيقُها من هشِّها، ولا يُعتَدُّ بها ولا يُنوَهُ بشأنِها إلا إذ أكدها مرور الأيام، وتقلب الليالي، واختلاف الحـوادث، فكذلك الإيمـان بالله لا بد أنْ يخضعَ لذات الاختبارات ليكشف عن صـادقه وزائفـه، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، فإذا تمَّ هذا الإدراك لا شكَّ سينبري المؤمن لمقابلة كل البلايا مطمئنًا؛ عسى يرى اللهُ الكريم صدقه.

---

(١) سيأتي الحديث مفصلاً عن أمل يعقوب ـ عليه السلام ـ في الفصل الرابع إن شاء الله تعالى، مما لم يذكر في هذا الفصل لأنه أليق هناك.

إنَّ هاتين الحقيقتين[١] يرتكز عليها الإدراك الحق لسنة الابتلاء، فإذا تمتا لأحدٍ من الناس فلن يُدهش للصعاب إذا لاقته، ولا للنكبات إذا صدمته، ولن يتبرم أو يتأفف للآلام والمُوجِعات إلا بالصورة الظاهرة، إلا بدمعات لا تمازج اليقين ولا تخالط الثقة، ولن يقول إلا ما يرضي الرب في كل حال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة: ١٥٦]، وسيثبت ثبات الصِّديقين ويقول: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ [يوسف: ١٨]، إنَّ إدراك هاتين الحقيقتين من عناصر الرجولة التامَّة والتربية الناضجة، ونصيب كل إنسان من البلاء والمشقة على قدر ما أوتي من مواهب وقدرات، ولذلك كان الأنبياء هم أشدَّ الناس بلوى ثم الأمثل فالأمثل... إنَّ نقلَ الحياةِ وتغير مسارِها وتصحيحِ مسالِكها يحتاجُ إلى عمالقةٍ أشدَّاء، أما خِفة الحِمل وإلقاء الأيدي وراء الظهر، وعدم المبالاة وقلة الإحساس بالمسؤولية، فهي صفات المهازيل والأطفال، والذي لا يعمل أبدًا ويركن إلى الراحة فلن يصل، والرجل القاعد في داره لن يصيبَه غبارُ المسير، والأسد الرابض في عرينه لن يصطادَ ولن يأكل، والسهم في قِرابه كيف يصيب؟. أما الذين أسهموا في معركة الحياة وخاضوا غمارها فَستَغبُرهم بِوعثائِها وينالهم شيء من أثقالها، وهم هؤلاء الذين كرَّمهم الوحي فقال فيهم النبي الكريم ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يُصب منه»[٢]، وقال أيضًا: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، تفيئها الريح تصرمها مرة، وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله... ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها، لا يصيبها شيء حتى يكون انجعافها مرةً واحدةً»[٣].

---

(١) انظر كتاب خلق المسلم، لمحمد الغزالي فلقد أشار لهذه القضية، صفحة (١٣٩) وما بعدها، يحسن الرجوع إليه للمزيد.

(٢) البخاري، الصحيح، باب: ما جاء في كفارة المرض: (٣/ ٣٧٧).

(٣) مسلم، الصحيح، باب: مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز: (٤/ ٤١٧) =

وهذا ما أدركه أحد الحكماء فقال: لا تسأل الله أن يخفف حملك، ولكن اسأله أن يقوي ظهرك[١]. اهـ. وإنْ كان في قوله ما فيه مما لا نُقِرُّه، إلا أنه لا يخلو من الحكمة والصواب.

إنَّ من الخطل[٢] الذي يقع فيه كثيرٌ من المسلمين هو حُسبانُهم أنَّ تلاحق الأذى عليهم إشارةٌ إلى بغض الله لهم أو نسيانه إيَّاهم أو إبعادهم من رحمته، وما علموا أن مصاعب الحياة تتناسب مع همم الرجال علوًّا وهبوطًا؛ لذلك كان يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ هو «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»[٣] فهو نبي تحدَّر من شجرة عريقة أصيلة، وتربى في حجور الأنبياء، وورث الشرف كابرًا عن كابرٍ... غير أن هذا الكريم مرَّ في حياته بمراحل عسيرة، وكلما خرجَ من ضائقةٍ دخل في أختها، ففقد أمَّه في صغره ثم تآمر عليه إخوته فاختطفوه من أحضان أبيه، ورموه في بئرٍ ليلقى في غيابته مصيرَهُ المجهول، ثم انتشله السيارة وباعوه بثمن بخس في سوق النخاسة، ثم ابتاعه عزيز مصر حتى تعرض في قصره للدسائس والحبائل، واتهم في عفته وحصانته... وبالرغم من ظهور براءته فقد ألقي في السجن بضع سنين، ولو أن الجبال لاقت ما لقي عليه السلام لاندكَّت، ولو أنه حديدٌ فلعله لانَ وانسبك، بيدَ أن يوسف الصديق بقي ثابتَ القلب متألق اليقين وراء جدران سجنه، يكشف كروب المساكين ويطبب

= الخامة: القصبة اللينة، المجذبة: الثابتة المنتصبة، الانجعاف: الاقتلاع والموت، شرح النووي على مسلم: (٩/ ١٨٩).

(١) صالح بن عبدالله بن حميد، القدوة مبادئ ونماذج: (ص١٧). ونسبه البعض إلى رتشارد نيكسون الرئيس الأمريكي الأسبق.

(٢) الخطل: الحمق والعجلة.

(٣) البخاري، الصحيح، باب: قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: (٣/ ١٨٣).

جراح المكلومين، ويُذكِّرُ بالله الجاهلين ويُبَصر بعظمته الجاحدين: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[يوسف: ٣٩].

ولو أدرك المتأوِّهون الجازعون حكمة الابتلاء لما ضاقت بهم الأرض، ولم يتنكروا للسماء... ولو أدرك الساخطون المتبرمون سنة الامتحان لسكنت نفوسهم، ورضوا ما آتاهم الله من فضله؛ لأن ما ادخره الله لأولئك العانين[1] الصابرين يفوق ما ادخره لضروب العبادات الأخرى من الثواب الجزيل، قال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة حين يُعطى أهل البلاء الثوابَ لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض»[2]، وسير الأنبياء والصالحين تؤكد أن عظمة المنزلة تتماشى مع ثقل الأحمال والصعاب، قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد إذا سبقت له من الله منزلة فلم يبلغها ابتلاه الله في جسده أو ماله أو في ولده ثم صبر على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله ﷻ»[3]، مع كل هذه المُدركات التي لا بد وأن تستقر في نفس المؤمن حول سنة الابتلاء فإنه يُرجا له أن يحيا بثقة ويقين وأمل واستقرار؛ لأنه يعلم أنَّ قدرة الله تحيط به ومن ورائه وأنَّ عين الله تحرسه وتحميه، وأنَّ الغد لابد وأن يحمل في طياته تباشير الفرج والرخاء وإن لم يكن ذلك في عالم الدنيا والأحياء فإنَّه في الآخرة، والآخرةُ قريبٌ، وفي بيان قربها قال الله: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾[الحشر: ١٨] وما أشدَّ قرب الغد.

---

(١) العانين: جمع عاني، . وهو العبد الخاضع، والعاني: هو الأسير.

(٢) الترمذي، السنن، باب: ما جاء في ذهاب البصر: (٨/ ٤٢٢) وصححه الألباني في الصحيح الترمذي: (٥/ ٤٠٢).

(٣) أبو داود، السنن، باب: الأمراض المكفرة للذنوب: (٥/ ٣٣٨) صححه الألباني، صحيح أبي داوود: (٧/ ٩٠).

إنَّ الابتلاء في القرآن الكريم هو طريق الاصطفاء، وما كانت النبوة لإبراهيم[١] ـ عليه السلام ـ وأبنائه من بعده إلا لمَّا نجح في الاختبارات التي مرَّ بها، كما حدثنا القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ١٢٤]، وما جعل الله داوود ـ عليه السلام ـ خليفة في الأرض إلا لما فتنه واختبره وفهم الدرس من قصة الأخوين مع النعاج، فقال له ربه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦].

ولقد جعل الله في خواتيم آل عمران آية الابتلاء في الأموال والأنفس والأعراض، حيث سيسمع المؤمنون من أعدائهم أذًى كثيرًا لِيُبيِّنَ أن طريق الفلاحِ والفوزِ في عبور هذه الاختبارات هو الصبر والتقوى، كي لا تتكرر مع الأمة أحداث (أحد) في غزواتها القادمة، غزواتِها في ميدان المعركة أو ميدان العلم والفكر والسياسة والاقتصاد وغيرها من ميادين الصراع مع الباطل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[آل عمران: ١٨٦]، فالمكاره التي يمر بها المسلمون وإن كانوا يودون لأنفسهم ـ كما هو طبع الإنسان ـ غيرَ ذاتِ الشوكة، هي طريق إحقاق الحق وقطع دابر الكافرين، هي سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل ولو كره المجرمون، ولو مرَّ المسلمون ببعض البلايا؛ فإنما هي لعصمة الأرض جميعًا من الفتنة الكبرى، فتنة العبودية لغير الله والتوجه بالخضوع لأحد سواه، وكي يكون الدين كله لله، ونظرة في سورة (العنكبوت) سورة (الاختبارات والفتن) ستكشف لنا عن حكمة الابتلاءات وأسرارها مما يرفع همة المؤمن ويزيد أمله،

---

(١) سأتحدث عن أنموذج إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالتفصيل في الفصل الأخير، إن شاء الله تعالى.

ففي صدر السورة تصعيد للاختبارات الكاشفة لمعادن الناس ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[العنكبوت: ٢].

إنَّ التتبع لسياق السورة يظهر غايتها الرئيسة في الكشف عن معادن النفوس؛ إذ الإيمان ليس كلماتٍ تُقال باللسان إنما هو الصبر على المكاره، والتكاليف في طريق هذه الكلمات المحفوفة بالمكاره والتكاليف، كي يتحقق في الناس قول الله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[العنكبوت: ١١]، في هذه السورة بالذات كانت الإشارة إلى مدة لبث نوح ـ عليه السلام ـ في قومه ليتحسس المسلمون قدر الامتحان الذي مرَّ به هذا النبي الكريم، فليس امتحانه مدةً قصيرةً عابرةً استثنائيةً، بل امتد عبر ألف سنة إلا خمسين عامًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ١٤].

ثم ذكر صورةً من ابتلاءات نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه وصبره عليهم في سبيل دعوته: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ١٦]، وعطف بذكر طرفٍ من قصة لوط وشعيب ـ عليهما السلام ـ ومعاناتهما: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾[العنكبوت: ٣٣]، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[العنكبوت: ٣٦].

ثم ذكر نماذج من العتاةِ والطواغيت: عاداً وثمودَ وقارونَ وفرعونَ وهامان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾[العنكبوت: ٣٨ ـ ٣٩] في

استعراض سريع يصوِّر ألواناً من العقبات والفتن، في طريق الدعوة إلى الإسلام، وتعبيد الأرض لله الواحد الصمد.

ثم يعقب على هذه القصص وما تكشف فيه من جبروت الباطل المترصد للحق والهداية، بالتحقير لشأن الباطل وجبروته، والتهوين من أمره، وقد أهلكه الله جميعًا وأهله معه، كما حدثنا القرآن الحكيم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠].

وبَيَّنَ من بعد أنَّ جميع هذه القوى المتغطرسة الظالمة ليست إلا كبيت العنكبوت في وهنها وحقارتها وتفاهتها: قال تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٤٠].

وتمضي السورة في بيان الفتن والاختبارات لهذه الأمة من خلال الكشف عن طبيعة الشرك في عهد رسول الله ﷺ وأنهم ما يقصدون إلا العناد والمراء، وأنَّ الملاذ للمؤمن في جميعها هو الله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وفي ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فرارًا بدينهم من الفتنة، غير خائفين من الموت إذ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٧]، غير خائفين من فوات الرزق: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[العنكبوت: ٦٠].

ويختم السورة بتمجيد المجاهدين في سبيل الله وطمأنتهم على الهدى، وأنهم مُثبتون عليه وأنهم تحت عين الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ

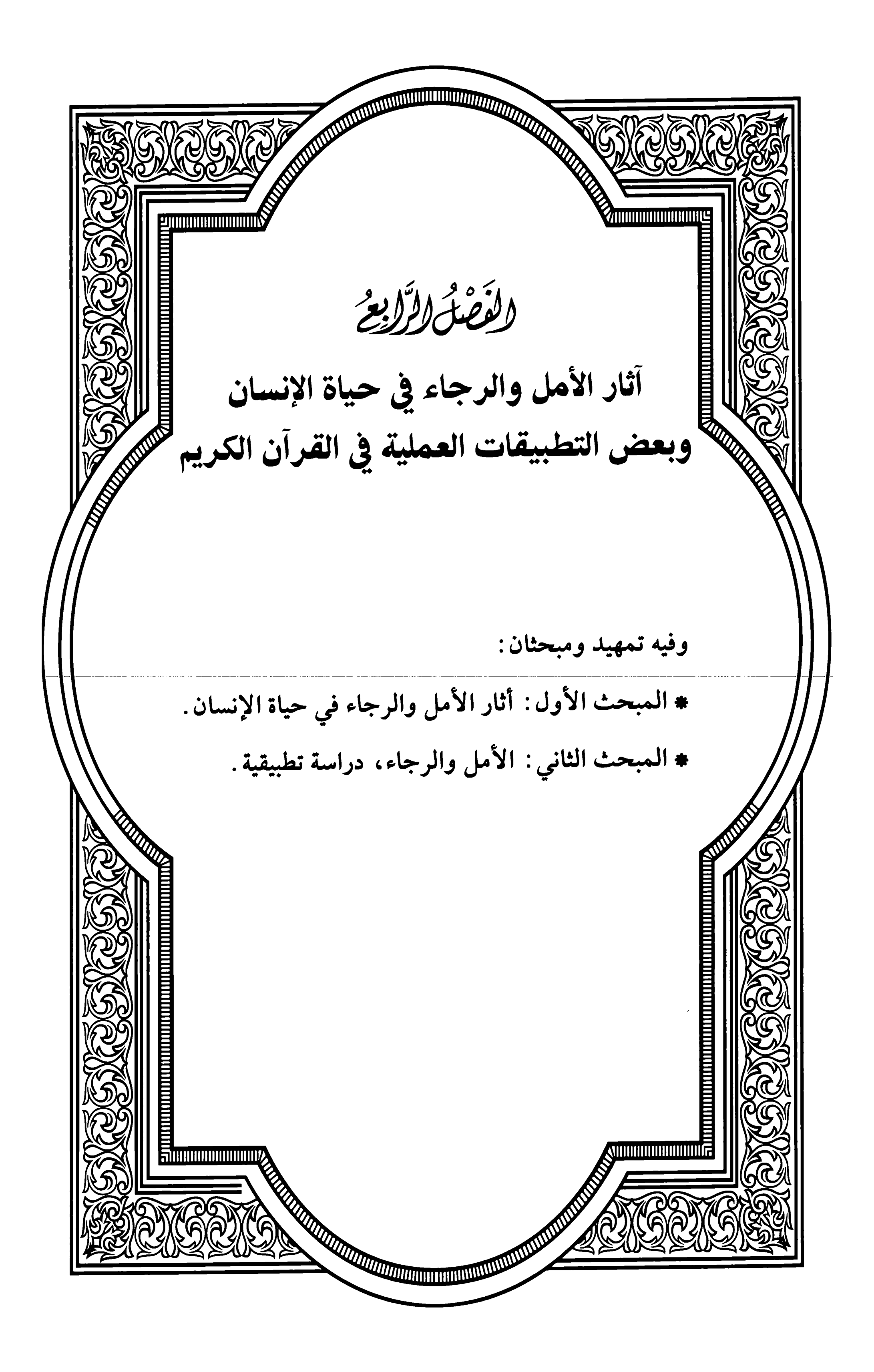
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩].

فأي أمل أعظم للمسلم من هذا وأي رجاء أرحب له منه مِنْ أنْ يظلّ في معيّة الله الكريم، وإنْ عَبْرَ بوابة البلاء.

تم الفصل الثالث

والحمد لله رب العالمين

❑ ❑ ❑



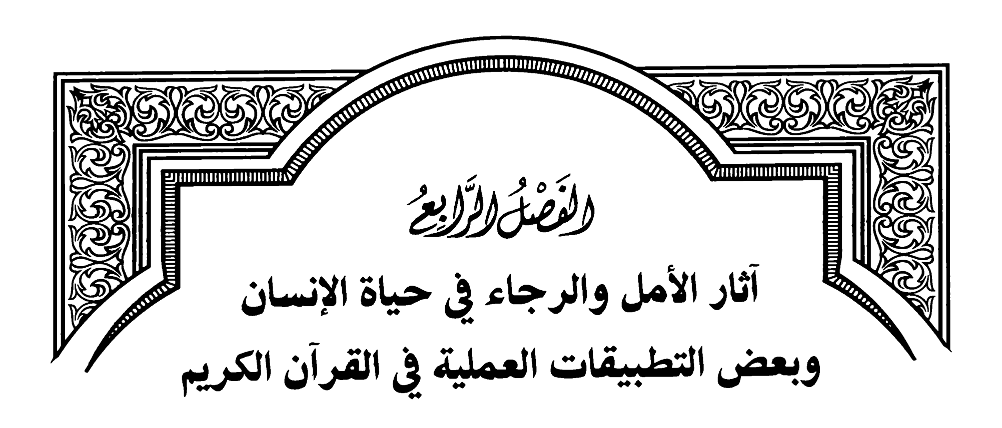
الفَصْلُ الرَّابعُ

آثار الأمل والرجاء في حياة الإنسان وبعض التطبيقات العملية في القرآن الكريم

وفيه تمهيد ومبحثان:

* المبحث الأول: أثار الأمل والرجاء في حياة الإنسان.

* المبحث الثاني: الأمل والرجاء، دراسة تطبيقية.



الفَصْلُ الرَّابِعُ

آثار الأمل والرجاء في حياة الإنسان وبعض التطبيقات العملية في القرآن الكريم

المبحث الأَوَّل

آثار الأمل والرجاء في حياة الإنسان

*** التمهيد:**

إنني إذ أصل إلى هذا الفصل، فإنني أبلغ الغاية من كل دراستي، وهي إظهار الآثار العجيبة للأمل والرجاء في حياة الفرد، والجماعة، سواء كانت الآثار الحميدة الطيبة لها، أم تلك الذميمة للأمل والرجاء الذميمين، مما يؤكد على قيمة البحث الذي نحـن بصدده، وأهميته، ويبرز واجب الأمة، فضلاً عن الباحثين في إظهار كنوز القرآن الكريم، لا سـيَّما التي لها ارتباط بالأبعاد الحضارية، التي من شأنها أن تعيد الأمة الخاتمة إلى المقام الذي كانت فيه، ولتأكيد ما سأذهب إليه من رأي في حقيقة استتباع هذه الآثار للأمل والرجاء، سـأتحدث عن تطبيقـات عملية في القرآن الكريم، تظهر الجانب الحميد والذميم.

* * *

*** المطلب الأول ـ الآثار المحمودة:**

أولاً ـ الدفع للعمل وتحريك الهمم:

إنَّ مِنْ أهم آثار إخفاء الغيب عن الإنسان وتغطية ما تُعِدُّه له الأقدار من أمور بحجب القدرة الربانية ثم بستار جهله ونقصه، فضلاً عن سعتها ورحابتها إذا ما قيست

بضيق أفقه وعجزه، وجعل ساعة موته فوق علم كل ذي علم وخارج حدود أقطار السماوات والأرض مما يمكن أن يدركه الإنسان بما وهبه الله من سلطان، ما ينفعل في نفسه من أمل يحدوه لطلب المزيد، والسعي للأحسن وعدم الرضا بالدون، أو الانكفاء على ذاته في إطار ما يعرف ويفهم في زمنه الذي يعيش فيه... فالأمل بوابة العطاء والعمل، ولولاه لما زرع زارعٌ أو صنع صانعٌ أو اجتهد مجتهدٌ، ولحكمة بالغةٍ فطر الله البشر على الذهاب بعيدًا في آمالهم حتى خارج حدود ما قدَّر لهم من أعمارٍ، ولو أن عشرة أضعاف العمر المُقدر للإنسان تضاف إلى عمره المحدود لوجد في مساحة عقله حيزًا لآمال جديدة، يضيق بها جميع العمر المضاف، ولو أن الإنسان في آخر صُبابةٍ من عمره بعد امتداده لاستحضر آمالاً جديدة تحتاج إلى عشرة أضعاف عمره مع ما زيد عليه من أضعاف، ولن يوقف مد الآمال إلا الحقيقة التي لا يحب ذكرها الإنسان، حقيقة الموت، هادم اللذات.

وإذا كان الدور المُناط بالإنسان هو خلافة الأرض واستعمارها إذًا لسوف نفهم سرَّ ذلك الإخفاء وتلك التغطية للغيوب التي يحسن بالإنسان أن لا يطلع عليها، وفي هكذا حال ليس أمثلُ من استحضار قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[المائدة: ١٠١].

إنَّ القرآن الكريم إذ يرتضي الإنسان لمهمة الخلافة فإنه يبذل أكثر الوقت في إعداد هذا الخليفة على أحسن ما يكون الإعداد؛ ليتمكن من الاضطلاع بواجباته بصورة تتناسب وحجم المهمة التي انتدب لها من بين جموع المُكَوَّناتِ لله تعالى في ملكوته، ويُصدق هذا قولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[التين: ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[الإسراء: ٧٠]. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ

ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[غافر: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التغابن: ٣].

وقوله تعالى في معرض المِنَّة على الإنسان وبيان فضله عليه ـ وكل النصوص كذلك ـ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾[الانفطار: ٧].

وأعظم من كل هذا وأكرم أن الله خلق طينة البشر بيديه فقال موبخًا لإبليس: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾[ص: ٧٥]، ثم نفخ فيه من روحه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[الحجر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[ص: ٧٢].

وليست هذه خصيصةً لآدم ـ عليه السلام ـ فكل أبنائه كذلك، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[السجدة: ٧ ـ ٩].

وهذا في جانب من جوانب إعداد الإنسان الخليفة، غير أن هذا الأمر غير كافٍ ولا بد من أشياء أخرى لاستكمال أركان الخلافة، ومن أهم هذه الأركان إيجاد دافعيةٍ لدى البشر للقيام بأعباء الخلافةِ وتحمل الأمانة والنهوض بالمسؤولية، إذ المغبَّةُ وخيمةٌ والتكاليف جمَّةٌ، نأَتْ بها السماوات والأرض والجبال، وهي تملك من الخصائص المادية ما يجعلها أشدَّ وأصلبَ من الإنسان، قال الحكيم العليم: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

هذه الدافعية وهي شيءٌ معنوي غير أنها تفوق في أهميتها كثيرًا من الماديَّات، وكم ضريرٍ قاد مبصرين، وكم من أشلِّ قدمين حرَّك جموعَ المُعافين.

أدرك القرآن الكريم هذه القضية الحساسة، أدرك قيمةَ التعزيز لدى الإنسان وأثرَهُ في تحريك همتـه وإيقاظ عزيمته، فجعل الأمل قائدًا له ينظر من خلاله إلى مستقبلٍ واعدٍ أفضلَ، يسرع في خطاه ليدركه وليتحقق من مذاقه الغني، وكلَّما ظنَّ أنه صار وشيكًا إذا به يبتعد؛ ليستمرَّ السِباقُ وتستمرَّ الحركةُ ويكون الإعمار للأرض وها هو القرآن يقول للإنسان في معرض حثه على المزيد من العطاء والجهد على طريقة الترغيب والتعزيز: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[يونس: ٢٦]. قال ابن كثير: يُخبر تعالى أنَّ لِمَنْ أحسن العملَ في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[الرحمن: ٦٠]، وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦] هي تضعيف ثواب الأعمال الحسنة عشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف وزيادة على ذلك، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته. اهـ[١].

إنَّ المسلم وهو يتلو هكذا خبر من ربه الكريم: أنَّ للذين أحسنوا، أحسنوا الاعتقاد وأحسنوا العمل، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم وإدراك القوانين الناظمة للكون أنَّ لهم دار السلام، وفوقها زيادة من فضل الله غير المحدود، لا شك سيُشمِّر عن سواعد الجدِّ والاجتهاد وينطلق في آفاق الكون الرحيب، فاعِلاً متفاعِلاً عامِلاً منتِجًا دون أن يتسلل المَلال إلى نفسه أو الكلال إلى عزيمته.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٢٨٥).

لذلك نجد القرآن يُعَنْوِنُ بخيرية الأمة، وينوه بها ليكون فيه حثًا على العمل، قبل أن يطلبه بصورة مباشرة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[آل عمران: ١١٠]، ففي هذا الإخبار تحضيض على لزوم أسباب الخيريَّة، والعمل الدائب على استمرارها، قال أبو السعود: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ كلام مستأنف سيق لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الاتفاق على الحق والدعوة إلى الخير، فأنتم في علم الله تعالى أو في اللوح كذلك، وهذه الخيرية صفة لازمة متعلقة بـ ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: أظهرت لهم، وهو صريح في أن الخيرية بمعنى النفع للناس، فالإخراج لهم؛ أي: أخرجت لأجلهم ومصلحتهم، قال أبو هريرة ﷺ: معناه كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل فتدخلونهم في الإسلام. اهـ[1].

لذلك نجد في نفس السورة يختم بالحديث عن ضرورة لزوم هذه الطريق والمصابرة عليها؛ لما فيها من سعادة الدنيا والآخرة، فالصبرُ عاقبته حميدةٌ رشيدةٌ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

إن مفعول الأمل في نفس البشر سِحريٌّ، فإذا اعتمل بصورةٍ مؤثرةٍ صادقة في كيان الإنسان؛ فإنه سيسترخص الموتَ في سبيل ما يَأملُ ويرجو، وهذا الذي دفع النبي ﷺ يوم بدر أن يقول لأصحابه حين أقبل المشركون في عَدَدِهم وعُدَدِهم: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. فقال عمير بن الحمام: عرضها السماوات والأرض؟. فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال: بخٍ بخٍ. فقال: ما يحملك على قول بخٍ بخٍ؟. قال: رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها»، فتقدم الرجل فكسر

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (١/ ٤٩١).

جفن سيفه، وانظر إلى قيمة الأمل في نفس الإنسان، وكيف يفعل به، حتى لقد أخرج تمرات من جيبه فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيّتهنّ من يده، وقال: «لئن حييت حتى آكلَهُنَّ إنها لحياة طويلة، ثم تقدم حتى قُتل ﷺ»[1].

وما يُصدقُ أنَّ للأمل قيمة عظيمة في نفس الإنسان، وأنَّ له مفعولاً سحريًا، افتراض القرآن أنَّ من يأمل شيئًا ويحبه صادقًا، سيضحي بروحه من أجله ولبلوغه، لذلك أراد أن يختبر صدق اليهود في إيمانهم واعتقادهم أنَّ لهم الدار الآخرة، وهل حقًا يأملونها ويرجونها؟. فقال لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤].

ثم بيَّن أنهم يكذبون في زعمهم؛ فهم لا يأملون شيئًا من ذلك، وليس حال من يعمل أعمالهم أن يأمل الجنة ونعيمها: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة: ٩٥].

قال أبو السعود: «قُلْ» لأنه أمر بتبكيتهم وإظهار كذبهم في فن آخر من أباطيلهم، و«عِنْدَ» ظرف للاستقرار في الخبر، أعني لكم. اهـ. قلتُ: وجَعْلُ العندية مقترنة بالله تعالى لمزيد التفخيم لمقام الدار، فلو كانوا صادقين فلن تَراهم يتأخرون عن طلبها. ويكمل أبو السعود: ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾ في محل النصب بخالصة، واللام للجنس؛ أي: الناس كافة، أو للعهد أي المسلمين ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ فإن من أيقن بدخول الجنة اشتاق إلى التخلص إليها من دار البوار وقرارة الأكدار، لا سيما إذا كانت خالصة له كما قال علي ـ كرم الله وجهه ـ: «لا أبالي أسقطت على الموت أو سقط الموت عليّ»[2]. اهـ.

---

(١) مسلم، الصحيح، باب: ثبوت الجنة للشهيد: (٣/ ٥٠٠).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ١٦٦).

إنَّ إدراك القرآن لقيمة الأمل في نفس الإنسان جعلَه يَقرِن بين التكاليف الصعبة جدًّا وبين الأجر الكبير والجنة والفوز فيها؛ ليضمن قيام البشر بها، كما في الجهاد والحج وبذل الزكاة والصدقات وغيرها.

ويوم كان أمر الأموال مما تتعلق به النفس بحيث قد يدفعُ البعض لظلم مَن تحتَه بِحرمانهم من حقوقهم في الميراث ختم الله تفصيل قسمة المواريث بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[النساء: ١٣].

يقول البقاعي ـ رحمه الله ـ: ولما كان فطم أنفسهم عن منع الأطفال والنساء شديدًا عليهم؛ لمرونهم عليه بمرور الدهور الطويلة على إطباقهم على فعله واستحسانهم له، أتبعه سبحانه الترغيبَ والترهيبَ؛ لئلا يُغترَّ بوصف الحليم، وهذا أنسب شيء لتقديم الترغيب؛ لتسمح نفوسهم بترك ما كانوا فيه، مع ما فيه من التلطف بهذه الأمة والتبشير له ﷺ بأنها مطيعةٌ راشدةٌ. اهـ[1].

ولما كان هجر الديار من أشق الأعمال على النفس وأصعبها؛ فإنَّ القرآن قرن بين قتل النفس والخروج من الديار: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[النساء: ٦٦]، بل إن بني إسرائيل قدَّموا الإخراج من الأوطان ـ في معرض بيانهم للمشقة التي تعرضوا لها وعلة إرادتهم القتال ـ على هجرهم أبناءهم وإبعادهم عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٢/ ١٨٠).

تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٦].

وجعلَ القرآنُ الكريم النفـيَّ من الديار عقوبةً رادعة لجريمة الحِرابة كالقتلِ والصلبِ وتقطيـع الأيدي والأرجـل، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[المائدة: ٣٣][1].

أقول لما كان هجر الأوطان بهذه الصعوبة على النفس، حتى ولو كان الإنسان يشعر بالقهر في بلده والظلم؛ فإنه لا يستسهل هجرها وفراقها، فإنَّ القرآن الكريم أخذ يُرغب في هجرها في بعض الأحوال، كما في حالة منع الكفار المسلمين من إظهار شعائرهم، ومحاربتهم في دينهم والتضييق عليهم: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[النساء: ١٠٠] والآية ترغيب في المُهاجرة من الديار، وتأكيد لكونها سببًا للأنس والسعادة والسعة في الرزق، فضلاً عما فيها من إرغام أنوف قومه الذين حملوه على الهجـرة قسرًا فحيث أرادوا له العنتَ سيجد الخير والرحمة، ومن عظيم ترغيب القرآن بالهجرة والحالة إذ ذاك أنه أكد استحقاق المُهاجر للأجر بتمامه بمجـرد خروجه وإن لم يبلغ مقصده ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[النساء: ١٠٠]؛ أي: يثبت ذلك عنده تعالى بثبوت الأمر الواجب.

---

(١) الأمر فيه تفصيل فليست العقوبة على التخيير إذ الحرابة أنواع ولكل نوع منها عقوبته المقررة كما في الآية الكريمة.. ارجع لتفسير أحكام القرآن لابن العربي وتفسير القرطبي. ويضاف آية البقرة آية رقم (٢١٧) حيث جعل فتنة الإخراج من الوطن أكبر من القتل.

فالأمل الذي أحياه القرآن في نفوس أتباعه بأنهم سيقهرون من قهرهم ويُذِلُّون مَنْ أذلَّهم، فضلاً عن السَّعة في الرزق، والتحصل على الأجر هو ما حرك فيهم العزيمة على الهجرة، وتحمُّل جميع مشاقِها وأكدارها وويلاتها، وويلات فراق الأهل والأحبة.

ولقد فَتَحَ بابَ الأملِ من خلال ذكر منافع السفر والمهاجرة بعد ما ذكره من التشديد والتقريع للمتثاقلين الملتصقين بالأرض وأوحالها، والمقيدين بشهواتها وأوهاقها؛ وهي وسائل القرآن الكريم المتنوعة في علاج النفوس على اختلافها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

يقول سيد قطب: إن المنهج الربَّاني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة وهي تواجه مخاطر الهجرة؛ لأنه يدرك ضعفها وشحَّها ومرضها، الذي يخيل إليها أن وسائل الحياة والرزق مرهونة بأرض، ومقيدة بظروف، ومرتبطة بملابسات، لو فارقها لم تجد للحياة سبيلاً؛ فعالج النفس ببيان أن هذا التَّصور كاذب ولا يعبر عن حقيقة أسباب الحياة والنجاة... وأن هذا التَّصور الكاذب هو الذي يجعل النفس تَقبلُ الذلَّ والضَّيم والهوان وتسكت عن الفتنة في الدِّين، ثم أخذ يقرِّر الحقيقة الموعودة لمَنْ يهاجر في سبيل الله... إنه سيجد في أرض الله منطلقًا، وسيجد فيها سعةً، وسيجد الله في كل مكان يذهب إليه يُحْييه ويرزقه وينجيه.

ومن معالجات النفس كذلك في الآية بيان أن الأجل ـ الذي قد يوافي أثناء الرحلة والهجرة ـ لا علاقة له بالأسباب الظاهرة، إنما هو حتم محتوم عندما يحين الأجل المرسوم، وسواء أقام أم هاجر فإن الأجل لا يستقدم ولا يستأخر، ثم يعطي

ضمانة الله بوقوع الأجر على الله من الخطوة الأولى من البيت في الهجرة إلى الله ورسوله «فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُه على اللهِ» أجره كاملاً... أجره كله... أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة في دار الإسلام، فماذا بعد ضمان الله من ضمان[١]. اهـ.

بهذه المعالجات وهذه الضمانات وهذه الآمال والرجاءات، استطاع القرآن أن يُحركَ في هذا الإنسان الضعيف العاجز إرادة الهجرة إلى الله ورسوله، على الرغم من ضعفه وعجزه، وصعوبتها وقسوتها، بما حرَّك فيه من إرادة صادقة لا يفلها الحديد، وبما قدمه له من عرض رابح وصفقة رابحة، دون شك سيقبض فيها المهاجر الثمن كله منذ الخطوة الأولى، حتى وإنْ أدركه الموت الذي لا علاقة له بالهجرة أو الإقامة، وسواء هاجر أم بقي فإن الموت سيأتيه في موعده المرصود، غير أنه إنْ آثر الركون سيخسر الصفقة الرابحة، فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة، بل هناك الملائكة تتوفاه ظالمًا لنفسه، وشتان بين المصيرين، وكم الفرق بعيدٌ بين المآلين، إذًا فإن الجانب النفسي لدى الإنسان مقدمٌ على المادي، وهو الأهم والأكثر فاعلية.

قال البقاعي: ولما كانت المراغمة لذة الروح فكانت أعز من لذة البدن فقدمها[٢]. اهـ. ومزيدًا في الترغيب بالهجرة ومن باب معالجة النفوس الضعيفة ذكر تخفيف الصلاة بالقصر عند الهجرة تعزيزًا إضافيًا بتخفيف كلفة الإتمام: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[النساء: ١٠١]، وهذا المعنى من التعزيز هو الذي جعل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في بدر يستخفُّون بعدوهم على كثرة عَديدِه وعُدَّتِه،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: (٢/ ٢٢٥) بتصرف ليس باليسير.

(٢) البقاعي، نظم الدرر: (٢/ ٢٥٦).

حيث رأى النبي ﷺ قريشًا قليلاً: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[الأنفال: ٤٣]. وقوله: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ في رؤياك، (ذلك أن الله ﷻ أراه إياهم في رؤياه قليلاً؛ فأخبر بذلك الصحابة فكان تثبيتًا لهم وتشجيعًا على عدوهم)[١].

والذي يؤكد أهمية الجانب النفسي وخطورة الروح المعنوية لدى الجند قوله: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾، (أي: أنه لو أراكهم رؤيا مماثلة للحالة التي تبعدها الأعين لدخل قلوب المسلمين الفشل؛ أي: إذا حدثهم النبي بما رأى، فأراد الله إكرام المسلمين بأن لا يدخل نفوسهم هلع وإن كان النصر مضموناً لهم)[٢].

قال الرازي: واعلم أنه تعالى قلَّل عدد المشركين في أعين المؤمنين، وقلَّل أيضًا عدد المؤمنين في أعين المشركين والحكمة في التقليل الأول تصديق رؤيا الرسول ﷺ وأيضًا لتقوى قلوبهم وتزداد جراءتُهم عليهم، والحكمة في التقليل الثاني أنَّ المشركين لما استقلُّوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر، فصار ذلك سببًا لاستيلاء المؤمنين عليهم. اهـ[٣].

إنَّ فعل الأمل في النفس أشدُّ من فعل السحر، حتى أمواجُ الشر الجارفة وهيجانُ الكبر والخوفُ على عرش المُلك لدى فرعون تَذَلَّلت جميعًا حتى صار حملاً وديعًا أمام أحلام زوجه الحنون، فضمَّ إليه قاتلَه ـ موسى عليه السلام ـ بعد أن علَّلت له طِلبتها بما حرَّك قلبه المَيْت: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٢/ ٣٩٢).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٠/ ١٦٠) ولقد أطال رحمه الله وأفاد كثيرًا غير أن المقام يقتضي عدم التطويل.

(٣) الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: (٧/ ٤٠٩).

نَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[القصص: ٩].

وما كان ليوسف ـ عليه السلام ـ أن يضمن رجوع إخوته إليه يضمون أخاه معهم إلاَّ لمَّا وعدهم بزيادة الكيل، مع ردِّه لمالهم في رحالهم دون أن يعلموا، حتى إذا ما رجعوا وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم فزاد أملهم بالقمح الكثير والخير النمير، وأن يزيدهم عزيز مصر كيل بعير، عندها بذلوا جهدًا إضافيًا في إقناع والدهم الجريح من غياب ابنه الأول في أن يسمح لهم بأخذ أخيه، وما كان هذا ليكون لولا ذلك الأمل الذي اعتمل في نفوسهم ببلوغ ما يمكن أن يُعينَهم في سنوات الجدب والجوع.

فالأمل هو المحرك الأهم والدافع الأقوى للإنسان، لذا فإن من أعظم أنواع

العقوبات إغلاق أبواب الأمل في عيون من نَوَدُّ عقابَهم؛ لذلك كان القرآن الكريم عنيفًا جدًا مع المكذبين بآيات الله والمستكبرين عنها حتى لم يدع لهم بصيص أملٍ ولو يسيرًا في دخول الجنة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، وما كان هذا إلا مزيد إرغامٍ لأنوفهم وتعذيبًا لهم يطال أرواحهم وعقولهم فيكون أكثر أثرًا وفاعلية. وانظر لوقع كلمة مالك ـ عليه السلام ـ على اقتضابها واختصارها ردًا على طلب أهل النار: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ﴾[الزخرف: ٧٧] فقال: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾[الزخرف: ٧٧]، كلمة واحدة بلا تطويلٍ ولا تفصيلٍ غير أنها تقطع آمالهم من كل نجاةٍ وخلاصٍ، ولَوَقْعُها أشدُّ من ذات العذاب الذي يتجرعون، ولذلك ألقى الله الرعب في قلوب المشركين يوم بدر، وحاربهم حربًا نفسية تركت ظلالها على كل أحداث الغزوة فانقلبت نصرًا مؤزرًا للمسلمين: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ

فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[الأنفال: ١٢].

إنَّ الله خلق الإنسان ليكون خليفةً في الأرض؛ يؤدي الدور اللازم ويضطلع بالمهمات الواجبة والتي تنضوي جميعًا تحت عنوان العبودية لله تعالى، التي ينادي بها المسلم في كل يوم عدداً من المرَّات: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[الفاتحة: ٥]، ولكن لا يتحقق معنى العبادة والعمل في الأرض، ولن تنهض الهمم إلا إذا استدرك المسلم سريعا وقال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥]، وهو الجانب القلبي والأمر المعنوي ـ في بعض صوره ـ أن يلقي الله في نفس عبده همةً للعبادة في مفهومها الشامل؛ أي: المستغرق للعبادات المخصوصة والمعاملات والعادات.

يقول ابن تيمية: وكل عمل لا يُعِينُ الله العبد عليه فإنه لا يكون ولا ينفع، مالا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم، فلذلك أمر العبد أن يتلوا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. اهـ[1].

فإذا استعان القلب بالله وتوجه إليه واستشعر معيَّته ورحمته فإنه سينطلق في الأرض ليؤدي دوره الأقدس الذي لأجله خلق ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠]، عندها سيزداد اطمئنان الملائكة ويقينهم بأنهم ما كانوا يعلمون، فيرددون: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[البقرة: ٣٢]، وأنهم أساءوا ظنهم بآدم وذريته.

وخلاصة القول: إنَّ أيَّ عمل في الدنيا لا بد له من شرطين أساسيين الأول: القدرة والاستطاعة. والشرط الثاني: الإرادة والهمة. والثاني هو الأهم؛ لأن فاقد القدرة إن امتلك الإرادة فإنها ستثمر ـ ولو بعد حين ـ قدرةً لديه تعينه على بلوغ

(١) ابن تيمية، الفتاوى: (٨/ ٧٦).

مُراداته، وإرادة المشـي عند الطفل هي التي تخلتق في قدميه قوة وقدرة تحملانه فيقف شامخًا منتصبًا، وإن تعثر مرارًا.

والإرادة والهمة عند الإنسان أكثر وأهم ما يحركهما ويثوِّرُهما الأملُ وحبُ بلوغ الأفضل، والرغبةُ في تحقيق الرجاءات، فإن وُجِد الأمل عند الإنسان وُجدت الإرادة والهمة ثم القدرة والاستطاعة، وعندها سيكون في الأرض مساحةٌ كافية وحيزٌ مناسبٌ لكل طموحاته وأحلامه.

وإن فقد الإنسان الأمل واستحوذ اليأس على قلبه؛ فإنه ستضيق به الأرض، بل سيضيق به صدره ونفسه التي بين جنبيه، وعندها لن يبلغ شيئًا مما يحب ويرجو، وإن كان يملك قوة الأرض جميعًا.

ثانيًا ـ قلب المحنة إلى منحة:

ذكر (دايل كارنيجي) في كتابـه (دع القلق وابدأ الحياة) قصـةً عن سـيدةٍ نُقلت مع زوجها الضابط إلى صحراء موحشةٍ فضاقت ذرعًا بمعيشتها، وهمَّت بتركه وحده في تلك الوحشـة والعـودة إلى أهلها، قالت هذه السـيدة: ولكن خطابًا ورد إليَّ من أبي تضمن سطرين، سطرين سأذكرهما ما حييت؛ لأنهما غيَّرا مجرى حياتي، وهذان هما: من خلف قضبان السجن تطلع إلى الأفق اثنان من المسجونين، فاتَّجَه أحدُهما ببصره إلى وَحْلِ الطريق، أما الآخر فتطلَّع إلى نجوم السماء. قالت السيدة: وقد تَلَوْتُ هذه الكلمـات وأعدت تلاوتها مرارًا، فَخَجِلْتُ من نفسـي وعوَّلت أن أتطلع إلى نجوم السماء. اهـ[1].

إنَّ الذي تغيَّر في تعاطي هذه السـيدة مع وضعها وتعاملها مع ظرفها شـيءٌ واحدٌ فقط، هو أن اليأس كان في أول الأمر قابع في نفسها، ممسك بنياط قلبها،

(١) دايل كارنيجي، دع القلق وابدأ الحياة (٢٩).

تنظر من خلاله إلى الصحراء التي تسكن فيها فلا تبصر سوى الرمال تحيط بها من كل جهة، ومن وراءها الحزن والخوف والضيق، بل لعله الموت الوشيك.

وبعد تلاوتها لرسالة أبيها انقشعت سُحب اليأس وأشرقت شمس الأمل في حياتها، فصارت الصحراء في عينيها نعمة ترى أنها يجب أنْ تحمد الله عليها؛ إذ للصحراء انعكاس حميد سيجعلها تدرك قيمة الحياة وحلاوتها بعد تحولها منها إلى غيرها، فبضدها تتميز الأشياء، ولو لم تتذوق مرارة العيش في قسوة الصحراء لن تحسن تقييم لذة الجنة الخضراء، ولا يعرف قدرة الصحة على الحقيقة سوى المرضى وذوي الإعاقات.

ليس أهم شيء في الحياة أن يستثمر الإنسان الفرص السانحة له، فإنَّ أيَّ أحدٍ يسعه أن يفعل، وليس هذا ما يكشف عن الحاذق من الناس، إن الذي يُظهر الفارق بين العاقل وغيره من البُلهاء هو القدرة على تحويل المصائب إلى مكاسب، والآلام إلى آمال، والمحن إلى منحٍ، فهذا أمر يتطلب ذكاءً وحِذقًا وفيه يكمن الفارق بين الذكي من الناس والأهوج.

وحقًا والله فإنَّ الأمر يحتاج إلى فطنة وحكمة، غير أنه يحتاج إلى إيمان بالله ويقين بوعده للمسلمين، حيث قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، وهذه سُنَّة مُطَّرِدة في كون الله تعالى مع عباده الموحِّدين؛ إذ كل قضاء الله يؤول خيرًا ورحمةً، وإن بدا لقِصَار النظر شرًا وعذابًا.

هذا الأمل الذي إن تحرك في نفس المؤمن إزاء كل ما قد يعرض له من نوائب استحالت أفراحًا وخيراتٍ، فلو أن الدنيا جميعًا كادت له ومكرت به وأرادت له السوء من أطرافه، فإنه يعلم أن كيدَ الله محيطٌ من ورائها، ويترفق به ويتلطف لأجله فلقد: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وصدق الله العظيم في دفاعه

عن المؤمنين من كيد الكائدين: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[الطارق: ١٥ ـ ١٦]، وما أجمل ما قاله ابن القيم في مثل هذا المعنى: قد شهدت الفِطَرُ والعقول بأن للعالم ربًّا قادرًا حليمًا عليمًا رحيمًا كاملاً في ذاته وصفاته، لا يكون إلا مريدًا للخير لعباده، مجريًا لهم على الشريعة والسُّنَّة الفاضلة العائدة باستصلاحهم، الموافقة لما رُكِّبَ في عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح وما جَبَل طباعَهم عليه من إيثار النافع لهم المصلح لشأنهم، وترك الضار المفسد لهم. اهـ[1].

إن القرآن الكريم إذ يُعِدُّ الإنسان الخليفة بكل ما يلزمه من المواهب الضرورية لقيامه بالمهمة التي انتدب لها، فإنه لم يغفل هذه القضية الركينة في العقيدة القويمة المكينة، وهي كيف يجب للمسلم أن يواجه العقابيل في طريقه والمحن المعترضة حياته بنفس ساكنة راضية، ودائمة تصدق الله وهو يدعوها: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[النور: ١١]. وانظر في قوله تعالى يؤكد هذه السنة: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[الحج: ١٥]، فإن شأن الله مع نبيه ﷺ وأتباعه أن ينصرهم في الدنيا والآخرة، وحتى إن تأخر النصر قليلاً وطال عمر المحنة فإنَّ زوالها محتومٌ وانقضاءَ أيامها محسومٌ، وبروزَ أنوار المنحة من بين ركام ضبابها قريبٌ، والآية تُعَدُّ «تحقيقًا للنصر وتقريرًا لثبوته على أبلغ وجه وآكده، وفيه إيجاز بارع واختصار رائع، والمعنى: أنه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحُسَّاده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يردُّه من المكايد، فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في الجدِّ كل حدٍّ معهود؛ فقُصَارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق حنقًا مما

---

(١) ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة: (ص٤٧).

يرى من ضلال مساعيه، وعدم إنتاج مقدماته ومباديه»[١]. ومما يفهم من الآية أيضًا أن على المسلم أن يرضى بقسمة الله ومشيئته في كل الأحوال والظروف؛ فإنه إن لم يصبر ولم يستسلم فلو بلغ غاية الجزع والضيق إلى حد الاختناق فإن ذلك لا يغير القدر، ولا يردُّ القسـمة ولن يصرف شرًا أو يجلب خيرًا، وكذلك فِعْلُ اليأس في النفس يخنق صاحبه إلى درجه الموت، وإن ظل بجسده في عالم الأحياء فإنه مَيْتٌ بشعوره وإحساسه وعطائه وإنجازه

إذًا فإنَّ القرآن يربـِّي في الأمة سنة ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ لتصير عقيدةً راسخةً في نفس المؤمن، وأن يعتقد دومًا ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وكم من محنة تجرعها الإنسان غاصًا بها يكاد يتقطع لفظاعتها ثم ينظر بعد فترةٍ فإذا هي تثمر له في حياته من الخير ما لم تثمره محبوباتُه التي كان يسـعد بها، وكل إنسان في تجاربه الخاصة يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهاتٍ كثيرة كان من ورائها الخير العميم، ولذَّاتٍ كثيرة كان من ورائها الشر العظيم، وكم من مطلوب كاد الإنسانُ يُذْهبُ نفسَه حسرات على فوته، ثم كشفت له الأيام أن الله كتب له إنقاذًا بتفويت هذا المطلوب عليه في حينه.

ولأنَّ من مقاصد القرآن الكريم تكميل الإنسان وإصلاح أفراد البشر وجماعاتهم، وإدخالهم في طور الرشـد وترقية عقولهـم وتزكية نفوسـهم؛ فإنه كان يؤكد على المرتكزات التربوية كلما سنحت الفرصة، فهو كتاب تربية عملية وتعليم، لا كتاب تعليم فقط، فلا يكفي أن يذكر فيه كلَّ مسـألةٍ مرةً واحدةً واضحةً تامةً كالمعهـود في متـون العلم وكتب القوانين؛ لأنه يريد أن يشـكل الإنسان على صورة جديدة مغايرة للمعهود والمعروف، ويريد أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٤/ ٤٥٥).

آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة، والعقائد الفاسدة التي منها أساليب التعاطي مع القدر، وصورة الانعكاسات النفسية والمادية بإزاء أحكامه، ويغرس في مكانها أضدادَها، ويتعاهد هذا الغـرس بما يُنمِّيه ويُقوي عودَه حتى يبدو صلاحه، ويَيْنَع ثمره، ويؤتي أكله، فمن هذه الغراس ما كان لا بد فيه من التـدرج ليبلغ الكمال، ومنها مالا يمكـن وجودها إلا في قابل الأيام، والطور الحاضر لها لا يعدو وضع بعض الأسس والقواعد العامة، ومنها مالا تحتاج إلى صريح العبارة وتكفي الإشارة الخفية والكناية لأجلها، ومنها ما يجب أن تغرس كاملةً مورقةً منذ بواكيرها. وقد بيَّن الله تعالى ذلك بقوله في موضـوع البعثة المحمدية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة: ٢]، (فآياته المتلوَّة هي سور القرآنِ الكريمِ المرشد إلى سننه في الأكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة، والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب من أُميَّتِهم، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة، فجميعُ مقاصدِ القرآن الكريم وبيانِ السنةِ له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة)[1].

لذا فإنك تجد القرآن يربي النفس البشرية تربية عملية على فنون التعامل مع الأزمات والمحن؛ لتستحيل بركاتٍ ومِنحَ، ويضرب لذلك الأمثلة الظاهرة الباهرة، فيوسـفُ ـ عليه السلام ـ تعرضَ لمحنـة الجبِّ وظلمته وضيقـه والمخـاوف التي تعتري الناشئ في مثل تلك الحالة والتي تطيش منها أحلام الكهولِ وعقولُهم، فقابلها بنفس قوية كبيرة وأمل عريض، فعوضه الله بمنحةٍ عاجلةٍ وإكرامِ سابغٍ شملَ مثواه وفراشَ نومه وموطئ قدميه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ

(١) محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي؟: (ص١٤٣).

أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١]، فحيث أُريدت به المِحنُ من أقطارها، سِيقت المنح إليه من أَزِمَّتِها.

وكذلك كانت ألطاف الله بنبيِّه أيوب ـ عليه السلام ـ إذ مسَّه الضرُّ فكان كالغبار على وجه الجوهرة السقيل لا يغض من قيمتها ولا ينقص من ثمنها، ومجرد إمرار يد الرحمة على مَتْنِها ترجع لبريقها وتألُّقها، فكانت محنته بوابة للفرج والأفراح بما وُهِب من أمل وثقة ويقين ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[الأنبياء: ٨٣ ـ ٨٤].

ويونس ـ عليه السلام ـ جعل من محنته في بطن الحوت فرصةً للخَلْوَة بربه سبحانه وتعالى فاستأنس به وانشغل بتسبيحه، حتى استحالت محنتُه منحةً يَوَدُّ لو يحيا مثلها كلُّ العباد والزهاد، وسائر أنبياء الله تعالى على ذات الخُطى، وكرم الله تعالى ولطفه بهم على نفس المنوال.

لقد قام القرآن الكريم بحملةٍ تدريبيةٍ لأصحاب رسول الله ﷺ ليكونوا قادرين على التعامل مع المحن في أقسى صورها وأشد أحوالها، كمحنة موت الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وكانت غزوة أحد ميداناً عمليًا حيث أُذيع مقتلُ رسول الله ﷺ بعدما وقع في حفرةٍ وشج وجهه الشريف، وانكسرت رباعيته، ونزفت جراحه ﷺ، (فانقلب الكثيرون منهم عائدين إلى المدينة تاركين المعركة يائسين حتى قال بعض الضعفاء: ليت عبدالله بن أبي يأخذ لنا من أبي سفيان أماناً وقال بعض المنافقين لو

كان نبيًّا لَمَا قُتِلَ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم)[١] ولولا أن ثَبتَ رسولُ الله ﷺ في تلك القِلَّة من الرجال وجعل ينادي المسلمين وهم منقلبون حتى فاءوا إليه، وثبَّتَ الله قلوبهم.

ولقد نقل صاحب المنار عن ابن القيم قوله في هذه الآية، وفي بيان حكمِ هذه الواقعة: هذه الآية كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول الله ﷺ، وذكر أن توبيخ الذين ارتدوا على أعقابهم بهذه الآية قد ظهر أثره يوم وفاة النبي ﷺ فقد ارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الصادقون على دينه حتى كانت العاقبة لهم، أقول: ولا ينافي هذه الحكمة كون الواقعة كانت قبل وفاته ﷺ ببضع سنين - لأن غزوة أحد كانت في السنة الثالثة من الهجرة - فإن توطين نفس الأمة الكبيرة على الشيء وإعدادها له لا يكون قبل وقوعه بيوم أو أيام أو شهور، بل لا بد فيه من زمن يكفي لتعميمه فيها وصيرورته من الأمور المُسَلَّمة المشهورة عندها؛ حتى لا يغيب عن الأذهان. اهـ[٢].

كانت هذه المقدمة وهذا الإرهاص تربية للأمة جميعًا على طريقة الأنبياء في تعاملاتهم مع المحن والابتلاءات، بالصبر والثقة والأمل، وأن في أعطافها الخير الكامن، ولأن هذا الأمر ليس باليسير فإن المشهد العملي لمثل هذا الخبر الفاجع في أُحُد انعكس على معظم الصحابة بصورة تنمُّ عن الحاجة لمزيد من التربية القرآنية؛ فلم يثبت على النحو المراد إلا القِلَّةُ القليلة مثلُ أنس بن النضر الذي قال لأصحابه حين وجدهم وضعوا السلاح وأُسقط في أيديهم وقالوا له: إن محمدًا قد مات - معللين انتكاسهم -، فقال: فما تصنعون بالحياة من بعده؟ فقوموا فموتوا

---

(١) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان: (٢/ ١٦٣).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٢/ ١١٥).

على ما مات عليه رسول الله ﷺ. اهـ[١]. بل وبعد سنوات من هذا المشهد العملي والتربية القرآنية وحين كتب الله على نبيه الموت والالتحاق بالرفيق الأعلى، فإن الصحابة الذين شهدوا حلقات التربية النظرية والعملية أصيبوا بالدهش والذهول، حتى لقد وقف الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاهرًا سيفه يهدد به من يقول إن محمدًا قد مات[٢]. ولم يثبت إلا أبو بكر رضي الله عنه الموصول القلب بصاحبه ﷺ، والموصول بِقَدَرِ الله تعالى أيضًا اتصالاً وثيقًا مباشرًا، فذكر الآية لعمر ولكل أصحابه وذكَّرهم بها: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[آل عمران: ١٤٤]، وهم المدهوشون الذاهلون، فأخذوا يثوبون ويرجعون إلى الحقِّ المبين، ويستحضرون دروس التربية السابقة النظرية والعملية، ويشكرون الله تعالى على كل حال، متيقِّنين أن الخير في قضاء الله وقدره، معلنين ولائهم لله ورسوله ولدينه، منتظرين من الله الجزاء الحسن: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[آل عمران: ١٤٤].

وكم تستشعر بعد هذا العرض الموجز حكمة القرآن الكريم في هذه التربية وهذا التدريب، ولك أن تتخيل لو أن القرآن الكريم أغفل مثل هذه القضية، ولم يُعدَّ الأمةِ لساعة مثلها، أظن أن أحدًا لن يثبت أبدًا من مجموع الصحابة بمن فيهم ثاني الاثنين أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وعندها ستكون الانتكاسة العامة والطامَّة الكبرى على الدين وأهله أجمعين.

إدراك القران الكريم لقيمة هذه التربية وهذا الأمل في النفوس هو الذي أثمر

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة: (٣/ ٢٦٤)، القصة أصلها في الصحيح؛ فقد روى البخاري نحوها باب: غزوة أحد: (٣/ ٤٤٣)، وأوردها ابن هشام عن ابن إسحاق بإسناده إلى القاسم بن عبد الرحمن أخي بني عدي بن النجار. انظر: زاد المعاد: (٣/ ١٩٨ و٢٠٩)، الفتح: (٧/ ٣٥٤)، جامع الأصول لابن الأثير: (٨/ ٢٤١).

(٢) ابن هشام، كتاب السيرة: (٣/ ٢٧٦).

أبا بكر وأنس بن النضر، فكانا حفظًا للدين والأمة معًا هما وأضرابهما من المتعشقين لمحاضن التربية القرآنية، وإلا فلماذا صبر بلال بن رباح على عذاب أُميَّة، ولماذا تكبد الصحابة مرارة الهجرتين، لولا بريق الأمل الذي يلوح لهم في أفق السماء بأن سيكون خيرًا عقب الشر، ومن رحم المحنة ستولد المنحة.

هذا الأمر هو ذاته ما يجعل المريض ينتظر فَرِحًا من الطبيب أن يُعمل في جسده مِبضَعَه، ولعله يبتر أعضاءً منه فلا يعترض ولا ييأس؛ إذا كان سيعقب الداءَ الشفاءُ، والعلةَ العافيةُ، وما ذكرنا من نماذج وما لم نذكر كلها مُضمَّنَةٌ في قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وإمعاناً من القرآن في تربية الأمة على هذه العقيدة جعل أعظم منحة قد يَشرُفُ بها الإنسان في الدنيا منوطةً بالمحن الثقال والآلام الجسام، فقال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران: ١٤٠]، لا يفوح العطر حتى يسحق، ولا يُضوِّعُ العود حتى يُحرق، وكذلك الشدائد مصنع العظماء. وهذه الآيات وما بعدها نزلت في غزوة أحد وما أصاب المسلمين فيها من الشدة والقرح العميق، والشاهد من هذه الآية آخرها ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾[آل عمران: ١٤٠] حيث بيَّن الله سبحانه وتعالى سنَّته في اصطفاء خيرة الخلق وأعيان عباده، وأنهم الصامدون في وجه الشدائد واللأواء، الذين يعتقدون أن سيكون من بعدها رخاءٌ وانفراجٌ وخيرٌ للمسلمين.

أولئك النفر هم الذين يصطفيهم الله ليكونوا شهداء في سبيله، هؤلاء هم المستأهلون لشرف اتخاذ الله لهم، الذين يتجاوزون ببصيرتهم ما تبصره عيون رؤوسهم، فيَرون المنحة في قلب المحنة، بل كلما زاد ألم المخاض أوشك الوليد

أن يبصر نور الحياة، وأوشكت الأم أن تتلذَّذ بضم وليدها إلى صدرها الحنون.

كذلك من يصطفيهم الله تعالى يبصرون من وراء الأحداث، وستارها الشفيف يدَ الله فوق أيديهم، يبصرونها بإحساسهم الرفيف وإيمانهم الجذير، وإناطة القرآن الكريم اتخاذ الشهداء بمثل هذه العقيدة يدل على الحكمة البالغة والرشاد الكبير، (فالإنسان يلتبس عليه أمر نفسه، فلا يتجلى كمال التجلي إلا بالتجارب الكثيرة والامتحان بالشدائد العظيمة، فالتجارب والشدائد كتمحيص الذهب، يظهر به زيفه ونضاره، ثم إنها أيضًا تنفي خبثه وزغله، كذلك كان الأمر في أحد: تميَّز المؤمنون الصادقون من المنافقين، وتطهرت نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدوراتها فصارت تِبرًا، وهؤلاء هم الذين خالفوا أمر النبي ﷺ وطَمِعوا في الغنيمة والذين انهزموا وولَّوا وهم مدبرون، مَحَّصَ الجميع بتلك الشدة فعلموا أن المسلم ما خلق ليلهوا أو يلعب، ولا ليكسل ويتواكل، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات وتبديل سنن الله في المخلوقات، بل خلق ليكون أكثر الناس جِدًّا في العلم وأشدهم محافظة على النواميس والسنن)[1].

إنني إذ استطرد بهذا النقل إنما لأُبيِّن أن أصحاب الأمل العريض والرجاء الكبير لا تفزعهم العقبات والأكدار، ولا تدهشهم الابتلاءات والمحن وهم المادة الخام للمجتمع المسلم والدولة المسلمة الذين يُعَوَّل عليهم، وعلى أكتافهم يكون ترسيخ دعائم الأمة وتدشين عمرانها السامق، والقرآن إذ يفترض هذا فإنه يحرص على تجذير الأمل المحمود في نفوس أتباعه؛ إذ الطريق إلى الله محفوف بالمخاوف والمكاره ولا يتجاوزها إلا أكابر القوم الذين تجذَّر في قلوبهم قول ربهم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾.

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٢/ ٨٥).

لقد نزلت هذه الآية التي جعلناها شعارًا لنا في هذا المطلب وأساسًا انطلقنا منه ـ أو جزء الآية من سورة النور ـ في معرض الدفاع عن عرض رسول الله ﷺ يوم رُميت أم المؤمنين عائشة ﵂ بالإفك عندما قَفلَ النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق(١)، فنزلت هذه الآية مع صدر السورة في تبرئة الصديقة بنت الصديق ﵄ من الإفك المفترى عليها والتهمة الشنيعة التي ألصقت بها، وفي هذه الآية يُبيِّن الله ﷻ أن من وراء هذا الحدث المؤلم خيرًا ورحمة، وإن كان مؤلمًا لسيِّد البشر؛ للرسول ﷺ ولزوجه وهي أشرف الخلق جميعًا عائشة ﵂ ولآل أبي بكر الصديق وللمسلمين عامة، غير أن في رَحِمِه الخيرَ، وفي أعطافه الفوائد، والتي منها ما ذكره الرَّازي في تفسيره، فقال: ومعلوم أنه ﷺ تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومَنْ يتصل به، فإن قيل: فمِنْ أَيِّ جهة يصير خيرًا لهم مع أنه مضرةٌ في العاجل؟ قلنا: لوجوه؛ أحدها: بأنهم صبروا على ذلك الغمِّ طلبًا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم.

وثانيها: أنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض، وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر.

وثالثها: أنه صار خيرًا لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة، وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونَسَبَهُم إلى الإفك، وأوجب عليهم اللَّعن والذَّمَّ، وهذا غاية الشرف والفضل.

ورابعها: صيرورتها بحال تَعَلُّقِ الكفر والإيمان بقدحها ومدحها، فإن الله تعالى نصَّ على كون تلك الواقعة إفكًا وبالغ في شرحه، فكلُّ من يشك فيه كان

---

(١) ابن هشام، كتاب السيرة: (٢/ ٢٩٦).

كافرًا قطعًا وهذه درجة عالية. اهـ[١].

وأضاف المودودي فائدةً أُخرى لهذه الحادثة تؤكد صدق الدعوة والنبوة، وتنعكس بالخير على مجموع الرسالة النبوية، فقال: ومن نواحي الخير في هذا الحادث أنَّ المسلمين جميعًا عَلِموا به أحسن العلم أن النَّبيَّ ﷺ لا يعلم الغيب وأنه لا يعلم إلا ما يخبره به الله سبحانه وتعالى، وأن عِلْمَه لا يفوق بعد ذلك علم عامة البشر؛ فقد ظلَّ إلى شهر كامل يعاني من الألم وفجيعة القلب في أمر عائشة، فيسأل فيها خادم بيتها تارة، وعليًا أخرى، وأسامة بن زيد ثالثة، وأزواجه رابعة، وأخيرًا يذهب إلى عائشة نفسها ويقول لها: «إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه». اهـ[٢].

ويضاف إلى كل ما سبق أنها كانت مناسبة لكشف الكائدين للإسلام والمتربصين به، ممثَّلاً بشخص رسول الله ﷺ وأهل بيته، وهو كذلك يكشف للجماعة المسلمة عن خطورة القذف، وعلة تحريمه، وضرورة أخذ القاذفين بالحدِّ الذي فرضه الله تعالى، وتبيِّن مدى الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أُطلقت فيها الألسنة الرعناء تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات بلا رقيب ولا حسيب، فعندها لن تقف عند حدٍّ، إنما ستمضي صُعُدًا وستذهب بعيدًا لتطال خيرة الخيرة، وأشرف المقامات وأرفع الهامات، وعندها ستعدم الأمة المسلمة الأمن على أعراضها وأنفسها وستفقد كل فضيلة وحياء.

كل هذه الفوائد في رحم المحنة التي تعرض لها بيت النبوة الأكرم، وكذلك كل ما قد يَعْرِض للصَّفِّ المسلم في كل زمان ومكان، فليست العبرة بخصوص

---

(١) الرازي، التفسير الكبير مفاتيح الغيب: (٩/ ١١٠).

(٢) أبو الأعلى المودودي، تفسير سورة النور: (ص١٢٦).

السبب إنما بعموم اللفظ، ولا يدرك مثل هذا المعنى من قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] إلا أصحاب الآمال الصادقة والرجاءات الخبيرة، وهم في الصَّفِّ كثير بحمد الله تعالى.

ثالثًا - مفتاح النجاح:

قال عمر بن عبد العزيز: إن لي نفسًا تواقة تاقت للإمارة فتوليتها ثم تاقت إلى الخلافة فتوليتها وهي الآن تتوق إلى الجنة. اهـ[١].

وقال البخاري: كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال لنا بعض أصحابنا: لو جمعتم كتابًا مختصرًا في الصحيح لسنن النبي ﷺ، وكانت الكتب قبل ذلك تجمع الصحيح والضعيف فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب؛ يعني: كتاب صحيح البخاري. اهـ[٢].

إن الذي قاد البخاري لهذا الإنجاز الكبير والفتح العلمي ذلك الأمل الذي تحرك في نفسه بأن يكون صاحب السبق في هذا المضمار، وكان له ما أراد بالرغم من كل ما لاقى من الألاقي في سبيل هدفه الذي استغرق تسعة عشر عامًا، ومثله، بل وقبله عمر بن عبد العزيز الذي قادته هِمَّتُه وآماله إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه بشر على وجه الأرض، ونحسبه أن سيبلغ في الجنة أبعد ما قد يصل إليه مَن هُمْ دون الأنبياء من صُلحاءِ الناس، الذي صنع هذه النجاحات هو الأمل الذي اعتمل في نفسيهما.

وكذلك قصة كل النجاحات عبر التاريخ مع كل البشر، وما كان نوح - عليه السلام - ليقدر على إتمام مشروع سفينته لو أنه كان مبتَئِسًا، أو أنه لم يستشعر أن

---

(١) ابن قتيبة الدنيوري، عيون الأخبار: (١/ ٩٩).

(٢) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: (١/ ٨٨).

أعينَ الله تحيط به ووحيَ الله يؤيده، لولا ذلك الأمل العريض والرجاء الكبير ما كان له أن يتجاوز عقبة سخرية الناس منه ومِنْ صنع سفينته في الصحراء القاحلة، قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٧]، وبَعْثُ الأمل في نفس نوح ـ عليه السلام ـ كان من جهة إقناطه وتيئيسه من إيمان قومه لينصرف إلى غير دعوتهم، وينشغل بالذين آمنوا إيماناً راسخًا من قومه، وبطريق نجاتهم وفوزهم: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ (أي لا تحزن حزن بائس فتستكين، ولا تغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والإيذاء في هذه المدة الطويلة)[1]، واشتغل بما فيه نفعك ونجاتك أنت ومن آمن معك؛ فهم وإنْ قَلَّ عددهم إلا أنهم المستحقون للجهد والعناء، لذلك نجد المشهد التالي في قصة نوح ـ عيه السلام ـ هو مشهد الشروع بصناعة السفينة على أعين الله وبتوجيهه ووحيه، مشهدُ غيرِ بائسٍ ولا حزينٍ، بل مشهد المجتهد المتفائل الذي يقابل سخرية قومه الجهلاء، بسخرية بصيرة، على نور من الوحي ولها ركائز من الرعاية الربانية، سخرية تنبثق من الأمل العريض بمعية الله وإيالة[2] النصر بين يديه، واندكاك جبروت قومه وطغيانهم على صخرة الحق الصلبة التي يتكئ عليها.

إن إدراك القرآن الكريم لأهمية الأمل والفأل الحسن في تحريك دواعي العمل والانجاز لدى الإنسان، وأنه مفتاح النجاح الذي بغيره ستبقى كل الأبواب موصدة في وجهه، هو الذي دفعه إلى أن يقول لنوح: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[هود: ٣٧] برعايتنا وبعلمنا؛ أي: «واصنع الفلك الذي سننجيك ومن آمن معك فيه ملحوظًا مراقبًا بأعيننا من كل ناحية وما يلزمه من حفظنا في كل آنٍ وحالةٍ، فلا يمنعك منه

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٥٤).

(٢) إيالة: مِنْ أول يؤول، وهو الرجوع والعودة.

مانع، ومُلهَمًا ومُعَلَّمًا بوحينا لك كيف تصنعه فلا يعرض في صفته خطأ، وجَمْعُ الأعين هنا لإفادة شـدة المراقبة والعناية والحفظ»[1]، ولهذه الرعاية الربانية الأثر الأبلغ في دفع روح العمل والاجتهاد للنبي الصالح نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وَلِيُبقي القرآنُ على هذه النفسية والروح لدى النبي الكريم لم يأذن له بأن يرى مصرع ولده: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾[هود: ٤٣]، لما لهذا المشـهد من أثر سلبي على نفس النبي الأب الإنسان، ولِمَا قد يتسرب إلى قلبه من الشعور بالبؤس والحزن، مما قد يعيقه أو يحول بينه وبين تمام مهمته التي انْـتُدِبَ لها.

لقد حصل الإنسان في كل أفراد جنسه على ذات الإمكانات، وأمدَّه الله بنفس الملكات والطاقات، لكن الذي يصنع الفارق بين البشر والذي يجعل منهم المتفوق الناجح والمخفق الفاشل هو ذلك الشيء الذي يتحرك في قلوبهم من أمل ورجاء وطموح وفأل، وبطبع الإنسان الضعف والنسيان لذا فهو يحتاج بين الحين والآخر إلى تَحْفيز الأمل في نفسه وتحريك دواعيه، حتى الأنبياء ليسو بمعزل عن هذه القاعدة الكونية المُطَّرِدة، فهذا القرآن الكريم وهو يدعو النبي الأعظم رسول الله ﷺ لتبليغ الرسالة كاملة من غير نقص يضمن له العصمة والحفظ من أعاديه، والنجاة والوقاية من مخاصميه؛ فتقوى بذلك هِمَّته ويزداد أمله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لقد ناداه المولى سبحانه وتعالى بأشرف الصِّفات البشرية، «فسبحانه ينادي كل رسـول له بالاسـم المشخص للذات بصرف النظـر عن أيِّ صفة، لكن الرسـول ﷺ لم يُنَادَ باسمه أبدًا بل ناداه الحق بالاسـم المشخص لوصفه، ومثلها نداؤه بـ «يا أَيُّهَا النَّبي» فكأنك يا رسول الله! قد اجتمعت فيك كل مسائل الرسالة؛

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (١٢/ ٦٢).

لأنك صاحب الدِّين الذي سينتهي العالم عنده ولا يكون بعد ذلك لله في الأرض رسالة، إلا فهمٌ يؤتيه الله تعالى لأحدٍ في كتابه»[١]، وهي أولى الدفعات المعنوية، فشأنُ الرُّسل مثلك التبليغ على الاستيفاء والكمال من غير نقص وفي شبه الجملة «إليك» تخصيص وتشريف وفيها دفعة أخرى، ثم جعل النازل من قِبَلِ الربِّ وإضافته إلى النبي الكريم بالضمير (الكاف) في «رَبِّكَ» مزيد تشريف له يرفع همته أيضًا، ثم جَعْلُه أفراد الرسالة جميعًا بنفس القدر وبذات الأهمية، إلى الحد أنه إذا لم يبلغ شيئًا منها كأنه ما بلغها جميعًا، مزيد من الدفع؛ إذ شَرَفُ المحمول وأهميته وعظيم قدره يدلُّ على شرف الحامل وأهميته وعظيم قدره، ولا يختار لمثل هذه الرسالة إلا الأكابر أمثالك يا محمد! وأنت ليس لك في الخلق مثيل: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

قال الزمخشري ـ رحمه الله ـ: أي: فما أدَّيْت شيئًا من رسالته، كما أن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض فإذا لم تؤدِّ بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعًا، كما أنَّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها؛ لإدلاء كلٍّ منها بما يدليه غيرها، وكونها كذلك في حكم شيء واحد، والشيء الواحد لا يكون مبلغًا غير مبلغ، مؤمنًا به غير مؤمن به. اهـ[٢].

ومن أسباب تقوية الرسول في تبليغه الرسالة ودفع همته وتقوية عزيمته، رفع الحرج عنه، حيث أراد سبحانه بذلك إخبار الناس أنه إن أبلغهم بما يكرهون فإنما هو يلتزم بأمر الله له، ولا يقول شيئًا من عند نفسه، وأنَّ عليهم أنْ يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله تعالى، وعليهم لزوم الأمر، وفي هذا العذر لرسول الله ﷺ

---

(١) الشعراوي، محمد متولي، التفسير: (١٢/ ٦٢).

(٢) الزمخشري، الكشاف: (٢/ ١١١).

ورفع الحرج عنه مما يعطي دافعية للتبليغ، وأملاً بأن الناس سيلزموا أوامره الموحى بها إليه من ربه الكريم.

والدافع الأهم في الآية والأبرز والأظهر وعد الله لنبيه: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، إن مهمة الأنبياء تكمن في إصلاح المجتمعات وتقويم مسارها لا سيَّما عندما تفسد، ويظهر الشَّرُّ ويعمُّ الطغيان، عندها سيكون هناك المنتفعون من هذا الفساد والشر، الذين لن يتركوا حركة الإصلاح دون اعتراض، ولن يقبلوا إنصاف الضعفاء والمساكين وتسويتهم بهم، عندها سيعملون على مقاومة النبي ﷺ والمكر به ليثبتوه أو يخرجوه أو يقتلوه، وهذا الذي حدا برسول الله ﷺ في المدينة المنورة أن يطلب الحراسة لنفسه حتى نزلت هذه الآية، كما تروي عائشة ﵂ قالت: «أَرِقَ رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة، قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال رسول الله ﷺ: من هذا؟ قال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله! جئت أحرسك. قالت عائشة: فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطه»[1]، وأخرج الترمذي عنها: «فكان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: يا أيها الناس! انصرفوا فقد عصمني الله»[2].

وطَلَبُ النبي ﷺ للحراسة دلالة على بشريته وأنه يعتريه ما يعتري البشر من الضعف والخوف والتعب، وأنه يحتاج إلى الدعم النفسي وبث الأمل في جوانحه؛ ليستمر في دعوته، وينجح فيها، ليصدق فيه ﷺ وفي غيره من البشر قول ربنا:

(١) مسلم، الصحيح، باب: فضل سعد بن أبي وقاص: (٦/ ١٣٧).

(٢) الترمذي، السنن، تفسير سورة المائدة: (١٠/ ٣٠٩) حَسَّنَهُ الألباني، صحيح الترمذي: (٧/ ٤٦).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، وتغيير ما في الأنفس يقتضي نقلها من حالة البؤس واليأس والضعف إلى حالة الأمل والقوة والجدية، فإذا تم لها تغيير حالتها الشعورية فإنها ستتحول من الذلِّ إلى العز، ومن الضعف إلى القوة، ومن الفقر إلى الغنى، مجرد إحداث تغيير في الحالة النفسية لدى أفراد المجتمع، وبث الأمل فيهم وإحياء إيمانهم بربهم وثقتهم بأنفسهم وقدرتهم على التحول إن أرادوا هم ذلك يقلب انحطاط أحوالهم إلى السمو، وعبوديتَهم إلى السيادة، وخَورَهم إلى المنعة، وهذه سنة الله الماضية في كونه التي أجراها على أنبيائه، ولم يستثن منهم أحدًا حتى سيد الخلق ﷺ، وهذا الأمرُ وهذه السنةُ الماضيةُ هي التي حدت بنبي الله موسى ـ عليه السلام ـ أن يطلب من ربه العون النفسي قبل الماديِّ والدعم المعنويَّ قبل توزير أخيه هارون؛ فإذا اجتمع الأمل في النفس، والانشراح للصدر، والتيسير للأمور، والتخطيط الجيد، والدعم البشري، والعون من المحيط القريب أو البعيد؛ فلا بُدَّ لكل عمل من بلوغ الأهداف المرجوَّة منه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾[طه: ٢٥]، قال سيد قطب: لقد طلب إلى ربه أن يشرح له صدره، وانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويحيل عناءه لذة ويجعله دافعًا للحياة، لا عِبئًا يُثقل خطى الحياة. وطلب إلى ربِّه أن ييسِّرَ له أمره، وتيسير الله لعباده هو ضمان النجاح. وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير؟ ماذا يملك وقواه محدودة وعلمه قاصر والطريق طويل وشائك مجهول؟!. وطلب إلى ربه أن يحلَّ عقدة لسانه فيفقهوا قوله، وطلب إلى ربّه أن يُعِينه بأخيه؛ ليشدَّ أزره، ويقوِّيه، ويتروَّى معه في الأمر الجليل الذي هو مُقدمٌ عليه. اهـ[1].

كما أن الاستلاب والذُّلَّ والهوان لا يصيب الأمة ولا تحرم من نعم الله التي

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٥/ ٣١٥).

أسبغها عليها إلا عندما تُغيِّر ما في أنفسها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الأنفال: ٥٣].

لا تحرم الأمة من التفوق والنجاح والسيادة إلا يوم تغيِّر ظنها بربِّها، وتفقد ثقتها بدينها وإيمانها بذاتها.

إنَّ الأمل والإيمان لا يمسَّان قلبًا إلاَّ ويحدثان فيه تغييرًا كبيرًا، إلا ويكون أول أعمال صاحب القلب تقديم ماله وروحه في سبيل ما يؤمن به ويأمله ويرجوه، ولا يراعي في ذلك عذرًا ولا علة.

لذلك قال الله لنبيه ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، فاشتعل فتيل الهمة والقوة في نفس رسول الله ﷺ حتى أمر حراسه بالانصراف من ساعته دون تردد أو انتظار، وهو الذي كان الأَرَقُ قبل قليلٍ يحرمه لذيذ النوم، إن الذي تغيَّر شيءٌ واحد هو نفس رسول الله ﷺ حيث امتلأت أملاً بحفظ الله وعصمته وديمومة الدعوة وبقائها وانتشارها في كل الأرض بالرغم من كيد ومكر الكافرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٦٧]، فالثِّقة والأمل هما الفارقُ الأكبر بين الحالتين اللتين عاشهما الرسول الكريم ﷺ ولا أقصد أن النبي ﷺ كان فاقدًا للثقة والأمل ـ وحاشاه ﷺ ـ لكنه بشرٌ وكان يحتاج إلى لمسة الأمان والاطمئنان من ربه الكريم.

إن الأمل المحمود الإيجابي مقدمةٌ لا بُدَّ منها لتحقيق المرادات والرجاءات والأهداف، وفاقد الأمل تائه، وفاقد الهدف مشتت الشمل، والذي ليس عنده ثقة بغَدٍ أفضل وأنه سيحقق ما يصبو إليه ويرجوه في الغد فهو المفرق الضيعة الذي ليس له عنوان على خريطة الحياة والأحياء، وآية سورة الكهف تؤكد هذه القضية: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦]، فالأمل الجادُّ المحمود هو الأمل الذي ينعكس على صاحبه إنجازًا ونجاحًا وتوفيقًا، ولن يؤدِّيَ هذه الباقيات

الصالحات ليصل لخير الثواب من خَوَتْ جعبته من الأمل الصالح والرجاء المحمود، ومعلوم أن الثواب المقصود أصالة في الآية هو ثـواب الآخرة في الجنة ونعيمها، وسـوى ذلك مما أعدَّه الله لعباده المؤمنين، والسبيل إلى هذا الثواب هو الباقيات الصالحات من الأعمال والعبادات التي يرتضيها الله ويحبها، ولن يحرِّك همةَ الإنسان ـ بحسب الآية ـ إلى هذه الباقيات الصالحات لنيلِ خير الثواب، إلا الأملُ الخَيِّرُ الطيبُ المحمود، ويؤكد هذه الصـلة أنَّ من تاهت بوصـلتُه قليلاً عن ذلك الأمل الصحيح فإن قلبه سيتعلق بأهداف زائلة قصيرة الأمد، هي المال والبنون، وسيتوجه عمله لتحصيلهما، فالمحرك الأهمُّ إذن في توجيه الهمم والعزائم هو الأمل الذي يعمل في نفس الإنسان، والمترتب على علمه وفهمه ومقدار تحصيله، ويظهر هذا الفارق بصورة بائنة عند مقارنتنا بين العفريت من الجن الذي لم يُؤْتَ علمًا كافيًا، واسـتند إلى ما آتاه الله من قوة، فكان الزمن اللازم لإحضـار العرش مُقَامُ نبيِّ الله سليمان في ديوان ملكه، أما صاحب علم الكتاب فتعلقت آماله بما هو أعظم؛ فكان زمان ارتداد طرف سليمان ـ عليه السلام ـ متسعًا وكافيًا لإحضار العرش بين يديه، وهذا أيضًا هو ذاته الذي تعلَّقت به آمال سـليمان ـ عليه السلام ـ بدليل أنه لم يرضَ بِعَرضِ العفريت واستطال الزمان حتى يقوم من مقامه؛ لأنه يقصد ليبهر ملكة اليمن بالقدرات التي أعطاه الله إياها عسى أن يكون سببًا في إسلامها هي وقومها، وسكوت سليمان ـ عليه السلام ـ فيه إشارة إلى انتظاره لمن يعرض عليه المقدرة على الإتيان بالعرش في زمن أقصر، وفيه إشارة إلى علم سـليمان ـ عليه السلام ـ بأفراد جنده وإدراكه لقدراتهم وإحاطته بأحوالهم، وهذا الأمر من أهم ركائز الحاكم الناجح في حكمه، فلما رأى العرش بين يديه في لمحة البصر قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، ثم كان لسليمان

- عليه السلام - الذي تأمله ورجاه؛ فأسلمت ملكة اليمن ومن خَلفِها قومُها وأهلُها: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل: ٤٤]، كل هذه الأحداث والأحوال ثمرة للآمال التي تعلقت بها نفس النبي الصالح - عليه السلام - بتعبيد الأرض ومن فيها لله تعالى، فكان له ما أراد وكتب الله له النجاح في مساعيه وآماله.

فنوع الآمال متفاوت ومقداره كذلك متفاوت بين أفراد البشر بحسب عوامل مختلفة وكثيرة ليس هذا محل بسطها وشرحها، غير أن الأكيد أن أعمال الناس ونجاحاتهم متعلقة بحجم ونوع الآمال المتركزة في نفوسهم؛ لذلك يقول تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ وقال تعالى حكاية عن شعيب - عليه السلام - وهو يخاطب قومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾[الأنعام: ١٣٥]، فأعمال الإنسان تنبثق من آماله ومقدار نفسه في عينه، وثقته بها، وطموحه المعتمل فيها، وكما قيل: أنت ما تريد. قال ابن عادل: أي: أنَّ كلَّ أحد يفعل على وفق ما يشاكله جوهر نفسه، ومقتضى روحه، فإنْ كانت مشرقة ظاهرة علوية صدرت منه أفعال فاضلة، وإن كانت نفسه كدرة خبيثة مضلة ظلمانية صدرت منه أفعال خسيسة. اهـ[١].

وقال القشيري: كلٌّ يَترشَحُ بِمُودَعِ باطنه، فالأَسِرَّةُ تدلُ على السريرة، وما تُكنُّه الضمائر يلوح على السرائر، فمن صفى من الكدورة جوهره لا يفوح منه إلا نشر مناَقِبه، ومن طُبعت على الكُدورة طينته فلا يشمُّ من يحوم حوله إلا ريح مثالبه، ويقال: حركات الظواهر تدل وتخبر عن بواطن السرائر. اهـ[٢]. فأعمال الإنسان تنبثق من آماله، ولن يبلغ الجوزاء من جبينه والأرض سواء.

---

(١) ابن عادل، تفسير اللباب: (١٠/ ٣٧١).

(٢) عبد الكريم بن هوازن القشيري، لطائف الإشارات: (٤/ ٣٠٣).

رابعًا ـ بوابة الدعاء:

إنَّ الله تعالى لم يخلقِ الخلقَ سدًى ولم يتركهم هملاً، بل خلقهم لأمرٍ عظيم ألا وهو عبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦]، ولقد بيّن النبيُ الكريمُ ﷺ أنَّ العبادةَ كلمةٌ كبيرةٌ عظيمةٌ يمكن أن تختصر في بعض مفهوماتها بالدعـاء، فقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[١]. ولقد جعل القرآنُ الكريم للدعاء منزلةً كبيرةً؛ إذ ختم الحديث عن صفات عباد الرحمن بقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾[الفرقان: ٧٧]، حيث ختم صفات المؤمنين الحسنة بالدعاء الذي يدل على حقيقة الإخلاص في التوجه والخضوع لله تعالى، وكأنها حقًّا هي الكلمـةُ الجامعـةُ لكل أفراد العبادة وصورِهـا؛ لذلك أمر النبيَّ ﷺ في الآية أن ينذر عُبَّاد الشيطان الذين تكبروا عن السجود لله وعن الاعتراف به والإيمان له عسى يرجعوا عن العصيان، ويخضعوا عند عتبات الدعاء لله تعالى، وفيها أيضًا دعوةٌ للمؤمنين ليزدادوا في الطاعـات والدعاء؛ لأن ربهم لا يَعتَدُّ بمن لا يدعوه... وَمَنْ تَرَكَ الدُّعاءَ فليرتقبِ العذاب الأليم، قال الزمخشري: لمَّا وصف عبادة العباد وعدد صالحاتِهم وحسناتِهم وأثنى عليهم من أجلها، ووعدهم بالرفع من درجاتهم في الجنة، أَتْبَعَ ذلك ببيان أنه إنما اكترث لأولئك وعَبِىءَ بهم، وأعلى ذكرهم ووعدهم ما وعدهم لأجل عبادتهم، فأمر رسوله أن يصرح للناس ويجزم لهم القول بأن الاكتراث لهم عند ربهم إنما هو للعبادة وحدها لا بمعنى آخر، ولولا عبادتهم لم يكترث لهم البتة ولم يَعْتَدَّ بهم ولم يكونوا عنده شيءٌ يبالي به، والدعاء: العبادة. اهـ[٢]. وقال النسفي: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ﴾، «مَا» متضمنة

---

(١) أبو داوود، السنن، باب الدعاء (٤/ ٢٧٨) صححه الألباني، صحيح أبي داوود: (٣/ ٤٧٩).

(٢) الزمخشري، تفسير الكشاف: (٣/ ٤٨٩).

لمعنى الاستفهام، وهي في محل النصب، ومعناه: ما يصنع بكم ربي لولا دعاؤكم وعبادتكم له؛ أي: أنه خلقكم لعبادته[1]. اهـ. ولأهمية الدعاء افتُتِحَ القرآنُ الكريم بسورة الفاتحة، وهي سورةُ المسألة، وختم كذلك بالدعاء والاستعاذة بالله تعالى من الشرور، مع ما بينهما من النصوص المتكاثرة حول الدعاء وأهميته، ولأن الدعاء من أعظم محبوبات الله تعالى فلا ينبغي أن يُرفع إلاَّ إليه، فإنَّ الشركَ أعظمُ مسألةٍ جاء القرآن الكريم لمحاربتها، والشرك أنواعٌ وأخطرُ أنواعهِ الشركُ في الدعاء والمسألةِ؛ لهذا لم يَرِدْ في القرآن الكريم التحذيرُ من سائرِ أنواعِ الشرك مثلَ ما ورد فيه التحذيرُ من الشرك بالدعاء، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[الأنعام: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[الأنعام: ٥٦]، وقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ لقومه منكرًا العبادة السائدة في زمنه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾[مريم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾[الأعراف: ٣٧]، والآيات كثيرة في هذا السياق، بل جعلَ القرآنُ الكريمُ تركَ الدعاءِ بين يديِّ الله ومسألتِه من أكبرِ الكبائرِ المستوجبة للدُّخور[2] في جهنم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: ٦٠]، لقد حاز الدعاء هذه الفضيلة والمكانة في

---

(١) النسفي، مدارك التنزل وحقائق التأويل: (٢/ ٤٥٩).

(٢) الدُّخور: مِنْ دَخَرَ؛ أي: ذَلَّ وصَغُرَ والدُّخُورُ: الصَّغَارُ والذِّلَّةُ.

دين الله تعالى؛ لأنه مظنةُ استجماعِ الجوارح وحضور القلب والعقل ولذلك كان هو العبادة؛ إذ مقصد العبادات جميعًا استشعارُ العَوَزِ إلى الله، والحاجة لعظمته والتذلل بين يديه، فالصلاة مثلاً مقصدها التحقق من ذكر الله تعالى واستشعار قربه وعظمته ومعيَّته: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[طه: ١٤]، ولا يقبل من الصلاة إلا ما تحقق فيه هذا الأمر لحديث عمار ﷺ أنه صلى ركعتين فقال له عبد الرحمن بن الحارث: يا أبا اليقظان لا أراك إلا قد خففتهما. قال هل نقصت من حدودها شيئًا؟ قال: لا ولكن خففتها قال: إني بادرتُ بهما السهوَ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنَّ الرجل ليصلي لعله أن لا يكون له من صلاته إلا عُشْرها وتسعها أو ثُمْنُها أو سُبْعُها حتى انتهى إلى آخر العدد»[1]. فالصلاةُ إنما فرضت لإقامة ذكر الله، فإن لم يكن في قلب المصلِّي تعظيمٌ وهيبةٌ له نقصت قيمة الصلاة، وحضورُ القلب هو تفريغه من كل ما هو ملابسٌ له، وكذلك سائرُ العباداتِ غيرُ الصلاة، فإن ذات المقصدِ تدور عليه جميعًا، وهذا هو الذي يحقق معنى العبودية لله تعالى، والدعاء مظنة أن يكون فيه هذا التبتل والخضوع أكثر مِنْ أيِّ شيء آخر؛ إذ السائل والداعي ما رفع يديه إلا لحاجةٍ يسألها، ولملمةٍ أصابته كمرضِ ولدٍ، أو فقدِ مالٍ، أو خوف عدوٍ، أو امتحانٍ سيقدمُه، أو عمليةٍ جراحيةٍ ستُجرى له أو لصاحبه، وعندها ستحقق المناجاة لله تعالى دون غفلة أو سهو وسيكون القلب حاضرًا بلا شواغل، بل سيتفرغ من كل شيءٍ إلا الله تعالى.

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند، حديث عمار بن ياسر ﷺ: (١٥/ ٣٣٩) وله رواية أخرى في سنن أبي داوود، باب: ما جاء في نقصان الصلاة: (٢/ ٤٥٠)، وحَسَّنَهُ الألباني، صحيح أبي داوود: (٢/ ٢٩٦).

لذلك جعلَ القرآنُ ذكـرَ اللهِ أكبـرَ من الصلاة، لأن الصلاةَ وسائرَ العبادات غيرُ مقصودة لذاتها، أما الدعاء فليس كذلك فهـو أهم مقاصد الوجود والخليقة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: ٥٦].

وكما أسلفنا يُقبلُ من الصلاةِ الجزءُ الذي تحققَ فيـه معنى ذكرِ الله تعالى؛ أي الخضوع والإنابة لله واستحضار صورةِ عظمته في كونه وخلقه، ويُصَدِّق هذا حديث النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاهـا عنـد مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير من إعطاء الذهب والفضة، وأنْ تلقَـوْا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم، قالوا: وما ذاك يا رسول الله! قال: ذكر الله»[1].

والدعاءُ متضمنٌ للذكرِ والذكرُ داخلٌ فيه، لما أخرجه الحاكمُ في مستدركه من حديث جابر بن عبدالله:

«وأفضل الدعاء الحمد لله»[2]، وفي الأثر: قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاء؟ قال: أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت لعبدالله بن جدعان يرجو نائلة:

أأذكـــر حـــاجتي أم قـــد كفـــاني ... حيـــاؤك إنَّ شـــيمتك الحيـــاءُ

إذا أثنـــى عليـــك المـــرء يومًـــا ... كفـــاه مـــن تَعرُضِـــه الثنـــاءُ

فهذا مخلوق واكتفى من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله فكيف برب العالمين. اهـ[3].

إنَّ الدعاء إذ يحوزُ هذه المكانـةَ في دين الله فإنَّ للقرآن الكريم عنايةً خاصةً

(١) الترمذي، السنن: ، (٥/ ٢٣٠) صححه الألباني، صحيح الترمذي: (٧/ ٣٧٧).

(٢) الترمذي، السنن، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة: (٧/ ٢٣٩)، حسَّنه الألباني، صحيح الترمذي: (٧/ ٣٨٣).

(٣) ابن قيم الجوزية، مدارك السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: (٢/ ٤٥٥).

به، وليحركَ دوافعَ البشر نحوه وليتشبثوا بحباله التي تربطُهم بخالقهم العظيم؛ فلقد أيقظَ الأمل في نفوسهم بالاستجابة للدعاء، وأنه لن يخيب من رفع يديه في حضرة ربه ولن ييأس، وما كانت هذه التربية القرآنية إلا لإدراكه أنه لن يوقظ همم الناس للدعاء سوى الأمل والرجاء؛ لأن الله سيستجيب لهم ويكشف كرب المكروبين، ويُفَرِّج هَمَّ المهمومين، ولذلك انظر للقرآن وهو يخاطب النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦]، حيث ورد في نزول هذه الآية أن سائلاً قال لرسول الله ﷺ: يا محمد! أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية[١].

قال القشيري: الذين يسألون عن الأهلة والمحيض والجبال ونحوها يجابون بالواسطة، وأما الذين يسألون عني فإني أرفع الوسائط بيني وبينهم. اهـ[٢]. وما أجمله من فهم تدل عليه الآية إذ شأن القرآن في الأسئلة التي يتعرض لها النبي ﷺ أن يقول له «قُلْ» إلا في هذا الموضع حيث أجابهم ربهم «فَإِنِّيْ» ولم يَجْرِ على عادتـه: «فقل إني»، فإنه لو أثبت (قل) لأَوْهَمَ بُعْدًا، وليس المقام كذلك؛ إذ المقصود التلطف بالسائلين وزيادة هِمَمِهم ليستكثروا من الدعاء، وبعث أملهم بالإجابة ليداوموا عليه.

قال أبو السعود: وكما أمرهم الله تعالى بصوم الشهر، ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الكريمة على أنه خبيرٌ بأحوالهم سميعٌ لأقوالهم مجيبٌ لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم، تأكيدًا له وحثًا عليه. اهـ[٣].

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان: (١/ ٤٨٠). وذكره ابن رجب الحنبلي في شرحه لصحيح البخاري بصيغة التمريض (روي): (٣/ ١٥٨) وضعَّفه محمود شاكر في تحقيقه للطبري.

(٢) القشيري، لطائف الإشارات: (١/ ١٧٧).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ٢٥٤).

إذن فالقرآن الكريم حريص جدًا أن يحث المؤمنين على لزوم الدعاء، وأن يؤكد لهم قيمته العليا في ميزان الله تعالى، ومن العجيب في الآية، ومن أبلغ صور الحث فيها أن الله ضَمِنَ لعباده الإجابةَ قبلَ أنْ يضمنوا له من أنفسهم الاستجابة لدعوته إياهم إليه، ولطاعته والإيمان به، فقال تعالى داعيًا لهم إلى حضرة قدسه وعتبات فضله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[البقرة: ١٨٦].

ولقد حدَّثنا النَّبيُّ الكريم عن أنموذج آخر يدل على كرم الله وعظمته ولطفه بعباده وفتحه لأبواب الاستجابة، عسى أن يقفوا على أبواب السؤال والطلب، مؤكدًا لهم أنه سيغفرُ لمُستغفرهم ويجيبُ داعيهم ويعطي سائلهم، قال رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له»[١].

إدراك القرآن الكريم لكون الدعاء أحد ثمراتِ الأمل والرجاء هو الذي حدا به أن يتَّبعَ هذا الأسلوب في حثِّ الناس عليه... من بوابة الأمل والرجاء.

بل إنه يُحذر من القنوط من رحمة الله تعالى والانكفاء عن قرع أبواب السماء؛ إذ مَنْ لازَمَ القَرْعَ يُوشِكُ أن يُفتحَ له: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣]، وكانت هذه الآية كما يقول ابن عاشور: بعد أن أطنبت آيات الوعيد بأفنانها السابقة إطنابًا يبلغ من نفوس سامعيها أيَّ مبلغٍ من الرعب والخوف على رغم تظاهرهم بقِلَّة الاهتمام بها، وقد يبلغ بهم وقعها مبلغ اليأس من سعي ينجيهم من وعيدها، فأعقبها الله ببعث الأمل والرجاء في نفوسهم للخروج إلى ساحل النجاة إذا أرادوها على عادة هذا

(١) البخاري، الصحيح، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل: (٤/ ٣١٥).

الكتاب المجيد من مداواة النفوس بمزيج الترغيب والترهيب. اهـ[1].

هذه الآيات إذًا تفتح أبواب رحمة الله على مصارعها، وتُطمعُ في مغفرة الله وتوبته أهلَ المعاصي مهما أسرفوا في شرودهم وبعدهم وذنوبهم... إنها دعوةٌ إلى الأوبة إلى الله تعالى وترك القنوط واليأس من رحمته واستجابته للدعاء، والرجوع بين يديه، دعوة إلى الأمل والرجاء والثقة بعفوه فهو الذي يعلم ضعف العباد وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه، يعلم الله تعالى حقيقة الضعف لدى هذا المخلوق الضعيف فيمدُّ له يد العون ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيِّئَ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط المستقيم، حتى بعد أن يلج العبد في المعصية ويسرف في الذنب ويصل إلى حدِّ الاعتقاد أنه لن يُرحم وأن الله لن يغفر له، وأنه قد طرد عن عتبات القبول... في هذه اللحظات العسيرة البائسة التي تُيَئِس وتُقنط يسمع نداء اللطف والرحمة، نداء الأمل والرجاء؛ ليرفع من بعده يديه إلى السماء طالبًا العفو والغفران: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣]، إنه ليس بين العبد الآبق الشارد عن الله وبين الرحمة سوى أن يطرد اليأس والقنوط من قلبه، وأن يزرع الأمل والرجاء عوضًا عنهما، وأن يرفع يديه إلى الذي يسمع السرَّ والنجوى ويكشفُ الهمَّ والبلوى، الذي ما خيَّبَ قَطُّ سائلَه ولا ردَّ لعبدٍ مسائِلَه، وها هو القرآن يهتف من جديد في الناس يحيي فيهم الأمل بالقبول والاستجابة، وأن الله هو ملاذ العباد وكاشف السوء عنهم: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٢/ ٣٦٥) ولقد أضفت كلمة الأمل إلى النص فكانت في موضعها متمكنة بغير نفور أو شذوذ.

فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[النحل: ٥٣]، قال الزمخشري: فالضرورة هي الحاجةُ المُحوجَةُ إلى الالتجاء، والمضطر هو الذي أحوجه مرضٌ أو فقرٌ أو نازلةٌ من نوازل الدهر إلى التضرع إلى الله تعالى وعن السدي: الذي لا حول له ولا قوة[1]. اهـ.

وإنْ سألَ سائلٌ كم مضطرٍ يدعو فلا يُجاب؟ فإن الرَّازي ينبري للردِّ عليه فيقول: قد بيَّنَّا في أصول الفقه أن المفرد المُعَرَّف لا يفيد العموم وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقِه ثبوتُه في فردٍ من أفراد الماهية، وأيضًا فإنه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال. اهـ[2].

كما أنه يجب أنْ يُعْلَم أن الاضطرار قضية مختلفة من شخص إلى آخر؛ فليست كل ضائقة تمُر بالإنسان تُعَدُّ من قبيل الاضطرار، لذلك لعل الله أن لا يستجيب لبعض مَنْ ظنُّوا أنهم في حالة الاضطرار؛ لأن الشرَّ قد يكون في سؤلِهم، وربُهم أعلم بما يصلح أحوالهم: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[الاسراء: ١١]، فالإنسانُ بطبعه التسرعُ والعجلةُ، وعَوَّدنا الربُّ الكريم أن يتدخل في أقدار عباده بما يصلحهم: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ [يونس: ١١].

إنك حال نظرك في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل: ٦٢]، تجد رحمة الله تعالى تحوط عباده في كل أحوالهم التي لا يخلو بشر من بعضها، فمضطرٌ يسعى لإجابة حاجته ليصلح معاشه: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، أو مصاب عرض له سوء

(١) الزمخشري، تفسير الكشاف (٣/ ٩٣).

(٢) الرازي، التفسير الكبير: (١٢/ ٤٣).

ضاقت منه نفسه: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، والبشر جميعًا واحدٌ من هذين، إما محتاج وإما مصاب وكلاهما خليفة الله في الأرض، وربنا تَكَفَّل للخليفة بتوفير أسباب النجاح في الخلافة من جَلْب الخير ودَفْع الضر، إذًا فمعية الله للناس في كل أحوالهم ورحمة الله تأخذ بأيديهم إلى النجاة عند الاضطرار والحاجة وخشية الشدة والبؤس وطلب النفع والخير.

والسؤال في أول الآية: ﴿أَمَّن﴾ استفهام تقريري وهي من قسمين: «أم» بمعنى «بل» للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرضٍ، وفيها الاستفهام المُضمنُ في القسم الثاني حرف الاستفهام ﴿مَّن﴾، والغرض من هذا الاستفهام الاستدلالُ على وحدانية الله وقدرتِه دون سواه على إجابة دعاء السائلين، وفيه تقنيطٌ من كلِّ أحدٍ سواه أن يجلب نفعًا أو يصرف ضرًا، كما أن الآية خالفت النسق العام في الآيات التي قبلها، حيث عبر بالماضي فيما سبق قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦١]، والتَفَتَ بالمضارع في آية الاضطرار والدعاء؛ مناسبةً لكثرة الداعين والملازمين للدعاء فقال: «يُجيبُ» «يَكشِفُ» و«يَجعلُكُم» الدَّال على التجدد والاستمرار، وتصوير الحال وتشخيصه، وكل هذا لزيادة أمل الداعين البائسين المُعوَزين بقرب فرج ربهم؛ فلا يَفْتُرون عن السؤال والإلحاح والقَرْع، ثم ختم الآية بما يزيد البيان بياناً والأمل أملاً بقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل: ٦٢] وهو استفهام إنكاري للغافلين الذين أعماهم النسيان في حال الرخاء عن التذكر واستحضار الافتقار إلى الله تعالى، وأعماهم عن الاهتداء إلى ضرورة توحيده وعدم

إشراك معه سواه، و﴿قَلِيلًا﴾ (مُكنّى بها عن المعدوم لأن التذكر المقصود معدوم منهم، والكناية بالقليل عن المعدوم مستعملة في كلام العرب، وهذه الكناية تلميح وتعريض؛ أي: إن كنتم تذكرون، فإنَّ تذكركم قليلٌ)(١). فهذه الآية كالكثير غيرها في القرآن الكريم تفتح أعين الناس العمي وقلوبهم الغلف وآذانهم الصمَّ لضرورة التعلق بحبال الله تعالى وأنه الواحد الصمد الذي يُفزع إليه عند النوازل والحوائج والملمات، وأن أحدًا سواه لا يملك من هذا شيئًا البتة، وهذا ما أدركه خيرةُ البشر وأصفياؤهم وهم الأنبياء، فما كان يلوذ لائذُهم إلا بالله ولا يستعين إلا بمولاه ولا يطلب إلا من خالقه الكريم؛ فبهِ تتعلق الآمال ومنه تُسْأَلُ الحوائج، وإليه يرجع الأمر كله، وعليه يتوكل المتوكلون، قال تعالى حكاية عن بعض رسله وأنبيائه وصورة تعلقهم بحباله ولجوئهم إليه وأملهم العريض بأنَّ يد الله ستمتد إليهم: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ

---

(١) المصدر السابق.

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٧٦ ـ ٩٢].

وليس هذا للأنبياء فقط من هم على أقصى جنب اليمين في عبوديتهم لله تعالى ومعرفة صفاته وعظمته، بل وكذلك الذين على أقصى الجنب الآخر في المعصية والكفر والجحود كذلك، فإبليس لمَّا تعلقت آماله بأن الله سيستجيب له قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]، ولولا ذلك الظن الذي خالج قلبه بربه لما سأل أو طلب، فالأمل والرجاء أعظم الدوافع للدعاء، والدعاء هو العبادة، فالأمل والرجاء بوابة العبودية لله تعالى، عسى يبلغ رحمة ربه وجنته وينجو من سخطه وناره.

خامسًا ـ السبيل إلى المغفرة:

من جملة المكتوبات المحتومة على الجنس الآدمي كونه غير معصوم من الذنوب والخطايا؛ فلقد شاءت إرادة القدر أن الإنسان خطَّاءٌ كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطَّائين التوابون»(١)، وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لـو لم تُذْنِبوا لذهب الله بكم ولجاء بقـوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»، وفي ذات الباب من صحيح مسلم كـذلك قال ﷺ: «لو أنكم لم تكن لكم

---

(١) الحاكم، المستدرك: (٤/ ٢٧٢) وغيره الكثيرون، وقال الألباني: حديث حسن، صحيح وضعيف الجامع الصغير: رقم الحديث (٨٦٤٤).

ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم»[(١)]، إذن فالخطأ والذنب جزءٌ من التركيب البشري والفطرة الإنسانيـة؛ لذا يَعسرُ على الإنسان أن يتجنبه، إلا أن يُعَان من صاحب الخلق والأمر فيعصمـه كمـا كـان الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وإلا فهو الإنسان العاجز المقصر ومقترف الذنوب، وإذا كان هذا الإنسان صاحب نفس لوَّامةٍ، وشأنُ مغفرةِ الله لذنبـه إذ ذاك غايةُ قلبـه ومقصـدُ فكرِه، بل لعل ذنوبَه مما قـد يقلبُ حياتَـه ضَنْكًا وأيامَه شقاءً، يحترق بين الحين الآخر بنار معصيتِه، ويؤلمه خطورُ وجَعِها في عقله الذي لا يكاد ينسى طيفها الأسود الشاحب؛ فإنه سيجهد ليغفر الله ذنبه ويمحو وِزْرَه بكل صور العبادات والقربات التي يظن أنها ستشفع له عند ربه فيصفحُ عنه ويغفرُ له، لكن ما هي الطريقة الأفضل ليتحصَّل على الغفران؟ إن فلسفة الدين الإسلامي عامَّةً تقوم على اعتبار عمل القلب، وتقديمه على عمل الجوارح؛ لذلك يكون الاطلاع وتكون المحاسبة لحركات القلب وانفعالاته يوم القيامة قبل كـل شيء، قال تعـالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ [الهمزة: ٦ ـ ٧]، قال الزمخشري: يجوز أن يخصَّ الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. اهـ[(٢)]. وعبَّرَ إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما حكى عنه القرآن الكريم عن أهمية القلبِ عندَ دعائِه ربَّه أن يجعل أفئدة الناس تميل إلى مكةَ وسُكْنَاها، فإذا مال القلب مالت الجوارح، وعمل الجوارحِ مُناطٌ بعملِ القلب لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[الحج: ٣٢]؛ أي: يُحسنُ اختيارَ البُدنِ فتكونُ سِمَاناً عظامًا حِسَاناً غالية الأثمان ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[الحج: ٣٢]؛ أي: أنَّ التعظيم ثمـرةٌ للتقوى المُتَحصَّلَةِ في القلب، ولولا هذه التقوى لم يكن هناك تعظيمٌ للشعائر، بل

---

(١) مسلم، الصحيح، باب: سقوط الذنوب بالإستغفار والتوبة: (٣/ ٣٠١).

(٢) الزمخشري، الكشاف: (٤/ ٤٣٤).

لن يكون أداءٌ لها ولا فعلٌ أصلاً، والقلبُ أهمُّ من القالب؛ إذ يمكن أن ترغم ضعيفًا على طاعتك لكن لن تملك إكراهَهُ على حبِّكَ والشوقِ إليك، وربنا لا يقبل العمل إن لم يكن بحب وشوقٍ وإخلاصٍ، يقول أبو السعود: وتخصيص القلوب بالإضافة لأنها مراكز التقوى، التي إذا ثبتت فيها وتمكَّنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء. اهـ[١].

ولقد عبَّر القرآن في مُستَهل الآية بقوله: ﴿يُعَظِّمْ﴾ ولم يقل يعمل أو يفعل أو يطبق؛ «لأن تعظيم الشيء أبلغ وأشمل من فعله أو أداءه أو عمله، وعَظَّمَ الشعائر؛ يعني: أدَّاها بحب وعشق وإخلاص، وجاء بها على الوجه الأكمل، وربما زاد على ما طُلب منه»[٢]، ولذلك صرَّح القرآنُ بتأثيمِ القلبِ مجازًا عن تأثيم صاحبه عند كتمانِ الشهادةِ وإن كانت الشهادةُ من عمل الجوارح قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[البقرة: ٢٨٣]، قال البيضاوي: إسناد الإثم إلى القلب لأنه رئيس الأعضاء وأفعاله أعظم الأفعال. اهـ[٣]. وكلُّ هذا يُصدقُه حديث رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار بأصابعه إلى صدره»[٤]، وحديث رسول الله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه وإذا فَسدتْ فسدَ الجسدُ كله ألا وهي القلبُ»[٥].

وبعد هذا النظر الموجز المعبِّر عن حقيقة القلب ومكانتِه وتبعيةِ الجوارح له، نرجع للسؤال الذي طرحناه... كيف يتحصل المسلم المذنب على المغفرة من

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٤/ ٤٣٤).

(٢) تفسير الشعراوي: (٩/ ٢١٤).

(٣) البيضاوي، أنوار التنزيل: (١/ ٣١٣).

(٤) مسلم، الصحيح، باب: تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه: (٤/ ٢٠٢٦).

(٥) البخاري، الصحيح، باب: فضل من استبرأ لدينه: (١/ ٢٠).

الله تعالى؟ أقول: إن أوَّل ما ينبغي أن يحرص عليه المسلم هو حسن الظنِّ بالله تعالى، واعتقاد أنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّه لا يَردُّ المستغفرين، وأن يكونَ أملُ المسلمِ بفضلِ الله ومِنَّتِهِ عريضًا كبيرًا لا سِيَّما وهـو يقرأ حديث رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم! إنـك لـو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتـك بقرابهـا مغفرة»(١).

وكم فيـه من بشارة عظيمـة وآمال كبيـرة للمؤمن، ففيـه حِلمُ الله وكرمُـه، وما لا يحصى من أنواع الفضل والإحسان والرأفـة والرحمـة والامتنان، ونظرات عَجْلى في الحديث تكشفُ أن طريق المغفرة هو القلبُ وانفعالاتُه فقط، قبل الاحتياج إلى عمل الجـوارح؛ ذلك أن عمل الإنسان لا ينفـع الله، وربنـا لا يحتاج مِنَّا إلى صدقات وصلوات وحجٍّ، بل يحب ربنا مِنْ خَلْقِهِ الخضوعَ والإنابةَ إليه، والشعورَ باحتياجهم له وغناه عنهم، وقوتِه وضعفِهم، وعزِّه وذلِّهم، وهذه هي حقيقة العبودية كما تَبَيَّن في المطلب السابق.

فإنَّ الله لا يغفر إلا للمنكسرين، ولا يقبل إلا من المتذلِّلين، (ورُبَّ معصية أورثت ذلاً وافتقارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا ستكبارًا)(٢). قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾[الحج: ٣٧].

والذي قتل مائة نفسٍ ما فعل شيئًا من أسباب أن يغفرَ اللهُ له سوى تعلُّق قلبه

(١) الترمذي، السنن، باب: فضل التوبة والاستغفار: (٢/ ٤٤٨) صحَّحه الألباني، صحيح الترمذي: (٨/ ٤٠).

(٢) ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية: (ص٨٢).

برحمةِ ربه، واعتقادِ سعة فضله، مما حَمَله تلك الخطوات اليسيرة التي سارها مهاجرًا لله تعالى، وهذا لأن أمله بالمغفرة بُعث من جديد يوم سمع من العالم الناصح الذي أفتاه بأن له توبةً، وأنَّ ما مِنْ شيء يحجبه عن عتبات ربه وأبوابه[1]، ويؤكد هذا الأمر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩]، فبعد ذِكْرِه لأعظم الذنوب: الشرك والقتل والزنا، وبيان جريرة هذه الجرائم البشعة وعاقبتها، أرشد الخَلْقَ إلى أنَّ رحمة الله تَسَعْ حتى مَنْ وقعوا في مثلها، بالرغم من بشاعتها وشنيع آثارها على الفرد والمجتمع والأمة جميعًا، فجاء بالاستثناء من العذاب والخلود في المهانة لِمَنِ التزم بثلاثة أشياء: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾[الفرقان: ٧٠]. وتاب؛ أي: ندم ورجع إلى الله تعالى مستغفرًا، يقول النبي ﷺ «النَّدمُ توبةٌ»[2]، فالتوبة عمل قلبي في أصلها ومن القلب منشؤها. ثم آمن والإيمان هو التصديق وضده التكذيب، وضد الإيمان الكفر كذلك، وهذه الثانية ـ أي: الإيمان ـ عملٌ قلبي، فإذا ثبتت التوبة في القلب وصدَقَ الإيمان فيه أسفرا معًا عن العمل الصالح بلا ريب وعندها يقبل الله التوبة ويغفر الحَوبَة، ويصفح عن الزلة، وينال العبد ما يريد ويأمل.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾[طه: ٨٢].

فالعماد في الأمرِ كلِّه القلبُ وتوجهاتُه؛ إذ القلب هو الملك والقائد، والجوارح

---

(١) إشارة الى حديث أبي سعيد الخدري في صحيح مسلم، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله: (٣/ ٣٣٨).

(٢) ابن ماجه، السنن، باب: ذكر التوبة: (٨/ ٣٠٣) وصحَّحه الألباني، صحيح ابن ماجه: (٩/ ٢٥٢).

والأعضاء هي الجنود والأتباع، وهم جميعًا يأتمرون بأمر الملك الحاكم ويفعلون ما يريد، ولو أنّ العبدَ وافته منيتُه قبل أن يعمل شيئًا من الصالحات، ولم يكن له سوى توجه القلب إلى الله لكفاه، وأجزأه بين يدي مولاه؛ إذ الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى حتى وإن لم يدرك أن يعملَ لمرضٍ أصابَه، أو موتٍ اخْتَرَمَهُ، أو حائلٍ منعه، قال رسول الله ﷺ: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه ﷻ»[1].

وهذا ما أكده القرآن الكريم من كون إقبال القلب يجزئ عن عمل الجوارح، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[الاعراف: ١٥٣]، ولا شك أن العمل من مقتضيات الإيمان وداخل فيه، لكنْ عدمُ الإشارة إليه كما في الآيات السابقة لا يعني انتفاءه أو استبعاده، بل يُفهم أن عمل القلب مقدم عليه، وأنه في الرتبة الثانية بعده، واكتفاءً بذكره في النصوص الأخرى.

إذًا فمن أبرز ثمرات الأمل العريض والرجاء الكبير أنْ يغفرَ اللهُ ذنوبَ العبادِ؛ إذ الغفرانُ مُرتَهِنٌ بتوجه القلب وانفعالاتِه، فلئن عُمرَ القلبُ بأحسنِ الظن بالله تعالى، وتأمَّلَ العبدُ من ربه العفو والصفحَ؛ فإنَّ الله لن يخيب عبده ولن يرده صِفْرًا لقول النبي ﷺ: يقول الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي...»[2]. لذلك كان التوجيه للعباد بعدم القنوط إن أرادوا العفو والغفران ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣] وقوله

---

(١) النسائي، السنن، باب: من أتى فراشه وهو ينوي القيام فنام: (٦/ ٣١٠) صحَّحه الألباني، صحيح النسائي: (٤/ ٤٢٨).

(٢) البخاري، الصحيح، باب تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾: (٤/ ٤٠٩).

﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ «أي: ينقطع رجاؤكم وتيأسوا»[1]. فالقنوط: اليأس، وضده الأمل والرجاء، وإذا كان النهي عن القنوط فإنه الأمر بالأمل لينال المسلمُ صاحبُ الذنب المغفرةَ والعفوَ من الله العَفُوِّ الغفورِ؛ فالأمل والرجاء هما المقدمة للمغفرة، وليس النهي عن القنوط مندوبًا إليه، بل هو واجبٌ ومأمورٌ به، فالأمل واجبٌ والرجاءُ مأمور به في دين الله تعالى، ولمَّا التقى ابن عباس بعبدالله بن عمرو بن العاص وسأله عن أرجى آيةٍ في كتاب الله قال: قول الله ﷻ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣][2].

ويؤكد أنَّ السبيل للمغفرة حسن الظن بالله تعالى والأملُ بمغفرته وتوقعُ رحمته قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠] وزيادة السين والتاء فيها معنى الطلب وكذلك فيها معنى المبالغة وتحمِل معنى التأكيد كذلك، ومن أمثلة مجيء زيادة السين والتاء للمبالغة قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[يوسف: ٨٠]، وقوله ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾[الأنفال: ٢٤].

وتأتي للطلب أو مَظِنَّةِ الطلب، أما الطلب فيكون بالقول كما في قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾[البقرة: ٢٨٢]، (أما مظنة الطلب فيكون بلسان الحال فمن أتى سبب الشيء كان طالبًا له بالفعل وإن كان غافلاً عن استتباعه له فالأمة التي ترتكب أسباب الهلاك تكون طالبةً له بلسان حالها واستعدادها، ولا بد

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٧/ ٢٦٨).

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣١٠)، عند تفسير قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾[البقرة: ٢٦٠]. ونقله ابن كثير عن أبي حاتم الذي يرويه بسنده في تفسيره: (٢/ ٢٨٨) عند مسلم: (٣/ ٣٤٧) عن عبدالله بن المبارك أن أرجى آية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ...﴾[النور: ٢٢].

أن يأتيها، ومثاله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾[يونس: ١١][١]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾[البقرة ٤٩]، وقد تكون السين والتاء للتأكيد كما في قوله: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٦١]، فالسين والتاء لتأكيد الحدث وليس للطلب، ومثله في قوله ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾[التغابن: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾[آل عمران: ٥٥]. ولقد جَمَعت زيادة السين والتـاء في قولـه تعالـى: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بين هـذه المعـاني الثلاثـة؛ لتبيِّن الانعكاس النفسي لدى المستغفر، فهـو يطلب من الله المغفرة وهـذا هـو المعنى المتبادر، وفيها المبالغة، وتأتي من المضارعـة بالإضافـة للسين والتاء فهو طلب باستمرار ومداومةٍ وإلحاحٍ، والمبالغةُ ضربٌ من هذا، وإذا كان هذا حال المذنبين من المؤمنين أنهم على هذه الصفة وهي ملازمة الاستغفار عند صدور السوء عنهم فكأنها دعوةٌ ضمنيةٌ من القرآن للمؤمنين للزومه، وتأكيدٌ على الاستغفار وأهميته عند الذنب على طريقة القرآن في التحضيض والتحفيز كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٧٨]، فالتلويح بالإيمـان للتحضيض؛ ولذلك كرَّره، وكذلك قول عيسى ـ عليه السلام ـ وهو يطلب من قومه الامتثال للوازم التقوى والكف عن نواقضها إنْ كانوا مؤمنين، حين سألوه مائدةً من السماء، كما أخبرنـا ربنا العليم: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ١١٢].

واجتماع هذه المعاني؛ أي: الطلب والمبالغة والتأكيد في كلمة ﴿يَسْتَغْفِرِ﴾ مـن قـولـه تـعـالـى ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠]، مشعر بالأمـل الكامن في نفس المـؤمن بأن الله سيغفر لـه

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٨/ ٣٥٩).

ويصفح عنه، وهذا شرط الغفران الأهم الذي لابد منه، والذي يعتبر مقدمة المغفرة للذنوب، فهو يطلب مستمرًا ويبالغ في الطلب، وهذه الصفة الملازمة للمؤمن في كل حال، والأكيدة ليستكمل أركان الإيمان.

إذًا فإنَّ الطريق الأسرع للمغفرة اعتقادُ الفوقية الكاملة لله تعالى على كل خلقه وصمديته وأحديته، واعتقاد أن العِوز والحاجة صفةٌ ملازمة لا تنفك عن المخلوق الذي يعتمد في وجوده على الخالق، ولا يملك أسبابًا ذاتيةً للحياة حتى في أبسط عناصرها كالماء والهواء، وكذلك مداومةُ النفس على تحسس تقصيرِها بجنب خالقها إذا ما استحضرت بعض أيادي الله عليها التي لا تعدُّ، وكيف أنها تقابلها بالنقص والذنب والنسيان، حتى أن ما بذلته من طاعات فإنما كان بتوفيق الله وفضله ومعونته.

لذلك لما عَدَّدَ القرآنُ نعمَ الله على عيسى ـ عليه السلام ـ كما في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠]، فذَكَرَ نعمةَ الكلامِ حال الكهولة في مقام الإنعام والتعجيب مقروناً به حال الطفولة في المهد، والمعهود أن العجب في كون الرضيع متكلمًا، أما الكهل فليس بعجيب، والقدرة على النطق هي الأصل لجميع الناس إلا النادر منهم؛ لذا قلَّ أن يستشعر الناس هذه النعمة لِوَفرَتِها وسهولتها، حتى كأنها صارت عندهم أمرًا ذاتيًا بقدرتهم وفضلهم، وليس لله فيها عليهم منةٌ ولا فضلٌ، فأراد القرآن أن يذكر عيسى ـ عليه السلام ـ وجمهورَ المُخاطبين بالقرآن مِن بعده أنَّ النطقَ حالَ الكهولة إنما بفضل

الله تعالى، ولأَنْ غاب عن الناس شأنُ هذه النعمة فلقصورِ عقولِهم، فكيف لهذه اللَّحمة الصغيرة (اللسان) أن تُصْدِرَ الأصوات بالتضافر مع الجهاز الصوتي، ولماذا لا يصدر من غيرها كالإصبع مثلاً، وإذا كان من غير المعقول ولا المصدق أن يتكلم أحدُ الناس من أصبعه فإن صدور هذا الأمر من واحدٍ منهم يظهر على صورة المعجزة الباهرة؛ لأنهم لم يألفوا هذا الأمر، أمَّا لو أنَّ كل الناس تتكلم من أصابعها لفقد الأمر كثيرًا من غرابته وأهميته، وكذلك النطق باللسان أمر عجيب في ذاته، غير أنه فقد غرابته ودلالته على عظمة الله عند معظم البشر لأنهم ـ في الغالب ـ يقدرون على الكلام ويستطيعونه، فأراد القرآن أن ينبه إلى هذا الأمر، ولكون النطق نعمة تستحق الوقوف عندها وشكر الله عليها، والعجب من نطق الكهل ليس بأقل منه عند نطق الطفل الذي في المهد، ونِعَمُ الله سابغةٌ على كلٍ، غيرَ أنها أخذت صفة المعجزة بالنسبة لعيسى ـ عليه السلام ـ لأنها لم تكن من مألوفات البشر، ولا مما يَقدِرونَه، مع تحدِّيه لهم بها.

وعليه فالنطق نعمة والبصر نعمة والأطراف نعمةٌ، وكل نعمةٍ تنضوي في جنباتها نعمٌ، والمخلوق الضعيف لا يملك شكر الله تعالى على بعض ما قد يتيسر له فهمه وإدراكه والإحاطة به منها، وإذا كان الإنسان في كل أحواله لا يملك شكر المُنعِم عليه، إذًا فهو مقصرٌ مذنبٌ يجب أنْ يظلَّ في محراب الاستغفار، وإنْ لم يقترفْ جُرمًا، أو يقعْ في حدٍ، أو ينتهكْ حرمةً من محارم الله تعالى، وإنْ كان خارجًا من دائرة العبادة لتوِّه، وهذا ما يجعلنا نفهم السِرَّ لملازمة النبي ﷺ للاستغفار ـ عقب الصلوات جميعًا حيث ثبت أن النبي ﷺ كان يستغفر الله ثلاثًا دبرَ كلِّ صلاة، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا»[1].

---

(١) مسلم، الصحيح، باب: استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته: (٣/ ٢٥٤).

ولذات الأمر قال ربنا آمرًا بعد الإفاضة في الحج وبعد النَّفْرةِ من عرفة: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٩٩]، بالرغم من تلبس المسلم بأعظم العبادات، وفي أنفس الأزمان؛ ليذكره بأنه وإن كان في أقصى صور العبودية التي قد يدركها بشرٌ، فإنه لن يبلغ شكر الله على بعض نعمه، وأنه المقصر دومًا في جنبه.

وبعدُ، فإن العبد لن يدرك شكر الله مهما بذلَ وعملَ، وإنَّ أكبر الذنبِ أنْ يعتقدَ العبدُ أنه كافأ ربه وجازاه بعملِه، أو عبادتِه، لذا فإنَّ إدراك المسلم حقيقة عجزه عن شكر ربه هو عين الشكر، وإدراكه عظمة ربه وفَوقيَّتَه هو حقيقة العبادة لله تعالى، ومهما اقترف من الذنوب؛ فإنْ لَقِيَ الله بهذا الإحساس والشعور، وكان أمله مُتَّقِدًا بكرمِ ربه وواسعِ رحمته، فإنه سيغفر له... وهكذا نفهم كيف غفر الله للذي قتل مائة نفس، وكيف غفر للبَغيِّ التي سقت الكلب تعظيمًا لشأن خالقها.

وهذا هو الشعور الذي قدَّمه آدم وزوجه ـ عليهما السلام ـ بين يدي الله تعالى بعد أكلهما من الشجرة... الشعور بعظمة الله وعجزهما، وتقصيرهما بحقه وظلمهما لنفسيهما مع ملازمة الأمل برحمته ولطفه فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الاعراف: ٢٣]، فقابل الله هذا الإحساس وهذه القالة بأن تاب على عبديه وغفر لهما.

وكذلك نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ لمَّا أراد أن يقيم العدل وينصر الحق، ويدفع الظلم عن رجل من بني إسرائيل فوكزَ الظالمَ ودفعه فمات، عندها انكسر موسى لربه، وأعلن ضعفَه وتقصيرَه وظلمَه من جهةٍ، وقوةَ الله وقدرته من أخرى، ومع كلٍ برزَ الأمل برحمته وفضله، فغفر الله له: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[القصص: ١٦]، وفي الحالتين رأينا كيف أنهم حَجُّوا إلى الله بقلوبهم وإنْ لم يقصدوا بيته الحرام، وبنفس الطريقة كان استغفارُ يونس

ـ عليه السلام ـ في بطن الحوت ومناداته لربه ومناجاتـه في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الانبياء: ٨٧]، فاستجاب لـه مولاه، وكشف كربه، وأذهب غمَّه وبلواه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الانبياء: ٨٨].

والقاسم المشترك بينهم جميعًا هـو الاعتراف بالذنب، والتقصير في جنب عظمة الله وفضله ونعمه، وفي ظل المناداة نتنسَّم رائحةَ الأملِ تنبعث من أفواههم وهم يلهجون إلى الله ويتضرعون بثقةٍ ويقين... رائحةَ الأمل الزكية وأريج الرجاء الطيب؛ فمن تحقق من هذه المعاني غفر الله لـه، من تَحصَّل على الأمل والرجاء برحمة الله ومغفرته ملك مفتاح باب الولوج على الله الغفور، ولن يردَّ الله سائلاً، ومن لازم القَرْعَ يُوشَكُ أن يُفتحَ له.

* * *

*** المطلب الثاني ـ الآثار المذمومة:**

أولاً ـ تزيين المعصية:

الارتباط وثيقٌ بين نفسيَّة الإنسان والانفعالات التي تصدر عنـه، ولقد لفت القرآن الكريم والسُنَّة النبوية النظر إلى هذا الأثر وهذه العاقبة، حين ذكرا سلاسلَ المعاصي والسيِّئات المقترنةَ بواحدةٍ من الأحوال النفسية التي تعتري الإنسان أحياناً، وهي سـوءُ الظنّ بالناس وانقطـاع الرجـاء من خيـرتهم، وعـدم تأمـل إلا السـوء منهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢]، فجعل سوءَ الظنِّ بالناسِ مُقدِمةً للتجسس والغيبة، وما قد يستتبع

ذلك من البغي والعدوان والمقاتلة[١]؛ لأن سوء الظَّنِّ بالآخرين وتوقعَ الشرِّ وانتظار السُّوء منهم، يجعل الإنسان يعمل على مقابلة المَظنونِ باليقيني، تحسبًا، فيسعى للإيقاع بهم قبل ما يظن من إرادتهم الإيقاع به.

وضِدُّ ذلك من تأمل الخير ورجاه، فرجاء النفعِ داخلٌ في حسنِ الظنِّ مُستتبعٌ له؛ لأنَّ العاقل لا يتأمل حسن العاقبة من خصمه، قال النبي الكريم ﷺ: قال الله تعالى: «أنا عند ظن عبدي إن ظَنَّ بي خيرًا فله»؛ أي: حَسُن ظنُّه بربه فاعتقد أنه يرحمه ويعفو عنه، فلما حَسُنَ ظنه تأمل الخير منه. «وإن ظن بي شرًا فله»[٢] وإنْ ساء ظنه بربه فاعتقد أنه مُعذِّبه فلن يأمل إلا السوءَ، وهو ما سيجده من ربه، قال تعالى:

﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٣]، وعليه فسوء الظَّنِّ قائدٌ للأمل المذموم وما ينسحب من بعده من الأعمال الموافقةِ لذلك الأمل والظن، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظَّنَّ أكذب الحديث ولا تحسَّسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»[٣].

فكان سوء الظن قائدًا لسلسلة طويلة من الأعمال الذميمة التي تفسد المجتمع

---

(١) وفي نفس السورة قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ . . .﴾[الحجرات: ٦] وقصة الآية مشهورة إذ أوشك عدم التبين وسوء الظن أن يوقع مقتلة عظيمة بين المسلمين لولا ما آتاه الله لنبيه ﷺ من حكمة ونظر.

(٢) أحمد بن حنبل، المسند، مسند أبي هريرة ﷺ: (٩/ ٢٥٧)، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٢/ ٤٠٢).

(٣) البخاري، الصحيح، باب: تفسير قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾: (٤/ ١١).

المسلم والصلات بين المسلمين، وعليه فإن خطرات القلب أهم ما ينبغي أن يتنبه له المسلم؛ إذ كل شأنه تبع لها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

أدرك الشيطان الرجيم أنَّ خطرات القلب وكسبَه أهمُّ شيء، فراح يضرب على أوتار القلب الحسَّاسة ليصل إلى مراداته من إغواء آدم ـ عليه السلام ـ وذرِّيته من بعده؛ فسلك سبيلَ الوعودِ والأماني، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء: ١٢٠]، هذا لأن الإنسان يحيا بالأمل، ولأجل الأمل، كما قال النبي ﷺ: «يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان الحرص والأمل»(١)، لذلك دخل لآدم ـ عليه السلام ـ من بوابة الأمل: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[طه: ١٢٠]، فكان الأمل هو الذي قاد إلى الأكل من الشجرة، حتى بدت العورات، وكذلك الأمل الذميم لكلِّ البشر في كل الأزمان يُطعم صاحبَه الحرامَ ويُلبسه الحرام ويسقيه الحرام ويكشف العورات ويفضح السوآت ويلهي عن العاقبة التي لا محيد عنها: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[الحجر: ٣].

إذًا فالأمل الذميم قائد للذنوب والعصيان، وهذا ما نطقت به جملة من الآيات حيث إنَّ اتِّباع الآمال والسير خلف الهوى يدفع الإنسان للزلل والخطيئة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: ٢٦]، بل من اتبع هواه وسار خلف آماله ومشتهياته قد يجور في الحكم ولا يعدل، قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[النساء: ١٣٥]؛ أي: لا تتبعوا الهوى لتعدلوا؛ فإن اتباع الهوى مانع من العدل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[القصص: ٥٠]،

---

(١) مسلم، الصحيح، باب: كراهية الحرص على الدنيا: (٥/ ٢٦١)، وأحمد بن حنبل، المسند، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه: (١٢/ ٢٤٠) واللفظ له.

وهذا ما عناه النبي ﷺ يوم قال: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[١]، فاتباع الهوى والسير خلفَ الأماني والآمال الفاسدة شرٌّ محضٌ ومصرعٌ وخيم، بل إنَّ مَن أسرف في السير خلف مشتهيات نفسه وأمانيها يوشك أن يختم على قلبه فلا يعود للمعروف إليه سبيلٌ البتة، ويصير المنكر مألوفًا لديه ومقبولاً كما في حديث حذيفة حيث قال سمعت النبي ﷺ يقول:

«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأَيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنةٌ مادامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه»[٢] وعندها فالهوى والأمل الذميم هو الربُّ المطاع والآمر الذي لا يُعصى، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣]، ولخطورةِ الأماني والآمال على سلوك المسلم جعلَها النبيُّ الكريم ﷺ مقياسًا للإيمان وضابطًا له فقال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[٣]، وصدق والله، فالأهواء والآمال إذا لم تنضبط بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ذهبت بعيدًا بصاحبها في الغَيِّ حتى إنها توقع صاحبها في الكفر والجحود، وإن كان لجهله يظن أنه على الخير؛ ولأن آمالَه بائرةٌ وأحلامَه فاسدةٌ فسعيه ضالٌ تبعًا لهما، وأعمالَه خاسرةٌ لأنها في ضوئهما، قال تعالى: ﴿قُلْ

---

(١) ابن ماجه، السنن، باب: ذكر الموت والاستعداد له: (٦/ ٣١٢)، وحسنه الترمذي: (٨/ ٤٩٩)، وضعَّفه الألباني، صحيح وضعيف الترمذي: (٩/ ٢٦٠)، ولا بأس به لأنه في فضائل الأعمال.

(٢) مسلم، الصحيح، باب: بيان أن الاسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا: (١/ ٣٤٩).

(٣) أورده ابن حجر في شرحه للبخاري وقال رجاله ثقات ونقل تصحيح النووي له في آخر الأربعين: (١٠/ ٣٦٤)، وصححه أحمد شاكر في عمدة التفسير: (١/ ٣٦).

هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤]، يوهمُ الخاسرُ نفسَه أن ما يفعله ضروريٌ ومقبولٌ، أو صحيحٌ وغيرُ منافٍ، في محاولةٍ تبريريةٍ من نفسه يقودُها مَنْطِقُه المُنحرف بمرادات أمله وهواه، وهو يحاول أن يتطابق مع مبادىء الحق والخير، وقيم العدل والاستقامة في الظاهر، حتى وهو يريد الخروج عليها ـ ولو بصورةٍ ملتويةٍ منحرفةٍ ـ لِيُخرجَ صورةَ فِعله بصيغَةٍ مَقبولةٍ متطابقةٍ ـ ولو في خيالات منطقه ـ مع قوانين الوجود الإنساني الخيِّرةِ، إلى الحد أنه يصل إلى مرحلة القناعة أن ما يفعله هو الحق وسواه الباطل، في حين أن الباطلَ يلُفُّه لفًا ولا يغادرُ أفعالَه وأقوالَه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١١ ـ ١٢].

إنَّ المعصية في أصلها أمرٌ مذمومٌ ولا يقدم عليها العاصي إلا إذا زُيِّنت له، والمُجرم لا يفعل الجريمة إلا وهو واقع تحت تأثير عوامل ودوافع ذاتية وأخرى خارجية تقوده جميعًا إلى تزيين الشر والجريمة، وتحبب له العصيان والانحراف وترسم له صورة زائفة فتُجَمِّل قُبْحَه وتستر دَخَلَه وضَرَرَه بستار رقيق من الوهم والسراب؛ لتجعلَ من المعصيةِ سبيلاً للعاصي يبلغ من خلاله آماله وأحلامه، وطريقَ تحقيق رجاءاته ومحبوباته، وعندها يقع المحذور: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨].

يقول سيد قطب في بيان مراد الله تعالى من قوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾: إنه أنموذج الضَّال الهالك البائر الصائر إلى شرِّ مصير، ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين... هو هذا الغرور والتعلق وبالأحلام والأماني... هو هذا الستار الذي يعمي قلبه وعينيه فلا يرى مخاطر الطريق، ولا يحسن عملاً؛ لأنه مطمئنٌ إلى حسن عمله وهو سوء، ولا يصلح خطًا؛ لأنه واثقٌ أنه لا يُخطىء،

ولا يصلح فاسدًا؛ لأنه متيقنٌ أنه لا يفسد، ولا يقفُ عند حدٍّ لأنه يحسب أنَّ كلَّ خطوةٍ من خطواته إصلاحٌ، إنه باب الشر ونافذة السوء ومفتاح الضلال الأخير. . . ويدع السؤال بلا جواب. ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ ليشمل كل جـواب؛ كأن يقال: أفهذا يُرجى له صلاحٌ ومتابٌ؟ أفهذا كمن يحاسب نفسه ويراقب الله؟ أفهذا كمن يضع حدًّا لآماله وأمانيه وهواه؟ أفهذا يستوي مع المتواضعين الأتقياء. . . إلى آخر صور الإجابة على مثل هذا السؤال. اهـ(١). لتتكرر دومًا عند كلِّ معصيةٍ حكايةُ المعصيةِ الأولى، وإن اختلف الأشخاص والزمان والمكان: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾[طه: ١٢٠].

ومما يؤكد أن الأمل الفاسد سبيلٌ للمعصية ما يبقيه ذلك الأمل من الشعور بالأمن من المؤاخذة على المعصية وإمكانيةِ المغفرة، وإنْ بغير توبةٍ صادقةٍ نصوحٍ كما حدثنا القرآن الكريم عن بني إسرائيل وكيف فرَّقهم في الأرض وقطَّعهم فيها أممًا، فكان منهم الصالحون ومنهم الكفرةُ والفسقةُ، ثم كيف ابتلاهم بالنِّعم والنِّقم لعلهم يرجعون عما كانوا فيه من الكفر والعصيان، غير أنهم أصرُّوا وكان من أخلافِهم مَن هم أَسوأُ حالاً منهم، والمراد بهم الذين كانوا في عصر رسول الله ﷺ: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝١٦٨ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[الأعراف: ١٦٨ ـ ١٦٩].

وقوله ﴿خَلۡفٞ﴾ قال أبو السعود: أي: بدل سوء وهو جمع شائع في الشرِّ، والخلَف بفتح اللام في الخير «ورثوا الكتاب»؛ أي: التوراة «يأخذون عرض هذا

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٦/ ١٣٦). بتصرف يسير.

الأدنى» استئنافٌ مسوقٌ لبيان ما يصنعون بالكتاب بعد وراثتِهم إيَّاه؛ أي: يأخذون حُطامَ هذا الشيء الأدنى؛ أي: من الدناءة. اهـ[١]. والمقصود أنهم ورثوا الكتاب لكنَّهم حرفوا ما فيه وكانوا أحرص على حطام الدنيا الدنية الفانية، فكانت وراثتهم للكتاب ـ وهو النعمةُ ـ نقمةً عليهم لشهادته على قبائِحم، قال البقاعي: وتحقيرًا لما أخذوه وَصَفَه بقوله ﴿عَرَضَ﴾؛ أي: مما يعرض ولا يثبت، بل هو زائلٌ، وزاده حقارة بإشارة الحاضر فقال: «﴿هَٰذَا﴾ وصرَّح بأنه ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ أي: من الموجودين. اهـ[٢].

والعجب العجاب أنهم يقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ويقولونها بغير شكٍ، فأقدموا على السوء وقطعوا بوقوع ما يبعد وقوعه في المستقبل ـ إذا ما استمروا على حالهم وسوء فعالهم ـ وما حملهم على قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ إلا الآمال الكاذبة والرجاءات الفاسدة؛ فهم لم يكلفوا أنفسهم حتى كلمة اعتذارٍ أو استغفارٍ، بل ما صدر منهم إلا العناد والإصرار، بدليل: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾؛ أي: إنْ لاحَ لهم الوقوعُ في نفس المعاصي فلن يترددوا بالأخذ بها وعملها، وكل هذا مرده للآمال غير السديدة التي تبعث الشعور بالأمن لدى ارتكاب المعاصي، وربنا يهتف بنا في القرآن الكريم بأنْ لا نأمنَ مكرَه، وأنْ لا ندع الأماني والآمال تفعل بنا فعلها؛ فنركن لمغفرة الله، وننسى عقابه، أو لشفاعةِ رسول الله ﷺ أو أن نكتفي بإعلاننا لإسلامنا وانتمائنا لأمة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩]. وقال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٧٣).

(٢) البقاعي، نظم الدرر: (٣/ ٣٠٢).

أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾[الملك: ١٦ ـ ١٧]. وقال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾[الإسراء: ٦٨ ـ ٦٩].

ولا يصل إلى هذه المرحلة من الشعور بالأمان إلا من أخطأ في فهمه لحسن الظن بالله تعالى، وعندها يتأمل من الله مالا يمكن أن يكون؛ إذ حسن الظن يقتضي حسن العمل، وعلى حسن العمل يرتكز ويستند خير الرجاء والأمل، قال الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. إنَّ قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله ـ تعالى ـ وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل. اهـ[(١)]. ويصدق هذا قول ربنا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[الكهف: ١١٠]، وهذا التوجيه للأمة لتعمل الصالحات؛ إذ هي مظنة الرجاء والأمل برحمة الله وغفرانه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: ٢١٨].

أما من لا يستقيم ظنه فلن يستقيم في أمله ورجائه وعندها سيهون عنده شأن المعاصي والذنوب.

ثانيًا ـ مخالفة أهل الباطل:

إنَّ الولاءَ والبراءَ ركنٌ من أركانِ العقيدة الصحيحة وشرطٌ من شروط الإيمانِ المقبول، ومن أهم القضايا التي تربط بين أبناء الإسلام وتصل بينهم، في بعدٍ عن

(١) العظيم أبادي، أبو الطيب محمد أشرف بن أمير بن علي (ت١٨٩٢م). عون المعبود على سنن أبي داود، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (٢/ ٢٠٨).

النعرات الجاهليـة والروابط الأرضية الماديـة، فالولاء في الله ومن أجله، والبراء في الله ومن أجله . . . الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين والمنافقين وسائر أعداء الدين.

ولأن الولاء والبراء أصل عظيم من أصول الدين والعقيدة الإسلامية المُميِّزَةِ لأتباعها؛ فلقد أهلك الله المكذبين لأجله، وأنجى المُوحدين المؤمنين ببركته، من أجلِه أغرقَ اللهُ ولد نوحٍ ـ عليه السلام ـ لمَّا تبرأ من أبيه ودينه الحق وكذلك زوجتي نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ حين خانتاهما واتَّبعتا ملة الكفر ووالتيا قومهما لحقهما الهلاك والعذاب.

من أجل هذه العقيدة الصافية تبرأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من قومه بل من أبيه آزر وهاجر إلى ربه، ومن أجلها قاتل الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم، وتبرؤوا منهم لما كفروا بالله العظيم، من أجل الولاء والبراء قامت سوق الجنة والنار.

هـذا الأصل العظيم (الولاء والبراء) من أعمـال القلب، وهـو كغيره تظهر مقتضياته على اللسان والجوارح، قال ﷺ: «من أحـب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[1].

وكـان حال الفقراء المهـاجرين الذين تركـوا أموالهم وديارهم لله ورسولـه أنموذجًا عظيمًا للولاء والبراء، حيث قدَّمـوا اللهَ على الدنيا وما فيها، وعلى أغلى ما يحبه الإنسان ويحرص عليه من الأهل والمال والوطن، قال تعالى فيهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ

---

(١) أبو داود، السنن، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: (٦/ ٢٩١)، صححه الألباني، صحيح أبي داوود رقمه (٤٦٨١).

وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[الحشر: ٨]، هذا الولاء ثمرةٌ لآمالهم الصحيحة الطيبة بنيل فضل الله ورضوانه، وإن كان الثمن بعد الأهلِ والمالِ والوطنِ التضحيةُ بالنفس في سبيل نُصرةِ اللهِ ورسولهِ، فلمَّا تَرْجَموا آمالَهم إلى أعمال تتجاوز حدودَ ما يعرفُ الدنيويون وأصحابُ الآمالِ الفاسدةِ، قال الله عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، قال البقاعي: ولمَّا بانَ ما له بهم سبحانه من العناية تَرقبَ السامعُ من مدحِهم ما يليق بهذه الأخبار فقال مستأنفًا ما هو كالعلة لتخصيصهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: العالو الرتبة في الأخلاق الفاضلة ﴿هُمُ﴾؛ أي: خاصَّة لا غيرهم ﴿ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ العريقون في هذا الوصف لأن مهاجرتَهم لِما ذُكر وتركَهم لِما وُصفَ دلَّ على كمالِ صدقِهم فيما ادَّعوه من الإيمان بالله ورسوله ﷺ حين نابذوا من عادهما، وهو القريب الصافي نسبًا ودارًا، وأَوْلَوا أولياءهُمَا من كانوا وإن بعدت دارهم وشط مزارهم. اهـ[1].

هذه هي صورة الولاء لله ورسوله وصدق التبعية للدين التي أثمرتها الآمال المحمودة والرجاءات الصالحة، وضدُّ هؤلاء اليائسون من الله ورحمته الذين تعلقت آمالهم بالدنيا الدنية ولذاتها؛ لعلمهم أنْ ليس لهم في الآخرة نصيبٌ ومعهم أولياؤهم وأتباعُهم مِمَن ظَاهِرُهم الإسلام وباطنُهم الولاءُ للكفر وأهله، للتشابه بينهم في الآمال وطلب الدنيا والحرص عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾[الممتحنة: ١٣]، قال ابن كثير: ينهى الله ﷻ عن موالاة الكافرين في آخر السورة كما نهى عنها في أولها والمقصود اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطردَ والإبعادَ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة؛ أي: من ثواب الآخرة ونعيمها كما يئس الكفار الأحياء من قرابتهم الذين في القبور أن يجتمعوا

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٨/ ٤٤٠).

بهم بعـد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا فقـد انقطـع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. اهـ[١].

فالآية تقطع بقيمة الأمل في تحديد جهة الولاء، وتُوجِّه المؤمنين لكي لا يَنجَرُّوا خلفَ اليهـود في يأسهم من رحمـة ربهم، ولِيَعظُم أملُهم بـِبرِّ الله وفضله فيُوَالونَه ويوالون دينَه ويتبرؤون من الكفار ومنهجهم الفاسد.

ويُعَقِّب ابن عاشور بأن المقصود بالآية هم فقط اليهود وليس المشركون فيهم؛ لأنه شبَّه يأسهم من الآخرة بيأس الكفار فتَعيَّنَ أنَّ هؤلاء غير المشركين لئلا يكون من تشبيه الشيء بنفسه، ويؤكد رحمه الله بقوله: وقد نعتهم الله بأنهم قوم غضب الله عليهم وهذه الصفة تكرر في القرآن إلحاقها باليهود كما جاء في سورة الفاتحة أنهم المغضوب عليهم، فتكون هذه الآية مثلَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]. اهـ[٢]. ولا شك أن اليهود يُقِرُّونَ باليوم الآخر وعليه فمعنى اليأس هو إعراضهم عن العمل للآخرة وإهمال الاستعداد لها والانقطاع للدنيـا وتأمل الخير فيها.

فإذا شاكلَهم بعضُ المسلمين بهذه الآمال وذلك اليأس؛ فلا شكَّ أن العاقبة هي موالاتهم والتبرؤ من الله ورسوله والإسلام، وبذا يظهر جليًا كم أن الأمل الفاسد له عواقبُ خطيرةٌ على الأمة جميعًا يُفرقُ صفها ويفتُّ في عَضُدِها ويَنْخَر في بنيانِها؛ لذلك يوم تجذرت الدنيا في قلوب نفرٍ من الناس وانقطعـت صلاتُهم بربـِّهم رأينا كيف يركضون إلى أحضان الكفر ويسارعون فيهم أملاً بنيل الحظوةِ لديهم، وخوفًا

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٢٠٣).

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٥/ ٥١).

من مَغَبةِ عدائِهم فيوالونهم ويتبرؤون من الله ورسوله: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[المائدة: ٥١] فكان مرضُ قلوبِهم هو القائدُ لجوارحِهم في موالاة أهلِ الباطل؛ وذلك ليأسهم من ثبات الإسلام وانتصاره، ولعدم ثقتهم بالله ورسوله ﷺ والصحابة الكرام، ولرجائهم أن يكون لهم يدٌ عند اليهود والنصارى حالَ ظُهورِهم على الإسلام فترجعَ عليهم بالخير وتدفعَ عنهم الدوائرَ والضرَّ، وليس النهيُّ لكلِّ المسلمين وفي كل الظروف على الإطلاق؛ إذ ثبت أن النبيَّ حالفَ اليهود بعد هجرتِه إلى المدينة وصالح المشركين يوم الحديبية، والفرق بين الأمرين أن الأولَ المنهيَّ عنه ثمرةٌ لمرض القلب والآمال الفاسدة والرجاءات الخبيثة، أما فعل النبي ﷺ أو ما قد يراه أهل الرأي والحل والعقد من قادة المسلمين في أيِّ زمان من تَحقُقِ المصلحة لمجموع المسلمين من حِلفٍ هنا أو صُلحٍ هناك فلا بأس به، إذًا فمناط الإشكال والتحريم هو النياتُ المتحركةُ بحسب الآمال والأحلام التي اعتملت في قلوب مرضى القلوب، «ونكتة التعبير عنهم باليهود والنصارى دون أهل الكتاب هي أن معاداتِهم للنبيِّ والمؤمنين إنما كانت بحسب جنسياتهم السياسية لا من حيث إنَّ كتابهم يأمرهم بذلك»[1].

ولقد نبَّه القرآن الكريم إلى العلة الآذنة للمسلمين بموالاة الكفار في قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[آل عمران: ٢٨]؛ أي: إلا من خاف من شرِّهم ومكرهم فله أن يتقيهم بصورته لا بسريرته، وبظاهره لا بباطنه ونيته، ولقد طبق النبي الكريم ﷺ هذا الأمر في حياته كما أخرج البخاري عن أبي الدرداء: «إنا لنكشر في وجوه أقوام

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٦/ ٣٥٢).

وقلوبنا تلعنهم»(١)، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[النحل: ١٠٦].

فالركون لأهل الباطل تشبُّهٌ بهم وصورةٌ للكفر إلا في حالة الإكراه واتقاء شرهم، وتجنيب المسلمين بلاءً أكبرَ، أما من انشرح صدرُه للكفر وجارى أهل الباطل في كفرهم؛ فإنه إذًا مثلُهم وسَميُّهم؛ لأنه شاكلهم في الطمع في الدنيا وحبها وتأمل شهواتها، وهذا ما صرَّحت الآية اللاحقة به... بِعلَّة هذه الموالاة والمظاهرة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[النحل: ١٠٧].

إن الطمعَ بالدنيا والرجاء لشهواتها من أبرز الدوافع لدى جمهور الناس لتحديد ولائهم وانتمائهم، ولقد أدرك مَلِكُ غسانَ هذه الشِنشِنة في الناس فاقتنص فرصةً ذهبيةً للإطاحة بكعب بن مالك واستجرار ولائه للروم، يوم علم أن النبي ﷺ جفاه بعد تَرْكِه المشاركة في تبوك، فكتب إليه: (أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلْك اللهُ بدار هوانٍ ولا مضيعةٍ فالحق بنا نواسك)، قال كعب بن مالك رضي الله عنه وهو البصير بخطورة الدنيا إذا اعتمل حبها بالقلب واسترسلت آمالُ جمعِها في النفس: (قال فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء فتيامَمْتُ بها التَّنُّورَ فَسَجَرتُها بها...)(٢).

هذا لأنه يعلمُ خطورةَ الركونِ إلى أهل الباطل والظالمين، وإنْ كان الجزاء العاجل شيئًا من الدنيا وزهرتِها وبعض محبوباتِ النفسِ وآمالِها، إلا أنَّ العاقبة وخيمةٌ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٣٠).

(٢) مسلم، الصحيح، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه: (٦/ ٣٤٥).

يوم لقاء الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[هود: ١١٣]، والركون: الميل، ولو في أدنى أحوالـه، كما قال أبو السعود: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾؛ أي: لا تميلوا أدنى الميل. ثم يُعقِّبُ رحمه الله على الآيةِ جُملةً فيقول: وإذا كان حال الميل في الجملة إلى مَن وُجِدَ منه ظلمٌ ما في الإفضاء إلى مساس النار هكـذا، فمـا بميل من يميل إلى الراسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيمًا ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشِرَه[1] على مؤانستهم ومعاشرتهم، ويبتهج بالتزيي بزيّهم ويمـد عينيـه إلى زهـرتهم الفانيـة، ويغبطهم بما أُوتوا من القطوف الدانية، وهو في الحقيقة مِن الحَبَّةِ طفيفٌ ومن جناح البعوض خفيف، بمعزل أن تميل إليه القلوب، ضعف الطالب والمطلوب. اهـ[2].

ولئن أصاب أبو السعـود ـ رحمه الله ـ في ما ذهب إليه إلا أن مما ينبغي أن نتنبه له أنَّ الركون ليس أدنى الميل كما ذكر بل أقواه؛ «لأنَّ الركون هو الاطمئنان، ورُكْنُ الشيءِ: جانبُه القوي، وناحيته الأقوى»[3]، ودليل ذلك أن فرعون لما جاءه موسى ـ عليه السلام ـ تولَّى بِرُكنِه، وتولى: أعرض عن دعوة النبي المرسل إليه، «بِرُكْنِه»؛ أي: بقوتـه وجنده، وما كان يتقوى بـه على الناس ويستند إليه، وليس المقصود بركنه في هذه الآية جانبه؛ لأن فرعون كان أعزُّ من أن يَنعزلَ إلى جانبٍ خشيةَ موسى ـ عليه السلام ـ ودعوته في ذلك الحين كما قال بعض المفسرين[4]،

---

(١) شراشره: أثقاله، وجهده؛ أي: ينهمك في طلب مؤانستهم.

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٣٩٥).

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (٧/ ١٨٥).

(٤) ومنهم الزمخشري ومَنْ تبعه رحمهم الله تعالى، وإن كان أورد الرأي الثاني لكنه كان بصيغة التمريض «وقيل».

ودليلٌ آخر على أن الركونَ هو ميلٌ بقوةٍ أنَّ نبيَّ الله لوط ـ عليه السلام ـ قال لقومه متوعـدًا: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود: ٨٠]، قـال النـووي: الركن الشديد: هو الله تعالى[١]. اهـ. وغيرُ معقولٍ أنَّ ميلَ لوط لربه واستناده إليه ضعيفٌ، وعليـه فما ذهب إليه أبو السعود والبيضاوي ومِنْ قبلهم الزمخشري في تفسير الركون لا أملك أن أقول فيه إلا قالة صاحب المنار: فسره الزمخشري بالميل اليسير، وتَبِـعَه البيضاويُّ وغيره من المفسرين الذين يعتمدون عليه في تحرير المعاني اللغوية لدقة فهمه وذوقه وحسن تعبيره، وإنه لكذلك، وقلَّما يخطئ في اللغة إلا متحرفًا إلى شيوخ المذهب «المعتزلة» أو متحيـِّزًا إلى فئةِ رُواةِ المأثور من الصحابة والتابعين أو نقلةِ اللغة، وشيوخ المذهب يخطئون في الاجتهـاد، وفئـةُ الروايات تخطئُ في اعتماد الأسانيد الضعيفة والإسرائيليات، ورواة اللغـة يفسرون اللفظ أحياناً بما هو أعم منـه أو بلازمـه، أو بغير ذلك من قرائن المجاز في بعض كلام العرب، . . . والركون: مِنْ ركن البناء، وهو الجانب القوي منه. اهـ[٢].

وعود إلى صلب موضوعنا، فإنَّ الأمل الفاسد يقود إلى موالاة أهل الباطل والسير في ركابهم، وهذا ما لا يرضاه الشارع الحكيم الذي كان بمقدوره أن يُكره الناس على الخضـوع لـه ولأنبيـائـه: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[الشعراء: ٤]، غير أنَّ الله لا يريد خضوع القوالب والظواهر، ولا يتقبل إلا خضوع الجوانح والقلوب، لأنَّ الظواهر والجوارح مُجرَّدُ جنودٍ ورعايا، أما القلب فهو الملك فإنْ طاب الملك طابت الجنود والرعايا، وإن خَبُثَ الملك خبثت الجنود والرعايا، بدليل حديث النبي الذي ذكرناه آنفًا بأن الفتن تَعْرَض على القلوب كعرض

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، باب: زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة: (١/ ٢٧٧).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (١٢/ ١٤٠).

الحصير، والقلوب هي التي تنكرها فينكرها الجنود أو هي التي تمضيها فيقعُ فيها الجنود.

قال ابن فارس: والولاء في اللغة: مِنَ الوَلْي وهو القرب[١]. اهـ. وقال الجرجاني: الولي: هو من توالت طاعته من غير عصيان. اهـ[٢]. فالولاء لله هو الحب والقرب والنصرة له ولكتابه ونبيه ودينه والمسلمين، ولأن الولاء ثمرةُ الحبِّ الصادق وإرادةُ القرب المَكينةِ قال الله لبني إسرائيل: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[الجمعة: ٧]؛ أي: إنْ كان أملكم ورجاؤكم بالقرب من الله والجنة صادقًا فإن ولاءكم سيكون صادقًا وعندها سيسهل عليكم تمني الموت العاجل لأنه هو المُوصل إلى محبوبكم ووليكم الله تعالى، فالولاء والانقياد بحسب المأمول والمرجو، ولأن أملهم لم يكن متعلقًا بالقرب من الله ودينه؛ فإن ولاءهم لم يكن لله ورسوله، بل أعمالهم كانت في الحرب على الله وكتابه ونبيه، لذلك عقَّبَ القرآن: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الجمعة: ٨]، قال أبو السعود: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ إخبار بما سيكون منهم، والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ متعلقة بما يدل عليه النفي؛ أي: يأبون التمني بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي الموجبة لدخول النار، ولمَّا كانت اليد من بين جوارح الإنسان مناطَ عامة أفاعيله عبَّر بها تارة عن النفس وأخرى عن القدرة. اهـ[٣].

قال الزمخشري كما ينقل عنه أبو حيان: ولا فرق بين (لا) و(لن) في أن كل

---

(١) ابن فارس، معجم المقاييس: (٦/ ١٠٨).

(٢) الجرجاني، علي بن محمد بن علي الشريف (ت٨١٦هـ). التعريفات: (ص٨٥).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل: (٦/ ٣٢٢).

واحدة منها نفي للمستقبل، إلا أنَّ في (لن) تأكيدًا وتشديدًا ليس في (لا) فتأتي مرة في لفظ التأكيد: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾[البقرة: ٩٥]، ومرة بغير لفظه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾[الجمعة: ٧]، وظنَّ أبو حيان أن الزمخشري رجع إلى مذهب أهل السنة في أن (لن) لا تقتضي النفي على التأبيد[1]، وخالف ابن عادل أبا حيان ـ رحم الله الجميع ـ فقال: وليس فيه رجوع، غاية ما فيه أنه سكت عنه، وتشريكه بين (لا ولن) في نفي المستقبل لا ينفي اختصاص (لن) بمعنى آخر. اهـ[2]. ولعل الحق مع ابن عادل ـ والله تعالى اعلم ـ فلقد حمَّل أبو حيان كلام الزمخشري أكثرَ مما يحتمل، ونلتمس له العذر أنه يحب للزمخشري موافقة أهل السنة والجماعة، والرجوع إلى الحق في مسألة الرؤيا.

ومُحَصَّلُ الأمر أن الأمل والرجاء ضابطان للحب والولاء؛ فإذا تعلَّق قلب الإنسان بالدنيا وشهواتها فلا بد أنه سيوالي أهلها، وهذا ما أدركه القرآن الكريم، فيوم خاطب المؤمنين بأن الله وليُّهم، عقَّبَ بما يعلم أنه يتردد في نفوسهم من حبِّ الخير وتأمل السعادة ـ المُضَمَّنان في النور الدال على الشرع ـ وبيَّن أنَّ ولاية الله هي السبيل لهكذا مرادات: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥٧]، لأن الله الذي خلق البشر، وهو يعلم دخائل نفوسهم، وبواطنها ومحبوباتِها وآمالِها، قال: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾، فالنفس البشرية توالي من تواليه؛ لاعتقادها أنَّ في موالاته جلبًا للخير ودفعًا للضر فأخبرهم الله تعالى أنَّ لأوليائه عليه (أن يهديهم سبل السلام وأن يخرجهم من ظلمات الكفر

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط: (١٠/ ٢٧٢).

(٢) ابن عادل، تفسير اللباب: (١٥/ ٢٧٤).

والشَّـكِّ والرِّيـب، إلى نور الحـق الواضح الجلي السهل المنير)[١]، وعَقِبَ ذلك ما يكون لهم من السعادة الدائمة في الجنة دار النعيم.

بخلاف أنْ لو كانت ولايتهم للكافرين الذين لن يُورِثُوهم إلا الخسار والتيه والضلال، وهذا ما لا يأمله عاقل لبيب. ولمَّا كان شغل سحرة فرعون الشاغل هو الطمع بالأجر والمال، وهم العلماء بكذب فرعون وأنهم إنما يخدعون الناس، كان ولاؤهم لفرعون وسلطانه حتى لقد كانوا يقسمون بعزته وهم الخبراء أنه لا يملك سببًا ذاتيًا للعزة، وأنَّ كلَّ ما لديه أعراضٌ زائلةٌ ستهلكها الأيام والليالي، إن لم تسبق إليه عوادي الدهر وتقلبات الزمان، وليس السحرة الذين ظهر منهم الولاء لفرعون فحسب، بل الملأ كذلك من بطانته وحاشيته حيث حكى القرآن عنهم أنهم رددوا كلمة فرعون بذاتها مُوافَقةً له ومُنافقةً، فقالوا: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[الأعراف: ١٠٩ ـ ١١٠]، قال صاحب المنار: وما قال الملأ من قوم فرعون هذا القول إلا تبعًا لقوله هو الذي حكاه تعالى عنه في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[الشعراء: ٣٥ ـ ٣٦]، فصاروا يردِّدون قوله، ويلقيه بعضهم إلى بعض كدأب الناس في نقل كلام ملوكهم ورؤسائهم وترديده إظهارًا للموافقة عليه وتعميمًا لتبليغه. قلت: وترديد الكلام إما إرضاءً له وطمعًا بالحظوة لديه، أو خوفًا منه وخشيةَ بطشه حالَ مخالفَتِه، ويكمل (محمد رشيد رضا): وإنما لم يصرحوا بكلمة «بسحره» كما صرَّح هو لأنهم كانوا دونه خوفًا وانزعاجًا، وأقلَّ منه حرصًا على الطعنِ في دعـوة موسى ـ عليـه السلام ـ. اهـ[٢]. ولدراية بعضهم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (١/ ٦٨٥).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٩/ ٥٣).

بالسحر وأفنانه وأن الذي جاء به موسى عليه السلام على خلافه.

أما السحرةُ فكان أملهم بالحظوة أكبر، ورغبتهم في إرضاء فرعون أعظم، فكان الولاء منهم له أظهر فرددوا كلامه بذاتِه مع زيادةِ ما يُكثِّرُ خوفَه منه؛ فأشركوا هارونَ في صَنعة السحرِ مع موسى ـ عليهما السلام ـ مما يعطي موسى قوة مضاعفة يتجاوزُ أثرُها الإخراجَ من الديار إلى ذهاب حكم فرعون والملأ، واندثار أثار دولته، وانصراف الناس عنهم إلى موسى وأخيه ـ عليهما السلام ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّاۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾[طه: ٦٣ ـ ٦٤].

ولما رأى نبي الله شعيب ـ عليه السلام ـ انصراف الناس عن ربهم وانشغالهم بالدرهم والدنيا وما يستجلب ذلك من التطفيف بالمكيال والغش في الميزان وبخسِ الناس أشياءَهم، أراد أن يبين لهم أن سبيل الربح وتحقيق آمال السعادة ليست بالعبودية للمال والخميصة والقطيفة، لأن جميعَها تزول وجامِعَها يزول، فأراد أن يصوب جهة ولائهم من جهة محبوباتهم وآمالهم فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[هود: ٨٤ ـ ٨٦]، ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ «أي: ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطي المحرمات»[1]، وفيها معنى الدوام وهو ضد الزوال، فأفادت أن ما يقترفونه متاع زائل، وما يدعوهم هو إليه حظٌ باق غير زائل، وبقاؤه دنيوي وأخروي، ويحتمل لفظ ﴿بَقِيَّتُ﴾ معنًى آخر في كلام العرب وهو النفيس الثمين،

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٣٧٩).

لأنه لا يبقى إلا ما يحتفظ به أصحابه وهو النفائس من الأشياء، ولذلك أُطلقت على الشيء العزيز المبارك كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٤٨]، وهي هنا في الماديات وتدل على المعنويات أيضًا؛ فيشار بها إلى الحكمة والعقل والفضل، كما في قول ربنا تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[هود: ١١٦]. وأضاف ابن عاشور جديدًا فقال: وفيها معنًى آخر وهو الإبقاء عليهم، والعرب يقولون عند طلب الكف عن القتال: أَبقوا علينا. ويقولون: البقيَّةَ البقيَّةَ بالنصب على الإغراء، قال الأعشى:

قالوا البقية والهندي يحصدهم ولا بقية إلا الثأر وانكشفوا. اهـ[1].

فالتعبير بالبقية يتضمن جملةً من المعاني تتناسب مع آمال العقلاء وذوي الألباب، وهي خير الرجاءات. والثواب المترتب على لزوم أمر الله مما يدفع إلى موالاته والخضوع له؛ ولذلك عبَّر القرآن الكريم في سورة (الكهف) بقوله ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[الكهف: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾[مريم: ٧٦]، وإضافة البقية إلى اسم الله تعالى إضافة تشريف وتأكيد، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: إن كنتم صادقين مصدقين بما جاءكم من الحق،

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (٧/ ١٨٢). الأعشى: هو ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له: أعشى بكر بن وائل، والأعشى الكبير: من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، وأحد أصحاب المعلقات، (توفي ٧هـ) ولم يسلم، الأعلام للزركلي: (٥/ ٣٤١).

وصادقين في انتماءكم وولائكم لربكم؛ لأنهم لا يتركون أفعالهم الفاسدة ومعاملاتهم الأثيمة إلا إذا صدَّقوا أن ذلك من عند الله تعالى، وعندها تكون بقيةُ الله خيرًا لهم، والشرطية تجعل خيرية البقية حكرًا على المؤمنين، وعَنْوَنَ باسم الفاعل (مؤمنين) في جملة الشرط زيادةً في التحضيض على التطلع للبقية، فكأنه قال: لا يبلغ تلك البقية إلا المداوم على صفة الإيمان والمتحقق من لوازمها حتى تصير علمًا عليه.

ومما سبق يظهر بجلاء كم صلةُ آمال الإنسان بجهةِ ولائِه وانتمائِه، وإنَّ من أخطر آثار الأمل الفاسد والرجاء الذميم محالفة أهل الباطل والتبعية لهم، وإنْ على حساب حب الله تعالى ورسوله ﷺ والإسلام، عافانا الله الكريم.

ثالثًا ـ اعتقاد الخيرية في الدنيا:

إنَّ الله خالق الدنيا وهو العليم بحقيقتها والخبير بمكرها، وهو الذي وصفها فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[الحديد: ٢٠].

فالدنيا تغرُّ وتخدع إذ جميع ما فيها لا يساوي جناح بعوضة، غير أن الدنيويين يُبهرهم بعضُ الجناح ويغريهم ويشغلهم عن الآخرة وما فيها: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾[الرعد: ٢٦]، قال أبو السعود: أي: إلا شيءٌ نزرٌ يُتمتع به كعجالةِ الراكب وزاد الرَّاعي، والمعنى أنهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال أنّ ما أَشِروا به في جنب ما أعرضوا عنه شيءٌ قليل النفع سريع النفاد. اهـ[1]. وهنا تكمن خطورة الدنيا، فعلى الرغم من ضآلتها تُوهِمُ أنها كبيرةٌ، وإنَّها إنْ تكُ حسيرةً؛ فإنها توهم بالامتداد، وكان يمكن أن يُعذر الإنسان لانخداعه،

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (٣/ ٥٠٠)، وأشروا؛ بمعنى: فرحوا واغتبطوا.

غير أن حشود المغادرين للدنيا في كل يوم، والراحلين إلى الآخرة، ينبغي أن يكون فيهم عبرةٌ لمن يعتبر ومواعظُ لمن يَدَّكِر، إلا أننا نرى الناس في غالبهم يودُّ أحدهم لو يُعمَّر ألف سنةٍ أو يزيد؛ لِمَا يُشاهد من زخارف الدنيا وزينتها ولهوها ولعبها. فأصحاب الآمال الفاسدة نظرهم قصيرٌ، وغمامة صيفٍ ظاهرُها ماطر تزيدُ تشبثَّهم في الدنيا؛ عسى ينمو الزرع ويكثر الثمر فيزيد الربح. وإذا وقع نظرهم على نعمةٍ عظموها وركضوا وراءها وكبَّروا باسمها في غفلةٍ عن المُنعم المُتفضل والواهب المتكرم، وعندها تزداد رغبتهم بالبقاء في الدنيا.

أما المؤمن اللبيب فإن رأى مُعْجِبًا انتقل فِكْرُه إلى موجدِه وقدرتِه ﷻ فأُعجبَ بها وسبَّح بحمدها كما قال أبو نواس[1]:

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيونٌ من لجينٍ شاخصاتٌ	على أطرافها ذهبٌ سبيك
على قُضبِ الزبرجد شاهداتٌ	بأنَّ الله ليس له شريك

فتكون الدنيا التي خدعت أصحاب الآمال الفاسدة، هي ذاتها التي أحيت آمالاً عريضةً عند المؤمن بجنة الله الكريم، فإذا كانت الدنيا التي ذمَّها خالقها بهذا الجمال فكيف بالجنة التي امتَدحها وعظَّم شأنها.

ومن عجيب شأن الدنيا أنها تترقى في خداعها وتنتقل من مرحلة إلى أخرى بحسب حال من تُخادعه، وانظر في قوله تعالى الآنف كيف يبين هذه المراحل: فأولاً

---

(١) أبو علي، الحسن بن هانئ الأحوازي (١٤٥ - ١٩٩هـ) هو شاعر الخمريات والمجون، ويقال تاب آخر عمره، ومما نظمه في التوبة وهو يحتضر:

(يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة... فلقد علمت بأن عفوك أعظم). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس أحمد بن خلكان: (٢/ ١٠٣).

اللعب ثم اللهو فالزينة والتفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، أما اللعبُ فهو الفعل الذي لا يَقصد به فاعلـه مقصدًا صحيحًا من تحصيل منفعةٍ أو دفع مضرةٍ كألعاب الأولاد الصغار التي يتلذذون بها لِذاتها كالدمى والكرة والرمل، قال الرَّازي: اللعب هو فعل الصبيان الذي يُتعبون أنفسهم جدًا، ثم إن تلك المتاعـب تنقضي من غير فائدة. اهـ[1]. ثمَّ اللهوُ وهو مُتقدمٌ على اللعب في الرتبة إذ يُقصد منه ما يحصل به الاستمتاع، قال صاحب المنار: إن الأصل في اللهـو إذا أطلق يراد به: ما يشغل الإنسان من لعب وطربٍ ودواعي سرورٍ وارتياح عما يتعبُهُ ويَشُقُ عليه من الجدِّ أو يحزنُه أو يسوءُه من خطوب الدنيا ونكباتِها، ثم تُوسِّع بـه فصار يُطلق أحياناً على ما يسرُّ ويلذُّ وإن لم يُقصد به التشاغلُ عن أمور الجد كمغازلـة النساء والاستمتاع بهن، وقد يطلق أيضًا على جدٍّ يُتشاغَل به عن جدٍّ آخر، فاللهو منزلة تتجاوز الأطفال والغلمان لمن هم أكبر سنًا[2]. اهـ. وعلى كلٍ فإنَّ الدنيا تغرُّ وتخدعُ حتى لقد قالَ كثيرٌ مِن أهلها: إنـه لا حياة غيرهـا: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فأرادوا تحقيق كل آمالهم فيها ومحبوباتهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ٩٦]، مع أنَّ متاع هذه الحياة الدنيا قليلٌ كَمُّـه، قصيرٌ أجلهُ، لا يصح أنْ يَغترَّ بـه العاقل الراشد؛ فهو ليس إلا كلعب الأطفال في قِصَرِ مُدتِه من حيث إنَّ الطفلَ يُسرع إليه المللُ من كلِّ لعبةٍ، أو من حيثُ زمنُ الطفولةِ قصيرٌ كُلُّه غفلةٌ، واللهو كذلك قليلٌ وقصيرٌ بل أكثر قصرًا؛ لأن الزمنَ يقلُّ كلمـا كان الذهنُ أكثرَ انشغالاً بالمحبوب؛

---

(١) الرازي، التفسير الكبير: (١٥/ ٢٣٣).

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٧/ ٣٠٣).

فالأوقات السعيدة سريعة الانقضاء حتى قالوا: سَنةُ الوِصال سِنةٌ. كما أنه يكون في أمرٍ غيرِ مطلوب لذاته وغيرُه أجدرُ منه وأَوْلى، وقبل إكمال مراحل الإغراء والخداع من الدنيا كما في الآية لا بدَّ من الوقفِ على سرِّ الترتيب في الآيات، حيث قدَّم اللعبَ على اللهوِ في آيةِ الحديد كما مرَّ معنا، وفي آية محمد: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾[محمد: ٣٦]، وفي آية الأنعام: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنعام: ٣٢]، وهو الترتيب المتبادر؛ فالطفولة سابقةٌ على البلوغ والإدراك، لكنَّه في سورة العنكبوت قدَّم اللهو فقال: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٦٤]، وأكثر المفسرين يمرُّون عليها من غير توقفٍ لبيان النُّكتة فيها، بِعذر أنَّ الواو لمطلقِ العطفِ وأنها لا تُفيدُ ترتيبًا، وبعضهم ينزه كتاب الله عن مثل هذا، ويقولون بوجود فرقٍ بين العطفين وأنه لنكتةٍ بلاغية كما قال الألوسي حيث بيَّن أربعةَ أسبابٍ لتقديم اللعب على اللهو فقال في تعقيبه على آية الأنعام: لما كان هذا الكلام مسوقًا للرد على الكفرة فيما يزعمونه من إنكار الآخرة والحصر السابق، وليس في اعتقادهم لجهلهم إلا ما عُجِّل من المسرة بزخرف الدنيا الفانية، قدم اللعب الدال على ذلك وتَمَّم باللهو، أو لمَّا طلبوا الفرح بها وكان مَطمَع نظرهم، وصرفُ الهمِّ لازم وتابع له قدَّم ما قدَّم، أو لمَّا أقبلوا على الباطل في أكثر أقوالهم وأفعالهم قدَّم ما يدل على ذلك، أو لما كان التقديم مقدمًا على الترك والنسيان قدم اللعب على اللهو رعايةً للترتيب الخارجي. ثم ذكر رحمه الله سرَّ عكس الترتيب في سورة العنكبوت، فقال: أما في سورة العنكبوت فالمقام لذكر قصر مدة الحياة الدنيا بالقياس إلى الآخرة، وتحقيرها بالنسبة إليها ولذا ذكر اسم الإشارة المشعر بالتحقير وعقَّب ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ

ٱلْحَيَوَانُۚ﴾ والاشتغال باللهو مما يقصر بـه الزمان وهو أدخل من اللعب فيه، وأيام السرور قصار كما قال:

وليلـــة إحـــدى الليـــالي الزهـــر لـم تـكُ غيـر شـفقٍ وفجـر. اهـ[1]

وعلَّقَ صاحب المنار على كلام الألوسي فقال: هو كلام ركيك في الفرق بين الاستعمالين. والذي يظهر لنا في نكتة ذلك أنَّ تقديمَ اللعبِ على اللهو لا يحتاج إلى تعليلٍ لأنه الأصل والمُقدمُ في الوجودِ؛ لأن أول عمل للطفل هو اللعب المقصود عنده لذاته، وذكر بعده اللهو لما فيه من القصد الذي لا يأتي من الطفل؛ لأنه لا يحصل إلا لذي الفكر... أما في آية العنكبوت فقد وردت في سياق إقامة الحجج العقلية على المشركين فذكر فيها اللهوَ قبل اللعب على طريقه التَدلِّي المؤذنُ بالانتقال من الشيء إلى ما هو دونه في نظر العقلاء، فإن اللعب من العاقل الذي لا يليق به اللعبُ أقبح من اللهو؛ إذ اللهو تقصد به فائدة ولو سلبية، واللعب هو العبث الذي لا تقصد به فائدة البتة، فهو شأن الأطفال لا العقلاء العالمين بالمصالح الذين يقصدون بكل عمل من أعمالهم إما دفع بعض المضار وإما تحصيل بعض المنافع، ولذلك بيّن جهلهم بقولـه ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾. اهـ[2]. وأما الجمع بين ما ذهب إليه الألوسي والذي قاله صاحب (المنار) فغيرُ ممتنعٍ؛ إذ الأمر فيه معنى سرعة انقضاء الدنيا من خلال تقديم اللهو؛ فزمنه سريع ويدل على قُرب الفناء كما أسلفنا، ولا شك يتضمن معنى التحقير وهـذا ما يقابله معنى الديمومـة

---

(١) الألوسي، روح المعاني: (٥/ ٦٢)، وجدت بيت الشعر في ديوان المعـاني لأبي هلال العسكري، وقد نسبه إلى إبراهيم بن العباس البغدادي أحد الشعراء المجودين، كان موصوفًا بالبلاغة والبراعة، توفي ٢٤٣هـ. الترجمة من كتاب العبر في خبر من غبر للذهبي: (١/ ٨٤).

(٢) محمد رشيد رضا، المنار: (٧/ ٣٠٧).

والمكثِ في كلمة ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾، وهي جمع للتعظيم والتكثير، وفيه التدلي من القبيح إلى الأقبح كذلك، إذ اللعب أقبح من اللهـو فبعض اللهـو غير محرم ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ٨ ـ ١٠]، ولهـوُ الرسولِ ﷺ كان دعوةَ كبار قريش إلى الإسلام، لكنه وصف باللهّو لأنه اشتغل بجِدٍّ عن جِدٍّ أَوْلى منه، فجُعِل تركُ الأهم والاشتغال بالمهم من قبيل اللهو في هذا المقام وإن لم يكن في ذاتـه كذلك، ولم يوصف فعل النبي ﷺ باللعب إذ اللعبُ مذمومٌ كلُه في حقِّ العظماء فضلاً عن أعيان الناسِ بل عامتِهم.

وعود إلى الآية محلِّ الدراسة والنظر حيث كنا نتحدث عن تصاعد الدنيا في غواية الناس بحسب أحوالهم وظروفهم، فبدأت باللعب ثم اللهْوِ وثالثها كانت الزينةُ التي هي من شؤون البالغين، والزينةُ أكثر ما يكون اللهو بها، قال البقاعي: وأتبع اللهوَ بأعظم ما يُلهي في الدنيا فقال ﴿وَزِينَةٌ﴾؛ أي: شيء يبهجُ العينَ ويسرُّ النفسَ كزينة النسوان، وأتبعها ثمرتَها فقال ﴿وَتَفَاخُرٌۢ﴾؛ أي: كتفاخر الأقران يفتخر بعضهم على بعضٍ، والتفاخر شأن الكبار والشباب من الرجال والنساء. اهـ[1]. والفخرُ: حديثُ المرءِ عن محامده والصفاتِ الصالحة فيه، سواء كان صادقًا أم كاذبًا، «وصيغ من زِنـة التفاعل؛ لأن شأنَ الفخرِ أنْ يقعَ بين جانبين كما أنبأ به الظرفُ «بينكم»، وأغلب التفاخر في طورِ الكهولـةِ واكتمال الأشدِّ؛ لأنه زمنُ الإقبال على الأفعال التي يقصد منها الفخـر، والتفاخـرُ كثير في أحـوال الناس في الدنيا ومنـه التباهي والعجب وعنه ينشأ الحسد»[2].

وآخرها التكاثر وهذا يكون في سن الشيخوخة، ويكمل (الطاهر) قوله بما

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٨/ ٣٧١).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (١٤/ ٤١٠).

يدل على أحوذيته: وصيغة التفاعل للمبالغة في الفعل فكل يغالب غيره في كثرة الأشياء كالمال والولد، ويتمنى أن يكون الأكثر منه عنده، ثم شاع إطلاق صيغة التكاثر فصارت تستعمل في الحرص على تحصيل الكثير من غير مراعاة مغالبة الغير ممن حصل عليه، قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. اهـ[1].

إذًا فالدنيا تغرُّ وتخدعُ أصحابها وتستخدم أسلحةً ناجعةً مع الغالبِ من الناس لتربطَهم بها وتؤملَهم فيها، وأكثر ما يحرص عليه الإنسان فيها المال والولد، قال تعالى: ﴿فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ وسِرُّ تقديم المال على الولد تقدم سابقًا ويضاف إليه أن كثيرًا من الناس ينشغلوا بالمال عن الولد، فيقصروا في حقوق أبنائهم تطلبًا للزيادة في الأموال، غير أن المال لا ينبغي أن يكون محلاً للتكاثر؛ لأنه عرض زائل فإما أن يزول عن الإنسان أو يزول هو عنه، والأولاد كذلك، بل لقد وصفهم اللهُ بأنَّهم عدوٌ، وجمعَ بينَ المالِ والولدِ في كونهما فتنةً تُضل كثيرًا من الخلق: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التغابن: ١٥].

في حين أن كل ما سبق مما يتأمله الإنسان من الدنيا ويرجوه يشبه أن يوصف بالغيث الذي يُعجب الحُرَّاث ما يحصل منه من نباتٍ، لكنه سرعان ما يجفُّ وييبسُ بعدَ خُضرته ونضارتِه، بل: ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ هشيمًا متكسرًا. وقال الرَّازي: يصح أن الكفار في هذه الآية هم الكفار بالله تعالى وهم أشد إعجابًا بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين؛ لأنهم لا يرون سعادة سوى سعادة الدنيا. اهـ[2]. وجمع الطاهر بن عاشور بين الأمرين بما يدل على فائق بلاغته ودقة تنقيره، فقال: وإنما أُوثر هذا الاسم ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ هنا وقد قال تعالى في سورة [الفتح: ٢٩]: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾[الفتح: ٢٩]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الرازي، التفسير الكبير: (١٥/ ٢٣٤).

قصدًا هنا للتورية بالكفار الذين هم الكافرون بالله؛ لأنهم الأشدُّ إعجابًا بمتاع الدنيا؛ إذ لا أمل لهم في شيء بعده. اهـ[(١)].

ثم تُختم الآية بعد بيان خداعِ الدنيا للناسِ وتَطميعِهم بزخارِفها وتأميلهم فيها بأنَّ الناس فريقان بإزاء هـذه الفتن؛ فمخدوعٌ متعلقٌ بالدنيـا وزهرتِها فله العذاب الشديد في الآخرة، والعاقل اللبيب الذي لا يتعلق إلا برضوان الله والجنة... الذي يجعل الدنيا مزرعةً للآخرةِ، فله من الله المغفرةُ والرضوان، وهذا عينُ ما يصبو إليه، لأن الدنيا أقلُّ مِن أنْ تملأَ عينيـه؛ فهي متـاعٌ زائلٌ لا تغرُّ ولا تخدع إلا السفهاءَ، وصورةُ الغرورِ بها والانخداع بزهرتها هو تأملُ الخيرِ فيها والإقبال عليها، والإعراض بها عن طلب الآخرة.

وهذه من عادة القرآن الكريم في بيان كذب الدنيـا وخداعها بواسطة الأمل الذي تزينـه للناس، حيث إنها تكذب وتخـدع؛ لِتُأمِل الناسَ فيها فيتعلقوا بزينتها ويتركوا الآخرة والعمل لها، على اعتبار أنها محلٌّ للآمال والرجاءات، وهي غير ذلك. وجاءت آية (الكهف) التي كانت من أهم أسباب اختياري لعنوان الرسالة: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، بعـد قولـه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، ولأن الدنيا تغرُّ وتخدع وتُؤمل وتُغري، عقَّبَ على هذه الآية ببيان خير الآمال، وكيف تكون، وبماذا يجب أن تتعلق وأي الدارين أولى بها.

وآية سورة (يونس) تمثل حقيقـةَ خداع الدنيا وأنَّ جميعَ آمالها سرابٌ بقيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (١٤/ ٤١١).

كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[يونس: ٢٤]، ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا سرابَها حين يَرضَون بها وينخدعون بأوهامها، فيقفون عندها ولا يتطلعون إلى ما هو أكرم وأبقى.

وانظر إلى عجيب حالها وعجيب وصف القرآن لها، فبعد العَرْضِ المُطول لزينتها والإسهاب فيه من مثل أنَّ الماء يتصبب من السماء وتستقبله الأرض ويتغذى به نباتها فيورق ويثمر حتى تصير الأرض مخضرةً في تمام زينتها وقشيب حللها، كالعروس يوم زفافها، حتى إذا رآها الناس بَهَرت بعضهم فامتدت أيديهم لقطف بعض زهرتها التي لا تدهش الدنيويين فقط، بل والعجماوات أيضًا، فإذا بأمر السماء يخطف كل ذلك الجمال وتلك الروعة ويحصده بسرعة وقوة وبغتة، كأن لم يكن شيء منه قبل، ويخطف معه كذلك المتشبثين بذلك الجمال والروعة والمتعلقين بالدنيا وسفسافها.

وهذه عاقبة من يتشبث بهذه الدنيا الخادعة الفانية، تصير أحلامه هباءً وآماله سرابًا، ليس كمن يستجيب لدعوة الله تعالى، دعوة الله إلى الدار التي لا يمكن أن تطمس في لحظة، أو أنَّ زينتها وزخرفها تؤول حصيدًا بعد الغنى والاستقرار: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[يونس: ٢٥]، فهي الدار السليمةُ من كل النقائص والعيوب، والسالمةُ من الأكدار والأنكاد؛ لذلك جاءت آية (الزمر) تؤكد أن من ينخدعُ بالدنيا فهو بليد الذهن، ومغلق العقل، الذي طمست بصيرته فخلط بين المتضادات. . . وكيف لعاقل أن لا يميز بين جمرةٍ وتمرةٍ، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ

يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ٢١]، فالذي أوقف الماء في جوِّ السماء بأمرِهِ ويُنزِّل منه بقدرٍ ما يشاء، ثم أسكنه الأرض وقهره على الصعود بعد أنْ غَيَّبَه في بطنها فتفجر ينابيع فجعله سببًا في إنبات الأرض، وعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ بين الإنبات وسلوك الماء للدلالة على التراخي، ومما يدل على باهر القدرةِ وعظيمِ الصانع والصَّنعة أنَّ مع اتحاد السبب تعدد المُسبَب فكان الزَّرع النابت ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: في الأنواع والألوان والطعوم مع اتحاد الماء والأرض.

ومما يدل أن الدنيا ليست محلاً للآمال في الآية أنها تجري عليها سنة الله تعالى الماضية في النبات؛ إذ ليس بعد التمام إلا النقص، فلمَّا بلغ النباتُ ذروةَ النمو والجمال والبهجة آذنَ بأنْ ﴿يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾، قال البقاعي: ولما كان الإيقاف بعد قوة الإشراف دالاً على القهر ونفوذ الأمر، قال إشارة إلى أن الخروج عن الحدِّ غيرُ محمودٍ في شيءٍ من الأشياء؛ فإنه يعود عليه النقص ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ فيُسبب عن هَيَجِه وهو شِدَّة ثَورانه في نموه بعد التمام وتوقيع الانصراف أنك تراه ﴿مُصْفَرًّا﴾ آخذًا بالجفاف بعد تلك الزهرة والبهجة والنضرة. اهـ[1]. ولما كان سياق الآية في هذه السورة يدل على قدرة الله تعالى وقهره، وأن مشيئته تعلقت بجعل الدنيا دارَ زوالٍ، وأنَّ الآخرة هي محلُ الآمال، عبَّر في هذه الآية بالجعل: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ بخلاف آية الحديد التي صدرنا بها الموضوع حيث عبر فيها بالكون: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ وكأنها قضية رتيبة طبيعية من خصائص الأشياء الذاتية فلا تحمل معنى النذارة والتهديد كالجعل، وللدلالة على تمام القهر عبَّر بالجعل مُسْنَدًا إليه سبحانه، وهذه سنة الله ماضية في الحياة الدنيا مُضيُّها في النبات، وكالنباتِ الإنسانُ الذي يبدأ ماءً ثم ينعقد بشرًا في الأرحام في أطوار معلومةٍ ثم يخرج طفلاً ثم يكون شابًا

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٧/ ٢٤٣).

فيبلغ أشُده العضلي، ثم يكون كهلاً فيبلغ أشدَّه العقلي ثمَّ شيخًا هرمًا، ثم يموت فيستحيل ترابًا مُفتتًا في بطن التراب، ثم يعيد الكرة فيجمعه ويخرجه كما أخرج الماء والنبات لينتقل إلى الحياة الآخرة، فإن كان من أولي الألباب الذين يفهمون عن الله ويتعلقون بحباله ويأملون نواله فَسيُساقُ مع الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرًا، وإلا ففي النار مع الهالكين الذي سيقولون متندمين بعد إدراكهم الحياة الحقيقية، وأين ينبغي أن تتجه الآمال: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾[الفجر: ٢٤]، ولأن أصحاب العقول لا ينبغي لهم أن تغيب عنهم هذه الحقائق ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[الزمر: ٢١]، لذلك كان التوجيه لقارون من عقلاء قومه: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧]، وهذا لأن الدنيا دارُ قُلعَةٍ ومنزلُ غريبٍ لعابري السبيل، ولا يأمل المكث فيها إلا المغبون، ولا يفرح لأعراضها إلا المأفون، لذلك قالوا له: «لا تَفْرَح»؛ (أي: لا تُسرَّ سرورًا يحفرُ في قلبك فيتغلغل فيه فيخرجك إلى الأشرِ والمرح؛ فإن الفرح بالعرض الزائل يدل على الركون إليه، وذلك يدل على نسيان الآخرة واعتقاد الخيرية في الدنيا فحسب، وذلك على غاية الجهل والطيش وقلة التأمل للعواقب)[1]، قال الرَّازي: ومن فرح بغير مفروح به استجلب حزناً لا انقضاء له، ولا يفرح بالدنيا إلا من رضي بها واطمأن إليها، فأما من يعلم أنه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها. اهـ[2].

ومن أجمل ما قاله المتنبي في هذا المعنى:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ　　تيقن عنه صاحبُه انتقالاً

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٦/ ٢١٠).

(٢) الرازي، التفسير الكبير: (١٠/ ١٠٩).

وقال ابن شمس الخلافة[١]:

وإذا نظرت فإن بؤسًا زائلاً ... للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائل

وأحسن منهما وأكمل وأجمل ما قاله ربنا تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

فالعاقل اللبيب حاله كما قال ثابت بن جعفر[٢]:

ولست بِمفراحٍ إذا الدهرُ سرَّني ... ولا جازعٍ من صَرفِه المُتقلب

وعليه فيجب أن تكونَ قِبلتُه الآخرة، ووجهتُه رضوان الله، وأمله في الجنة، (والابتغاء: الطلب، والبغية: الضالة المطلوبة)[٣]، وبذا فالابتغاء يقتضي الطلبَ بحرص واهتمام وتشوُّفٍ قلب للمطلوب، والطلب يكون باللسان وحركات الجوارح، والابتغاء طلبٌ مبدوءٌ بتوجهِ القلبِ، فالعاقل يطلب الآخرة صادقًا حريصًا ليبلغها، ويؤكد هذا أنه عبر بحرف الظرفية: ﴿فِيمَا آتَاكَ﴾؛ أي: اطلب بمعظمه وأكثره، قال الطاهر: والظرفية مجازية للدلالة على تغافل ابتغاء الدار الآخرة فيما آتاه الله، وما آتاه هو كنوز المال، فالظرفية هنا كالتي في قول العزيز: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[النساء: ٥]؛ أي: منها ومعظمها. اهـ[٤].

---

(١) هو جعفر بن محمد شمس الخلافة ابن المختار الأفضلي المصري (ت: ٦٢٢هـ: ١٢٢٥م) من كتاب الأعلام للزركلي: (٢/ ١٢٨).

(٢) الشاعر: هو ثابت بن جابر وهو المعروف بـ تأبط شرًا (ت: ٥٤٠م: ٨٠ ق هـ)، من كتاب الأعلام للزركلي: (٢/ ٨٢).

(٣) ابن منظور، لسان العرب: (٣/ ٧٥).

(٤) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (١٠/ ٤٣٩).

وما كان هذا الحث والتحضيض إلا لأن الدنيا ليست محلاً للآمال، وإنْ كان قارون قد غرق في بحارها واستمكنت منه حتى صار من عبَّادها في حين أنَّ شأن اللبيب أنْ ينقطع للآخرة كما كان من دعاء النبي الكريم ﷺ: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا»[1]، إلى الحد أن يقال له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، وكأن الدنيا لقلة شأنها مما ينساه الإنسان ويُذهلُ عنه، لا سيَّما إذا ذَكر الآخرة وما فيها، والنصيب من الدنيا هو الذي يعين الإنسان على اجتياز مرحلة سفره فيها؛ إذ حياة المرء في الدنيا إذا ما قيست بالذي بعدها لا تتجاوز مدة استظلال المسافر تحت شجرة، ودنيا هكذا حالها متوقع أن يطويَها النسيانُ، وحتى النصيب من الدنيا لابد أن يخضع لقاعدة ابتغاء الدار الآخرة؛ فتكون نفقته مما آتاه الله تعالى لصالح الدار الآخرة، بما في ذلك ما أجاز له الشَّرعُ من مُتع الحياة إذ لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة.

وهذا يدل أوضح الدلالة على توازن المنهج الإسلامي فهو لا يحرم الإنسان من متع الحياة وزينتها، بل يوجب عليه أنْ يأخذ بقسط منها ليتحقق مقصود الخلافة بتمامه، مع ضرورة التأكيد على أنها مرحلة عابرة في عمر الإنسان وأنَّ الآخرة هي محل الآمال والرجاءات، فإذا فهم الإنسانُ الأمرَ على هذا النحو صار أخذه قسطًا من الدنيا عبادةً يتقرب بها إلى الله تعالى.

غير أن قارون الذي شرَّفه اللهُ تعالى فكان: ﴿مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾[القصص: ٧٦] بغى عليهم وظلم نفسه واتبع هواه، وركض خلف أوهام الدنيا وأكاذيبها؛ فانصرف عن الآخرة ولقاء الله معتقدًا أن الدنيا ستدوم له، أو أنَّه مخلَّدٌ فيها، فأمَّنَ لها، وما علم

---

(١) الترمذي، السنن، باب: ما جاء في عقد التسبيح باليد: (٦/ ٤٠٧). وحسَّنه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي: (٦/ ٩٥).

أنها مُؤتمِرةٌ بأمر الله تعالى الذي أوحى إليهـا فانخسفت به وبماله وداره وابتلعتهم في طرفة عين، فأوتي المغبون من مَأمَنِه ومن حيث أَمَّلَ الخيّر، وكذلك أصحاب الآمال الفاسدة في كل زمان ومكان، يصدق فيهم وصف خالقهم: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧].

فإذا غرتـه الدنيا بزخرفها وزينتهـا ففرح وأشِر وطغى واستغنى كأنه سيخلد فيها، فإذا بالحقيقـة الرعيبـة التي تتحطم على صخرتها كل آماله الذميمة، حقيقة الرجوع إلى الله وإلى الحياة الأبدية حيث لا موت ولا فناء وإنْ سيتمنى ذلك: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

رابعًا ـ تحكيم الأهواء وتعطيل الشرع:

إنَّ المُنتفعَ من التشريع لا ينبغي أن يكـون صاحب الحقِّ في التشريع؛ لأنه سيَخضعُ لأهواء نفسه وأمانيها وسيُحرك دفَّـة التشريع لصالحه، أما الذي لا ينتفع منه ولا من المُشَرَّعِ لهم فهو المأمون عليه وعلى تقرير الأحكام؛ لأنه لا تتحكم به النزعات ولا تقـوده الأهواء، وعندها سيشرع ما يحققُ الصالح العام لكل الأفراد المستهدفين.

وفي الحِقَبِ التاريخيةِ الماضية نماذج كثيرةٌ للذين عطّلوا الشرائعَ السماوية، وأعطَوا أنفُسهم حقَّ التشريـع وسنَّ القوانين نزولاً عندَ أطماعهم وتحقيقًا لآمالهم الفاسدة؛ فَضلُّوا وأَضلُّوا وشاع الفساد وعمَّ البلاء، ولقد أنكر القرآن الكريم عليهم ميل قلوبهم لنبذِ الشريعةِ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقلنا في المبحث السابق أن الابتغاء هو الطلب بلهفة وحرص وميل قلبٍ يَتبَعُه فِعـلُ الجـوارح، فكـان طلبُهم لحكم الجاهليـة نابعًا من أهواء قلوبهم ومقصوداً منه تحقيقَ آمالِهم ومآربِـهم الدنيوية الفانيةِ.

قال ابن كثير: يُنكر تعالى على من خرج عن حكم الله المُحكمِ المُشتَملِ على كلِّ خيرِ الناهي عن كلِّ شرٍّ، وعَدَلَ إلى ما سواهُ من الآراءِ والأهواءِ والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم (جنكيزخان) الذي وضع لهم (اليَساق) وهو عبارةٌ عن كتاب مجموعٍ من أحكام اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله. اهـ[1]. ولأن الشريعة الإسلامية جاءت بتكاليف متعددةٍ والنفسُ البشريةُ تأنفُ التكليفَ وتأباه، (والتكاليف: مِنَ الكَلَف، وتكلَّف الأمر: تَجشَّمه على مشقة وعسرة)[2]، وعليه فإنَّ النفس تسعى للتخلص من هذه المكاره والمشقات بالتكذيب بالشريعة أحياناً، أو التشكيك والتوهين لبعضها أو بالتحايل على النصوص وليِّ أعناقها في أحيان أخرى، مع ما يتوقع من الدسِّ والوضع فيها والكذب على رُسل الله ﷺ، كلُّ هذا لتصلَ النفس إلى محبوباتها وتنعتقَ من مكروهاتها، ولقد أسرف بنو إسرائيل في التحريف والتكذيب والتلفيق في شرائع السماء كما حدَّثنا عنهم القرآن الكريم أنَّ تحايلهم بقصدٍ وسبق إصرار: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٧٥]، قال أبو السعود: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ عن مواضعه لا لقصور فهمهم عن الإحاطة بتفاصيله على ما ينبغي لاستيلاء الدهشة والمهابة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٣/ ١٣١).

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (٩/ ٣٠٧).

حسبما يقتضيه مقام الكبرياء، بل ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ﴾؛ أي: فهموه وضبطوه بعقولهم، ولم تبق لهم في مضمونه ولا في كونه كلام رب العزة أصلاً، قال القفَّال[1]: سمعوا كلام الله وعقلوا مراده تعالى منه فأولوه تأويلا فاسدًا. اهـ[2].

وما كان منهم كل هذا التحريف والتعطيل لكلام ربهم إلا لاعتمال الأماني الفاسدة في قلوبهم بأنَّ الله يعفو عنهم ويرحمهم، ولا تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، وهذا ما يشير إليه قول الله: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة: ٧٨]، والعجبُ أن بعض أهل العلم يقولون أنَّ الأمانيَّ هي القراءة، وربنا يقول عنهم أميُّون؛ أي: لا يقرؤون ولا يكتبون.

فلما اشتغلوا بالأماني الفاسدة والآمال الباطلة عملوا على تكييف الشرع وتفصيله على وفق أهوائهم غير عابئين بحرمة الدين وقيمة الأحكام؛ ذلك أن أحبارهم ورهبانهم كانوا يُمنونَهم بأنَّ رحمة الله ستسعهم وأنهم أبناء الله وأحباؤه وشعب الله المختار.

قال ابن كثير: الأماني تَخلُّق الكذبِ وتَخرُّصه، ومنه الخبر المروي عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه: (ما تغنيّتُ ولا تمنيّتُ)؛ يعني: ما تخرصت الباطل ولا اختلقتُ الكذب. اهـ[3].

---

(١) عبدالله بن أحمد بن عبدالله المرزوي أبو بكر القفال كان حاذقًا في صناعة الأقفال ونسب إليها، أقبل على دراسة الفقه وهو ابن ثلاثين حتى صار إمامًا يقتدى به، (ت٤١٧هـ) عن تسعين عامًا، الأعلام للزركلي: (٤/ ٦٦).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ١٤٨).

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣١٠)، وحديث عثمان أخرجه ابن ماجه في السنن باب: كراهة مس الذكر: (١/ ٣٧١)، وقال الألباني: ضعيف جدًا، صحيح وضعيف ابن ماجه: (١/ ٣٨٣).

وإذا تمنى الإنسان على الله ما ليس له فلا يستبعد أن يكذب ويخرص الباطل، بل إنهم من شدة ضلالهم صاروا:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة: ٧٩]، وتبدأ الآية بقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ﴾ والفاء للترتيب والتسبب، فيكون ما بعدها مترتبًا على ما قبلها، والظاهر أن ما بعدها مترتبٌ على قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة ٧٨]، ولحل إشكال التعارض بين كونهم أميين وقوله تعالى: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، أنَّ الأميَّةَ لم تكن حالةً عامة فيهم تستغرق الجميع، وإنما كانت حالةَ البعض بدليل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ و(مِنْ) للتبعيض، فبعضهم أميون وبعضهم يحسنون القراءة والكتابة، ولما كان التحريف منهم عن عمدٍ رتَّب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحالة وأشدَّ العذاب، وكان يمكن للمعنى أن يكون واضحًا لو قال: فويل لهم لجريمتهم. بعد قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، لكنه أعاد ذكر جريمتهم ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[البقرة: ٧٩]، للتفصيل والتأكيد ولمزيد التشنيع على فعلتهم وتعليل الويل والهلاك.

وقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: أنهم يكتبون شيئًا لم يأتهم من رسلهم بل يصنعونه ويبتكرونه هم من عند أنفسهم الخاضعة لأهوائهم وآمالهم، وقال: ﴿بِأَيْدِيهِمْ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٤] مع العلم بأن آلة الكتابة هي اليد؛ لمزيد التأكيد كقوله:

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ والقصد منه وقوع الكتابة على الحقيقة، ورفع احتمال المجاز، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[النساء: ١٦٣]، كما أن فيها معنى القصد والعمد.

والأدهى والأمرُّ من الكتابة هو نسبتها إلى الله ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ قال الطاهر: للترتيب الرتبيِّ لأن هذا القول أدخل في استحقاقهم الويل من كتابة الكتاب بأيديهم إذ هو المقصود، وليس هذا القول متراخيًا عن كتابتهم ما كتبوه في الزمان بل هما متقارنان. اهـ[1].

ثم ذكر علة الكتابة والتحريف وتغيير الشرائع وهي اشتراء الأثمان الدنيوية الفانية: ووصف الثمن بقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ زيادةً في التوبيخ والتعجيب من صنيعهم، وفي ذكره للعلة إشارةٌ إلى ما اختلج في نفوسهم من آمال فاسدة متعلقة بجمع الدنيا وحطامها وأنه كان السبب في كل هذا التحريف والتبديل.

وما يؤكد أن انطلاقهم في التحريف كان من الأماني الفاسدة وتسويل الأحبار أنهم بعد فراغهم من الكتابة بالباطل وتبديل كلام الله لم يزالوا على ثقة من الجنة ورضوان الله فقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[البقرة: ٨٠]، وكأنهم أخذوا من الله وعدًا واتخذوا عند الله عهدًا غير أنهم عند بَوارِ آمالهم وخَسارِ أمانيهم سيعلمون أنهم إنما كانوا يقولون على الله ما لا يعلمون ويتأملون ما لا يستحقون.

إنَّ حقيقة العبودية لله تعالى تقتضي اعتقاد ألوهيته بالتساوق مع اعتقاد ربوبيته؛ أي: الإقرار بأحقيَّة الله بالتشريع لا يقل أهميةً عن الإيمان بخالقيته للحوادث، ولئن كانت العرب تقرُّ بالثانية ـ غالبًا مع دَخلٍ كثير فيها ـ فإنها جحدت الأولى؛ فغرقت في بحر من الجاهلية ليس له ساحل، جاهلية تعطيل الشرائع وتحكيم الأهواء، وعليه

---

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (١/ ٣٥٩).

فليست الجاهليةُ محصورةً في زمان أو مكان، ولعلَّ من بلغ قمة المدنية والحضارة المادية أن يكون جاهليًا بهذا المفهوم، وهذا ما عناه القرآن الكريم عند حديثه عن الجاهلية، «فالذين يتبعون أهواءهم يرفضون أن يتبعوا ما أنزل الله... وهم حينئذٍ في الجاهلية لهذا السبب عينه لأنهم يرفضون هدى الله، أيًا كان مبلغهم من العلم البشري ومبلغهم مما يسمى الحضارة والتقدم المادي والتنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وهم كذلك عرضة للنتائج الحتمية لهذه الجاهلية من اضطراب وشقاء وتفتت وحرمان، ومن ثَمَّ ليس العرب وحدهم هم الذين كانوا يعيشون في الجاهلية قبل الإسلام وإنما كذلك كل قوم انحرفوا عن الهدي الرباني واتبعوا الأهواء...»[1].

إن إبليس عليه لعنة الله لم يكن النقصُ لديه في الجانب العلمي حين عصى ربه ورفض السجود، غير أن الهوى لمَّا استحكم من نفسه تكبَّر على تشريع الله وأمره وكذلك جُلُّ ما يقع فيه جمهور المخاطبين بالتكليف من ذنوب وخروج عن الأحكام إنما بسبب اتباع الأهواء والآمال الفاسدة، وما كان خضوع أهل الكتاب لأحبارهم ورهبانهم وعبادتُهم إياهم إلا بأنهم أعطوهم حق التشريع والتحليل والتحريم؛ لأنَّ ما يُشرعون يطيب لهم وينسجم مع أهوائهم، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[التوبة: ٣١]، والأحبارُ: جمع حَبرٍ، أو حِبر بفتح الحاء أو كسرها، وهو العالم من أهل الكتاب، وكثر إطلاقه على علماء اليهود مع جواز إطلاقه على كل عالم بصرف النظر عن دينه، كما كان يوصف ابن عباس رضي الله عنهما (بحبر الأمة)[2]. ولقد أُطلق هذا الوصف في التاريخ الإسلامي

---

(١) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين: (ص٣٤).

(٢) محيي الدين النووي، تهذيب الأسماء واللغات: (١/ ٣٧٦).

على عددٍ كبير من العلماء، والرهبان: جمع راهب، وهو عند النصارى المتبتِّل المُنقطع للعبادة، وهو عادةً لا يتزوج ولا يزاول الكسب ولا يتكلف للمعاش، وكما أخرج الترمذي: عن عدي بن حاتم قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلّوا لهم شيئًا استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئًا حرموه»(١).

إذًا لم تكن العبودية بجعل الأحبار والرهبان معبودات يسجد لها ويركع وتؤدى لهم طقوس من العبادة، إنما كانت الخضوع لأهوائهم وتشريعاتهم وترك شريعة الله تعالى.

من خلال هذه الآية الحاسمة تبرز لنا خطورة اتباع الشهوات والأهواء في التشريع، إذ وصف الله القوم بالشرك على الرغم أنهم لم يتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم، أو صرفوا لهم شعائر تعبدية، ثم وصفهم بالكفر في الآية التالية وعقَّب في التي تليها بالتأكيد على شركهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢ـ٣٣]، فهم كفار ومشركون لمجرد أنهم أعطوا الأحبار والرهبان حق التشريع من دون الله تعالى، ونلاحظ أيضًا أنَّ «القرآن يسوي في الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوهم

---

(١) الترمذي، السنن، باب: تفسير سورة براءة: (١٠/ ٣٦١)، حسَّنه الألباني، رقم الحديث في صحيح الترمذي (٣٠٩٥).

واتبعوهم، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح اعتقاداً وقدموا إليه الشعائر في العبادة، فهذه كتلك سواء في اعتبار فاعلها مشركًا بالله، الشرك الذي يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين»[1]. وعليه فإنَّ الإنسان ينتقل إلى الشرك بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله ولو لم يصحبه اعتقاد بألوهية المُعطَى أو تقديم الشعائر التعبدية له.

وما يؤكد أنَّ الأحبار والرهبان كانت تشريعاتُهم خاضعةً لأهوائهم وآمالهم الدنية الفاسدة هم وأتباعُهم وبطاناتُهم من المنتفعين والمتكسبين أنهم ما شرعوها إلا لتحقيق المكاسب المادية وجني الأموال، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[التوبة: ٣٤]. ولأن الدين لا يجوز أن ينحسر في نفوس الناس في الشعائر التعبدية والعقائد القلبية، ويجب على المسلمين أخذه كله؛ لأنه هو الدينونة لله تعالى؛ أي: العادة التي يلزمها الإنسان، والديّان من أسماء الله؛ ويعني: القهار فهو قهر عباده، إذًا فالدينونة لله شعورُ العبد بأنه مقهورٌ لله تعالى مستسلم له، وأنْ يدوم على ذلك في كل أحواله وهذا يتجلى في اتباع الشرائع كما يتجلى في أداء الشعائر بطواعية وحب ورضا عن كل أحكام الله تعالى.

إنَّ من أخطر ما تمر به أمتنا ظاهرة الإرجاء الجديدة أو العَلمانية المعاصرة حتى ميَّع الناس دينهم وصار عبارةً عن طقوسٍ موسميّةٍ ومراسم احتفالية وهذا أفتك الأسلحة التي يحارب بها أعداء الإسلام أهله، ولعلهم نجحوا بنسبة كبيرة في هذا الأمر حتى صار حالُ كثير من المسلمين كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٤/ ٢٠).

وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾[النور: ٤٧]، وشهد الله أنهم ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم خضعوا لأهوائهم ورفضوا حكم الله تعالى وإن زعموا الإسلام والتوحيد بل وإنْ صَلُّوا وصاموا وحجُّوا البيت العتيق (فليس العهد بالمؤمنين أن يكونوا على هذه الشاكلة، فالمؤمنون المعهودون كما تعرب اللام هم المعروفون بالإخلاص في الإيمان والثبات عليه)[1]، وزيادة في بيان عبوديتهم لأهوائهم وما تمليه عليهم، قال الله: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[النور: ٤٨ ـ ٥٠]، وإن كان الحَكَمُ بينهم رسولَ الله ﷺ وهو المباشر له إلا أنه قدَّم لفظ الجلالة لزيادة الهيبة، وزيادة دواعي الالتزام بحكم رسول الله ﷺ لأنه في حقيقته حكم الله تعالى غير أن حالهم الإعراض إن لم يوافق التشريعُ والحكمُ أهواءَهم ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾؛ أي: التشريع في صالحهم والأحكام توافق آمالهم وطموحاته ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾، قال صاحب الكشاف: والإذعان يُعدى بـ (إليه) ليدل على السرعة والانقياد. اهـ[2].

«ولما كان سبب فعلهم هذا بعد إظهارهم الطاعة مشكلاً ناسب أن يسأل عنه فقال تعالى مبيناً له بعد التنبيه على ما يحتمله من الحالات: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نوع فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال، ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ بأن حدثت لهم شبهةٌ أعمتهم عن الطريق ﴿أَمْ﴾ ليس فيهم خللٌ لا أصليٌّ ولا طارئٌ بل الخلل في الحاكم، فهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: يجور عليهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ الذي لا ينطق عن

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٤/ ٦٣).

(٢) الزمخشري، تفسير الكشاف: (٣/ ٣١٥).

الهوى بضرب أمر زائغ، وقد ثبتت عصمته عن الأدناس»[١]. ونلاحظ أنه استفهم عن مرض قلوبهم بالإسمية؛ للدلالة على ثبات المرض وتأصله فيها، مع الارتياب والشك، وفيها إشارة إلى أنهم آمنوا لكنـه إيمان غير راسخ، بدليل تعبيره بالفعلية المفيدة للحدوث والتغير؛ أي: حدث لهم الشك والارتياب بعد أن آمنوا إيمانهم الهزيل، أما خشيتهم من حيف الله ورسوله وظلمهما ففيها إشارة واضحةٌ إلى شكهم في التشريع الإسلامي وخوفهم أن لا يوافـق مراداتهم «وعَطْفُ الاستفهامات على بعض بحرف ﴿أَمْ﴾ المنقطعـة التي هي هنا للإضراب الانتقالي كشأنها إذا عطفت الجمل الاستفهامية؛ فإنها إذا عطفت الجمل لم تكن لطلب التعيين كما هي في عطف المفردات؛ لأن المتعاطفات بها حينئذ ليست مما يطلب تعيين بعضه دون بعض، وأمـا معنى الاستفهام فملازم لها لأنـه يقدر بعد ﴿أَمْ﴾ والانتقال هنا تدرج في عدِّ أخلاقهم، فالمعنى: إذا سألك سائل عن اتصافهم بخُلُقٍ من هذه المذكورات علِمَ المسؤول أنهم متصفون به، فكان الاستفهام المكرر ثلاث مرات مستعملاً في التنبيه مجازًا مرسلاً ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا . . . ﴾[الأعراف: ١٩٥]»[٢]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[النور: ٥٠] إضراب آخر لإبطال الأخير من الاستفهامات فقط؛ لأن ريبهم ومرض قلوبهم أكيد لا شك فيه، وأضرب عن الأخير لأنهم لا يخافون أن يحيف عليهم لمعرفتهم بحاله وإنما هم معاندون وجاحدون ومبتعدون في الظلم، ولم يُضرِب بـ ﴿أَمْ﴾ لأنـه لا يقصد هنا الاستفهام إنما يريد أن يقرر حقيقة ظلمهم لأنفسهم بتعطيل شرع الله، وسـنِّ الشرائـع من عنـد أنفسهم ليصلوا إلى أهوائهم

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٥/ ٤٨١).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (١٠/ ١٣).

وأطماعهم الفانية العاجلة، وفي مثل هؤلاء قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ٦٠]، أما حال المؤمنين الصادقين الراسخين فخلاف ذلك إذ المؤمن مستسلم لله تعالى ولشرعه وأحكامه وإن بدا له في الظاهر أنها قاسيةٌ موجعةٌ فهو يعلم أنَّ الخير من ورائها: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[النور: ٥١ - ٥٢]، وفي هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٣٦]، و﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ويوافق هواهم، وليس كذلك المؤمنون، بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه عليه الصلاة والسلام واختيارَهم تِلْوًا لاختياره.

وهذا ما أكَّده النبي الكريم ﷺ في قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»[1] وروي: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»[2]، وفي ذات المعنى قول ربنا جَلَّ في علاه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ

---

(١) أحمد بن حنبل، المسند، مسند أنس بن مالك ﷺ: (٩/ ٢٢٣)، الحديث له أصل عند البخاري قوله ﷺ: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى.... وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» باب: الحب في الله: (٤/ ٤٧٠).

(٢) ضعَّفه الألباني، وقال في إسناده: رجالـه ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه، وضعَّفه الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين النووية غير أن معنى الحديث صحيح ويوافق صريح القرآن كما في قوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥]، **وصححه ابن حجر والنووي وأحمد شاكر كما مرَّ سابقًا.**

مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[القصص: ٦٨]. والخيرة كما أسلفنا هي الانتقاء لما يعتقد الإنسان فيه المصلحة والنفع وحسن التقدير، فإذا قدم الإنسان اختياره على اختيار الله تعالى فكأنه يتَّهِمُ ربه بالعجز والقصور، ويَخْلع على نفسه العلم والبصيرة، وليس الإشراك شيئًا أبعد من ذلك، بل إن الله وصف الذي يخضع لأهواء نفسه بأنـه جعل منها إلـه من دون الله، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[الجاثية: ٢٣]، قال الألوسي: تعجيب من حال من ترك متابعـة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنه يعبده، فالكلام على التشبيه البليغ أو الاستعارة، قال سهل التستري: هواك داؤك فإن خالفته فدواؤك. اهـ[1]. ولأن اتِّباع الهوى لا ينسجم مع الخضوع لتشريع الله فإن من أطاع هواه لا بد وأن يخالف ربه ومولاه، ويصير حاله مـع الهوى كالذي يعبده؛ إذ العبادة هي التذلل والانقياد، ولذا حذر الله نبيه داود ـ عليه السلام ـ فقال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾[ص: ٢٦] و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ شرعه وحكمه ومراده.

ولقد ضرب القرآن الكريم مثلاً للذي يتبع الهوى بعد الهدى، ويشرع من عند نفسه بحسب أطماعه ويجعل شرع الله وراءه ظهريًا، فقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦]، فعلى الرغم من الآيات التي آتاه الله إياها إلا أنه لاتباعه لهواه

---

(١) الألوسي، روح المعاني: (٩/ ٢٣٠).

انسلخ منها كما ينسلخ الثعبان من جلده حتى لا تعود له به صلة، وأخلد إلى الأرض (أي: اختار لنفسه التَّسفُلَ المنافي لتلك الرفعة بأن كان ميله إلى الأرض وما فيها من الزينة والزخارف، وأعرض عن شرع الله وآياتـه وجعل كل حظة من حياته للتمتع بما فيها من اللذائذ الجسديـة، فلم يرفـع إلى العلم العلوي رأسًا، ولـم يوجه إلى الحياة الروحيـة الخالـدة عزمًا، واتَّبع هواه وآمالـه الفاسدة في ذلك ولـم يراع فيه الاهتداء بشيء مما آتيناه من آياتنا)[١] وعليه فإن اتباع الهوى صادٌّ عن تحكيم شرع الله تعالى فهما ضدان لا يلتقيان وخصمان لا يصطلحان.

وقد مضت سنة الله تعالى في خلقه أن مَنِ اتَّبع هواه في كل عمل من أعماله وتحرَّى ما تشتهيه نفسه وتَطْمعُ فيه دون ما فيـه المصلحة والفائدة له من حيث هو جسد وروح في ضوء الكتاب والسنة فإنه يُضله عن سبيل الله المُوصِلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويتخبط به في سُبُل الباطل المهلكة، وهذا ما حذَّر الله منه نبيه وكليمه موسى بعد أنْ أكَّد له أنَّ الساعـة حقٌّ: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾[طه: ١٦].

والآيات في ذمِّ الهوى والنهي عنـه كثيرة وحسبك منها قوله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾[المؤمنون: ٧١].

خامسًا ـ التقاعس وعدم العمل:

إن الأمل في حده الطبيعي المحمود يُعتبر من أهم الدوافع للعمل والحركة، ولولا الأمل لما تحققت كل الإنجازات التي وصلت إليها البشرية وذلك لأن المُخترِع لم يتمكن من تحقيق إنجازه من أول مرة ـ في أغلب الأحيان ـ وإنما حاول تحقيقه

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٩/ ٣٩١) بتصرف يسير.

مرة بعد مرة دون يأس أو ملل ولذلك قيل: الأمل ينمي الطموح والإرادة، واليأس يقتلهما.

والعمل هو كل مجهود يقـوم بـه الإنسان يهدف من خلالـه للحصول على الإنتاج في مجال ما، وتعتبر الدراسات التي تبحث في قضيـة الحاجيَّـة والدافعية للعمل والتضحية، أو أسباب انعدامها من أهم الدراسات في ميادين علم النفس؛ لأن غاية جميع الأمم والمجتمعات المدنية أن تصل إلى أعلى قمة الإنتاجية والتطور في جميع مجـالات الحياة، وإذا كـان محـور الإنتاج والعمل هو الإنسان إذًا فإنه سيحتل المكانة الأهم في الدراسات من خلال الدور الذي يؤديه بما أوتي من علم وحرفة ومهنة ينجز بهنَّ الأعمال التي يمليها عليه مكانه الذي يشغله في صرح أمته التي ينتمي إليها، ويشعر ـ بما أوتي من إيمان وضمير ـ بأنه يسد ثغرة من ثغراتها، وأنَّ الأمة جميعا تأمل منه كل خير وعطاء.

ويُعد هذا من أسمى دوافع العمل، لكن الدافع الأعمَّ والذي يستغرق الجمهور الأعرض من الناس هو الشعورُ بالحاجة والعَوَز، والرغبةُ في إشباع طموحات النفس وأمانيها، فإرادة الإشباع تُعَدُّ السبب الأهم والدافع الأبرز نحو العمل للحصول على محبوبات النفس وامتلاكها، ولأن جبريل ـ عليه السلام ـ يدرك هذه القضية المركوزة في النفس البشرية فإنه يوم رأى النار حُفَّت بالشهوات أيقن أن أهلها كثيرٌ؛ لأنَّ جلَّ أعمالهم فيمـا يلبي شهوات نفوسهم وآمالها الفاسدة كمـا صحَّ عن النبي ﷺ فيما يرويه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: انظر إليهـا وإلى ما أعـددت لأهلهـا فيها. قال: فجاءهـا ونظر إليهـا وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال فرجع إليه قال: فَوَعِزَّتِك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحُفَّت بالمكاره، فقال إرجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال:

فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد، قال: فاذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركبُ بعضُها بعضًا فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات فقال: إرجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»[1]. إذًا فإرادة الإشباع سواء كان ماديًا كالمال والمنصب، وهي ما يسمى عند علماء الاجتماع بالحاجة للنمو، أم معنويًا كتحقيق الذات وإرضاء الكبرياء وهي الحاجة الاجتماعية، أم كانت الحاجة الأمنية؛ أي: لأشياء يتنافس عليها مع الآخرين ولا تقوم الحياة إلا بها كالمأكل والمشرب والمسكن[2] هي الدافع الأول ـ في غالب الأحيان ـ وقلَّ من يعمل لقداسة العمل وأهميته في ذاته؛ لأن التكاليف شيء ذميم للنفوس ومكروه، ولا يخلوا عمل من تكاليف ومشقة، وعليه فإني أجدني أمام سؤال ملحٍ يمليه المقام: كيف سيكون حال من يعتقد أن محبوبات نفسه وآمالها ستُلبى له من غير عمل وجهد أو تجشم التكاليف والأعباء؟ بغض النظر عن سبب هذا الاعتقاد سواء كان السلطان والسطوة، أم الجهل والوهم، أم الكسل

---

(١) الترمذي، السنن، باب: ما جاء: حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات: (٩/ ١١٨)، وصححه الألباني في كتاب صحيح وضعيف سنن الترمذي: (٦/ ٦٠).

(٢) وهذا التصنيف حسب نظرية أبراهام ماسلو، (ت: ١٩٥٤م) لدوافع الفرد للعمل والتي هذبها من بعده الدرفير، (ت١٩٧٢م)، وسميت متسلسلة ماسلو في الدوافع الإنسانية ومقاصد الفرد، نقلاً عن مجلة البيان: العدد (١٨، ص٤٣) الصادرة عن المنتدى الإسلامي. وهذه المتسلسلة تشبه ما يسمى بالمنهج الإسلامي بالضرورات الخمس وهي التي ينبعث الفرد المسلم في حركاته وسكناته ساعيًا نحو تأمينها، وخلافنا مع النظرية الغربية في ضرورة حفظ الدين فليست عندهم ذات قدر كبير، كما أن سائر الضرورات يندفع المسلم نحوها إرضاءً لله تعالى ولزومًا لأمره، وصاحب الموافقات له كلام جميل مبسوط في هذا الموضوع يحسن الرجوع إليه.

والتواكل. أعتقد أنَّ الإجابة ستكون بأنه سيتقاعس عن العمل وسيعطيه ظهرَه، ويركن إلى ما سولت له نفسه من تحقق آماله ورجاءاته، وعندها سيكون التأخُّر في حركة عربة الحياة جميعًا، ويكون التخاذل الإنساني عن مهمة الخلافة للأرض واستعمارها.

إنَّ الله تعالى كان يقدر أن يجعل الناس جميعًا مهتدين، وأن يريح أحب خلقه إليه ـ وهم الأنبياء ـ من أعباء الدعوة وأنكادها، لكن إرادته شاءت أن تتنزل الهداية ـ لمن شاء ـ مصاحبةً لدعوة أنبيائه، ولهذا ظلَّ نوح ـ عليه السلام ـ ألف سنة إلا خمسين عامًا في الدعوة والجهاد والعمل، لا يترك سبيلاً إلا ويسلكه ولا بابًا إلا يلجُه ولا أسلوبًا إلا يَطرقُه؛ حتى يوصِل دعوته للناس ويقبلوها، ولو أنه علم أن الله تكفَّل عنه بالمهمة لما بذل الذي بذل. ولو علم النبي الكريم محمد ﷺ من ربه أنَّ هداية الناس أمر لا يحتاج إلى دعوته، وأنَّ الله تكفل به، أكان يسافر في رحلة الطائف الشاقة ليلاقي الألاقي من أهلها، أو يهجر أحب البلاد لقلبه، ويغادرها إلى المدينة مع ما كان من عداء قومه ومقاتلتهم ولا سيما الأقارب والأهل، وعليه فكما أن الأمل المحمود يدفع الإنسان دائمًا إلى العمل والتطور والإنجاز، فإنَّ الأمل المذموم مثل اليأس يحول بينه وبين مواجهة الحياة ومجابهة صعوباتها، أو يوجهه إلى غير النافع والمفيد، ويقلبُ سُلَّم أولوياته فينشغل بالتافه الأدنى ويترك الأنفس الأعلى، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤].

وعندها سيكون الإنسان الكَلُّ الأبكم الذي لا يقدر على شيء، وأينما يُوَجَهُ فلن يأت بخير كما أسلفنا فيما مضى من هذه الدراسة عند بيان آية النحل: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النحل: ٧٦]، وكما

قال الله في الآية التي قبلها من ذات السورة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٧٥]، والعبد لشهواته وأطماعه لا يقلُّ في ضعفِه وذِلتِه وعجزه عن العبدِ للسيِّد من الناس؛ فكلاهما لا يقدر على شيء، ولن ينجز شيئًا لنفسه قبل أن يتعـدَّى لغيـره، لذلك نجـد القرآن يكرر أمره للناس: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[التوبة: ١٠٥]، لأنه يريد أن يصنع الإنسان الطموح والعامل الإيجابيَّ، الذي يبصر من وراء عمله نتائجَه وثماره الناضجه، بعد أن يتجاوز به مراحل اليأس وعقدة الذنب والنقص، لذلك سبق هذه الآية بما يدلُّ على إرادته تعزيزه بقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[التوبة: ١٠٤]، وهذه البشارة بالتوبة والصفح عن الماضي، مما يحرك همة المؤمن لتطلب الكمال من خلال ما يوافق الشرع من الأعمال التي تُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ عسى يجبرُ ما فاته من النقص، كما أنَّ الأعمال الصالحـة برهـان البراهين على صدق التوبـة ومهاجرة الباطل والمعصية، وجاء الأمر بالعمل وبيان الصلة بينه وبين النتائج ـ وإن بخفي الإشارة ـ لأنَّ كثيرًا من الناس تأنَّف منه وتأبَّاه، وعَوَّدَنا القرآن أن لا يأمر بشيءٍ بدهيٍّ فِطريٍّ مُتوقـعٍ كالأكل مثلاً، لكنـه يُبين بعض الضوابـط لـه كالقصـد وعدمِ الإسراف، ويُحدد المُحرمات منه وغير هذا من متعلقاته.

أما العمل فالحال معـه آخر، فلما كـان شأن الناس ـ في غالبهم ـ التضجر والتأفف من العمل، والتعلُّق بالوهم والأمل جاء الخبر من الله تعالى بأنَّ من يسُرُه أن يرى اللهُ منه خيرًا أو يغفرَ ذنبه ويرفعَ قدره ويكتبَه في الجنان فليعمل وليداوم على العمل مـا كتبت لـه الحياة؛ لئلا يكون ممن قال الله فيهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣

وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾[النجم: ٣٣ ـ ٤١]، نقل أبو الفداء عن ابن عباس ﷺ قال: أكدى أطاع قليلاً ثم قطعه، وقال: كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا فيجدون في أثناء الحفر صخرةً تمنعُهم من تمام العمل فيقولون: أكدينا، ويتركون العمل. اهـ[1]. وإن كانت أسباب النزول جميعًا تقيِّد الإعطاء بالمال، فإنَّ السياق يتسع إلى ما يتجاوز ذلك، إلى كل صور السعي والعمل والدليل (أنَّ هذا الدين قديمٌ، موصولةٌ أوائله وأواخره، ثابتةٌ أصوله وقواعده، يُصدق بعضه بعضًا على توالي الرسالات والرسل، وتباعد الزمان والمكان فهو في صحف موسى، وهو في ملة إبراهيم قبل موسى ـ عليهما السلام ـ، إبراهيم الذي وفَّى. . . وفَّى بكل شيء. . . وفَّى وفاءً مطلقًا استحق به هذا الوصف المطلق ويذكر الوفاء هنا في مقابل الإكداء والانقطاع)[2]، ومما يؤكد أن الإكداء المقصود[3] في السورة كان عامًا في كل ما يملك الإنسان أن ينقطع منه مما يتصل بالعمل والعطاء لخدمة الإسلام ما ذُكر مُقابله مما في صحف إبراهيم وموسى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[النجم: ٣٨ ـ ٤٢]، وتنكير

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٦/ ١٦٣).

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٦/ ١٦٣) بتصرف.

(٣) العجيب أن الزمخشري يذكر أنهـا نزلـت في عثمان بن عفان ﷺ والكلام بعيد جدًا فمَنْ مقامه مثل مقام عثمان ﷺ أجل وأعظم من هذا الأمر، صهر رسول الله ﷺ، وذو النورين، وثالث الخلفاء الراشدين ﷺ، الذي شهـد لـه النبي ﷺ بالجنـة غير مرة، والذي يرجحه أهل السير أنها نزلت في الوليد بن المغيرة كما ذكر ذلك الطبري وابن كثير وغيرهم، مع العلم أن الزمخشري يذكر الرواية بالتمريض من غير ذكر للسند.

﴿سَعْيَهُۥ﴾ يفيد العموم؛ أي: عمله الذي دام عليه. فإنه ما من نفس تحمل أوزار نفس أخرى، ولا تملك نفس أن تتخففَ من حِملِها لِتجعَلَه على ظهر غيرها، ولا تملك نفسٌ أن تتطوع فتحملَ عن نفس شيئًا. . . كذلك فما يُحسب للإنسان إلا كسبُه وسعيُه وعمله فلا يُزاد عليه شيءٌ من عمل غيره. ولا يؤخذ منه لِيُثقلَّ ميزان سواه، ويوم القيامة سينال كلُ امرئٍ جزاءَ سعيه كاملاً غير منقوص فلا يُبخس شيئًا ولا يُهضم، وكذلك تتحَدَّدُ وتترسَّم معالم المبدأ العادل الذي لا يحرِفُه هوًى ولا يقودُه جُورٌ، مبدأ التبعة الفردية إلى جانب الحكم بالقسطاس المستقيم بلا ظلم أو انحراف، بالتالي تتحقق للإنسان قيمته العليا التي قررها الله تعالى، القائمة على اعتباره مخلوقًا راشدًا مسؤولاً عن نفسه مُؤتَمنًا عليها، وأنَّ فُرصَ العملِ متاحةٌ له مشرعةٌ أبوابُها، وليس عليه سوى الولوج كريمًا عزيزًا ليحقق كل ما يأمل ويرجوا؛ فتتحقق له الطمأنينة والسعادة في الدنيا، والجنة والرضوان في الآخرة.

إن الذي قاد المقصودَ بالآياتِ ـ بصرف النظر عن شخصه ـ إلى الإكداء والانقطاع عن كل خير ما اعتمل في نفسه من أمل فاسد بأنَّ سواه يحمل عنه أوزاره، وأنه بما قدَّم بلغ منزلة الصدق عند ربه، وأنه لن ييأس ولن يحزن، وكذا حال صاحب الجنتين في سورة (الكهف): ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾[الكهف: ٣٦]، مع أنه ما بذل شيئًا لله تعالى، ولا عمل شيئًا يستحق به ما رجاه من مقامٍ وتمناه، سوى أنَّ له في الدنيا عاريةً مستردة لا يملكها، هي المال والولد، ولا يعلم المسكين أنَّ ما تقوَّى به في الدنيا لن ينفعه في الآخرة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]، وهكذا حال الآمال الفاسدة والرجاءات الذميمة تُقعد صاحبها عن كل خير وهو يظنُّ أنه يحسن عملاً، حتى إذا ما كان يوم الموقف العظيم بدا له من الله ما لم يكن يحتسب؛ إذ غرَّته آماله

فظن النجاء بالآخرة فإذا هو في أصل الجحيم: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الزمر: ٤٧ ـ ٤٨].

وختاماً فالأمل الفاسد يقعد صاحبه كاليأس، حيث ورد أنَّ عليَّ بن أبي طالب قال: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل. اهـ[1]. وهذا الذي عناه النبي الكريم ﷺ يوم قال: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان، الحرص على المال والحرص على العمر»[2] فهما الدافع للعمل والحياة، ولأجلهما ينسى الآخرة.

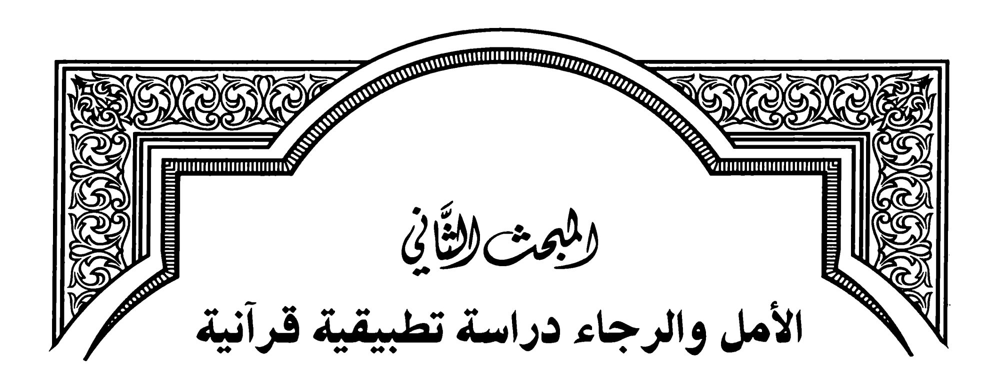
وفي مثل هذا المعنى من خطورة الآمال الفاسدة والتي تشبه اليأس، ما ورد في مصادر الشيعة أن عيسى ـ عليه السلام ـ كان يومًا جالسًا وشيخٌ يعمل بمسحاة ويثير الأرض، فقال عيسى ـ عليه السلام ـ: اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى ـ عليه السلام ـ: اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل، فسأله عيسى ـ عليه السلام ـ عن ذلك فقال بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيت المسحاة واضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بُدَّ لك من عيش ما بقيت فقمت إلى مسحاتي[3].

* * *

(١) أحمد بن مروان الدنيوري، المجالسة وجواهر العلم: (٦/ ١٩٥)، ونُسب القول للحسن ابن علي رضي الله عنهما أيضًا، والله أعلم بالصواب.

(٢) مسلم، الصحيح، باب: كراهة الحرص على الدنيا: (٥/ ٢٦٠).

(٣) المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (ت١١١١هـ)، تفسير بحار الأنوار: (١٣/ ٢٣٧). ولم أجده في مصادر أهل السنة البتة، وذكرته للاستئناس فقط.



المبحث الثاني

الأمل والرجاء دراسة تطبيقية قرآنية

*** تمهيد:**

في احتـدام حالـة اليأس هنا وهناك وبلوغ حالات الإحباط درجاتٍ وخيمةً ـ أحياناً ـ تصل إلى مستوى الهروب من الساحة والانغلاق على الذات والتساقط في الطريق، وبانسداد الآفاق وغياب الحلول وتأخر النصر، يكون الحديث عن الأمل كبارقة خيرٍ ومشعل هداية ينير العتمة ويبدد الظلام، لا سيما إذا كان الكلام مستوحًى من كلمات الله تعالى في كتابـه الحكيم، ومستمدًا من مواقف الأنبياء الكرام. . . أقول يكون الكلام زاداً لا غناء عنه تُحتِّمه طبيعة المرحلة العسرة التي تمر بها الأمة الإسلامية التي تريد لنفسها الانعتاق من الحالة الراهنة. . .

حالة الاستخذاء للآخر والتبعية والذل.

إنها كلمات عن حلقات في مسلسل الزمان تتكرر في أنماطها ومضامينها، وإن اختلف شخوصها. . . حلقات تُبرز قيمة الأمل المحمود والرجاء الصالح في استنهاض الأمم وإحياء المقاومـة، وإرادة الحياة فيها، أَبطالُها في بعض الأحيان أنبياءٌ، وفي بعضها الآخر رجال ونساء من الصالحين السائرين على طريق الأنبياء، الذين كانت بوصلة آمالهم في الاتجاه الصحيح؛ فبلغوا المراد وكانت نهاية أقاصيصهم على وفـق مـا يشتهون. وعلى الطرف الآخر الضدُّ قصص أبطالهـا آمالهم فاسدة ورجاءاتهم ذميمة، وعواقبهم على أثرها كأسوأ ما تكون النهايات.

وسنبدأ بالحديث عن القسم المحمود إن شاء الله.

*** المطلب الأول ـ القسم المحمود، ونذكر فيه أربعة نماذج:**

أولاً ـ نبي الله إبراهيم ﷺ:

إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ هو أبو الأنبياء وداعية التوحيد ورسول الحنيفية السمحاء، هو حبيب الله تعالى الذي تعشق الدعوة إليه؛ فحمل روحه على كفه في سبيل بيان الحق وتحطيم الباطل، إنه الذي جاب البلاد طولاً وعرضًا في الدعوة إلى الله فلم يرتحل نبيٌّ من الأنبياء كما ارتحل ـ عليه السلام ـ فبدأ في العراق ثم الشام ثم مصر والحجاز لينتهي به المطاف في بيت المقدس، فهجر الوطن والأهل والعشيرة؛ ليصدع بدعوة السماء أمينًا على الوحي مضحيًا بالمال والزوجة والولد، فجاءت كلمات الله تثني عليه وتمدحه في مواقف كثيرة تفرد في الكثير منها فلم تكن لأحد سواه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[مريم: ٤١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾[النجم: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٥١].

وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١٠٩ ـ ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ . . .﴾[الممتحنة: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[البقرة: ١٣٠].

لقد كان أول ظهور لخليل الله ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم عند مناظرته لحاكم بابل الكافر الذي ادّعى لنفسه الربوبية والقدرة على الإحياء والإماتة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨]، وكانت هذه المجادلة ـ زمنيًا ـ تاليةً لدعوته أباه آزر؛ إذ من الطَبَعيِّ أن يبدأ بذوي القربى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾[مريم: ٤١ ـ ٤٥]، فتأمل كيف كان إبراهيم في دعوته ذكيًا لطيفًا عالمًا يخاطب كلاً بحسبه، حتى في دعوته لأبيه ـ ضامًا إليه قومه ـ تتدرج في بيان صفات الخالق المستحق للعبادة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ

مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٤ ـ ٧٩]، فاليأس من الدعوة ما خامر قلبه ﷺ بل ظلَّ يدعو إلى الله بلا كلل ولا ملل، بالحكمة والموعظة الحسنة، ويضرب على أوتار حساسة في محاولة إقناع قومه، تتمحور في غالبها حول النفعية التي يرتبط بها سلوك الإنسان في مجمله حتى عبادته، فكل ما يصدر عن الإنسان يُقصد منه جَلبَ الخير لنفسه وتجنُب المفاسد والشر، وليست آمال البشر شيئًا آخر، فإنَّ غالب ما يرجوه الإنسان ويتمناه تحصيلُ النافع المفيد ودرءُ الضرر والسوء، فقال لهم الخليل ـ عليه السلام ـ كما حكى عنه القرآن: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٨]، قال أبو الفداء: يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده في الشكر؛ فإن فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة. اهـ[1] أما الأجسام التي جعلوا لها أسماءً من عند أنفسهم فإنها لا تضر ولا تنفع، ولا يتأمل منها الخير إلا مأفونٌ أحمق، وعليه فلا ينبغي أن تتعلق الآمال بالارتزاق في الدنيا، والرحمة والجنة في الآخرة إلا بالله تعالى الذي يملك الأمر جميعه، وبيده ملكوت السموات والأرض.

إذًا فلقد سلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ في دعوة قومه وإنكار شركهم خطوات

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٧٤).

متسلسلة (أولها: أنهم يعبدون من دون الله أوثاناً، والوثن: التمثال من الخشب، وهي عبادة سخيفة وبخاصة إذا كانوا يعدلون بها عبادة الله. وثانيها: أنهم بهذه العبادة لا يستندون إلى برهان أو دليل وإنما يخلقون إفكًا وينشئون باطلاً يخلقونه خلقًا بلا سابقة أو مقدمة، وينشئونه إنشاءً من عند أنفسهم بلا أصل ولا قاعدة. . .)[1]، وحتى هذه المرحلة من تفنيد شركهم فإنه لا يزال يخاطب عقولهم خطابًا دقيقًا جامدًا من غير استثارة لكوامن النفس وتحريك نوازعها، ودغدغة عواطفها من جهة الضرب على أوتار آمالها، حتى قال لهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾[العنكبوت: ١٧]، وكانت هذه الخطوة الثالثة في طريق بيان قبيح فعلهم؛ فإن الأوثان التي ابتدعتموها لن تحقق لكم شيئًا مما ترجونه من الرزق والمال والسعادة في الدنيا؛ لأنها عاجزة عن نفع نفسها، فعجزها عن نفعكم أظهر وأبين.

أما الخطوة الرابعة فيوجههم إلى الله ليطلبوا منه الرزق، وليعرضوا حوائجهم بين يديه ويقدموا مسائلهم عند عتباته: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[العنكبوت: ١٧]، وعبَّر بالرزق لأنه أكثر أمرٍ يهم الإنسان ويمس حاجاته ويتطلع إليه، وعلى أساسه يحدد ولاءاته وانتماءاته؛ فالرزق مَشْغلةُ النفوسِ وبخاصة تلك التي لم يستغرقها الإيمان، ومع أن ابتغاء الرزق من الله وحده حقيقة وعقيدة لا مجرد استثارة للميول الكامنة في النفس، فإنَّ الأمر به لا يخلوا منه، وهذه طريقة ناجحة في الدعوة إلى الله تعالى، فالداعية اللبيب الناجح يبدأ مع الناس من حيث يحبون؛ لينتهي بهم حيث يحبُ، وعندَ الذي تقتضيه الشريعة، لذلك سلك إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه هذا السبيل كثيرًا وحدثنا القرآن الكريم عن ذلك تعليمًا لنا وإرشادًا، فقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن العظيم: (٥/ ٤٥٥).

عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٧٣]، وسؤال النبي الكريم ﷺ: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ ليس للاستعلام، بل للإنكار والتوبيخ؛ فإن ما يعبدونه ليس أهلاً للعبادة ولا يستحق الخضوع له.

فلما أحسوا بسخرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ منهم وإنكاره عبادتهم قابلوا ذلك بإرادة إغاظته «فلم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا: أصنامًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]، بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل، وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدًا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك، والمراد بالظلول: الدوام، وإيراد اللام لإفادة معنًى زائدًا، كأنهم قالوا: فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها أو مستديرين حولها، وهذا أيضًا من جمله إطنابهم»[1].

فلما رأى نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن عقولهم مغلقة ولا سبيل إليها سلك معهم سبيلاً آخر، وهو الضرب على وتر النفعية التي اختلطت بدمهم ولحمهم، وتهييج آمالهم ورجاءاتهم، فقال: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢ ـ ٧٣]، فأسقط في أيديهم فلم يجدوا بدًا من الاعتراف بأن عبادتهم بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة، واضطروا إلى الاعتراف أن سندهم في العبادة ليس شيئًا آخر سوى التقليد، وأنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون؛ فاقتدوا بهم: ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، وكان هذا الاعتراف فرصةً سانحةً للنبي الكريم ـ عليه السلام ـ ليركز الضرب على ذات الوتر فقال: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٧٧]، أي الأصنام التي تزعمون أنكم تعرفونها حق المعرفة وأنكم علمتم حالها حق العلم

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٤٣).

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾؛ أي: أنهم أعداء لعابديهم الذين أشركوهم مع الله تعالى في العبادة، والعداوة ظاهرة في الضرر المُتحصل من عبادتهم، فإن مقدار الإيذاء من هذه الأصنام أعظم مما قد يقع من أشد الخصوم عداءً، وجعل العداء من جهة الأصنام وإن كانت لا تعقل؛ زيادة في توبيخ القوم فكأنه يقول: إن الأصنام التي تأملون منها الخير والنفع لن تقف عند حد عدم إعطائكم ما تأملون بل ستتسبب لكم بالضنك والشقاء كما يحرص كل خصم على الإيقاع بخصمه، وأكثر الناس حمقًا من يأمل الخير من عدوه ويأمن جهته، ومثلها قوله: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[مريم: ٨٢]. واستكمل عليه السلام ببيان وجهة الولاء الحق والآمال الحميدة بقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو استثناء منقطع؛ أي: لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو وليُّ خلقه في الدنيا والآخرة، ونعمه لا تنقطع عن عابديه ولا يزال في حاجتهم، ويتفضل عليهم بالذي يرجون ويأملون فهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٧٨]، والتعبير بالمضارع في قوله: ﴿يَهْدِينِ﴾ لأنَّ الهداية متجددة متدرجة منذ لحظة نفخ الروح والولادة، والعطف بالفاء يفيد تلازم الهداية والخلق، وأنَّ الهداية تعقب الخلق بلا تأخير، قال الطاهر: (وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ دون أن يقول فيهدين، لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم بالقصر الإضافي وهو قصر القلب وليس الضمير ضمير فصل لأن ضمير الفصل لا يقع بعد العاطف وما قيل فيها يقال في قوله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[الشعراء: ٧٩]، وقوله ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وجميعها للردِّ على زعمهم أنَّ الأصنام تُقدِّر لهم تيسير ما يأكلون وما يشربون، وبها برؤهم إذا مرضوا)[1].

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٠/ ١٧٧)، وتجدر الإشارة للمقصود من القصر الإضافي وقصر القلب، فالقصر الإضافي عندما يكون للموصوف صفات متعددة ومنها الصفة =

وإسناد المرض لنفسه لرعاية حسن الأدب مع الله تعالى، كما قال الخضر ـ عليه السلام ـ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وقال «إذا» لأنه لم يكن حين قال مريضًا؛ لأن «إذا» تنقل الفعل للمستقبل وتسلطه عليه، ولم يأت بالحصر في قوله: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[الشعراء: ٨١]، لأن أحدًا منهم لم يزعم أنَّ الأصنام تحيي وتميت، بل عمل الأصنام فيما يعتقدون قاصر على الإعانة، أو الإعاقة في أعمال الناس في حياتهم، فتُعين عابديها وتخذل وتعيق الكافرين بها، وهذا ما أراد الخليل ـ عليه السلام ـ إبطاله من خلال تصويب جهة الآمال بالضرب على وتر النفعية لدا قومه وهذا ما فعله يوم حطم أصنامهم وجعلها جذاذًا إلا كبيرهم؛ فكان أول ما بهتهم به طلبه إليهم سؤال الأصنام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣]، فانتكسوا وأدركوا ظلمهم أنفسهم وسخافة عقولهم ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الأنبياء: ٦٤]، أما الأمر الثاني الذي أوقفهم أمام التحدي الكبير الذي يعيشون لأجله لأنهم ماديون نفعيون، تذكيرهم بآمالهم فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٦ ـ ٦٧]، وكذلك مع أبيه فقد قال له: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[مريم: ٤٢]، وعبَّر في سورة الصافات عن سخافة عقولهم، ببيان أن الإفك الذي اختلقوه من دون الله هو الشيء الذي يريدونه، وما كان خطًا أو زلةً ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

= المذكورة، فالله تعالى متصف بكل صفات الكمال ومنها أنه الهادي، وهي قصر موصوف على صفة، وقصر القلب يعتبر تقسيم من حيث المُخاطب، فإذا كان المخاطب يعتقد أمرًا مخالفًا ونريد قلب معتقده رأسًا على عقب نستخدم معه أسلوب قصر القلب، فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها: (ص٣٥٨).

وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[الصافات: ٨٣ ـ ٨٦]، وإرادةُ الشيء ابتغاؤه والعزم على الحصول عليه، وتعدية الإرادة إلى الآلهة يفيد أنهم أرادوها بالعبادة والتأليه، لطمعهم من عبادتها بجلب الخير لأنفسهم ودفع الضرر عنها، وهذه غاية السخف والخطأ وما حملهم على هذه الإرادة إلا سوء ظنهم بربهم، فقال: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات: ٨٧]، كما قال الله ﷻ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[الأحزاب: ١٠]. وقوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٣]، فلمَّا كان ظنهم بالله سيئاً لم تتوجه آمالهم إليه، بل انصرفت إلى غيره من الأوثان والآلهة الزائفة الباطلة.

وهكذا فإن الأمل في نفس إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما خَبا وما كان ينبغي له أن يخبو إنْ في نفسه وإنْ في دعوة أبيه وقومه ﷺ حتى أنه ابتعد في أمله فقال لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[الممتحنة: ٤]، وكان من دعائه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[الشعراء: ٨٦ ـ ٨٧]، وتستمر رحمته بأبيه وأمله بنجاته حتى الموقف العظيم بين يدي الله تعالى كما صح من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قتر وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[1].

وصدق الله في وصف خليله ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة: ١١٤]، وكذلك

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: (٣/ ١٩٣).

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥]، لذلك كان ملازمًا للاستغفار لأبيه كما حدَّثنا القرآن الكريم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٧]. وداوم على الاستغفار حتى بلغ مرحلة المفاصلة مع أبيه، وأوان إعلان الولاء لله تعالى والبراء من أعدائه؛ ليتوقف عن استغفاره ومناشدته ربه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة: ١١٤]. لقد كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ حكيمًا وذكيًا في دعوته كما أنبأ عنه ربه الكريم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٥١]، فكان قويَّ الحجة سريع البديهة، صاحب بصيرة نافذة في كل محاوراته ومجادلاته فيخاطب العقل والفكر، ويحرك العواطف والأشجان، ويلامس واقع الناس، ومسيس حاجاتهم التي يأملونها ويركضون لبلوغها، ويوم حاجَّه قومُه في الله تعالى أعلن أنه لا يحسب حسابًا لمعبوداتهم، ولا يبالي بها وتحدَّاهم بأنها إن كان لها كيد فكيدونِ ولا تُنظرون؛ لأنه يعلم أن النافع والضارَّ والمحيي والمميت هو الله تعالى فقط، وأن الخوفَ والفزعَ ينبغي أن يكون شأن الكافرين بالله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ﴾[الأنعام: ٨٠ ـ ٨١]، وأعاد وكرر استفزازهم من جهة آمالهم بالسعي لبلوغ الأمن والأمان في الدنيا والآخرة فقال: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الأنعام: ٨١]، ثم أجابهم بما لا يقبل النقض: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: ٨٢]، فالذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا.

ولم يكن الأمل في نفس إبراهيم ﷺ في تعاملاته مع قومه فقط بل كان كذلك

في خاصة نفسه حتى يوم تعنت قومه وكابروا في نصرة أصنامهم، وخالفوا ما انطوت عليه ضمائرُهم، وأرادوا تحريق نبي الله ـ عليه السلام ـ ظلَّ ثابت الجأش قويَّ الشكيمة؛ فلم يهتز قِيدَ أُنملةٍ ولم يضعف؛ لأن حباله ممتدة إلى السماء، إلى الذي يسمع السرَّ والنجوى ويكشف الهمَّ والبلوى، فما زاد على أن قال: حسبي الله ونعم الوكيل، كما أخرج البخاري عن ابن عباس قال: «كان آخر قول إبراهيم حين أُلقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل»[1]. عندها ما خيب الله رجاءه ولا نكَّس آماله، بل أصدر الأمر العاجل: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء: ٦٩]، ونلاحظ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لعظيم ثقته بربه اكتفى بقولته المباركة «حسبي الله ونعم الوكيل»؛ لأنه يثق أن اختيار الله له خيرٌ من اختياره لنفسه، لذلك لم يسأل النجاة من النار، وإن كان يقدر على السؤال، ويعلم أن الله لن يخيبه، لكنه اقتصر على قولته؛ لعلمه أن عطاء الله يكون بحسبه وعلى قدر كرمه وأنَّ السؤال يقيد العطاء.

وكذلك كان نور الأمل يملأ حياة الخليل في كل شؤونه، فبعد زواجه ومضي السنوات الطويلة من غير إنجاب تأتيه البشارة من الله على لسان زَوْرِه من الملائكة: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[الحجر: ٥١ ـ ٥٢]، جاءته البشائر في سورة الأمل... (سورة الحجر) التي تُعلم المسلم الأمل المحمود، وتحذره من الفاسد الذميم، ومعه اليأس والقنوط، فيوم جاءته الملائكة وبالرغم مما خالط قلبه من الوجل، رد على تحيتهم ﴿سَلَامًا﴾ المنصوبة على المفعولية المطلقة، والتقدير سلمنا سلامًا، بقوله: «سلامٌ» ـ كما حدَّثنا القرآن في موضع آخر من سورة (هود) مرفوع على الخبر لمبتدأ محذوف تقديره: أمري سلام (ورفع المصدر أبلغ من نصبه لأن الرفع فيه تناسي معنى الفعل فهو أدل على الدوام والثبات،

---

(١) البخاري، الصحيح، باب تفسير قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾: (٤/ ٤١).

ولذلك خالف بينهما للدلالة على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ردَّ السلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل، زيادة في الإكرام)(١).

قال الألوسي: وقد حياهم عليه السلام بأحسن من تحيتهم؛ لأنها جملة اسمية دالة على الدوام والثبات فهي أبلغ، وأصل معنى السلام السلامة مما يضر. اهـ(٢).

فلما كان ظنُّ الخليل بربه حسناً وأمله بأن معية الله دائمةٌ، وأنه لن يصيبه إلا ما كُتب له، حيَّا بأحسن مما حُيي به مراعاةً للأدب الإلهي الذي علمه لنا ربنا في كتابه ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾[النساء: ٨٦]، لكنه لما كان بشرًا ويجري عليه ما يجري لسواه من الوجدانات التي تعتري البشر، داخل قلبَه الوجلُ من أضيافه لامتناعهم من طعامه ومخالفتهم لما يكون من شأن الغرباء والمسافرين من الاحتياج للزاد والشراب، غير أنهم بادروه بما يزيل وجله ويُذهب ما ألمَّ به من خوف بتبشيره بمولود عليم، ناموسه ناموس الأنبياء، استجابةً لدعائه وسؤاله بثقةٍ وأملٍ ويقين: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الصافات: ١٠٠]، مع ما تتضمن البشارةُ بالمولود بشارةً ببقائه وبقاء أهله في عافية وسلامة زمنًا طويلاً.

فكانت ردة الفعل من الخليل عليه السلام لا تحمل معنى اليأس وفقد الأمل من جهة الله تعالى، إنما هو شعور بالعَجب طَبَعيٌّ فقوله: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾[الحجر: ٥٤]؛ (أي: بأية أعجوبة تبشرونني فإن البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شيء)(٣). ومصدر عجبه مما تأصل في نفسه من هضمه لذاته ونُكرانها، واعتقاده أنها ليست محلاً لألطاف الله ونظره، وإن اعتقدت

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٧/ ١٦٨).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (٦/ ٢٩٨).

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٤/ ٨١).

الملائكة عجبه قنوطًا فهو ليس كذلك، والأنبياء عامةً منزهون عن مثل هذا الزلل البائن الذي لا يُتوقع من خواص الناس وأوليائهم، فكيف بالأنبياء وهم الأعلم بربهم، لذلك لما ابتدرته الملائكة بقولهم: ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴾ [الحجر: ٥٥]، أعلن لهم براءته من القنوط، وأنَّ مثل هذا الأمر مما نزه اللهُ أنبياءه وعصمهم منه، ولا يقع في مثله إلا أهل الزيغ والضلال: ﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[الحجر: ٥٦].

وإذا كان القنوط واليأس خُلقٌ للضالين كما وصف القرآن الكريم على لسان خليل الله ـ عليه السلام ـ والعلاقة بينهما باطراد، فإنَّ القول بأنَّ بعض اليأسِ خالطَ قلبَه ـ عليه السلام ـ ثم تراجعَ عنه بعد تذكير الملائكة له ـ وَهْمٌ دونَه في الرُّتبة ـ يعني: أنه ضمَّ في صدره بعض الضلال لبعض الوقت، وهذا ما يتنافى مع عصمة الأنبياء وجليل قدرهم. وهكذا فالأمل كان للخليل ـ عليه السلام ـ جليسًا وأنيسًا وصاحبًا بالرغم من تصاعد وتيرة الاختبارات التي مرَّ بها والتي جعلته حقيقًا بأن يكون للناس إمامًا: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: ١٢٤]، وبعدما رزق اللهُ إبراهيم الولد وذاق حلاوة الشعورِ بالأبوة جاءه الأمر بترك زوجه وولده بواد غير ذي زرعٍ عند المسجد الحرام، فامتثل صابرًا محتسبًا مؤمنًا أنَّ خيرًا وراء الأكمة، وإن لم يكن يراه بعيني رأسه، فإنه يراه ببصيرة قلبه، ليس وحده، وزوجُه كذلك هاجر أم إسماعيل كما أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أول ما اتخذ النساء المِنْطَق[1] من قبل أم إسماعيل اتخذت منْطقًا لتعفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس في مكة يومئذٍ

(١) النطاق الذي تضعه النساء على وسطها.

أحدٌ وليس بها ماءٌ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جِرابًا فيه تمرٌ وسقاءً فيه ماءٌ، ثم قفَّى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[إبراهيم: ٣٧]»[(١)].

وانظر بوارق الأمل في قولها: (إذن لا يضيعنا) أمل ويقين وثقة بالله تعالى تعجز مفردات اللغة عن وصفها. . . حالة إيمانية قَبستها من زوجها الصابر المحتسب، الذي أخفى دمعه خلف الثنية حيث لا يرونه، ليلهج بالدعاء والتضرع لله تعالى أن يحفظ له زوجه وولده.

ولئن استجاب الخليل ـ عليه السلام ـ لهاتف ربه وأخذ زوجه وابنه حيث الموت المظنون، فلقد استجاب لما هو أشدُّ من ذلك، استجاب لأمر ربه بما فيه موت محتوم لابنه الوحيد، والعسير أنَّ الأمر بالذبح جاء يوم بلغ الابن إسماعيل ـ عليه السلام ـ السعي مع والده وصار شابًا يُعتمد عليه وتوكل إليه المهام الجسام، يوم بدأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقطف ثمار أبوته لإسماعيل ـ عليه السلام ـ جاء الحكم بالذبح وبِيَدِ الأب الشيخ الكبير الذي انتظر طويلاً لِيُرزق به ودعا كثيرًا لِيُوهَبَه: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: قول الله تعالى ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾: (٣/ ١٥).

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[الصافات: ١٠٠ ـ ١٠٢]، ولم يكن الأب الكبير ـ صاحب التجاريب والخبيرُ بربه ـ هو وزوجه ـ المؤمنةُ المحتسبةُ التي شاهدت مع زوجها الكثير وعَرَكتها الابتلاءات ـ فقط أصحاب الأمل بربهم والبصيرة بحكمة أقداره، فالشابُ اليافعُ الفتيُّ إسماعيل ـ عليه السلام ـ كان كذلك، وصدق الله: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[آل عمران: ٣٤]، فما تردد في أن يجيب الوالدَ الذي يتفطرُ قلبُه إشفاقًا وحبًا: ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[الصافات: ١٠٢]، وصدق الله تعالى حيث شهد لهذا الغلام بأنه حليم، فهو يتلقى الأمر من والده ليس على صورة المُطيعِ المغلوبِ على أمره والمقهور، لكنه يتلقاه بأدب وثقة ويقين وأمل، ويحف ذلك الرضا والاستسلام فقال: ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ﴾ في مودة وتلطف دون أن يَشعرَ بالفزع والرهبة من شبح الموت الوشيك، أو يفقد أدب الحديث مع الوالد الكبير الذي يُلَوِّحُ له بسكين الذبح ويَسُنُّها، وقال كذلك بثقة ويقين ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ لأنه يتنسم عبق النبوة؛ فهو يحس بإحساس والده الكريم، ويدرك أن الرؤية أمرٌ من الله تعالى وأنَّ عليه التنفيذ بغير تلكؤٍ وارتياب، فقال وهو يحس بعاقبة الصبر الخيرة وثمرة الامتثال اليانعة، قال وهو يرجو من ربه أن يجعله في الصابرين، في هضم لذاته ونكران، لأنها من غير توفيق الله لن تصمد أمام هذا الزلزال الرهيب، قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ ويقابل هذا النكران الأمل الكبير بالله تعالى، ولسان حاله ينطق بكلمات أمه قبل سنوات (آلله أمرك بهذا؟) والجواب حاضر في ذهنه بنعم، ليجيب نفسه مطمئنًا راضيًا (إذن لا يضيعني)، وليس الأمر مجرد كلمات تقال في لحظة اندفاع وحماسة بل هو التسليم والخضوع من كل الأسرة: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، قال سيد قطب: وهنا كان إبراهيم وإسماعيل قد أدَّيا... كانا قد أسلما... كانا قد حققا الأمر والتكليف ولم يكن باقيًا إلا أن يذبح إسماعيل ويسيل دمه وتزهق روحه... وهذا أمر لا يعني شيئًا في ميزان الله بعدما وضع إبراهيم

وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كـل مـا أراده منهما ربهما.

كان الابتلاء قـد تم. . . والامتحان قـد وقع ونتائجه قد ظهرت وغاياته قد تحققت ولم يعد إلا الألم البدني وإلا الدم المسفوح والجسد الذبيح، والله لا يريد أن يعذب عباده بالابتلاء، ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا وقد حققوا التكليف وقد جازوا الامتحان. اهـ[1].

ولما علم الله من إبراهيم صدقه واستسلامـه هو وإسماعيل فتح عليهم باب فرجه ورحمته وكافأهما كأنهما فعلا: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٧]، وكان إبراهيم وفيًّا لربه، وأتم الكلمات، وأفلح في كل الامتحانات، وحُقَّ لـه أن يقال فيه ثناءً: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾[النجم: ٣٧]، وكان حقيقًا بإمامة الناس ﷺ وأُبوة الأنبياء.

ثم آن للخليل أن يلقي عصا الترحال والكد والمشقة بآخر رحلة قبل الاستقرار في بيت المقدس[2] بالتكليف الذي لا نزال ننعم ببركته وخيره، بتكليفه وإسماعيل ببناء البيت الحرام ببكة المكرمة، وكان هذا من الكلمات التي ابتلى اللهُ خليله بهنَّ لِيَتَخَلَّص لإمامة الناس وصدارتهم، وليكون حقيقًا بأبوة الأنبياء، وأن يتعاقبوا من نسله الشريف وعلى رأسهم سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧]،

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن الكريم: (٦/ ١٩٠).

(٢) وهذا ما يدركـه المتتبع لقصة الخليل ـ عليه السلام ـ كما في البداية والنهايـة لابن كثير: (١/ ٢٠١).

طمعهما ورجاؤهما بتقبل الله منهما عليهما كان الحافز الأهم والدافع الأعظم للاستغراق في البناء والعمل، وكذلك الأمل المحمود دومًا يفعل بأصحابه يرتقي بهم إلى كرائم الأحوال وسوامق الخلال، ولأجل جهدهما العظيم وأملهما الكريم صارت مكة أم القرى وأخذت القلوب تهوي إليها، وبعد أن كانت واد غير ذي زرع أصبح أهلها يُرزقون من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع، وصارت مكةُ حرمًا محرمًا وآمنًا مُؤمنًا واستجاب الله بحمده وفضله دعوةَ نبيه ومسألته وحقق له رجاءه وإملته فقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[القصص: ٥٧].

قال ابن كثير: وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية، فاستجاب الله له وبعث فيهم رسولاً وأيَّ رسول ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحد قبله، وعمم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم في سائر الأقطار والأعصار والأمصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه في نفسه وكمال ما أُرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته، وكريم محتده وعظيم مولده وطيب مصدره مورده ولهذا استحق إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض وبما أوتي من آمال ورجاءات أن يكون منصبه ومحله وموضعه في منازل السماوات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذي يدخله كل يوم سبعون ألف من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى

يوم البعث والنشور. اهـ[1].

ثانيًا ـ نبي الله يعقوب ﷺ:

ورد اسم يعقوب ـ عليه السلام ـ في عشر سور: البقرة وآل عمران والنساء والأنعام وهود ويوسف ومريم والأنبياء والعنكبوت وص حيث تكرر فيهن في ستة عشر موضعًا، وقد عرض القرآن الكريم إلى جوانب يسيره عن حياته عليه السلام وأهمها:

١ ـ امتنان الله على جدِّه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بميلاده من وراء اسحق، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾[الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾[الأنعام: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

٢ ـ إثبات نبوته ورسالته، وأن الله أوحى له وأنزل إليه طائفة من الشرائع وجعله من الصالحين ومن المُصطَفَين الأخيار. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[الأنعام: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[ص: ٤٥ ـ ٤٧].

---

(١) ابن كثير، قصص الأنبياء: (١/ ٢٢٨) والمحتد: مكان السكن والإقامة، بتصرف يسير.

٣ ـ موقفه من أبنائه عند وفاته ووصيته لهم بلزوم التوحيد والعبودية لله تعالى قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣]، وإنَّ هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظات الدنيا الأخيرة وساعة الاحتضار لمشهد عظيم الدلالة قوي الإيحاء عميق التأثير، حيث سأل أسئلة ملحةً ترددت في نفسه ـ عليه السلام ـ تتخلص في قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾؛ أي: لمن خضوعكم وتذللكم ولأي جهة ولاؤكم وانقيادكم وبمن تتعلق آمالكم ورجاءاتكم وممن تسألون حوائجكم وأمانيكم... وإن يعقوب ـ عليه السلام ـ يستجوبهم في آخر لحظات عمره بعد أن درَّسَهم وعلَّمهم بالقدوة العملية كيف تكون الإجابة على هكذا سؤال، ثم لا يطمئن قلبه إلا حين يسمع الإجابة من أفواههم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[البقرة: ١٣٣].

٤ ـ مشاهد مما كان له من جراء حسد أولاده لأخيهم يوسف، وإلقائهم إيَّاه في الجبِّ، وادعائهم أن الذئب أكله، وشدة حزنه على فراقه حتى ابيضت عيناه من الحزن، وكيف أن الأمل كان حاديه في كل فصول القصة من ساعة أنْ قصَّ عليه يوسف الرؤية حتى جاء البشير بقميص ولده فارتدَّ بصيرًا ثم انتقاله لمصر بعد أن صار يوسف ـ عليه السلام ـ حاكمًا على خزائن الأرض فيها.

إذن فإن الحديث القرآني عن يعقوب ـ عليه السلام ـ كان مقتضبًا وموجزًا، ولم يتعرض إلا للقليل من شؤونه ـ عليه السلام ـ إلا فيما يتعلق بولده يوسف ـ عليه السلام ـ وهو ما سنفرد له حظًّا أوفر من الحديث في مطلبنا هذا إن شاء الله لصلته الوثيقة بموضوع دراستنا، حيث بدأ الأمر من الرؤيا التي قصَّها يوسف ـ عليه السلام ـ:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فكان أول ظهور له عند قوله: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف: ٥]؛ (أي: يحتالوا لك حيلة يُرْدونك فيها)[١].

وما قال يعقوب ـ عليه السلام ـ الذي قال إلا لإبصاره بعريض أمله بربه الخير يقبل على ولده؛ فخشي أن يبغي إخوته له الغوائل حسدًا منهم له، وهذا ما يوافق حديث رسول الله ﷺ: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثًا، وليستعذ بالله من شرها ولا يحدث بها أحدًا فإنها لن تضره»[٢]، ولا شك أنه لا يحدث بما يحب إلا من يحب ويثق به وبإرادته الخير له، ويدل الحديث أيضًا على أن اليأس لا يمكن أن يتسلل إلى قلب المؤمن أو التشاؤم بل هو متفاءل واثق بربه يرجو الخير ويأمله، وكذلك يعقوب ـ عليه السلام ـ حيث أردف قائلاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[يوسف: ٦]؛ أي: كما أنه أراك هذا المنام الطيب واختارك له فإنه سيجتبيك ويختارك لنبوته، ويعلمك تأويل الرؤيا وتعبيرها، وسيتم عليك نعمه بالوحي إليك كما كان شأن أبيك إبراهيم وإسحاق، إنَّ ربك عليم حيث يجعل رسالاته حكيم في اختياراته، والذي يظهر أن الذي دفع يعقوب ـ عليه السلام ـ لهذا الفأل الحسن هو أمر آخر غير الوحي، فالله لم يوحِ إليه بشيءٍ بعد إنما هو الأمل بالله وحسن الرجاء

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٣٧١).

(٢) النسائي، السنن الكبرى: (٦/ ٢٢٣)، وابن حبان في صحيحه: كتاب الرؤيا: (١١/ ١٦٥)، صحّحه الألباني، صحيح وضعيف الترمذي: (٥/ ٢٧٧).

لما عنده، وإلا فلماذا خاف على ولده الغالي ـ في لحظة ضعف بشرية ـ إذا كان الذي نطق به وحي من الله تعالى؟ وكيف يخشى عليه الموت عندها؟ ولماذا ابيضت عيناه من الحزن؟ إنه لو أُخبر أن يوسف ـ عليه السلام ـ سيُصطفى نبيًا فإنه سيكون بمعزلٍ عن كل هذه المخاوف؛ لأنه على يقين أن وعد الله لا يُخلف، ولو كادت الدنيا جميعًا ليوسف.

إن الأمل بالله وحسن الظن به كانا السلوى ليعقوب والبلسم في كل أحداث قصته مع أبنائه، ويوم قال ردًّا على طلبهم الإذن ليوسف بالسفر معهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾[يوسف: ١٣]، لم يكن لشكِّه أو تشاؤمه، إنما كان يقصد أن يقطع الطريق على أبنائه، ولِيوقفَ إلحاحهم عليه بأخذ يوسف، قال ابن عاشور: وإنما ذكر يعقوب ـ عليه السلام ـ أنَّ ذهابهم به غدًا يحدث به حزناً مستقبلاً ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به، لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه. وتأكيد الجملة بحرف التأكيد لقطع إلحاحهم بتحقيق أنَّ حزنه لفراقه ثابتٌ تنزيلاً لهم منزلة من ينكر ذلك، إذ رأى إلحاحهم، ويسري التأكيد إلى جملة ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾. اهـ[1]. ويؤكد عدم شكِّه أنهم حين جاؤوه عشاءً بقميص يوسف وعليه دمٌ كذبٌ قال بلسان الواثق بربه المطمئن إلى قدره المتأمل الخير من جهته: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨]. وانظر بديع الإبهام في كلمة ﴿أَمْرًا﴾ حيث يحتمل عدة أشياء مما يمكن أن يؤذوا به يوسف ـ عليه السلام ـ: من قتل أو بيع أو تغريب، ولأنه لم يعلم حقيقة ما فعلوه تعييناً جعل الأمر مبهما منكرًا لأن أمله بربه أن يرد عليه ولده؛ فاستبعد صدقهم بكونه قتل ـ عليه السلام ـ ولذلك فرَّع على

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (٧/ ٢٤٢).

ما سبق إنشاء التصبر فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وعدل عن النصب «أصبر صبرًا جميلاً» على النيابة عن المفعول المطلق إلى الرفع للدلالة على الثبات والدوام في صبره وانتظاره رحمة ربه وفرجه كما مرَّ في ردِّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ على تحية الملائكة: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾ [هود: ٦٩].

وينقطع ذكر يعقوب عند هذا الحدِّ من القصة ليغيبَ سنواتٍ طوالٍ حملت أسرارًا عجيبةً وتحولاتٍ جذريةً في حياة ولده وحبيبه يوسف نقلته من قعر البئر إلى سيادة مصر، وخزانة أموالها وزروعها. . .

حتى اشتد الجدب والقحط في أرض كنعان وخرج إخوة يوسف يلتمسون الحنطة من مصرَ والزادَ لأهلهم، ويعقوبُ قابعٌ هناك ومَخايلُ يوسف لا تغيب عن عينيه وقلبه، ودليلُ بقاءِ ذِكْرَى حبيبه وعدم يأسه من عودته أنَّ أبناءه يوم طلبوا أنْ يأخذوا شقيق يوسف معهم لزيادة الكيل كما أوعدهم عزيز مصر الجديد قال لهم: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وقوله ـ عليه السلام ـ فيه ميلٌ منه إلى الإذن والإرسال لِما رأى فيه من المصلحة العامة، وفيه أيضًا من التوكل على الله وحسن الظن به ما لا يخفى حيث بيَّن لهم أنه كما لم يأمنهم على يوسف فلن يأمنهم على أخيه، حيث أوْكَلَ حِفظَ الكُلِّ لله تعالى فالله هو خير الحافظين، قال الألوسي: أي: ما ائتمنكم عليه ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ﴾؛ أي: إلا ائتماناً مثل ائتماني إياكم ﴿عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾ وقد قلتم أيضًا في حقه ما قلتم ثم فعلتم به الذي فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وإنما أفوض أمري إلى الله تعالى[1]. اهـ. وعليه فإن يعقوب وكل حفظ شقيق يوسف للذي وكل إليه حفظ يوسف. . . للذي لا يضيع الأمانة لا إله إلا هو، حيث لا يتناسب

---

(١) الألوسي، روح المعاني: (٩/ ٦٥).

مع عصمة النبي ـ عليه السلام ـ أن يركن إلى الأسباب الضعيفة وينسى مسبب الأسباب والعبارة واضحةٌ في هذا المعنى إذ الاستفهام بـ ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ لتقرير حقيقة توكله على الله تعالى وأمله الكبير به وحسن ظنه، وليس للاستعلام، وأداة الحصر «إلا» تفيد أن صورة تأمينه لشقيق يوسف لا تخالف صورة تأمينه ليوسف، بل هي محصورة فيها لا تجاوزها، ثم جاء بعدُ ببيان صورة الحفظ التي التزمها في الحالتين والتي تنبئ عنها الفاء الفصيحة: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ والفاء الفصيحة تفصح عن أمر سابق وتوضحه، حيث أفصحت عن الجهة التي إليها أوكل يعقوب حفظ ولديه، فالاستفهام في «هلْ» لتقرير حقيقة توكله على ربه وتتضمن نفي ثقته بأولاده، والحصر بـ «إلا» وكاف التشبيه في «كما» يفيدان أن هذا التوكل على الله وحده، وأنه ومعه عدم الثقة بالأبناء ليس جديدًا وإنما كان مثله عند إرساله يوسف ـ عليه السلام ـ من قبل.

ويستمر يعقوب ـ عليه السلام ـ بتوكله على ربه وحسن ظنه به وأمله العريض بالخير منه، وذلك عند وصيته لأولاده بدخول مصر من أبوابٍ متفرقة، وهو بذا يجري على سنة جده إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يعوِّذ الحسن والحسين ويقول إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق، أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة ومن كل عين لامَّة»[1]، قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾، قال أبو السعود: أي: لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيري شيئًا مما قُضي عليكم فإن الحذر لا يمنع القدر،

(١) البخاري، الصحيح، باب: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: (٣/ ١٥٧).

ولم يُرِدْ به عليه السلام إلغاء الحذر بالمرة، كيف لا وقد قال عزَّ قائلاً: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ وقال: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ بل أراد بيان أنَّ ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير في الجملة، وإنما التأثير وترتُّبُ المنفعةِ عليه من العزيز القدير وأنَّ ذلك ليس بمدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه. اهـ(١).

ثم أورد يعقوب ـ عليه السلام ـ علة عدم غنايته عن أولاده شيئًا وعلة لجوئه إلى الله وتعلق آماله به بقوله كما حدثنا القرآن الكريم: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ومعنى الحصر أنه لا يتم إلا ما أرداه الله كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾[الطلاق: ٣]، ثم يؤكد تمام اعتماده على الله ويُعلم أبناءه والمؤمنين من بعده هذا الأمر ويُبيِّن أنَّ ما من شيء من مرادات العباد كائنٌ إلا بأمره، ولا حاجةً من حوائج الدنيا والآخرة حاصلةٌ إلا بتوفيقه، وأنَّ من تعلقت آماله بالأسباب من غير الاعتماد على الله تعالى فما فهم حقيقة التوكل عليه.

فبدأ بنفسه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾[يوسف: ٦٧] ثم أرشد أولاده إلى التوكل أيضًا فيما هم بصدده على الله ﷻ غير مغترِّين بما وصَّاهم به من التدبير ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف: ٦٧].

وهكذا فإنَّ الأمل بالله ما غادر قلب العبد الصالح والنبي الكريم يعقوب ـ عليه السلام ـ في كلِّ أطوار قصته وفصولها حتى إذا بلغت القصةُ حبكتَها والأزمةُ ذروتَها وجاءه خبرُ فقده لولده الثاني بداعي السرقة جدد إعلانه للزومه الصبر الجميل من غير تأفف ولا تضجر، ورضاه عن ربه وقضائه، وعدم ثقته بأولاده، ثم أظهر أمله بأقصى حدوده، وكشف اللثام عن عدم يأسه من عودة شقيق يوسف بل ويوسف

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٣/ ٤٥٤).

معه كذلك، وفي هذا من تمام التوكل على الله تعالى مالا يقادر قدره، وتلويحٌ بأنه ائتمن يوسف وأخاه عند الذي لا يضيع الأمانات، وأنَّ هذا الأمر مستقرٌ في نفسه ما غادرها بل لعله يعظم كلَّما عظم البلاء، فالأمل بالله في نفس الأب الكريم يتناسب طرديًا مع انتفاش المصيبة، فكلما كبرت كبر أمله بربه وزاد توكله عليه؛ لأن الحكم بيده وأمره بين الكاف والنون ويؤكد هذا أنَّ لسانه سبق دمع عينيه وبياضهما فقال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف: ٨٣ ـ ٨٤]، وليس أدلَّ على تعاظم الأمل في نفسه أنه قال عند فقد يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨] أما عند فقد ولده الثاني قالها بعينها وأضاف: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾[يوسف: ٨٣]، وإن كانت السنوات المطوية بينه وبين يوسف من شأنها أن تفقده أيَّ بارقة أمل إلا أنه تعاظم الأمل في نفسه، حتى تضاءلت أمامه كل تلك السنوات فما عادت بشيء لديه يمكنه أن يحجبه عن رؤية محبوبه ـ عليه السلام ـ.

فإن قال قائل: ما سِرُّ توليه متأسفًا على يوسف وابيضاض عينيه؟ وهل اليأس شيء غير ذلك؟ نقول: نعم إنَّ التأسف هو أشد الحزن والحسرة، ولقد أضافه إلى نفسه وناداه بقوله: «يا أسَفَى»، كأنه يقول للأسف مخاطبًا ومناديًا تعال فهذا وقتك، لكنه ما كان قنوطًا من رحمة الله وفضله، بل هي المشاعر الإنسانية التي تعتري الأنبياء كما تعتري سائر البشر، ولقد ذرفت عيون النبي ﷺ يوم وفاة ولده إبراهيم كما أخبرنا أنس بن مالك ﷺ قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين وكان ظئرًا لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمَّه ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحمن ابن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله! فقال يا ابن عوف إنها رحمة، ثمَّ أتبعها بأخرى

فقال ﷺ: إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1].

إذًا فالحزن والبكاء لا ينافيان مقام النبوة كما أنهما لم يكونان يأسًا من رحمة الله تعالى بل هي خلجات الأب الشفوق على فلذتي كبده.

ويؤكد ثقة يعقوب بربه أنه رد على أولاده عند إرادتهم تيئيسه بقولهم: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾[يوسف: ٨٥]، بقوله كما أخبرنا ربنا تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٨٦]، فبثُّ الشكاية ليس جزعًا ولا يأسًا، إنما فيه بعض تفريج الهمِّ إذ الصلة بالله أساس كلِّ خير، وبثُّه لله وصلتُه بمولاه وحسنُ ظنه بخالقه جلَّ في علاه كانت مُسبَّبَةً عن كونه عالمًا بما لا يعلمه بنوه، والعلم كناية عن المعارف والمواجيد التي مازجت دم النبي ـ عليه السلام ـ وروحه من فيوض ربه تعالى عليه، ومنها الرجاء والأمل بفضل الله وأنَّ تفريجًا سيعقب الشدة ويسرًا سيلحق العسر، ولأنَّ هذا الأمر متجذرٌ في نفسه ـ عليه السلام ـ راح يدعو أولاده إليه ويؤمرهم به ردًا على تيئيسهم فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه والتحسس يكون في الخير والتجسس يستعمل في الشر، ونهَّضهم وبشَّرهم وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله؛ أي: لا يقطعوا رجاءَهم

---

(١) البخاري، الصحيح، باب: قول الرسول ﷺ: إنا بك لمحزونون: (٣/ ٥٧)، والظئر: زوج المرضعة.

وأملهم من الله فيما يرمونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون. اهـ[١].

والحق أن التحسس يكون في الخير والشر ذلك أنه إعمالٌ للحواس في طلب الشيء بصرف النظر عنه أكان حقًا أم باطلاً، قال ابن عطية: ويستعمل التحسس في الخير والشر. اهـ[٢]. ووافقه أبو حيان[٣] وغيره وهو الأَوْلى بالصواب ولقد نهى النبي عن التحسس فقال ﷺ: «إيَّاكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك»[٤]. والنهي عنه في جملة المحرمات يقتضي أنه تحسسٌ في الشر.

وبالعَوْدِ إلى صلب موضوعنا نجد أن الأمل ما غادر قلب الأب الكريم المكلوم ـ عليه السلام ـ، وما كان هذا الأمل حالةً طارئةً عارضة في هبَّةِ إيمان موقوتةٍ، بل كان بلسمًا يداوي به جراحه ـ عليه السلام ـ بين الحين والآخر ويتنسم عبقه وإن على بعد عشرات الأميال كما كان شأنه حين وجد ريح يوسف ـ عليه السلام ـ يوم فصلت عير أبنائه عن عريش مصر وهو في بيت المقدس. . .

أملٌ عظيم تحدَّى به كل محاولات التيئيس التي تحيط به حتى ضرب بعرض الحائط كل اتهاماتهم له بالفَنَدِ والخرف والضلال: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[يوسف: ٩٥]؛ أي: في نكرانك للواقع وبعدك عن الصواب وذلك لفرط

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ٤٠٤).

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٤/ ٣٨).

(٣) أبو حيان، البحر المحيط: (٧/ ٥٥).

(٤) البخاري، الصحيح، باب: لا يخطب المسلم على خطبة أخيه: (٨/ ١١٠).

محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وأملك بوصاله، وكان عندهم أنه ميؤوس منه لأنه فيما يعلمون مَيْتٌ. حتى بهتهم يعقوب بقدوم البشير إليه بقميص يوسف ـ عليه السلام ـ وارتداد بصره فواجههم بحقيقة صلته بمولاه وعظيم أمله برحمة خالقه: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[يوسف: ٩٦] وأثبتت الأحداث جميعًا أنه حقًا كان كما قال: ﴿أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثم يستمر في أمله ـ عليه السلام ـ في طلب المغفرة لأبنائه: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[يوسف: ٩٨]، ذكر الطبري أنه أخَّر الاستغفار لوقت السحر لأنه مظنة الإجابة، ونقل أيضًا أنه أخَّره ليوم الجمعة والمقصد أنَّه تحرَّى وقت الإجابة عليه السلام؛ لأنه قمنٌ أن يستجيب الله له.

(وقيل أخَّر يعقوب الاستغفار لأبنائه حتى يستوثق من عفو يوسف ـ عليه السلام ـ عن إخوانه لأنَّ عفو المظلوم شرط المغفرة)[1]، وعلى كل فقد استغفر يعقوب لأبنائه ومن قبل استغفر لهم يوسف والظاهر أن الله غفر لهم وعفا عنهم.

ثم وصل يعقوب ـ عليه السلام ـ مصر ورفعه يوسف ـ عليه السلام ـ على العرش هو وزوجه وحقق الله آمال نَبِيَّيه ـ عليهما السلام ـ وكانت خاتمة السعادة لهما كما هي لكل الواثقين بربهم، المتأملين الخير منه، الراجين فضله وعونه، حتى تختم القصة بدعوة الأمل من الابن البار الذي تربى في مدرسة الأمل اليعقوبية فقال ـ عليه السلام ـ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[يوسف: ١٠١].

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٣/ ٤٧٢).

ثالثًا ـ امرأة عمران عليها السلام:

هي حِنَة بنت فاقوذ بن قبيل وزوجها عمران بن باشم وهي من نسل داود ـ عليه السلام ـ وكانت من العابدات وكان زكريا ـ عليه السلام ـ نبي ذلك الزمان زوج ابنتها أشياع في قول الجمهور، وقيل كانت أشياع أختها[1] وهي من آل بيت اصطفاهم الله تعالى وأكرمهم كما حدثنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٣٣]. «والاصطفاء: الاختيار، ومعنى اصطفاهم؛ أي: جعلهم صفوة خلقه تمثيلاً بما يشاهد، مِنَ الشيء الذي يصفى وينقى من الكدورة»[2]، فهي امرأةٌ مؤمنة عاقلة من أهل بيتٍ من غير الأنبياء، اختارهم الله تعالى ليكونوا محلاً لفضله، وقد ذُكر اسمها في سورة (آل عمران) التي جُعل اسم هذه الأسرة المباركة علمًا عليها ولم يَرِدْ ذكر لعمران في السورة البتة بل وفي سائر القرآن الكريم، وإنما كانت صاحبة المبادرة والفعل وسبب رفع شأن هؤلاء الآل المرأةُ الصالحة حِنَة أم مريم والتي حكى القرآن عنها مقالتها: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[آل عمران: ٣٥ ـ ٣٦]، حيث نقل ابن كثير عن محمد بن إسحاق أنه قال: وكانت امرأةً لا تحمل فرأت يومًا طائرًا يزق فرخه فاشتهت الولد[3]، فدعت الله عز وجل

---

(١) ذكر ذلك الطبري في تاريخ الرسل والملوك: (١/ ٢٣٨) وابن كثير في البداية والنهاية: (٢/ ٦٧) والراجح انه زوج ابنتها اخت مريم وخالة عيسى عليه والسلام بدليل حديث الإسراء والمعراج كما عند البخاري «إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» باب المعراج: (٦/ ٢٧٣).

(٢) الرازي، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: (٤/ ١٨٠).

(٣) ولا تعارض بين هذا القول وبين كون زكريا زوج ابنتها حيث اشتهت الولد بعدما كبر سنها وأيست من الإنجاب وإن كانت أنجبت بنتًا من قبل وسمتها أشياع.

أن يهبها ولدًا فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرته أن يكون محررًا؛ أي: خالصًا مفرغًا للعبادة ولخدمة بيت المقدس، فقالت: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾[آل عمران: ٣٥]. اهـ(١). ولنتحسس الآمال العريضة التي اعتملت في نفس هذه المرأة الصالحة وحسن الظن بالله تعالى، فمع كبر سنها هي وزوجها وفقد نظائرها لأدنى مقدار أمل ورجاء بالإنجاب إلا أنها لم يخامر اليأس قلبها، ورفعت يديها للذي يسمع السِّرَّ والنجوى، وبالرغم من أن القرآن الكريم وصفها بأنها امرأة عمران، ولم يقل زوجة عمران والفرق بين امرأة وزوجة عريضٌ جدًا حيث تستخدم كلمة الزوجية حين تكون العلاقة بين الزوجين مثالية تحقق جميع مقاصد الزواج من سكن ومودة وإنجاب، كما قال ربنا تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الروم: ٢١]، وحتى في الآخرة لم يستخدم القرآن لأهل الجنة سوى كلمة الزوجية. قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾[يس: ٥٦].

فإذا تعطلت الزوجية من السكن والمودة والرحمة بخيانةٍ أو تباينٍ في العقيدة

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (١/ ٣١٥).

فإن القرآن الكريم يستعمل تعبير امرأة عوضًا عن زوجة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فوصف القرآن امرأة العزيز بهـذا الوصـف ولم يقل زوجـة لخيانتها لفراش زوجها، ووصف زوجتي نوح ولوط ـ عليهما السلام ـ بقوله امرأة لخيانتهما للدين. وكذلك عبَّر عن آسيا بنت مزاحم، فقال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، لأنها آمنت بالله وخالفت فرعون في كفره، وكذلك إذا تعطلت الزوجية عن مقصد الإنجاب أو التوالد فإن القرآن يطلق وصف امرأة، أما في الحال العام الذي يتوقع فيه التكاثر فلا يعدل القرآن عن كلمة الزوجية كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، أما عند فقد القدرة على الإنجاب لعقم أو موت الزوج فإن القرآن يستعمل كلمة امرأة كما في آيات وصف إبراهيم ـ عليه السلام ـ وامرأته: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، وكذلك قول زكريا ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، وقوله تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[آل عمران: ٤٠][1]، فلما استجاب الله له وحققت الزوجية حكمتها بالإنجاب نجد القرآن عدل عن كلمة امرأة واستعمل كلمة زوج حيث قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[الأنبياء: ٩٠]. أما لماذا استعمل القرآن كلمة امرأة مع زوجة عمران مع أنها حققت مقصد الزوجية بحملها فالظاهر أنه لموت عمران، وبموته انتهت الزوجية بينهما في الدنيا ودليل موته التنافس بين زكريا والقوم على كفالة مريم بعد ميلادها، حتى أنهم اقترعوا لذلك فكانت من نصيب زوج أختها زكريا ـ عليه السلام ـ. وعود للمرأة الصالحة العاقلة أم مريم، حيث لم ينقل القرآن الكريم على لسانها سوى بضعَ كلمات غير أنها كانت مدرسةً تعلم كل من بعدها كيف تكون الصلة بالله وحسن الظن به، كلمات قليلة حملت في طياتها الأمل في عنفوانه، والرجاء في أقصى غاياته، فكان الله لها حيث تحب وتأمل، وجعل من نسلها واحدةً من أكمل نساء العالمين هي مريم بنت عمران كما قال رسول الله ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

وكذلك جعل من نسلها نبيين كريمين عظيمين يحيى بن زكريا وعيسى ابن

---

(١) استفدت كثيرًا في هذه القضية من كتاب الإعجاز البياني في القرآن الكريم لعائشة بنت الشاطئ والذي ركزت فيه على بيان وجه الإعجاز في اختيار الألفاظ والرد على القائلين بالترادف.

(٢) البخاري، الصحيح، باب قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾: (٤/ ٢١٦).

مريم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ولم يكن مثل هذا الشرف قطُّ لامرأة غير حنة بنت فاقوذ ـ عليها السلام ـ فضلاً عن شرف تسمية سورة في القرآن باسمها وآلِها ونقْلِ كلامها فيه وتخليد ذكرها، كل هذا الشرف الكبير ثمرة لآمالها العريضة بربها، فلما بلَّغها الله مأمولها الأول وهو الحمل أرادت شكره، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[آل عمران: ٣٥]، ومن تمام أدبها لم يكن نذرًا معلَّقًا ومشروطًا، بل كان مطلقًا، وهو النذر الحميد الذي امتدح القرآن الكريم أهله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان: ٧]، وقولها ﴿مُحَرَّرًا﴾ (أي: معتقًا من رقِّ الأغيار لعبادته سبحانه وتعالى وخدمة بيته، أو مُخَلَّصًا لهذه العبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر)[1].

وهذا من تمام عقلها حيث أرادت وَليدَها في أكمل صور الحرية، وهي العبودية لله تعالى، أما الأسيرُ لشهواته والعبد للدنيا وما فيها فلا يُوصف بالحرية، إذ الحرية أن لا يخضع الإنسان للدنيا وما فيها أو أنْ تُحركه كيف تريد، وإلا فهو العبد الأسير.

ثم تنتقل المرأة الصالحة لمأمولها الثاني: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وهو الشغل الشاغل للأنبياء والصالحين أن يتقبل الله تعالى منهم، ويوم رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل لم يبرحا مكان عملهما حتى قالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧]، ويوم قرأ النبي الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰٓئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١]، قالت عائشة ﵂: «أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٣/ ٢٣٧).

وهم يخافون أن لا يُقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات»[١]، فأصحاب الآمال الحميدة هم الذين يعملون أعمالاً حميدة، ويثابرون عليها ويسابقون إليها كما كانت أم مريم سابقة لهذه الفضيلة التي سطرها القرآن الكريم، ثم من تمام فقهها نادت على ربها بما يناسب مأمولَها ودعاءها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ (أي: لسائر المسموعات فتسمع دعائي وتعلم ما كان ويكون فتعلم نيتي، وهو تعليل لاستدعاء القبول من حيث إن علمه تعالى بصحة نيَّتها وإخلاصها مُستدع لذلك تفضلاً وإحساناً، وتأكيد الجملة لغرض قوةِ يقينها بمضمونها، وقصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لغرض اختصاص دعاءها وانقطاع حبل رجائها عما عداه سبحانه بالكلية، مبالغةً في الضراعة والابتهال، وتقديم صفة السمع لأن متعلقاتها وإن كانت غير متناهية إلا أنها ليست كمتعلقات صفة العلم في الكثرة)[٢].

ثم تكمل الآيات حكاية حال الصالحة: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[آل عمران: ٣٦]، وقالت الذي قالت اعتذارًا وتحسرًا على خيبة رجائها وانعكاس تقديرها لِمَا كانت ترجو أن تلد ذكرًا، ولذلك نذرته للسدانة، غير أن الله تعالى ردَّ عليها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وهو تعظيم من جهته تعالى لموضوعها، وتفخيم لشأنه، وتجهيل لها بقدره؛ أي: والله أعلم بالشيء الذي وضعتُه وما علِّق به من عظائم الأمور، وعليه فإنك يا حنة لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما أودع الله فيها من علو الشأن وسمو المقدار، وفيه تسليةٌ لها وتسريةٌ عنها جزاءً

---

(١) الترمذي، السنن، باب: من سورة المؤمنون: (١٠/ ٤٥٤)، صححه الألباني، رقمه (٣١٧٥).

(٢) الألوسي، روح المعاني: (٢/ ٤٩٩).

على صدقها في نذرها، ثم هي تعتـذر أخرى لربها بقولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وليس المقصد التفضيل المطلق وإنما التفريق لأن النذرَ تَعلق بمهمة تعسُر على النساء لِما يَعتريهن من الحيض والنفاس، ولِعُسورةِ مخالطـة الرجال لا سيما أنَّ الخدمة لمسجد كثيرٌ طُراقه وعامروه وهو المسجد الأقصى.

قال الطبري: اعتذرت إلى ربها مما كانت نذرت في حملها فحررته لخدمةِ ربِّها، لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقْوَمُ بها وأنَّ الانثى لا تصلح في بعض الاحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة بما يعتريها من الحيض والنفاس. اهـ[1].

لكنها ﵂ أصرَّت على الوفاء بنذرهـا، ودليلُ ذلك أنهـا سمَّتها (مريم) قال أبـو السعود: ومعناه خادم الرب وفيـه إظهار أنها غير راجعـةٍ عن نِيَّتها، وإن كان ما وضعته أنثى، وأنها وإن لم تكن خَليقةً بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه. اهـ[2].

وتسميتُها بهذا الاسم الجميل يحمل في طياتـه من الفأل والأمل ما لا يُبلغُ قدرُه، إذ قيل قديمًا لكلٍ من اسمه نصيبٌ فأرادت لها اسمًا حسنًا عسى أن تتخلق به، وكان ما أرادت ـ عليها السلام ـ، وحسن اختيار الاسم من سنة المصطفى ﷺ كما ثبت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم. . .»[3].

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال لـه: «مـا اسمك؟ قال حَزَن، قال أنت سهلٌ، قـال: لا أُغيـِّر اسمًا سمانيه أبي»، قال سعيـد بن المسيب ـ وكـان الرجلُ

(١) الطبري، جامع البيان: (٢/ ٣٣٤).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (١/ ٣٧٩).

(٣) مسلم، الصحيح، باب: رحمته ﷺ بالصبيان: (٤/ ٤٥٢).

جَدَّه ـ: فما زالت تلك الحزونة فينا بعد. اهـ[١].

وأفرد أبو داود بابًا مستقلاً في سننه وسماه باب (في تغيير الأسماء)، وجعل الدارمي في سننه كذلك بابًا خاصًا في حسن اختيار الأسماء وَسَمَه ببابِ (في حسن الأسماء).

وعود على آمال أم مريم لِنَصلَ إلى أملها الثالث وذلك قولها ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، دعوةٌ صادقة وأملٌ لا يخيب لأنه تعلق بالملك الجبار، حيث استعاذت بالعظيم لا إله إلا هو، فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا نَخسَه الشيطان فَيستَهِلُّ صارخًا من نخسه إلا ابن مريم وأمه، ثم قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾»[٢]. قال صاحب المنار: والعوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به، فمعنى أعوذ بالله من الشيطان: ألجأ إليه وأعتصم به منه، وأعاذه به منه جعله مَعاذًا له يمنعُه ويعصمُه منه، والإعاذة بالله تكون بالدعاء والرجاء، والرجيم: المطرود عن الخير. اهـ[٣].

وبعد استعراض آمالها الثلاثة نجد كيف أنَّ الله ما خيَّب رجاءها ولا ضيَّع آمالها بل استجاب لها؛ لأن جميع آمالها حميدةٌ رشيدةٌ، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[آل عمران: ٣٧]، قال البقاعي: لما أخبر سبحانه بدعائها أخبر بإجابتها فيه فقال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ فجاء بصيغة التَّفعُل مطابقة لقولها: «فتقبل» ففيه إشعار بِتدرُّج وتطوُّرٍ وتكثُّرٍ، كأنه يشعر بأنها مَزيدٌ لها في كل

(١) البخاري، الصحيح، باب: اسم الحزن: (٥/ ١٧٦).

(٢) مسلم، الصحيح، باب: فضائل عيسى عليه السلام: (٦/ ٦١).

(٣) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (٣/ ٢٣٨).

طورٍ تتطور إليـه، ولـم يكن «فاقبل مني» ولـم تكن الإجابة «فَقَبِـلَها» فيكون إعطاءً واحدًا منقطعًا عن التواصل والتتابع، فلا تزال بركةُ تحريرها متجددةً لها في نفسها وعائدةً على أمها. اهـ[1].

وقوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يقول الدكتور فاضل السامرائي: ولم يقل: إنباتًا لأنه لو قال إنباتًا فيعني أنَّ الله هو الذي أنبتها دون أنْ يكون لها أدنى فضل، أما قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا﴾؛ أي: أنبتها فنبتت نباتًا حسنًا، وبذا يجعل لها من معدنها الكريم قبولَ هذا النبات؛ أي: أنها طاوعت هذا الإنبات، ولا يحمل قول إنباتًا هذا المعنى لأنه لا يجعل لها إرادةً ويكون الفاعل هو الله تعالى وكأنها غير مريدة له. اهـ[2].

فانظر إلى كرم الله تعالى لهذه المرأة الصالحـة وابنتها معها الذي أتمَّ عليها نعمه بكفالة نبيه زكريا ـ عليه السلام ـ لها، ثم توالت نعم الله عليها بأن كان يأتيها رزقها رغدًا من عند ربها، بل وتتجاوز نعمة الله عليها هذا الحدَّ بأن جعل من نسلها عيسى ـ عليه السلام ـ والذي ستستمر بركتُه وبركةُ دعاء جدَّته وصلاحُ أمِّه حتى يوم أن ينزل فيملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما مُلئت ظلمًا وجورًا، ويُحكِّمُ القرآنَ ويحاربُ الصليب.

وهكذا فإن الآمال الحميدة لن يكتب لها أن تذهب أدراج الرياح بل إنَّ الله وعد عباده الصالحين بأن يكون لهم عند ظنهم وحيث يأملونه.

وكم المرأة المسلمة في هذا الزمن بحاجة أكثر من أيِّ وقت مضى إلى إعادة بِلّورة شخصيتها من جديد: فكريًا وروحيًا وسلوكيًا وفق التصور الإسلامي الصحيح والمنهج الرباني القويم، حتى تتمكن من القيام بدورها الخطير في المجتمع، وعليه

---

(١) البقاعي، نظم الدرر: (٢/ ٣٨) بتصرف يسير.

(٢) فاضل السامرائي، لمسات بيانيه لسور القرآن الكريم: (١/ ٩٩).

تظهر الحاجة إلى إعادة النظر في سِيَر رائدات التاريخ الإنساني ذوات الهمم العلية والإرادات الشامخة والآمال الرشيدة، اللواتي تركن بصمات في حركة الكون والحياة لا تغسلها مياه البحار، كبطلة قصتنا (حنة بنت فاقوذ رضي الله عنها).

رابعًا ـ أصحاب الكهف[1] رضي الله عنهم:

لقد سبق وأن ذكرنا طرفًا من قصة أصحاب الكهف في مُستهل الدراسة لكنه كان مقتضبًا بحسب طبيعة الفصل الأول؛ إذ كان مقدمات وتعريفات مفتاحية تستوجب الإيجاز، وأرجأنا بسط القول في شأنهم لهذا المطلب في هذا الفصل ليكونوا تطبيقًا عمليًا على نظرية الأمل والرجاء في القرآن الكريم التي تشكل مقصد الدراسة وغايتها التي تكرست لبيانها وتجلية متعلقاتها

بدأت قصة أصحاب الكهف بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[الكهف: ٩ ـ ١٢].

وهو تلخيصٌ يُجملُ القصة ويرسمُ خطوطها الرئيسة العريضة، وهي من الطرق الفنية في عرض القصص، حيث تكون البداية بذكر ملخصٍ إجمالي، ثم يعقبه العرض التفصيلي، وهذا الملخص يكشف عن أبرز مفاصل القصة وأهم شخوصها وموضوعها، وبدأ عرض الملخص بالإضراب بأم المنقطعة للانتقال وليس للإبطال إظهارًا لأهمية الأمر وعظمته، قال الطاهر: لما كان من مقاصد السورة التي أُنزلت لبيانها التعريف بأصحاب الكهف لم يكن هذا الانتقال اقتضابًا بل هو كالانتقال من

---

(١) الحديث عنهم ليس تكرارًا؛ لأن الحديث في الفصل الأول كان عامًا عن سورة (الكهف)، أما هنا فتفصيل شأنهم مما لم يرد له ذكر هناك.

الديباجة والمقدمة إلى المقصود. اهـ[1].

والصلة بين المُضرَبِ عنه وما بعده أنـه إذا كان الذي صرف المشركين عن الإيمان إحالتُهم الإحياء بعد الموت كما يشير له قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[الكهف: ٦]، فإنَّ آية أصحاب الكهف وبعثَهم بعد سُبوتِهم سنين طويلة دليلٌ على البعث وإمكانه.

والملخص الذي أضرب إليه اقتصر على أربع آيات فقط، كانت الأولى لبيان أنَّ قصة أهل الكهف ليست منفردة بالعجب من بين الآيات الأخرى، وسواها أجدر بالعجب؛ فليست نُدرة قِصتِهم سببًا لجعلها متفوقةً على نظائرها، ولا تكرارُ غيرها وكثرته يفقده عظمته ومواطن التعجيب فيه، قال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾[الكهف: ٩]. ثم انتقل للآية الثانية والتي ابتدأ القرآن فيها ببيان محلِّ العبرة والعظة؛ فسلط الضوء على الجانب الأهم من القصة، على التجائهم إلى ربهم وحسن ظنِّهم به وأملهم العريض بنصرته لهم والرجاء أن يخلصهم مـن ظلم قـومهم: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ﴾[الكهف: ١٠]، ثم بينت الآية التالية استجابة الله لهم وكشف الضر عنهم على صورة مغايرة لمألوفات البشر، وهي الإنامة لسنواتٍ طوال كانت كرامةً لهم؛ ليدركوا عظمة الخالق الذي أَوَوا إليـه وضعف قومهم، فرأوا بأعينهم انقراضهم وزوال ملكهم، وعبر بقوله: ﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾[الكهف: ١١]، (كنايـة عن الإنامـة الثقيلة المانعة عن وصول الأصوات إلى الآذان بضرب الحجاب عليها، وتخصيص الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها بالحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج إلى الحجب عادة؛ إذ هي الطريقة

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (٨/ ٣٣٣).

للتيقظ غالبًا لا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق)[1].

ثم ختم بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[الكهف: ١٢]، أيُّ الفريقين المختلفين في مدة لبثهم حيث اختلف أصحاب الكهف فيما بينهم في مدة نومهم وبقائهم في الكهف والغاية أنهم إذا كانوا عاجزين عن إدراك قضيةٍ مثل هذه فهم عن سواها أعجز وعليه فيجب أن يفوِّضوا كل أمورهم إلى الله تعالى ويعلِّقوا حبال آمالهم به دون أيِّ أحدٍ سواه.

إذن فإنَّ تقدمة قصة أصحاب الكهف كانت تتمحور حول الأمل الحميد بالله تعالى الذي لولاه لما آمن الفتيةُ أصلاً ولا حاربوا قومهم وهجروا بيوتهم وأهلهم وأموالهم ومواطن النِّعمةِ لديهم، فالأملُ هو الذي حرَّك عزائمهم ونقل خطواتِهم وجعل الكهف المظلم الموحشَ أنيسًا مشرقًا.

وبعد هذه المقدمة للقصة الفريدة والكرامة المُتوحدة بدأ القرآن بذكر التفاصيلِ المتعلقة بأصحابِ الكهف موجهًا الخطاب لرسول الله ﷺ ابتداءً، ولأُمتِه من بعده: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[الكهف: ١٣ ـ ١٤]. ويعتبر هذا المشهد الأول من مشاهد القصة والذي يتولى سردَ أحداثـه هـو الله تعالى بذاته العلية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾، وتقديمُ المسند إليه على المسند الفعلي في الجملة يُفيد الاختصاصَ؛ أي: نحن لا غيرُنا يقُصُّ قصصهم بالحقِّ، والحقُّ هو الصدق، والحقُّ أعمُّ والصدقُ أخصُّ؛ فالصدق نوع من أنواع الحـق، والباء للملابسة؛ أي: القصص المُصاحب للحق والصدق لا للتخرصات والأراجيف.

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٤/ ٢٣٨).

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾، والجملة استئناف مبني على تقدير سؤالٍ من المخاطَب، والفتيةُ جمعُ قلةٍ وهم الشباب، والتفت في قوله: ﴿ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ بدلاً من قوله: (آمنوا بي) للأشعار بأن الربوبية كانت العلة في إيمانهم، وفيه تشريف للإيمان، ثم التفت من الغائب للمُخاطِب مرة أخرى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ وأسند الزيادة لذاته المقدسة لمزيد التشريف والتعظيم للزِّيادةِ وللمُزادِ لهم، والزيادة تقتضي التثبيت على ما كانوا عليه من التدين والتصديق والإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[الفتح: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة: ١٢٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ والربط عبارةٌ عن شدَّةِ عزمٍ وقوة صبرٍ تَمكنُوا بها من مُحاربة قومِهم وبيان ضلالهم، كما ربط على قلب أمِّ موسى فثبتت ولم تُبدِ خبر وليدها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[القصص: ١٠].

وكذلك ربَطَ اللهُ على قلوب المؤمنين يومَ بدرٍ فثبتَت أقدامُهم ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال: ١١]، فاستطاعوا مجابهة عدوِّهم على كثرتِهم وحسنِ استعدادِهم، بالرغم من قلَّة صفِّ المؤمنين وضعف عِدَّتهم.

والربط؛ يعني: أن تربط على الشيء وتشد عليه لتحفظ ما فيه، كما تربط القربةَ حتى لا يسيل الماء، وتربط الدابة حتى لا تنفلت. وثمرة الربط على قلوبهم

أنهم «**قَامُوا**» والقيامُ هنا دليلٌ على مواجهتِهم للباطل ووقوفهم في وجهه، وما كانت هذه الحركـة القويـة الفاعلة إلا لأنَّ حبالَهم متصلة بربهم، وأملَهم بتوفيقه ونصره وثيـق: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[الكهف: ١٤].

فمن زعم ربًّا سواه فقد تجاوزَ الحدَّ وابتعد عن الصواب وجانبَه.

ثم أخذوا يبينوا أباطيل قومهم في اتخاذهم آلهة من دون الله لا يملكون عليها حجـةً ولا دليلاً، وأنهم بفعلهم هـذا وقعـوا في أفظـعِ صورِ الظلم وأقبح دركاتِ الكذب: ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[الكهف: ١٥].

ثم بدأ الفتيةُ يُحدث بعضهم بعضًا بضرورة ترجمةِ الإيمان إلى واقعٍ ملموسٍ: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[الكهف: ١٦].

لقد استدلَّ الفتيةُ على صدق معتقدِهم وسفـهِ مَنْ خالفَهم وخِفةِ عقلِه، مع علمهم بقوة بطشه وأنَّه لا يَدانِ لهم بمقاومتِهم لكثرتِهم وقلتِهم، فتسبَبَ عن كل هذا إرادة هَجرِهم صيانةً للعقيدة وحفظًا للدين، فقال بعضُهم لبعضٍ نَجيًا: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، وهذه هي الثمرة اليانعـة للإيمـان المجتـذر، والقائم على الدليل والحجة والبرهان، إنها الثمرة التي يجد فيها المؤمن حلاوةَ الصِّلة بالله تعالى؛ فيزدادَ إيماناً مع إيمانه، ثمرةٌ جعلت الكهفَ المُوحش المُعتم الذي هو مَظِنة الشقاوة والبؤس، مَحلاً للسعادة والأنسِ والرحمةِ.

وكل هذا الشعور بسبب الربط على قلوبهم، بل تجاوز حدَّ الشعورِ العابر، ليصيرَ عقيدةً راسخةً بأن الله سيُحِيل مَخاوِفَهم أمنًا وقسوةَ كهفِهم لِينًا: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم

مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[الكهف: ١٦].

لقد أرادوا مِرفقًا بحدود علمهمليناموا بضع ساعاتٍ بعد مشقةِ الفِرار والهرب من قومِهم، وسألوا الله العونَ وكان أملُهم به عظيمًا فبلَّغَهم أعظمَ مما أرادوا، حتى صاروا آية للعالمين، وخلَّد ذِكرَهم في كتابه الحكيم أنموذجًا لكل من يريد الثبات والتغلب على المشاق وكسر إرادة العدو.

ثم تحدث القرآن عن جنود الله التي سخرها لخدمة هؤلاء الفتية، ومنها الشمس؛ ففي غروبها وشروقها تؤدي وظيفة حفظ أجسادهم من التعفُن والبِلَى، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾[الكهف: ١٧] وهنا «انتقل إلى ذكر الشمس بمناسبة الإشارة إلى تحقيق رجائهم في ربهم حين قال بعضهم لبعض: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[الكهف: ١٧] وهذا حال عظيم وهو ما هيأ الله لهم في أمرهم من مرفق وأن ذلك جزاؤهم على اهتدائهم وهو من لطف الله بهم»[1].

«وتزاور»[2]: «تميل، والأزور: المائل بعينه إلى ناحية، والزُور: الكذب لميله عن الواقع وعدم مطابقته»[3].

---

(١) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (٨/ ٣٦٨).

(٢) قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح التاء وتشديد الزاي بعدها ألف وفتح الواو، وأصله: تتزاور بتائين أو ضمت تاء التفاعل في الزاي تخفيفًا، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الزاي على حذف احدى التائين، وقرأه ابن عامر ويعقوب «تَزْوَرُّ» بفتح التاء بعدها زاي ساكنة وبفتح الواو وتشديد الراء على وزن تَحْمَرُّ، النشر في القراءات العشر لابن الجزري: (٢/ ٣١٠).

(٣) الألوسي، روح المعاني: (١١/ ١٧٥).

«والقصد بقوله «تزاور» العروض لازورار الشمس لا الثبـوت والاستقرار، والقرض: القطـع، والمعنى: تعطيهم من ضوئهـا شيئًا ثم تزول سريعًا كالقرضِ يسترد»[1]. فإنه من حسن حظهم أنَّ الغار له بابٌ لا يتجه للمشرق ولا للمغرب وهذا أيضًا من صور رحمة الله التي نشرها لهم؛ لأنه لو اتجه للمشرق لأكلتهم الشمس عند الشروق ولو اتجه للمغرب للفحتهم عند الغروب، لكنها كانت تميل إليهم ميلاً سريعًا عند الشروق وتقرضهم قرضًا كذلك لطيفًا عند الغروب؛ لأنَّ الشمسَ تمنعُ مِنَ التَغيُّر إذ فيها فوائد ومنافع للجسم، وجَعْلُهم في فجوة كذلك من صور الرحمـة والنِّعم عليهم إذ الفجوةُ المُتَسَع من داخل الكهف حيث لم يكونوا قريبين من فم الكهف وفي هذا عون على حفظهم أكثر، وكل هذا من آيات الله تعالى الدالة على عجائب قدرته وبدائع حكمته، وكما أن بقائهم هذه المدة الطويلة مَصوناً عن الموت والهلاك من تدبيراته ولطفه وكرمه، وكذلك رجوعَهم عن الكفر ورغبتَهم عنه إلى الإيمان بالله تعالى كان توفيقًا منه تعالى ولطفًا، فقال: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ مثل أصحاب الكهف، ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ كقومهم الـذين كفـروا بالله تعالـى وأرادوا حملهم على الكفر وترك التوحيد.

ثم يُذكِّر القرآنُ بنعمة أخرى مما نشر الله للفتية في قوله: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾[الكهف: ١٨]، والحسبـان، بمعنـى: الظن، والأيقاظ: جمعُ يَقظٍ، وهو ضد الراقد، والراقد: النائم بحسب سياق الآية، وفيها طباق حيث جمعت الشيء وضده، «وقيل أن سبب هذا الظن أنَّ عيونَهم كانت

(١) السمين الحلبي، أبو العباس أحمـد بن يوسف بن عبـد الدايم الحلبي (ت٧٥٦هـ)، الدر المصون: (٥/ ٤٥٩).

مفتوحةً»[١] طوال مدة نومهم بالإضافة إلى كثرة تقليبهم من جهة إلى جهة رعاية لأجسامهم حتى لا تأكل الأرض منها شيئًا بسبب طول رقادهم.

وعبَّر بالمضارع: «تحسبهم» مع أن الحدث وقع في الزمن الماضي؛ لأن المضارع قد يستخدم ليعبر به عن الماضي حكاية للحال، وحكاية الحال تعني أن يعبر عن الحال الماضية بالفعل المضارع لأهميتها لتصير كأنها حدث حاضر أمام السامع يشاهده ويدركه، كما يدل الفعل المضارع على التكرر فالحسبان كائن طوال مدة لبثهم.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾، ولم يجعل التقليب إلا للفتيةِ كرامةً لهم بمَنحِهم حالةَ الأحياء وللعناية بهم، أما كلبُهم استمر في مكانه باسطًا ذراعيه شأن الكلاب في جلستها «وعدم تقليب الكلب عن يمينه وشماله يدل على أن تقليبهم ليس من أسباب سلامتهم من البلى وإلا لكان كلبهم مثلهم فيه بل هو كرامة لهم»[٢]، وكذلك ليكون تقلبُهم من أسباب أنْ يظنَّ المُطلع عليهم أنهم أيقاظٌ وليسوا رقودًا أو أمواتًا، والوصيد تشبيه لمدخل الكهف بالباب الذي يوصد ويغلق، وهو كذلك كرامة لهم ومزية حفظ ورعاية ونزولاً من الأقدار عند مأمول الفتية بالنجاة والفرار من بطش قومهم، وأكَّد حفظهم ورعايةَ الأقدار لهم في قوله: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[الكهف: ١٨]، وإن كانت صورهم كالراقدين في النوم دون حدوث أيِّ تغيرٍ في ذواتهم أو ما يخالف مألوف البشر، لكن الخوف منهم لأن شأنهم في عددهم ومكان وجودهم شأن قطاع الطرق واللصوص.

وقيل أن الله ألقى المهابة والخوف منهم في نفوس الناس؛ فإذا ما اطلع عليهم

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٤/ ١٤٣).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (٨/ ٣٤٨).

إنسانٌ خاف وولَّى هاربًا يملؤه الرعب؛ لأن هيئتهم توحي بذلك حيث يتقلبون كثيرًا ومع ذلك لا يصحوا منهم أحد أو يقوم طوال هذه المدة.

ثم يقول الحق سبحانه في انتقال سريع ومفاجئ لمشهد آخر يبحر فيه القرآن بنا عَبْر الزمن مدة ثلاثة قرون في نقلة خاطفة وقد استيقظ الفتية من رقادِهم الطويل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١٩]، رقادُهم الطويل لم يغيِّر إيمانهم ولا ثقتهم بربهم، ولم يقلب أملهم يأسًا، ورجاءهم قنوطًا بل هم على ما هم عليه من التوكل واليقين والأمل، لذا فها هم يتفقون بعد خلافٍ عارضٍ حول مدةِ نومهم على إسناد الأمر إلى الله تعالى ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ اتفاق وتوكل لم يخرمه أيُّ واحد منهم فإيمانهم واحد وثقتهم واحدة، وهم جميعًا على قلب رجل مؤمن واحد.

ويصح أن يكون المتكلم البعض لكنه لم يحدد ليعمهم بالفضل والتوكل والإيمان، وفي العدول عن التحديد مزيد تسليط للضوء على الفكرة المهمة بغض النظر عن صاحبها، وعبَّر بقوله: ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ تشبيها لنومهم في طوله بالموت، وخلافُهم أظهرُ دليلٍ على عدم تغيُّرهم فلو طال شعرُهم أو ابيضَّ وكبرت أظفارهم لما قال بعضهم: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولقَدَّروا زمنًا مناسبًا للتغير الحاصل لهم، وهذا ما لم يكن. ولأنهم لم يتغيروا في ظاهرهم ولا في باطنهم، أعرضوا عن الخلاف سريعًا وعن التعمق في الجدال، وأقبلوا على ما يهمهم بحسب الحالة الحاضرة، وهذا شأن الإنسان الإيجابي العملي لا تشغله سفاسف الأمور عن عظائمها، وتوافهها عن مهماتها، لأن أهدافه بعيدةٌ وآماله عريضةٌ، فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ

هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف: ١٩]، والوَرِق: الفضة المسكوكة، واسم الإشارة «هَٰذِه» يفيد وكأن المتكلم يحمل في يده الدراهم الفضية ويشير بها لمن سينتدب للذهاب إلى سوق المدينة ليأخذها لشراء الطعام، ثم أخذ يبينُ أهمَّ ما يجب أن يتصف به الطعام ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ وعطف بالفاء الفصيحة؛ لأنـه يريد بيان المهمة المحددة والمأمولة من الذاهب وهي الإتيان بالطعـام الزاكي وفقط، دون إحداث جلبة تفضح أمرهم، وقوله: ﴿أَزْكَىٰ﴾، قال الزمخشري: أحلُّ وأطيبُ وأكثرُ وأرخصُ، ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ في التخفي فلا يُعرف وفي المُبايعة فلا يغبن. اهـ[1].

ونقل ابن عاشور أن التاء في كلمة ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ هي نصفُ حروف القرآن عدًّا[2] وهذا رأي معظم القوم، غير أن ابن عطية تفرد بأن النون في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾[الكهف: ٧٤]، هي نصف حروف القرآن[3].

وعلى كلٍ فإنَّ الفتيـة لم يكتفُـوا بالآمال مجردةً عن الأسباب، وإلا لكانت آمالُهم ذميمةً حَرِيَّةً بالطمس والإغفال، لا أن تسطر في الذكر الحكيم، فكان التلطُفُ والتخفي عسى أن يظلَّ أمرُهم مستورًا عن أسمـاع وعيـون قومِهم الذين جدُّوا في طلبهم، ومما يدلُّ على بعد نظرِهم وحسنِ تخطيطِهم أنْ تذاكروا عاقبةَ افتضاح أمرِهم وذلك ليَحْفِزوا أنفسَهم عامَّةً، والذاهبَ منهم لإحضار الطعام خاصةً على تمام الحيطة والحذر، وهذا كذلك من الأخذ بالأسباب التي تجعل الأمل حميدًا رشيدًا: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف: ٢٠]،

---

(١) الزمخشري، الكشاف: (٣/ ١٢).

(٢) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: (٨/ ٣٥١).

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز: (٤/ ٣٢٨).

والظهور: الاطلاع من مرتفع، والرَّجمُ بالحجارة، ويصحُ بالقذف والشتم، والإعادة؛ أي: إلى ملة قومهم؛ يعني: إلى الكفر وهـذا ديدن الباطل في كـل زمان، ولقـد أخبرنا ربنا ﷻ عنهم، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[إبراهيم: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾[البقرة: ٢١٧]، إلـى غيـر ذلك من الآيات.

قال الشنقيطي: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة؛ لأن قوله عن أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف: ٢٠]، ظاهـرٌ في إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم. اهـ[1]. ثمّ ردَّ القول وأنكره رحمه الله تعالى، والحقُ ما ذهب إليه لأن الاستدلال بهذه الآية على هذا الأمر بعيدٌ بدليلِ آخرِ الآية حيث قالوا: ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾ وهذا يدل على أنَّ الإكراه في حالتهم ليس بعذر يرفع الحرج عنهم، ويستدل على ذلك أيضًا بأنَّ رفع الحرجِ عند الإكراه خِصيصةٌ لأُمَّة محمدٍ ﷺ لقوله: «إنَّ الله تجاوزَ لي عن أُمتي الخطأَ والنسيان وما استُكرهوا عليه»[2]، والشاهد: «تجاوز لي» فهي له دون سائر إخوانه الأنبياء ـ صلى الله عليهم وسلم ـ، ويصحُ أنْ يُستدل أيضًا بقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[النحل: ١٠٦].

وتختم الآيات بما يدل على أن الله كان عند حسن ظنهم وأنّه بلَّغهم مأمولهم

---

(١) الشنقيطي، أضواء البيان: (٣/ ٢٩٨).

(٢) البيهقي، السنن الكبرى: (٧/ ٣٧٥)، صححه الألباني، صحيح الجامع الصغير: (٧/ ٥٧).

فثبَّتهم على الإيمان، وحفظهم من قومهم، ثم خلَّد ذكرَهم وجعلهم نموذجًا يُذكر مع الإجلال والتقدير، بل وأعظمَ من ذلك أنْ جعلَ رُفاتَهم أساسًا لبيت يذكر فيه اسمه تعالى، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾[الكهف: ٢١]، ومما يستفاد من الآية أنه كما أن الله أنامهم ثم بعثهم فإنه قادرٌ على إماتة الخلق جميعًا ثم بعثِهم، فوعدُ الله حقٌ ولا يُخلف وقولُ الله صدقٌ ولا يكذب، ولِيتحققَ الناسُ من شأنِ الساعةِ أَعثرَهم على الفتيةِ بعد موتهم فمن كذَّب بعد معاينته لأحوالهم العجيبة فهو الجَحودُ الكَنود، إذ إمساك الله نفوسَهم ثلاثمائة سنة وأكثر حافظًا أجسامهم من التحلل والتفتت ثم إرسالُها مرةً أخرى لا يبقي شائبةَ شكٍ عند من يريد الحق في إدارك أنَّ وعد الله حقٌ، وأنه يبعثُ مَنْ في القبور فيردُّ إليهم أرواحهم ويحاسبُهم على أعمالهم، وعبَّر بالمضارع ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ لاستحضار الصورة لدى السامع كالمشاهد للنزاع لشدته وضراوته بين القوم في شأن الفتية، مثل أكانوا نيامًا أم أمواتًا، وكيف لبثوا في كهفهم، وكم هي مدة لبثهم.

وكان من جملة نزاعهم جدالهم حول طريقةِ حفظ أجسادِهم، لِجعلِ قصتَهم عبرةً للعالمين ومزارًا للأحقين وختم المتنازعون نزاعهم بقولهم: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[الكهف: ١٣]، إشارة إلى إيمانهم الذي حملهم على رد العلم إلى الله تعالى في شؤون أهل الكهف التي اختلفوا فيها، وختم الأمر ببناء المسجد فوق كهفهم إكرامًا لهم وليدومَ تعهدُ الناس لمحلِّ رُفاتِهم والاتعاظ بقصتهم، ودليل بقاء ذكرهم أن صارت قصتُهم حديثَ النوادي فاختلف القوم في عددهم ومدة لبثهم وفي غيرها من شؤونهم، ولا تزال رحى الخلاف في بعض شؤونهم دائرة.

وبذا فإنَّ أصحاب الكهف يوم آمنوا بربهم ووثقوا من حكمة قدره وتأملوا الخير في السير على منهجه آخذين بالأسباب ومعتبرين بالسنن فإنَّ الله ما خيَّب رجاءهم ـ وحاشاه ـ بل أعطاهم أكثر مما سألوه وبلغهم أعظم مما تأملوه؛ ليكون شأنُهم نموذجًا لكل الشباب في كل زمان ومكان فإنهم ما كانوا أنبياء ولا علماء غير أنَّ حرارة الإيمان لامست قلوبهم وبوارق الأمل سطعت أمام عيونهم، فكان من شأنهم ما كان، ولقد واجه حسن البنا الشباب يومًا برسالة له فقال: أيها الشباب: إنما تنجح الفكرة إذا قوي الإيمان بها وتوفر الإخلاص في سبيلها وازدادت الحماسة لها ووجد الاستعداد الذي يحمل على التضحية والعمل لتحقيقها، وتكاد تكون هذه الأركان الأربعة: الإيمان والإخلاص والحماسة والعمل من خصائص الشباب لأن أساس الإيمان القلب الذكي، وأساس الإخلاص الفؤاد النقي، وأساس الحماسة الشعور القوي، وأساس العمل العزم الفتي، وهذه كلها لا تكون إلا للشباب، ومن هنا كان الشباب قديمًا وحديثًا في كل أمة عماد نهضتها وفي كل نهضة سر قوتها وفي كل فكرة حملة رايتها: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

ومن هنا كثرت واجباتكم، ومن هنا عظمت تبعاتكم، ومن هنا تضاعفت حقوق أمتكم عليكم، ومن هنا ثقلت الأمانة في أعناقكم، ومن هنا وجب عليكم أن تفكروا طويلاً وأن تعملوا كثيرًا، وأن تحددوا موقفكم، وأن تتقدموا للإنقاذ، وأن تعطوا الأمة حقها كاملاً من هذا الشباب[١].

* * *

---

(١) البنا، حسن بن أحمد بن عبد الرحمن (ت١٩٤٩م). مجموعة الرسائل: (١/ ١٨٨).

*** المطلب الثاني ـ القسم المذموم، ونذكر فيه أربعة نماذج:**

أولاً ـ الطاغية فرعون:

إننا عندما نتحدث عن فرعون وكبره وعلوه في الأرض وأمله الذميم فإننا نتحدث عن ظاهرة كبرى في التاريخ الإنساني، ظاهرة احتلت ـ لأهميتها ـ مساحةً كبيرة في كتاب الله تعالى حيث ذُكر أربعًا وسبعين مرة في ستٍ وعشرين سورة[١].

وفرعون ليس اسمًا لمعين، إنما لقبٌ كان يطلق على حكام مصر في تلك الحِقبة، وهو اسم أعجميٌ كما قال صاحب المفردات[٢]. وقال ابن منظور: فرعون مِنْ فَرْعَنَ، والفرعنة: الكبر والتجبر، وكلُّ عاتٍ فرعون. اهـ[٣]. وتجدر الإشارة إلى أن الكثير من المفسرين والمؤرخين يرون أنَّ قصة موسى ـ عليه السلام ـ قد عايشت فرعونين، لا فرعوناً واحدًا، الأول هو الذي ولد موسى في زمانه وتربى في بيته، والثاني: هو الذي توجه إليه وعرض عليه دعوة الإسلام وطلب منه تخليص بني إسرائيل، وهو الذي غرق في نهاية القصة[٤]، وما أجمل إمرار ابن عاشور لهذه القضية إعراضًا بلا كثير وقوف، لأن النتيجة واحدةٌ سواء أكان في القصة فرعونٌ واحُد أم فرعونان فإنَّ الأمر سواء، والنتيجة واحدة، فكلُّ متكبرٍ طاغيةٍ فرعونٌ، يقول: ولأن موسى كان معروفاً في بلاط فرعون لأنه ربيُّه أو ربيُّ أبيه فله سابقة اتصال بدار فرعون كما يدل على قوله له المحكي في آية (سورة الشعراء: ١٨) ﴿قَالَ أَلَمْ

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: (ص٥١٥ ـ ٥١٦).

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات: (ص٦٣٢).

(٣) ابن منظور، اللسان: (١٣/ ٢٣٢).

(٤) أبو الأعلى المودودي، فرعون في القرآن، تعريب أحمد إدريس: (ص١١).

نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ . اهـ[١].

إن شخصية فرعون في القرآن الكريم اتسمت بجملة من الصفات الذميمة، كالعلو والطغيان، وقهره للناس وتقتيله لكثيرين منهم، والإفساد والإسراف في الظلم، وغيرها من الأخلاق المستقبحة.

بل لقد تجاوز بسوءِ خلقه أقطار السموات والأرض، فزعم أنه متفردٌ بالألوهية وأنَّه ربُّ الخلائق الأعلى، وعند التحليل لشخصية فرعونَ سنجدُ أنَّ مَنشأَ كلِّ هذه الخلائق الذميمة هو اتباع الهوى والأماني، والإغراق في الآمال الكاذبة الفاسدة، ويفهم هذا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤]، والعلو هنا مجازيٌّ كالذي في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص: ٨٣]، وقوله تعالى في وصف فرعون أيضًا: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[الدخان: ٣١]، والمعنى أنه رأى في نفسه فضلاً على سواه فليس يساويه أحدٌ من الناس أو يدانيه، وعند اعتمال هكذا شعور في نفس أيِّ إنسان فإنه سيعطي لذاته الحق في أن يتصرف كيفما يشاء غير مراعيًا حدود الشريعة أو حقوق الناس، إنما يفعل ما يمليه عليه هواه وتنص عليه شهواته، وحقًا لقد كان فرعون عبدًا أسيرًا لشهواتِه وآمالِه الفاسدِة الباطِلة التي أبعد فيها النُّجعةَ، حتى ظنَّ أنَّه لن يرجع إلى ربه، فحق عليه وصف الله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[طه: ٤٣]، و: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[الدخان: ٣١]، قال ابن فارس: طغى: الطاء والغين والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ مُنقاسٌ، وهو مجاوزة الحدِّ في العصيان، يقال طغى السيل: إذا

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٩/ ٥٢).

جاء بماء كثير. اهـ[١].

وقال الرازي في تعريف إسرافه: المراد أنه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه في أمر من الأمور. اهـ[٢]. «فإسرافُه وطغيانُه اللذان تمثلا في سلوك أيِّ طريق من أجل حصولِ مقصودِه وبلوغِ محبوبِـه حتى ولو كان قتلَ الناس وتعذيبَهم، أو كان اتهامَ الأبرياءِ واعتقالَهم أو حتى ادعاءَ الألوهيةِ والربوبيةِ، إنما نتج عن علوه وكبره المستتبعان لفساد آماله وخور رجاءاتـه»[٣]، فلقد أراد فرعـون تطويع البشر لذاته وإخضاعهم لسلطانه كما زعم ـ كذبًا ـ أنه أخضع الأرض والطبيعة لأمره فقال كما حكى عنه القرآن الكريم: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف: ٥١].

بل إنه لخبل عقله أراد أن يُخضع السماء أيضًا، وهذا لشدةِ عماه واتباعه لأمله وهواه، فقـال لوزيره هامـان، كما أخبرنـا تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]، وفي سبيل بلوغ مأموله أراد أن يَظهر لقومه في مظهر الباحث عن الحق المستقصي للأخبار، وإنْ في أقصى العَوالِم فأمر وزيره هامـان ببناء الصرح ليبلغ

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (٥/ ٢١٣).

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: (٦/ ٢٨٩).

(٣) رأفت المصري، شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني: (ص٢٣٨).

عنان السماء فيرى الإله الذي زعمه موسى، حتى إذا لم يجده رجع إلى قومه فأثبت لهم انتفاء الربِ في السماء إثبات معاينةٍ، وعندها سيكون خبره أجدر بالتصديق؛ لأنه بعد بحث ونظر فيظهر كذب موسى ـ عليه السلام ـ وبطلان دعواه فيكون فرعون بهذا كالمستدل على الدعوى التي بـدأ بها ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم﴾ وهي المراد الذي كان يجهدُ له ويَجِدُّ في طلبه، وفي هذا الضـغثِ من الطرح والاستدلال أبلغ الدلالة على سوء انتظام تفكير قومه، وضعف آرائهم، وصدق الله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤].

ويذهب فرعون في آماله بعيدًا هذه المرة أيضًا، فيودُّ مقابلة معجزات نبيِّ الله موسى، عليـه السلام ـ ببعض ألاعيبِ سحرتِه وأراجيفهم، وليتحققَ من إخلاصهم ـ أي: السحرة ـ في محاكاة موسى ـ عليه السلام ـ ومنازلته ضربَ على وترٍ حساسٍ يعلمُ أنه ما من شيءٍ يحركُ همَّتهم أكثر منه وترِ الآمال والأحلام فما لبث أن سمع قولتهم، كما حكاها القرآن: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾[الأعراف: ١١٣] فبادر فرعون مُوسِعًا لهم دائرةَ آمالهم إلى أكثر مما يتوقعون ويرجون، فقال كما حدَّثنا الله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[الأعراف: ١١٤]، قال صاحب الظلال: إنهم محترفون... يحترفون السحر كما يحترفون الكهانة، والأجرُ هو هـدف الاحتراف في هذا وذاك، وخدمـة السلطان الباطل والطاغوت الغالب هي وظيفة المحترفين من رجال الدين، والطاغوت كذلك يحتاج لمثل هؤلاء المحترفين ويُكافؤهم على الاحتراف لأنه يتبادلُ وإيَّاهم الصفقةَ والمنافع: هم يُقِرون سلطانه باسم الدين وهو يعطيهم المال ويجعلهم من المقربين. اهـ[1].

وبذا يحقق كل منهم أهدافه وأحلامه.

---

(١) سيد قطب، الظلال: (٣/ ٢٨٨).

إنَّ فرعونَ لفسادِ طويتِه وخبثِ أخلاقه وسوء آماله كان أول من استحيا النِّساء بعد قتل رجالهن وأولادهن، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[البقرة: ٤٩]، ومن العجيب ما ذهب إليه كثير من المفسرين أن الاستحياء على ظاهره؛ أي: استبقاءُ النساءِ أحياءً لمجرد الخدمة، قال أبو السعود: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ إشارة إلى ما ذكر من التذبيح والاستحياء أو إلى الإنجاء منه، وجمعُ الضمير للمخاطبين، فعلى الأول معنى قوله تعالى: ﴿بَلَاءٌ﴾ محنةٌ وبلية وكونُ استحياءِ نسائهم؛ أي: استبقائهن على الحياة محنةً مع أنه عفو وتركٌ للعذاب لما أن ذلك كان للاستعمال في الأعمال الشاقة وعلى الثاني نعمةٌ وأصلُ البلاء الاختبار[1]. اهـ. والحق أنَّ وراء الأكمة ما وراءها، فالاستحياء متضمنٌ لما هو أدلُّ على إرادة المزيد من النِّكاية ببني إسرائيل وما يتجاوز أمر الخدمة، ذلك أنَّ بني إسرائيل ـ جلهم إن لم يكن كلهم ـ كانوا خدمًا في قصر فرعون ولدى بطانته، وعليه فإنَّ كلمة الاستحياء ما أضافت شيئًا جديدًا، وهذا ما نُنزه التنزيلَ العزيز عنه، والأَوْلى بالصواب أنَّ ذكر الاستحياء كان في معرض بيان المصائب التي تعرَّض لها بنو إسرائيل وأنَّ الإبقاء على النساء أحياءً كان يقصد لأمر خبيث يتجاوز الخدمة وهو الاعتداء على الأعراض والحرمات، فالاستحياء كان لاتِّباع فرعون لأهوائه وشهواته الفاسدة.

ويستمر فرعون في آماله الخبيثة حتى تُوردُه المهالك وترديه في اليمِّ الهادر فيتبع موسى ـ عليه السلام ـ هو وجنودُه لإرادة تقتيلهم والخلاص من الدعوة التي تفسد عليه أحلامه بِحُكْمِ رقاب الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ

(١) أبو السعود، إرشاد العقل: (١/ ١٢٩).

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[طه: ٧٧ ـ ٧٩]، وهذه دومًا عاقبة اللاهثين خلف الأوهام، المتبعين للأماني والأحلام، عاقبتهم الضلال وليس الهدى، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠]، لقد أدرك فرعونُ متأخرًا أنه كان يركض خلف آمالٍ فاسدةٍ لم تجلب له إلا الهوان والخَسار؛ فأراد أن يستدرك ويغير وجهته إلى الحق فيترك أطماعه لكن الأوان كان قد فات، حتى فجعه قول الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[يونس: ٩١ ـ ٩٢].

ثانيًا ـ بنو إسرائيل:

الحديث عن بني إسرائيل يقتضي أن نستعرض ما يتجاوز ربع القرآن الكريم وهذا أمر يتطلب مضاعفة حجم الرسالة إلى ضعفين أو أكثر وهذا ما لا يأذن به سَنَنُ الدراسات الجامعية لذا فإنني سأكتفي بضرب بعض النماذج القرآنية التي تنبئُ عن فساد آمال بني إسرائيل ومغادرتِها لخصائصِ وسماتِ الحميدِ الرشيدِ منها.

لقد جمع بنو إسرائيل كل الصفات السَّوء والخلال المستقبحة، ولو أنك شئت الحديثَ عن أيِّ مرضٍ خلقيٍّ أو فسادٍ مَسلَكيٍّ فإنك ستجد فيهم ما يغنيك عن التعرض لغيرهم؛ لأنهم جمعوا رذيلَ الصفات من أكنانها وما حالُهم إلا كما قال قائلُ العرب: وكلُّ الصَّيد في جوف الفِرا[1].

---

(١) الفِرا: الحمار الوحشي، وهو مَثَلٌ يقال عند الإتيان بالشيء الكافي الذي يغني عن سواه، وقد ضربه النبي ﷺ مثلاً لأبي سفيان حين قال له أنت يا أبا سفيان كما قيل: وكل الصيد في جوف الفرا، يضرب في الواحد الذي يقوم مقام الكثير لعظمه، المستقصى في =

لقد اشتهر بنو إسرائيل بكثرةِ مسائِلِهم وتَطلُّباتِهم التي تدل على سوء طويتهم وفساد سجيتهم وتعلق آمالهم بالدنيا وما فيها من جهةٍ، وبإرادة إحراج أنبيائهم وتكذيبهم من أُخرى، حتى جاء الأمرُ للأمةِ الخاتمة من الله تعالى بالكف عن مشاكلتهم: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[البقرة: ١٠٨]، قال أبو السعود: ﴿ أَمْ ﴾ منقطعة للإضراب والانتقال من حملهم على العمل بموجب علمهم بما ذُكر عند ظهور بعض مَخايل المُساهلة منهم وأمارات التأثر من أقاويل الكفرة إلى التحذير من ذلك، ومعنى الهمزة إنكار وقوع الإرادة منهم واستبعاده لما أنَّ قضية الإيمان وازعةٌ عنها، وتوجيه الإنكار للإرادة دون مُتعلَّقها للمبالغة في إنكاره واستبعاده ببيان أنه مما لا يصدُر عن العاقل إرادتُه فضلاً عن صدوره نفسِه، والمعنى بل أتريدون، ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ ﴾ وأنتم مؤمنون، ﴿رَسُولَكُمْ ﴾ وهو في تلك الرُّتبة من علوِّ الشأن وتقترحوا عليه ما تشتهون غيرَ واثقين في أموركم بفضل الله تعالى حسبما يوصيه قضية علمكم بشؤونه سبحانه. اهـ[1].

إذن فلقد نهى الله أمةَ محمدٍ ﷺ عن التشبه ببني إسرائيل في أطماعهم ومسائلهم، كالذي كان منهم حال سؤالهم لموسى ـ عليه السلام ـ: اجعل لنا إلهًا، أو أرنا الله جهرة، أو غيرها من المسائل المحرمة والمنهي عنها.

أما بنو إسرائيل فطباعُهم لا تتغير وخِصالُهم لا تتحول فلقد عكفوا على تعنُّتِهم وكفرهم وعنادهم، فها هم يسألون رسول الله ﷺ أن يُنزل عليهم كتابًا من السماء كما نزلت التوراة مكتوبة على موسى ـ عليه السلام ـ، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾[النساء: ١٥٣]، ثم يبيِّن القرآن الكريم ألاَّ عجب في

= أمثال العرب للزمخشري: (١/ ١٢٥).

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (١/ ١٨١).

رغبتهم فهم أبناء الذين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[النساء: ١٥٣].

أبناء الذين جعلوا قضية إيمانهم رهينة بإجابتهم في مَطمعِهم برؤية الله تعالى كما تحدثنا سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[البقرة: ٥٥]، قال محمد عبده: مسألة بني إسرائيل هذه كانت لأن طائفة منهم قالوا: لماذا اختُصَّ موسى وهارون بكلام الله من دوننا؟ وانتشر هذا القول في بني إسرائيل، فقالوا لموسى: لست أفضلَ مِنَّا فلا يحق لك أن تترفَّع وتسود علينا بلا مزيَّة، وإننا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. اهـ[1]. فكان الدافع لهم في مأمولهم الفاسد برؤية الله تعالى هو الحسد والغيظ وكذلك سائر أُمنياتهم تنمُّ عمَّا اكتنزته سرائرُهم من الأوضار والأمراض.

وإن العجب ليعظهم عندما تجد أنَّ آمالهم تعلقت بما هو أدنى وأقلّ مما في أيديهم فلقد جعل الله لهم المنَّ والسلوى طعامًا وفجَّر لهم اثني عشر نبعًا صافيًا للشرب، وجعل لهم ظلاً دائما يقيهم الحرَّ، وأسكنهم القرية آمنةً مطمئنةً، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٧ ـ ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة: ٦٠]. آيات متتاليات تنبىء عن كرم الله وفضله على بني إسرائيل، والتعبير بالقرية يشير إلى هذا فهو من الإقراء، وأهل القرية مَظنةُ الكرم والجود، وجعلَ الماءَ يتفجرُ لهم، والانفجار أعظم من الانبجاس، قال

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: (١/ ٢٦٦).

صاحب (المفردات): الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من مكان ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع. اهـ[1]. إلا أنَّ بني إسرائيل أبَوْا إلا الكفر والعناد؛ فأظهروهما على صورة ما صرَّحوا به عن تمنِّي البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾[البقرة: ٦١]، مما حمل موسى ـ عليه السلام ـ على الإنكار عليهم مُغضبًا بقوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾[البقرة: ٦١] والأدنى: هو الأقرب منزلةً والأسهل منالاً وذلك لكونه مَعوفًا غيرَ مرغوب فيه عند العقلاء، فأنكر عليهم طمعَهم بالأخسِّ ورجاءَهم للأرذل، وقوله ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ دون اسكنوا إشارة لحالهم وما يستحقونه وما ينسجم مع آمالهم الهابطة، وإنْ كان يمكن أنَّ منزلَهم الجديد أكثرُ ارتفاعًا عن سطح البحر ويوجب الصعود المادي.

وآخر أنموذج سنقف عنده مما يدل على آمالهم الذميمة قوله تعالى حكاية عنهم ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ

---

(١) الراغب الأصفهاني، المفردات: (ص٦٩).

رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾[الاسراء: ٤ ـ ٨]، (والقضاء: الحكم والفصل في الأمور)[1]، وهذا المعنى المتبادر، لكن عند تعدية القضاء بإلى فإنها تحمل معنى الأداء والإبلاغ، ونقول قضيت إليه الأمر أنهيته له: وقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[طه: ١١٤]؛ أي: من قبل أنْ يُبينَ لك بيانُه، وقضى فلان صلاته: فرغ منها، وقضى الدين: أداه، ويقال قضى الرجل: إذا مات وأنهى عمره المقدر، وعليه فإنَّ قوله تعالى ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم، حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي من مآلهم وما سينتهي إليه أمرهم، لا أنه قضاءٌ قهريٌّ عليهم تنشأ عنه أفعالهم بلا اختيار منهم، بل هو مجردُ وصفٍ لواقعهم كما هو في علم الله تعالى، فالله سبحانه لا يأمر بالإفساد ـ حاشاه تعالى ـ ولا يُجْبِر عليه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[الأعراف: ٢٨]، إنَّ علم الله بما سيكون كعلمه بما هو كائن، فما سيكون بالقياس إلى علم الله كائن وإن كان بالقياس إلى علم البشر لم يكن بعد، وحُكم القاضي لا يكون إلا من خلالِ قرائنَ وأدلةٍ، إذ قضاؤه تبعٌ وأثرٌ لجناية سبقت ـ ولله المثل الأعلى ـ، فلما علم الله خبث نفوس بني إسرائيل وإرادتَهم للفساد وتعلُّقَ آمالِهم بالسوء والشَّر قضى إليهم وبيَّن لهم أن لهم في الأرض إفسادين ـ انطلاقًا مما استقر في نفوسهم من الخبث والمكر فليس القضاء أُنُفٌ من غير سابق جريرة ـ وأنهم سَيَعْلونَ في الأرض المقدسة ويسيطرون، وكلما ارتفعوا في الأرض وتمكنوا فيها وأظهروا الفساد والشر سلَّط عليهم بعض عباده لقهرهم واستباحة حرماتهم؛ فيدمرونهم تدميرًا، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: (١٠/ ٢١٥).

شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾[الإسراء: ٥]، والدليل على كون نفوسهم مطويَّةٌ على حبِّ الإفساد وتمني السوء، أنهم بمجرد أن قويت شوكتهم وكثر عددهم وزادت أموالهم أعملوا ما آتاهم الله في إفسادٍ آخر جديد.

ولتأكيد أنَّ قضاء الله إليهم كان وصفًا لحالهم وليس إلزامًا وقطعًا لاختيارهم أنه بادرهم بالقاعدة الشرعية والسُّنَّة الكونية التي لا تتبدل: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴾[الإسراء: ٧]، إشارة إلى ضرورة إصلاح أحوالهم، ومعالجة قلوبهم وتبديل ما طُويت عليه من ابتغاء السوء وإرادة الإفساد؛ لأنَّ القاعدة الآنفة الذكر لا تتغير في الدنيا ولا في الآخرة، قاعدةٌ تجعل عمل الإنسان كله له بكل ثماره ونتائجه، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ومن جنسه، سواء كان عملاً قلبيًا أم عملاً بالجوارح، قاعدةٌ تجعل الإنسان مسؤولاً عن أعماله واختياراته، وعواقبها عائدةٌ إليه فإن شاء أحسن وإن شاء أساء، وعندها لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليها الجزاء.

إن أبناء إسرائيل ـ عليه السلام ـ وأخوة يوسف ـ عليه السلام ـ أصل أسباط بني إسرائيل (وكل سبط من نسل رجل من أخوة يوسف عليه السلام)[1]، وهم أول من درج على صناعة الآمال الذميمة حتى صارت سجيةً وخُلُقًا في أبنائهم وأسباطهم من بعدهم فهم من قالوا: ﴿ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٣/ ٣٧٢)، ويؤكد ابن كثير كالكثيرين من أهل العلم أن إخـوة يوسف ليسوا بأنبياء، قال ابن كثير: واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف وظاهر سياق سورة يوسف، يدل على خلاف ذلك، قال ابن منظور السبط: ولد الولد: وولد البنت، وأصل الكلمة الاسترسال والامتداد، ويقال قبائل العرب وأسباط بني إسرائيل، اللسان: (٧/ ٣٠٨).

﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[يوسف: ٩]، وانظر للخيارين المطروحين فإما القتل وإما الطَّرحُ أرضًا، (وتنكير ﴿أَرْضًا﴾ وإخلاؤها من الوصف للإبهام؛ أي: أرضًا منكورةً مجهولةً بعيدةً من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة)[١]. وأرقُّ وألطف الخيارين فيه الموت الأكيد، لا سيما لمن في عمر يوسف ـ عليه السلام ـ في ذلك الوقت، والغاية والمأرب من هذه الشنيعة الشنعاء والدَّاهية الدهياء: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ أي: يقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم إلى غيركم ولا يساهمكم في محبته أحد.

قال أبو السعود: وإيثار الخطاب في ﴿لَكُمْ﴾ وما بعده للمبالغة في حملهم على القول؛ فإن اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل. اهـ[٢].

وانظر لعبارته رحمه الله: (اعتناء المرء بشأن نفسه)؛ أي: مطامعه ومحبوباته، وهو عين الأمل الذميم والرجاء الفاسد، ثمَّ ها هم يَتمنَّون ما يدل على فساد أمانيهم بقولهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ وتحتمل التوبة إلى الله والإنابة إلى الحق، أو صالحين مع أبيكم بعذر تمهدونه، أو صالحين في أمور دنياكم بعد فراغكم من يوسف وخُلوِّ وجه أبيكم.

إذًا فإنَّ بني إسرائيل لآبائهم في سوء آمالهم تبعٌ وهم لهم فيه مُنقادون، وحيثما نظرت في القرآن حال إخباره عنهم ستجد طرفًا من هذه التبعية والصِّلة.

ثالثًا ـ المنافقون في المدينة المنورة:

كثر الحديث في القرآن الكريم عن النفاق والمنافقين، صفاتِهم وأخلاقِهم وأنهم شرُّ أنواع الكفار، وأن مصيرهَم في الدرك الأسفل من النار، ومن ثَمَّ تحذير المؤمنين منهم؛ لأن (بلية المسلم بهم أعظم من بليته بالكفار المجاهرين، ولهذا

(١) الزمخشري، الكشاف: (٣/ ١٤٦).

(٢) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٣/ ٤٠٨).

قال الله تعالى في حقهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾[المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر؛ أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يَرِدْ ها هنا لحصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم، بل هذا من إثبات الأولية والأحقية لهم في هذا الوصف)[١].

والمنافق هو الذي يُسِرُّ كفره ويظهر الإيمان، وأصل التسمية (من نافقاء اليربوع حيث يدخل جحره من نافقائه ويخرج من قاصعائه، وكذلك المنافق يدخل الإسلام من وجه ويخرج عنه من آخر)[٢].

ولا شك أن اليربوع ما اتخذ مدخلاً لجحره غير مخرجه إلا ليسهل عليه صيد فرائسه، ولينجوا من أعدائه فلا يصير مأكولاً لهم، والمنافق لا يفعل النفاق إلا لأمله بأنه السبيل لتحصيل المكاسب والنجاة من المكاره والمصاعب كما حدَّثنا القرآن الكريم عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٧٢ ـ ٧٣]. نقل ابن كثير عن مجاهد وغير واحد: أنها نزلت في المنافقين. اهـ[٣].

وقال أبو جعفر: هذا نعتٌ من الله تعالى ذُكر للمنافقين. اهـ[٤]. فما حالهم إلا كما قال ربنا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[الحج: ١١]، فالمنافق

---

(١) ابن قيم الجوزية، طريق الهجرتين: (ص٧٥).

(٢) ابن منظور، لسان العرب: (١٠/ ٣٥٧) وهو مصطلح إسلامي ومن مبتكرات القرآن الكريم كما صرح بذلك ابن منظور والبقاعي وغيرهم الكثيرون من أهل العلم فلم يكن مستخدمًا قبله عند العرب.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: (٢/ ٣٥٢).

(٤) الطبري، جامع البيان: (٤/ ٣١٧).

يقصد من نفاقه جلب الخير لنفسه ودفع الضر عنها ـ فيما يظن ـ وما علم أنـه إنما يُرديها في المهالك والبلى، وإن بدا له من فعله ما يُفْرحه ويَسُرُّه: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[التوبة: ٨١ ـ ٨٢]، ولخطورة ظاهرة النفاق، وليفضح الله فسادهم وسوء خلالهم أنـزل سورة باسمهم تتحـدث عنهم وتكشف خبيئات نفوسهم هي سورة (المنافقون) حيث كشفت كيف أنهم يحبون السوء للإسلام والمسلمين ويرجون الشر لهم حتى صاروا يتنادون فيما بينهم لأجل ذلك، كما قال الله عنهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ﴾[المنافقون: ٧]، وقـولهـم منصـرف للأنصار بتوقيف النفقة على إخوانهم الفقراء من المهاجرين عسى ﴿يَنفَضُّواْ﴾؛ أي: يتفرقوا عن رسول الله ﷺ والمدينـة، تفرقًا فيه انكسارٌ فيرجعـوا إلى مكة وأهلهم وأشغالهم والذِّلةُ في عيونهم، ولقد حرص المنافقون ومعهم أهل الكتاب على صدِّ المسلمين عن دينهم، وما تركوا سبيلاً إلا سلكوه، ولا فجًا إلا اقتحموه، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[آل عمران: ٧٢]، وقـال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: ١٠٩]، ومـا علم هؤلاء الأجلاف المناكيد أنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه لا يعجزه شيءٌ، وبيده خزائن السمـوات والأرض، حتى ألقمهم القرآن الكريم الحجر ردًّا على ترهاتهم فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ٧].

ثم يتمادى المنافقـون في آمالهم الخبيثـة لما يتجاوز إرادة توقيف النفقـة، فهاهم يقولون كما حكى عنهم ربنا في القرآن الكريم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، قال ابن عاشور: وهذا وصف لخبث نواياهم إذ أرادوا التهديد وإفساد إخلاص الأنصار وأخوتهم مع المهاجرين بإلقاء هذا الخاطر في نفوس الأنصار بذرًا للفتنة والتفرقة. اهـ[1].

والجملة خبرية في معنى الإنشائية إذ تتضمن الدعاء على المسلمين، وجاءت على صيغة الإخبار لتدل على ثقة المتكلم كأنما يملك بينةً على ما يزعم، ولذلك جاء باللام الموطئة للقسم في قولـه «لئن» واللام الواقعة في جوابه في «ليخرجنَّ» بالإضافة لنون التوكيد الثقيلة، والمضارعة لاستحضار الصورة وتتضمن التوكيد، والأعز يقصد بـه جمهور المنافقين في المدينـة، وقصدوا بالأذل النبي ﷺ وفريقه المؤمنين، غيـر أن الله خيب فألهم ونكَّـس أملهم، فقـال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[المنافقون: ٨]، وتقديم المسند على المسند إليـه في ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ يفيـد معنـى القصـر، وإعـادة اللام فـي قولـه ﴿وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتأكيد؛ إذ قد تخفى عزَّتُهم على عديمي البصر والبصيرة في بعض الأزمان، وبسبب بعض الظروف، فعزتهم ثابتة؛ لأنها مستمدة من عزة الله تعالى وهذا مالا يدركه ولا يعلمه المنافقون.

إذًا فالمنافقون لا يرجون الخير للدين وأهله، ويحالفون كلَّ عدوٍّ لهم عسى يظفـروا بالعلـو عليهم وقهرهم، إلا أن يُمكَّـن للمـؤمنين فإنهم ينشَمِرون لصفهم مظهرين الولاء والانتماء، وكل ذلك لأن آمالهم الفاسدة تعلقت بالدنيا وشهواتها،

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٥/ ١٠٥).

وسولت لهم أنفسهم أن المراوغة سبيلهم، والنفاق طريقتهم؛ فسلكوهما سلوك الجد والحرص فإنْ يروا مُحالفَة الكفار تبلغُهم أطماعَهم فلن يتخلفوا، وإنْ يروا كُنونَهم في جحور نفاقهم الأفضل يَكِنُّوا فيها، أملاً أن تأتيهم البشائر من وراء حجب الغيب بأنهم الأعز والأقوى، غير أن القرآن الكريم يَسْخَرُ منهم ومن مكرهم ويأتيهم بالبشائر ولكن على عكس ما يرجون، فيقول ربنا تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩].

ولقد بينت سورة (البراءة) الكثير من صفات المنافقين وكشفت خبيء ضمائرهم، وما يعتمل فيها من الفساد والسوء وكيف أن أعظم أمانيهم وأحب مرغوباتهم إشعال الفتنة في صف المؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[التوبة: ٤٧].

والتعبير بـ «أوضعوا» يدل على رغبتهم الجامحة في الإفساد، وهي من (وَضَع البعيرُ وضعًا: إذا أسرع، وأوضَعتُه أنا؛ أي: حملته على الإسراع، والمعنى: لأوضعوا ركائبهم بينكم، والمراد به المبالغة في الإسراع بالنمائم لأن الراكب أسرع من الماشي)[1].

ويؤكد القرآن العظيم حرصهم على الفتنة: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾[التوبة: ٤٨]، والمعنى أنَّ ابتغاءهم للفتنة ليس شيئًا جديدًا فإنَّ لهم سابقةً يوم أحد وغيره، ثم هم يسلكون مسارب مختلفة للفتن، فتقليب الأمور تصريفها من وجه إلى آخر، وبذل

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: (٣/ ١٧٥).

الوسع والاجتهاد في المكر والحيلة والتأمل والتدبر في أفضل الوسائل التي تبلغهم غاياتهم.

ثم يمضي السياق ببيان أن عواقب مكرهم بالمؤمنين وإرادتهم السوء لهم لن تترجم إلا بإحدى الحسنيين على عكس ما قدَّروا، وأنَّ ما تأمَّلوه لأنفسهم سينقلب على رؤوسهم عذابًا في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[التوبة: ٥٢]، وما هذه العاقبة إلا لأن آمالهم ذميمة فاسدة وكذلك عاقبة من شاكلهم.

عافانا الله وإياكم.

رابعًا ـ أهل النار يوم القيامة:

سبق وأن تحدثت عن مقومات الأمل والرجاء المذمومين في الفصل الثاني من الرسالة وكان آخرها الأمل العبثي حيث ذكرت طرفًا من آمال أهل النار، وبيَّنْتُ أنَّ سبب فسادها كونُها متأخرة عن زمن الإمكان وبعد فوات الأوان، وسيكون هذا المطلب الموجز مزيد تفصيل وجلاء للأمر، ذلك أن أحوال النار وأهلها تشغل حيزًا ليس بالقليل في كتاب الله تعالى، وللحديث عنها أثر بالغ في النفس؛ فتتحرك كوامنها وتتفاعل خلجاتها فتكون أدعى للاستجابة والامتثال.

إنَّ الحديثَ عن يوم القيامة حديثٌ عن مستقبل لم يقع بعد، لكن القرآن الكريم شخصه وجسده فكأن التالي له ينظر ويسمع ويحس ويدرك أمرًا يقع في ساعته، لقد جسد القرآن آمال أهل النار ليُبيِّن فسادها وأنها خارج حدود الإمكان وبعد الفوات، وليظهر الأثر البليغ لانتكاسها وخيبتها، وانظر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾[سبأ: ٥١ ـ ٥٤]. وهذا تجسيد لنفسية أهل النار وانتكاساتهم وخيبة آمالهم يوم الفزع والخوف الرهيب، فهم عند معاينة النار يتمنون النجاة والفوت والتفلت منها لكنَّ أَخْذَ الله لهم أليم شديد، ولتأكيد عدم قدرتهم على التفلت وصف جهنم بالقرب فلا فرصة للهرب، وإن سيزعموا الإيمان في ذلك الموقف، وحالهم كالذي يريد تناوله ـ أي: الإيمان ـ وتناول النجاة بسببه، فيعيد قطع آمالهم ببيان بعده وبعد الفوت عنهم؛ لتقصيرهم باتباع النبي ﷺ زمن الإمكان: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢] والتناوش: هو التناول بسهولة ويسر، واختير التعبير بها ليؤكد بُعْدهم في تطلب الممكن وإغراقهم بالأوهام، ثم يبين فساد آمالهم ومشتهياتهم وأنها بعيد دركها، عسير نوالها، وهذا سرُّ التعبير بـ «حِيلَ» فالمحال: ما لا يمكن وقوعه، والحِوال: كل ما يفصل بين شيئين، فكأنه قال: فُصل بينهم وبين مشتهياتهم بحاجز لا يمكن مجاوزته؛ تيئيسًا لهم، والقرآن إذ يفعل فإنه يقصد لبيان الأثر البالغ لتلك الخيبة، والتي لا تقل في فعل التعذيب لأهل النار عن ذات النار والحميم.

فحين يتأمل المُعذبون في النار النجاةَ فلا يجدون ردًا ولا جوابًا، وتبورُ أحلامُهم فإنهم عندها يتضاعف شعورهم بالأسى والحزن، ولقد ورد في الأثر عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ ذَكرَ أهلَ النار، قال: «فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، فيقولون: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[غافر: ٥٠]، قال: فيقولون: ادعوا مالكًا، فيقول: ﴿مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، قال فيقولون: ادعوا ربكم فإنه ليس أحدٌ خيرًا من ربكم فيقولون ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٧]، قال: فيجيبهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[المؤمنون: ١٠٨]،

قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون في الحسرة والزفير والويل»[١].

لقد حدثنا القرآن الكريم عن صورة من صور العذاب لأهل النار من خلال دوام إحياء الأمـل في نفوسهم، ثم إذا ما أحسوا باقتراب بلوغهم مأمولهم خيبَّهم ونكَّسهم، كما في قولـه تعالى: ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾[إبراهيم: ١٧]، وهي أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لولا أنَّ الله كتب أنْ لا موت فيها، وإن كان يتمناه ويرجوه ليتخلص من العذاب الشديد، قـال تعـالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾[فاطر: ٣٦]. فأهل النار يطمعون بالموت ويَوَدُّونه لأنفسهم لكن الله تعالى أوعدهم بالخلود: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هـود: ١٠٧]، وقـال تعـالـى: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: ١٢٨]، والاستثناء في الآيتين مختص بالعُصاة من أهل التوحيد على الراجح من أقوال أهل العلم، كما نقل ذلك أبو الفرج بن الجوزي في زاد المسير[٢] وهو اختيار ابن جرير الطبري في الجامع[٣]، حيث يمكث أولئك في النار ما شاء الله ثم يُخرجُهم بشفاعةِ الشافعينَ من النبيينَ والملائكة والمؤمنين، فتسعهم رحمة الله

---

(١) الترمذي، السنن، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار: (٩/ ١٥٨) وقال: الحديث حسن صحيح غريب، وضعَّفه الألباني في ضعيف وصحيح سنن الترمذي: (٦/ ٨٦)، وأوردنا الحديث لأنه ينطق بالذي ينطق به القرآن الكريم والترتيب فيه للأحداث مقبول، والله تعالى أعلم.

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير: (٤/ ١٦٠).

(٣) الطبري، جامع البيان: (٧/ ٣٨٥).

حتى يخرج من النار من قال يومًا من الدهر مؤمنًا: لا إله الا الله.

إذًا فإنه الأمل في غير وقته وفي غير مَحلِه عند انتكاسه يُعدُّ عذابٌ يُضافُ إلى العذاب في النار.

ولا يزال بعض الأمل يتحرك في نفوس أهل النار فلا يَفْتُرون عن الزفيرِ والصُّراخِ والعويل سائلين الله النجاة من العذاب والحميم، ولكن هيهات: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[غافر: ١١]. حتى يأتي الرد من العلي القدير، الرد الذي يصعقهم ويبدد آمالهم ويكون على مسامعهم أشد من العذاب والحميم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٧]؛ أي: أوَما عِشتُم في الدنيا أعمارًا لو كنتم ممن ينتفعُ بالحقِّ لانتفعتم به في مدة أعماركم، ثمَّ لما كان طلبُهم بعيدًا عن الأدب مع الحضرة الربانية المقدسة، قالوا: ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[فاطر: ٣٧]، (جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه، ولم يقولوا إن الأمر بيد الله، فقال الله لهم: إذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمَّرناكم مقدارًا يمكن التذكر فيه والإتيان بالإيمان والإقبال على الأعمال)(١).

ولا يكتفي القرآن ببيان خلودهم في النار وعدم خروجهم أو موتهم، بل يؤكد الزيادة في تعذيبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ

(١) الرازي، التفسير الكبير: (١٢/ ٤٨٥).

وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾[الزخرف: ٧٤ ـ ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾[الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء: ٥٦]. وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[النبأ: ٣٠]، والأمر في ﴿فَذُوقُوا۟﴾ للتوبيخ والتقريع، وفرَّع عليها بالفاء في «فلن» ما يزيدُ تنكيدَهم وتحسيرَهم بأنَّ الله سيزيدهم عذابًا فوق ما هم فيه كما في قوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[نوح: ٢٨]. والمعنى: سنزيدكم عذابًا زيادةً مستمرةً في الأزمنة القادمة والزيادة تحتمل أنواعًا جديدة من العذاب أو زيادةً من نوع ما هم فيه بتكريره في المستقبل، قال ابن عاشور: إذا ابتدئ بنفي الزيادة بحرف تأبيد النفي وأردف الاستثناء المقتضي ثبوت نقيض حكم المستثنى منه للمستثنى فصارت دلالة الاستثناء على معنى: سنزيدكم عذابًا مؤبدًا، وهذا من تأكيد الشيء بما يشبه ضده وهو أسلوب طريف من التأكيد إذ ليس فيه إعادة لفظ، فإن زيادة العذاب تأكيد للعذاب الحاصل. اهـ[1].

وأيُّ تهديدٍ ووعيد يقطع آمالهم ويبدد رجاءاتهم أكثر من هذا الخطاب الرعيب المهيب، الذي كان النفي فيه بحرف «لن» وهو لنفي المستقبل ـ في هذا السياق ـ ويقتضي هذا التركيب من حرف النفي والمضارع ثم الاستثناء تأكيد الزيادة في العذاب والخلودِ فيه أبدًا بغير انتهاء.

وانظر إلى الأثر النفسي البليغ الذي يتركه هذا التركيب القرآني البديع فإنَّ بدايته تُطمع بالنجاة حتى إذا اشرأبت آذان وعيون أهل النار لسماع نوع الزيادة أملاً بالنجاة أو التخفيف أو حتى الموت، جاءتهم نهايته كالصاعقة مؤذنة بالزيادة والشدة

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير: (١٦/ ٥١).

والخلود في العذاب والهوان، فيزدادون حزناً على حزنهم وعذابًا فوق عذابهم.

فإذا تَحصَّل لأهل النار اليأسُ الكاملُ من الخروج والنجاة أو التخفيف تتحركُ آمالُهم نحو مَن عرفوهم من المؤمنين من أهل الجنة عسى يُعطوهم بعضَ الشراب البارد أو الماء: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾[الأعراف: ٥٠]، وتلحظ ذهابهم في أطماعهم وآمالهم بعيدًا حيث يسألون الإفاضة، وشأن من في مثل هيأتهم وحالهم طلبُ النَّزر اليسير مما يسد الرَّمق ويُخفف الويل، لكنهم لتعودهم على فاسد الآمال في الدنيا فإنهم ما أحسنوا صالحها في الآخرة، ولا ولجوها من أبوابها فتراهم يتوجهون في المسألة لمن لا يملك الأمر معرضين عن سؤال الملك القدير. قال الرَّاغب: والإفاضة: مِنْ فاض الماء إذا سال منصبًا[1]. اهـ. وقدموا طلب الماء مُناسبةً لحالهم، فَمَنْ في الحميم والنار أحوج للماء منه للطعام، لكنهم لفاقتهم واضطرابهم كانت مسألتُهم مبهمةً مُتقلقلةً، فقالوا: ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾، حتى جاءهم الرد الفاصل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الأعراف: ٥٠]، ولا يزال أهل النار في رجاء الفرج بالخروج أو الموت إلى أن يذبح الموت فحينئذ يقع منهم الإياس وتعظم عليهم الحسرة والحزن، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون فيقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[مريم: ٣٩]»[2]. وخرَّجه

---

(١) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن: (ص٣٠٩).

(٢) البخاري، الصحيح، باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾ (٣/ ٣٥٨).

الترمذي بمعناه وزاد: «فلولا أن الله قضى لأهل الجنة بالحياة والبقاء لماتوا فرحًا، ولولا أن الله قضى لأهل النار بالحياة والبقاء لماتوا ترحًا»[1].

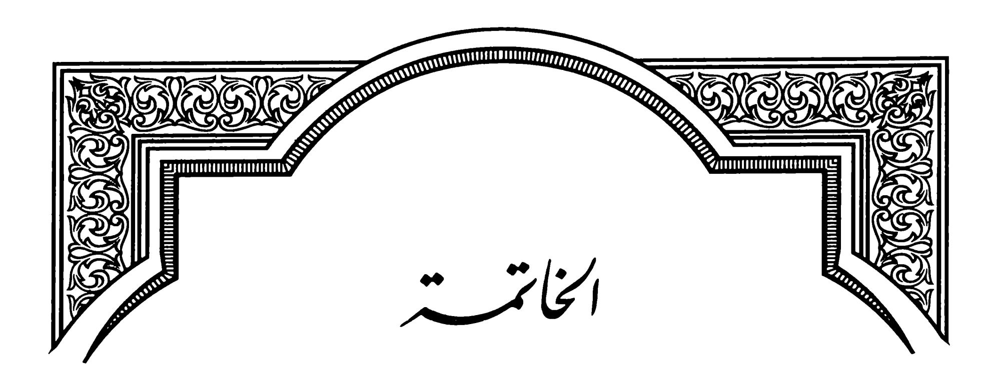
نسأل الله العافية.

تم الفصل الرابع والأخير بفضل الله وعونه

والحمد لله رب العالمين

❐ ❐ ❐

(١) الترمذي، السنن، باب: سورة مريم: (٥/ ٤٣٣)، وقال حسن صحيح، صححه الألباني، صحيح الترمذي: (٧/ ١٥٧)، وقال زيادة الترمذي ضعيفة.



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم ال صالحات، رفيع الدرجات، ذو المنن والفضل والهبات، والصلاة والسلام على سيد الخلق وختام النبوات.

وبعد:

فإنني أصل إلى خاتمة بحثي ورسالتي لأخط في هذه الأسطر القلائل أبرز النتائج التي انتهيت إليها والخلاصات التي استقر أمري عليها في موضوعي الموسوم بـ (الأمل والرجاء في القرآن الكريم، دراسة موضوعية).

وهي نتائج خاصة وعامة، أما الخاصة منها:

١ ـ الأمل والرجاء في القرآن الكريم قضية كبيرة لها مصطلحاتها الخاصة التي تفردها عن غيرها، وتشكل بمجموعها إطارًا منضبطًا متماسكًا، بحيث تتضافر فتُكمل المفهوم وتجعل منه قضية مستقلة، بل نظرية قرآنية أو قانوناً.

٢ ـ اشتمال القرآن الكريم على المئات من الآيات التي تتحدث عن مفهوم الأمل والرجاء، بصريح العبارة وبخفي الإشارة، مما يجعل أمر دراستها ملحًا، وبالرغم من وجود جهود للباحثين حول الموضوع ـ وكلها جهود مباركة ونافعة وتُعَدُّ من الخطوات على الطريق ـ أشرت إليها في غُرة الدراسة ومقدمتها غير أنها لا تغني عن هذه الدراسة، وهذا يظهر من خلال نتائجها، بالإضافة لما أشرنا له من طبيعة الدراسات السابقة.

٣ ـ بالنظر إلى التقسيم المنطقي لمفردات موضوع الأمل في القرآن الكريم

سواء من خلال مصطلحاته أو الآيات المتضمنة للمفهوم نجد أنه ينقسم إلى نوعين: هما المحمود والمذموم. ولكلٍّ مقوماته وسماته، ودوافعه وبواعثه، وآثاره ونتائجه، والنماذج والأمثلة المؤكدة له، مع بيان وجه ارتباط كل منهما بالسنن والقوانين الناظمة للكون.

٤ ـ الأمل والرجاء من حيث الوجود في النفس البشرية قضية واقعة ضمن الاختيار والإرادة، ويمكن أن تصنع صناعةً، لذا فلقد حرص القرآن الكريم على تحريك دواعيها، وبيان مبرراتها، وأهمية اشتمال النفس على الحميد منها، بل لقد أوجب على الإنسان كُلفة تحصيلها، واستبعاد ضدها من اليأس والقنوط والإحباط.

٥ ـ الأمل والرجاء قضية تتجاوز المحابر والقرطاس إلى الواقع والحياة، فهي قضية تجريبية ولها تطبيقات في حياة الناس، وتترتب عليها آثارها بصورة منطقية سواء كان المحمود منها أم المذموم، مما يعطي للدراسة قيمة إضافية، حيث يمكن إسقاط الدراسة على واقع الناس بيسير من النظر والتدبر.

٦ ـ تضمن القرآن الكريم العديد من النماذج العملية ليبرهن على قضية الأمل والرجاء واستتباع كلٍ من قسميه لآثاره في النفس والحياة، ليجعل منها سنةً ماضيةً تضاف إلى سنن الله في كونه.

٧ ـ المادة العلمية المتعلقة بدراستي بصورة مباشرة قليلة جدًا في كتب السابقين، والتفاسير المعاصرة (كالمنار) لمحمد رشيد رضا و(الظلال) لسيد قطب و(التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور و(تفسير الشعراوي) وغيرها أكثر عناية بالموضوع بله الدراسات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مما دفع الباحث للرجوع إليها كثيرًا، وليس في هذا إهمالاً للسابقين أو جحدًا لفضلهم؛ فهم الذين لهم قصب السبق وفضيلة الإحكام والسبك لعلوم التفسير، لكن البحث له طبيعة خاصة

تفرض لوازم خاصة.

٨ ـ لا شك أن المجهود المبذول في دراسة نظرية الأمل والرجاء في القرآن الكريم قاصرٌ وبضاعته لم تبلغ الكمال، ولا تزال القضية بكرًا وتحتاج للمزيد من الجهود والأبحاث لارتباط مصير الأمة بآمالها، وتعلق مستقبلها بإراداتها وغاياتها، ودراستي لا تتجاوز فتح الباب وتعليق الجرس لهذا الموضوع العريض، ولابد من دراسات لاحقة.

وأما النتائج العامة والتي لا أجد بدًا من ذكرها فهي:

٩ ـ أن المكتبة الإسلامية أحوج ما تكون إلى الدراسات الفكرية للقرآن الكريم المتعلقة بواقع الأمة وتحدياتها والأخطار المحدقة بها ووسائل النجاة منها، وتخطي المكائد والمؤامرات التي تحاك بالليل والنهار ضدها وما أكثرها.

ـ النتيجة العاشرة: القرآن الكريم بحرٌ لا ينضب، وفيضٌ لا يغيض، وغيثٌ لن يقلع أبدًا، وواجب الباحثين إظهار كنوزه على صورة قابلة للتطبيق، تجعل من شعار «القرآن هو الحل» حقيقةً تدبُّ على الأرض بساقٍ وقدمٍ، مما يعطي مجموع الأمة فضلاً عن علمائها مصداقيةً أمام ذواتها ثم غيرها من أصدقائها وأعدائها.

أي: يجب على الدراسات القرآنية أن تتغير في طريقة خطابها، فلا ينبغي أن تظل مقصورة على المتخصصين، سجينة مكتبة الرسائل الجامعية، غايتها نيل الدرجة العلمية فحسب، وأن تصير مؤهلة لخطاب العامة كما هي للخاصة، وكلٌ ينتفع منها بحسبه، وهذه من أعظم أخلاق القرآن الكريم ومن بعده سنة النبي الأعظم ﷺ.

وبذا نردم الفجوة التي تكبر كل يوم بين العلماء والعامة، فتنتظم المسيرة بقوة جمهور الناس، مُسددةً بتوجيه أهل الفكر والعلم؛ لتحقق الأمة جميع آمالها

وغاياتها على بصيرة من الكتاب والسنة.

* توصية:

هي من وحي النتيجة العاشرة، أتقدم بها بين يدي أساتذتي وعلماء الأمة بكل أدب وإجلال، وأخص بها جامعتي التي أحببت (اليرموك)... الجامعة التي سبقت غيرها بتأسيس قسم للدراسات العليا في أصول الدين، والتي خرَّجت أفواجًا مباركة من طلاب العلم والعلماء.

أقول: حتى تتجمع الطاقات، وتتسدد الخطوات، وليكون العمل العلمي تراكميًا ناضجًا فإنه لابد من تأسيس رابطة علماء جامعة اليرموك، وأن تنال الجامعة شرف رعايتها، عسى أن تكون نواة لرابطة علماء الأردن، بحيث تَعمِد الرابطة إلى عقد لقاءات دورية لأساتذتها وخريجيها لمناقشة ما يلزم من المشاريع العلمية، والنظر في أحوال الأمة وحاجاتها، سواء كان المجتمع المحلي في أردن الحشد والرباط، أم العالم الإسلامي، وأن تتخذ الرابطة الموقف الشرعي الحقيق بكل مسألة، وما يترتب عليه من لوازم عملية بقدر الوسع والطاقة، وبذا يتصدر العلماء الناس ويقودونهم لما فيه الخير والصلاح وتحقيق الآمال والرجاءات للأمة.

إنَّ مما يحزن القلب أنَّ العلماء مغيبون عن فضاءات الأحداث وواقع الناس، بل لعل العلماء تَبَعٌ للعامة في كثير من الظروف، مما أذهب الكثير من هيبة العلماء ومكانتهم لدى جمهور المسلمين، كما أنَّ مغبة الركون للدنيا وعدم الاضطلاع بالواجب تُجاه عيال الله عند الله وخيمة، ولقد أخذ الله تعالى الميثاق على العلماء أن يبينوه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ورابطة علماء اليرموك مما سيعين على النهوض بهذه المسؤوليات الجسام، «فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» (رواه أحمد وصححه الألباني)،

عسى أن لا نكون من الذين نبذوا الكتاب وراء ظهورهم واشتروا به ثمنًا من لعاعات الدنيا وزخارفها، نعوذ بالله العظيم.

وبعدُ: فبضاعتي هذي وغايةُ حيلتي ... واللهُ يسأل عبدَه الإمكانا

فإنْ يكن خيرًا فمحضُ فضيلة ... والرب جادَ وسؤلنا أعطانا

أو إن يكن زللاً فذنبُ مقصرٍ ... والله يغفرُ ما يكونُ وكانا

ثم الصلاةُ على الرحيم محمدٍ ... وله الوسيلةُ ساكنًا عدنانا

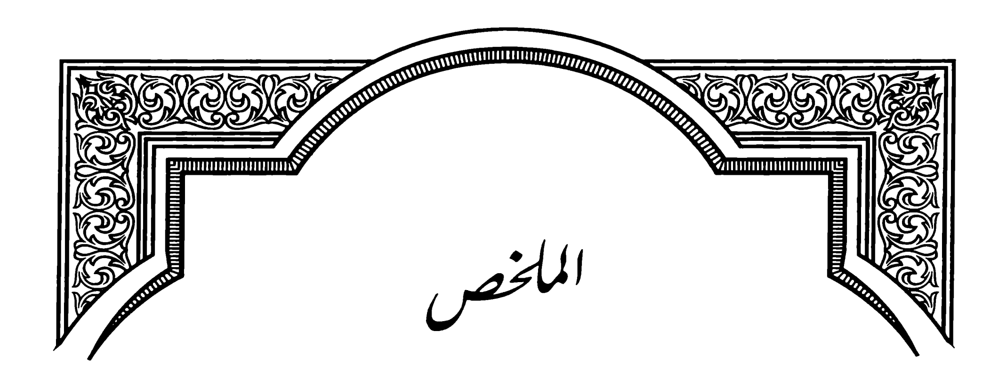
فهذا الجهد، وعلى الله القبول، سائلاً العلي القدير أن يتولاني برحمته وكرمه، وأن يغفر لي الزلل، ويتجاوز عن الخطل، وأن يجزي مشايخنا وعلماءنا خير الجزاء، إنه غفور شكور، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه وتابعيهم ونحن معهم أجمعين.

منجد محمد رضوان أحمد أبو بكر

كلية الدراسات العليا/ جامعة اليرموك - إربد

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م





الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الخلق والمرسلين.

وبعد،

فهذه رسالة مقدمة من الطالب منجد محمد رضوان أحمد أبو بكر بعنوان: الأمل والرجاء في القرآن الكريم، دراسة موضوعية. استكمالاً لمتطلبات درجة العالِمية «الدكتوراه»، في كلية الشريعة/ قسم أصول الدين التابع لجامعة اليرموك ـ إربد، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

حيث تناول الباحث في هذه الدراسة موضوع الأمل والرجاء في القرآن الكريم وكيف أنه يحيهما في نفوس أتباعه بمجرد مطالعته وتدارسه، كالأمل بالرزق، والنصر، والتمكين للأمة، والنهوض من الكبوات، والنجاة في الآخرة ودخول الجنة، الأمل بكل صوره والرجاء على اختلاف أشكاله، وبدأ الباحث بدراسة مصطلحي الأمل والرجاء في اللغة العربية ومواطن ورودهما في القرآن الكريم، وخلص لتعريفهما والتفريق بينهما، وبيان جوانب الاتفاق التي تجمعهما، ثم أورد الباحث المصطلحات التي تقترب منهما في المعنى من خلال استعراضها في اللغة والسياق القرآني، وعقد مقارنة بينها جميعًا وبين موضوع الدراسة، وكان هذا هو الفصل الأول.

كما بيّنَ في الفصل الثاني أنواع الأمل والرجاء وكيف أنهما ينقسمان للحميد والذميم، ثم بيّن مقومات كل نوع على حدة، مع الإشارة إلى أن الدراسة تجاوزت

المصطلحات لتشمل المفهوم عمومًا وكل ما يدل عليه.

وتناولَ في الفصل الثالث بواعث الأمل والرجاء في القرآن الكريم بنوعيهما وكيف أن القرآن الكريم يعزز الحميد ويحذر من الذميم، ثم كَشفَ عن حقيقة الصلة الوثيقة بين آمال الأمة ورجاءاتها من جهة وبين فهمها لسنن الكون والتعاطي معها بصورة إيجابيـة من أخرى، وكيف أن عدم الفهم للسنن والقوانين الناظمة للكون سيفضي إلى الآمال والرجاءات غير الحميدة.

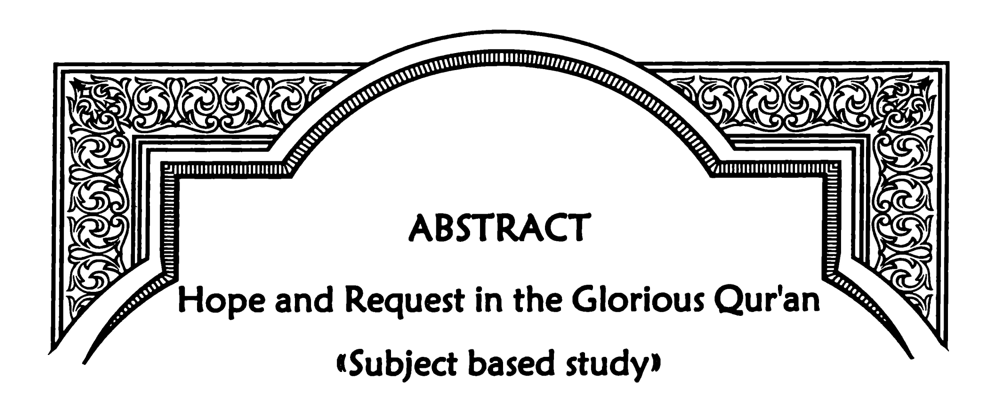
ثم كان الفصل الرابع ميداناً لبيان الآثار الناجمة عن كل نوع من هذه الآمال في حياة الفرد والمجتمع، سواء كان الحميد منها أم الذميم مع التمثيل من القرآن الكريم لكلٍ.

وتوصل الباحث من خلال الدراسة إلى أن بعث الأمل والرجاء في الأمة غاية قرآنية أرادها بحرارة وكرّس الكثير منه لأجلها، بل لقد ضم المئات من الآيات الداعية لبعثه وإحيائه حتى إنه يحق لي بعد هذه الدراسة المطولة، ثم إقرار لجنة المناقشة المباركة لها بالإجماع أن أتجاوز مرحلة تسميتها نظرية لتصبح. . .

«سنة الأمل والرجاء في القرآن الكريم»

وتوصل البحث لمدى أهمية الأمل والرجاء في حياة الأمة مما يوجب المزيد من العناية والاهتمام بشأنهما لتتخلص الأمة من عثراتها وما آلت إليه من حال نكد وخيم، كما أن بذور التغيير عميقة في نفوس أبناء الإسلام، وأنه يكفيها بعض الجهد اليسير من أعيان الأمة ـ حكامها وعلمائها ـ لتنبت سامقة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.





ABSTRACT

Hope and Request in the Glorious Qur'an

«Subject based study»

By: Monjed Ahmad.

Supervisor: Prof. Dr. Abdullah Alsawalmah.

In the name of Allah, the most Gracious, the most Merciful.

Praise be to Allah, the Lord of the worlds, Who says in his Glorious book «There has come to you from Allah Alight and a Plain Book», and peace and blessing of Allah be upon the noblest of the prophets and messengers, our prophet Muhammad who has said, «The best of you is he who learns the Qur'an and teaches it».

It all started in terms of certain assumptions since it came into my mind that the Holy Qur'an makes the «good» hope and request and at the same time fights the «false» hope and request. On the one hand, and after examining the Holy Qur'an intensively, I found the «good» hope and request. on the other hand I found Allah's warning from their opposite, the qualities of each type, their relations with the universe and religion.

The holy Qur'an also gives us many examples on each type confirming them. Consequently, I arrived to the conclusion that they constitute a theory of hope and request in the Holy Qur'an and not just an assumption, All of this will appear by discussing the following study:

Chapter one: hope and request in Arabic and in Qur'anic context, and the related terms:

The first topic: hope and request in the Arabic tongue language .

The second topic: hope and request in the Qur'anic context .

The third topic: the most important words relating to the concepts of hope and request in the Holy Qur'an .

Chapter two: types of hope and request, their properties and a Holy Qur'anic study .

The first topic: the «good» hope and request, and their properties .

The second topic: the «false» hope and request and their properties .

Chapter three: the motives of hope and request in the Holy Qur'an and their relations with the universe and creed. A study for some laws .

The First topic: motives of hope and requests which includes six motives .

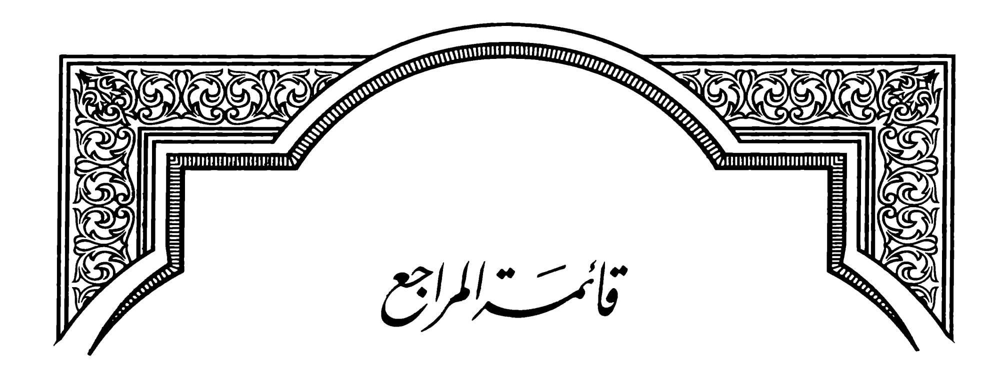
The Second topic: the relations between hope and request with the universe and creed .

Chapter four: the effect of hope and request on human life and some practical applications from the Holy Qur'an and it includes :

The first topic: the effects of hope and request on human life .

The second topic: a practical study of hope and request .





قائمة المراجع

- إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل حسن عباس، دار الفرقان، الأردن، ط٢، ١٩٩٦م.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ). تحقيق عصام الحرستاني، خرج أحاديثه محمد أبو صعيليك، دار الجليل، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي (ت٥٤٣هـ). راجعه محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار الشعب القاهرة، ١٩٨٣م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبـو السعود محمد بن محمد الحنفي العمادي (ت٩٨٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
- أسباب النزول، أبـو الحسن علي بن أحمـد الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ)، بإشراف لجنة تحقيق التراث، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد النمري المعروف بابن عبد البر (ت٤٦٣هـ)، صححه وخرج أحاديثه عادل مرشد، دار الأعلام، ط ١، ٢٠٠٢م.
- الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٧م.
- الإسلام والمرأة المعاصرة، البهي الخولي، دار القلم، الكويت، ط٣.
- أسماء الله الحسنى، محمود عبد الرازق الرضواني، دار العقيدة المصرية، ط بدون.
- الأصنام، هشام بن محمد السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي، الطبعـة الثانية، مطبعـة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ١٩٢٤م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت١٩١٣م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧١م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (ت١٩٣٧م)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٩، ١٩٧٣م.
- الأعلام، أبو الغيثِ خيرُ الدينِ بنُ محمودِ بنِ محمّدِ الزركليُّ الدمشقيُّ (ت١٩٧٤م)، دار العلم للملايين، ط٨، ٢٠٠٢م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الـدين أبـو عبدالله محمـد بن أبي بكر قيم الجوزية (٧٥٢هـ)، تحقيق مشهور حسن، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ط بدون.
- أفراح الروح، سيد قطب بن إبراهيم (ت١٩٧٦م)، دار الشروق للنشر، مصر، ط٤، ١٩٩٧م.
- الإنسان كلاً وعدلاً، جودت سعيد، الحقوق للمؤلف، دمشق، ط٣، ١٩٨٤م.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي ناصر الدين الشيرازي البيضاوي (٧٩١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- أوراق في التجربة اليابانية، شاكر النابلسي، العصر الحديث للنشر، ١٩٩٨م.
- الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣م.
- البحر المحيط، أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي (ت٤٠٠هـ). تحقيق مجموعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- البحر المحيـط، أبـو حيـان محمـد بن يوسف الأندلسي (ت٧٤٥هـ). تحقيـق وتعليـق عادل عبد الموجود، علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي الفاسي المعروف بابن عجيبة (ت١٢٢٤هـ)، تحقيق أحمد عبدالله قرشي، الناشر حسن عباس زكي، ط١، ١٩٩٧م.
- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل المعروف بابن كثير (ت٧٧٤هـ)، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
- البديع، أبو العباس عبدالله بن محمـد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتز (ت٢٩٦هـ)، تحقيق محمد خفاجي، دار الميسرة، بيروت ١٩٨٢م.

- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق عبد العليم الطحاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ط بدون.
- البلاغة فنونها وأفنانها علم المعاني، فضل حسن عباس (ت٢٠١١م رحمه الله تعالى)، دار الفرقان، عمان، ط١، ٢٠٠٤م.
- تاج العروس من جواهر القاموس، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي (ت١٢٠٥هـ)، تحقيق مجموعة، دار الهداية، ط بدون.
- تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت٣١٠هـ). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م.
- تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون.
- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر (٥٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣م)، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٧م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت٧٤١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٥م.
- التفسير اتجاهاته وأساسياته، فضل حسن عباس (ت٢٠١١م رحمه الله تعالى)، دار الفرقان، عمان، ط١، ٢٠٠٨م.
- تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي والمحلي، دار ابن كثير، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل المعروف بابن كثير (٧٧٤هـ). مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، أبو عبدالله محمد بن عمر الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ). دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ٢٠٠١م.
- تفسير الكشاف، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٥٣٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا البغدادي الأصل (ت١٩٣٥م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- التفسير الوسيط، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦م.
- تفسير بحار الأنوار، محمد باقر بن محمد تقي المجلسي (ت١١١١هـ)، المكتب الإعلامي في الحوزة العلمية، قم، ط٢، ١٩٥٥م.
- تفسير سورة النور، أبو الأعلى المودودي. تعريب أحمد إدريس، المختار الإسلامي، القاهرة، ط بدون.
- تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي (ت٦٧٦هـ)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
- تهذيب السنن، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (٧٥٢هـ). تحقيق أحمد شاكر وحامد الفقي، مطبعة أنصار السنة المحمدية، مكتبة المعارف، ٢٠٠٧م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.
- جامع البيان في تفسير آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت٣١٠هـ). ضبط وتعليق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- جامع الرسائل، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني بن تيمية (ت٧٢٨هـ). تحقيق محمد رشاد رفيق، دار العامرية، مصر، ط بدون.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق سالم

البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ٢٠٠٠م.
- جدد حياتك، محمد الغزالي. ، المكتبة الفيصلية، مصر، ط٣، ١٩٩٣م.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (٧٥٢هـ). تحقيق مشهور حسن، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ط بدون.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف المعروف بالثعالبي (ت٧٨٦هـ). مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
- حاشية السندي على ابن ماجه، محمد بن عبد الهادي السندي (١١٣٨هـ). مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٩٨٨م.
- حاشية الشيخ زاده على البيضاوي، محمد بن مصلح الدين الحنفي القوجي. وضع هوامشه محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ط١، ١٩٩٩م.
- حاضر العالم الإسلامي وقضاياه السياسية المعاصرة، محمد عوض الهزايمة. دار عمار، الأردن، ط١، ١٩٩٧م.
- الحبائك في أخبار الملائك، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية، ١٩٨٩م.
- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد. الحقوق للمؤلف، دمشق، ط٢، ١٩٩٤م.
- حضارة العرب، جوستاف لوبون. ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الأعمال الفكرية، ط١، ٢٠٠٠م.
- الحكم العطائية، ابن عطاء الله أحمد بن محمد بن عبد الكريم السكندري (١٣٠٩م). مجموعة زاد الاقتصادية، ط٢، ٢٠٠٤م.
- الحكم العطائية شرح وتحليل، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٧م.
- الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعالم، يوسف العاصي الطويل، مؤسسة القلم العربي المصرية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م.
- الحملة الصليبية وفكرة الحروب الصليبية، جوناثان ريلي. ترجمة قمر فتحي الشاعر، الهيئة

المصرية، ط٢، ١٩٩٩م.
- الحوار في القرآن الكريم في ضوء سورة الأنعام، أحمد محمد الشرقاوي. مركز المخطوطات والتراث في الكويت، ط١، ١٩٩٤م.
- حول تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٥، ١٩٩٥م.
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب بن إبراهيم (ت١٩٦٦م). دار الشروق للنشر، مصر، ط٤، ١٩٩٧م.
- خلق المسلم، محمد الغزالي. المكتبة الفيصلية، مصر، ط٥، ١٩٩٨م.
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي (ت٧٥٦هـ). تحقيق احمد محمد خراط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، دار الفكر، دمشق، ط١ ١٩٩٧م.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي. دار المعارف، ط٤، ١٩٧٧م.
- دع القلق وابدأ الحياة، دايل كارنيجي. دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٩م.
- ديوان ابن برد، أبو معاذ بشار بن برد العقيلي، شرح حسين حموي، دار الجيل، ط١.
- ذيل طبقات الحنفية، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي (ت٧٩٥هـ)، دار إحياء التراث، ط١، ١٩٨٨م.
- الرائد دروس في التربية والدعوة، مازن عبد الكريم الفريج. دار الأندلس الخضراء، جدة، ط٢، ٢٠٠٤م.
- الربا وآثاره الاقتصادية، عبد المجيد دية. جامعة الزرقاء الأهلية، الأردن.
- الرحلة اليابانية ١٩٠٩م، محمد علي باشا. ترجمة علي أحمد كنعان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.
- رسالة في تحقيق التوكل، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني بن تيمية (ت٧٢٨هـ). تحقيق محمد رشاد رفيق، دار العامرية، مصر، ط بدون.
- الرقائق، محمد أحمد الراشد. دار المنطلق، الإمارات، ط٤، ١٩٩٩م.

- روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي. تعليق أحمد عبيد عناية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي الألوسي (ت١٢٧٠هـ)، تحقيق محمد أحمد الأمهر، عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٩م.
- زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ). ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- السلسلة الضعيفة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه (ت٢٧٣هـ). مراجعة صالح بن عبد العزيز بن إبراهيم، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط بدون.
- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ). دار الأفكار الدولية، الأردن، ط١، ٢٠٠١م.
- سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت٢٧٩هـ)، تحقيق أحمد شاكر، الناشر، مصطفى الحلبي، ط٢، ١٩٩٩م.
- سنن الدارمي، أبو عبدالله بن عبد الرحمن (ت٢٥٥هـ). تحقيق حسين سليم الداراني، دار المغني للنشر، ط١، ٢٠٠٠م.
- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى السجستاني البيهقي (٤٥٨هـ). تحقيق محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ط١، ١٩٨٢م.
- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي (ت٣٠٣هـ). تحقيق عبد الغفار سليمان وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- سيرة ابن هشام، أبو محمد عبد الملك المعافري الحميري المعروف بابن هشام (ت٢١٣هـ). ، تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط٢، ١٩٩٥م.
- شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني، رأفت محمد المصري. دار الفاروق، الأردن، ٢٠٠٨م.

- شرح أدب الكتاب، أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن ابن الجواليقي (ت٥٤٠هـ)، تحقيق: د. طيبة حمد بودي، مطبوعات جامعة الكويت، ط١، ١٩٩٥م.
- شرح صحيح مسلم، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي (ت٦٧٦هـ). دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى السجستاني البيهقي (ت٤٥٨هـ). تحقيق عبد العلي عبد الحميد، دار الرشد الرياض، ط بدون.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي. تحقيق مجموعة، دار الفيحاء، الأردن، ط٢، ١٩٨٦م.
- صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ). مراجعة مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ). مراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٤م.
- صحيح وضعيف ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- صحيح وضعيف أبي داوود، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- صحيح وضعيف الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- صحيح وضعيف النسائي، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
- صفوة التفاسير، محمد بن علي الصابوني. دار الصابوني، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- صيد الخاطر، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٠م.
- العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي. مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢٤، ١٩٩٥م.
- العبر وتاريخ المبتدأ والخبر، تاريخ ابن خلدون، أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي المعروف بابن خلدون (ت٨٠٨هـ)، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، ط بدون.

- العبودية المختارة، جودت سعيد. الحقوق للمؤلف، دمشق، ط٢، ١٩٨٨م.
- العلمانية، محمد قطب، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٨م.
- عودة الفجر، محمد أحمد الراشد. دار المنطلق، الإمارات، ط٤، ١٩٩٩م.
- عون المعبود شرح سنن أبي داوود، أبو الطيب محمد أشرف بن أمير المعروف بالعظيم أبادي (ت١٨٩٢م). ، تحقيق مشهور حسن، دار المعارف بالرياض، ط١، ٢٠٠٩م.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني المعروف بابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، مكتبة الرسالة، الأردن، ط١، ١٩٩٧م.
- فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب صديق بن حسن الحسني القنوجي. وضع هوامشه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت١٢٥٠هـ). دار القلم، بيروت، ط بدون.
- فرعون في القرآن، أبو الأعلى المودودي. تعريب أحمد إدريس، المختار الإسلامي، القاهرة، ط بدون.
- الفروق في اللغة، أبو هلال العسكري، الحسن بن عبدالله بن سهل (ت٣٩٥هـ)، تحقيق جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٢م.
- فضائح الفتن، محمد أحمد الراشد. دار المنطلق، الإمارات، ط٤، ١٩٩٩م.
- الفوائد، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الشيخ أبي بكر قيم الجوزية (٧٥٢هـ). تحقيق أحمد محمود خطاب، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ط، ١ ١٩٩٤م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب بن إبراهيم (ت١٩٧٦م). دار الشروق، القاهرة، ط٢٥، ١٩٩٦م.
- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي (ت٨١٧هـ). ضبط يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط٣، ٢٠٠٠م.
- القدوة مبادئ ونماذج، صالح بن عبدالله بن حميد، دار الجيل، ط١، ٢٠٠٠م.
- قصص الأنبياء، أبو الفداء إسماعيل المعروف بابن كثير (٧٧٤هـ). تحقيق صدقي جميل العطار، دار الفكر، ط١، ٢٠٠١م.

- الكامل في التاريخ والمثل السائر، ضياء الدين محمد بن عبد الكريم ابن الأثير (ت٦٣٠هـ). تحقيق عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت ط٢، ١٩٩٣م.
- كليات رسائل النور (اللمعات)، بديع الزمان سعيد النورسي (ت١٩٦٠م)، دار تنوير للنشر والتوزيع، ١٩٩٠م.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي المعروف بالخازن (ت٧٤١هـ)، الدار العامرية، مصر، ط٢، ١٩٩٧م.
- اللباب من علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي (ت٧٧٥هـ). تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري بن منظور (ت٧١١هـ). دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٩٩م.
- لطائف الإشارات، أبو القاسم عبد الكريم بن عبد الملك القشيري (ت٤٦٥هـ). وضع حواشيه عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
- لمسات بيانية لسور القرآن الكريم، فاضل صالح السامرائي. دار عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٤م.
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الحسني الندوي. دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وأمل المستقبل، علي بن نايف الشحود، الموسوعة الشاملة والشبكة العنكبوتية.
- مباحث في علوم القرآن، مناع خليل القطان. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- المبسوط، شمس الدين أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسي، دار المعرفة، ط١، ١٩٧٨م.
- المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد القاضي المالكي الدنيوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق مشهور بن حسن، دار ابن حزم بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، دار الكتب العلمية، مصر، ١٩٩٦م.

- مجلة البيان، العدد (١٨)، المنتدى الإسلامي، الكويت، ١٩٦٧م.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٣م.
- مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم الحراني بن تيمية (ت٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.
- مجموعة رسائل الإمام حسن البنا، حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا (ت١٩٤٩م). دار الحضارة الإسلامية، ط بدون.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق المعروف بالقاسمي (ت١٩١٤م)، ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء العربية، مصر، ١٩٥٧م.
- المحاسن والأضداد، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ). طبعة الخانجي ١٣٢٤هـ، دار مكتبة العرفان، بيروت.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقم، ١٩٩٩م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، القاضي أبو محمد عبد الحق الأندلسي المعروف بابن عطية (ت٥٤٦هـ). تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- المحيط في اللغة، كافي الكفاة الصاحب إسماعيل بن عباد (ت٣٨٥هـ)، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ط١، ١٩٧٥م.
- مدارج السالكين في شرح منازل إياك نعبد وإياك نستعين، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر قيم الجوزية (٧٥٢هـ). تحقيق محمد بيومي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ١٩٩٩م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي (ت٧١٠هـ). تحقيق زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبدالله محمد بن عبدالله النيسابوري المعروف بالحاكم (ت٤٠٥هـ). تحقيق مقبل بن هادي الوادعي، دار الحرمين، مصر، ١٩٩٥م.

- المستقصى في أمثال العرب، أبو القاسم جاد الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (٥٣٨هـ). دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- المسند، أحمد بن حنبل بن هلال الشيباني (ت٢٤١هـ)، حكم على الأحاديث شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط بدون.
- معالم التنزيل، أبو محمد الحسن بن مسعود البغوي (ت٥١٠هـ). تحقيق محمد عبدالله النمر وآخرين، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٩٩٧م.
- معجم العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (ت١٧٠هـ). تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مطبعة بغداد، ط١، ١٩٨٦م.
- المعجم الكبير، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ)، تحقيق حمدي عبد الحميد السلفي، مكتبة ابن تيمية، مصر، ١٩٩٨م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي. مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٥٨م.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى. تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، ط٢.
- المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، دار الدعوة، تركيا، ط٢، ١٩٨٩م.
- معجم كلمات القرآن الكريم، محمد زكي خضر، ط١، ١٩٩٥م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ).، تحقيق شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.
- مفاهيم ينبغي أن تصحح، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٨م.
- مفردات ألفاظ القرآن الكريم، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ)، تحقيق صفوان داوودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
- المفصل في شرح آية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، علي بن نايف الشحود، الموسوعة الشاملة والشبكة العنكبوتية.
- من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، محمد محمد أبو موسى. مكتبة وهبة، ط٢، ١٩٩٦م.

- من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله. دار الملاك، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بـ (الخطط المقريزية)، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ). تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، دار مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.
- الموت في الفكر الإسلامي، عبد الحي الفرماوي. دار وهبة، القاهرة، ط بدون.
- الموت في الفكر الغربي، جاك شورن. ترجمة كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، العدد ٧٦، ١٩٨٤م.
- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي. منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م.
- النبأ العظيم، محمد عبدالله دراز. دار القلم، الكويت، ١٩٨٠م.
- النشر في القراءات العشر، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي المعروف بابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، تقديم علي محمد الصباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبو الحسن إبراهيم بن عمر الرباط البقاعي (ت٨٨٥هـ). ، دار المعارف، الهند، ط٢، ١٩٧١م.
- النكت والعيون، أبو الحسن محمد بن محمد حبيب البصري الماوردي (ت٤٥٠هـ). دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٠م.
- هل نحن مسلمون، دار الشروق، ط٢، ٢٠٠٨م.
- الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية، محمد صدقي أحمد الغزي البرونو، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط بدون.
- الوحي المحمدي، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين البغدادي الأصل (١٩٣٥م). دار المنار، ط٥، ١٩٤٨م.
- ولا يأتون بمثله، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٩م.
- اليسر ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية، مازن مصباح. جامعة الأزهر، غزة.





فهرس الموضوعات

